

مجلة البحوث والدراسات

دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادي



العدد التاسع - السن الثامن - محرم 1431 هـ - يناير 2010 م

ISSN 1112 - 4958



منشورات المركز الجامعي بالوادى

مجلة

البحوث والدراسات

دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادى

العدد التاسع - السنة السابعة : محرم 1431 هـ / يناير 2010 م

ISSN 1112 - 4958

المدير العام

د. عز الدين حفظاري

رئيس التحرير

د. إبراهيم رحمانى

لجنة التحرير

د. عادل محلو

أ. المكي دراجي

أ. محمد السعيد عقيب

أ. عبد القادر حوبه

د. أحمد زغب

د. عبد الرحمن تركي

د. محمد رشيد بوغزالت

د. إسماعيل لعيس

توجه جميع المراسلات إلى :

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات - المركز الجامعي بالوادى

حي النور - ص . ب : 789 الوادى 39000 الجزائر .

تلفاكس : 032 21 71 03 أو : 032 22 30 03

Email : Bouhouth_d @ yahoo.fr

أعضاء الهيئـة العلمـية الاستشارية

- | | |
|---|---|
| <p>أ.د. أبو بكر لشهب
(جامعة الوادي)</p> <p>أ.د. أحمد بن ناصر
(جامعة الجزائر)</p> <p>د. آدم قبيبي
(جامعة ورقلة)</p> <p>د. بشير بن عيشي
(جامعة بسكرة)</p> <p>أ.د. صالح العلي
(جامعة دمشق - سوريا)</p> <p>أ.د. محمد بوعمامة
(جامعة باتنة)</p> <p>أ.د. مسعود مزهودي
(جامعة باتنة)</p> <p>أ.د. عبد الله بوخلخال
(جامعة الأمير عبد القادر)</p> <p>د. علي قرشي
(جامعة باتنة)</p> <p>د. عبد القادر دامخي
(جامعة باتنة)</p> <p>أ.د. فيصل بن حليو
(جامعة قسنطينة)</p> <p>أ.د. محمد حمزة بن قرينة
(جامعة ورقلة)</p> <p>أ.د. محي الدين مختار
(جامعة ورقلة)</p> <p>د. موسى رحمانني
(جامعة بسكرة)</p> <p>أ.د. علي آجقو
(جامعة بسكرة)</p> <p>د. محمد الطاهر بوياية
(جامعة عنابة)</p> | <p>أ.د. إبراهيم سعد الله
(جامعة الوادي)</p> <p>أ.د. إبراهيم بختي
(جامعة ورقلة)</p> <p>أ.د. أحمد جلايلي
(جامعة ورقلة)</p> <p>أ.د. الطاهر سعد الله
(جامعة الوادي)</p> <p>أ.د. راسم مسير الشمري
(جامعة بابل - العراق)</p> <p>أ.د. كمال عجالي
(جامعة باتنة)</p> <p>أ.د. محمد زغداوي
(جامعة قسنطينة)</p> <p>أ.د. الأمين شريط
(جامعة قسنطينة)</p> <p>أ.د. الهاشمي لوكيا
(جامعة قسنطينة)</p> <p>أ.د. صالح مفقوده
(جامعة بسكرة)</p> <p>أ.د. عمر سعد الله
(جامعة الجزائر)</p> <p>أ.د. محمد الناصر بوغزالة
(جامعة الجزائر)</p> <p>أ.د. محمد خان
(جامعة بسكرة)</p> <p>أ.د. محمد ملياني
(جامعة وهران)</p> <p>د. أبو بكر بحري
(جامعة الطارف)</p> <p>د. عبد العزيز دادي
(جامعة قسنطينة)</p> |
|---|---|

قائمة المحتويات

مجلة البحوث والدراسات : العدد التاسع . السنة السابعة

محرم 1431 هـ / يناير 2010 م

الموضوع	رقم الصفحة
□ افتتاحية العدد :	
بقلم رئيس التحرير : د. إبراهيم رحمانى	08
□ التخرج عند الفقهاء والأصوليين = اجتهاد » دراسة في أهمية علم التخرج، شروطه ومجالاته «.	
بقلم : أ.د. أبو بكر لشهب (المركز الجامعي بالوادي)	09
□ روما وسياسة الرومنة في شمال إفريقيا » بلاد المغرب نموذجا «.	
بقلم : أ.د. بلقاسم رحمانى (جامعة الجزائر)	29
□ الدور الاستراتيجي لوادي سوف في تجميع السلاح للثورة التحريرية - بقلم : د. علي غنابزيّة (المركز الجامعي بالوادي)	41
□ دور منطقتي وادي ريغ ووادي سوف في دعم وتموين منطقة الأوراس قبيل وخلال الثورة التحريرية.	
بقلم : أ. رضوان شافو (المركز الجامعي بالوادي)	59
□ النمو السكاني وعلاقته بالبيئة » مع الإشارة لحالة الجزائر «.	
بقلم : د. وصاف سعدي وأ. خولّة مرداسي (جامعة ورقلة)	73
□ إستراتيجية التنمية الإدارية في الفكر الإداري (الكلاسيكي والحديث) - رؤية نقدية -	
بقلم : د. الطاهر الإبراهيمي وأ. سليمة بوزيد (جامعة بسكرة)	89
□ دور تسيير الموارد البشرية في خلق القيمة.	
بقلم : أ. هاشمي عباسية (جامعة بسكرة)	113
□ دور الأمم المتحدة في مكافحة جريمة تبييض الأموال	
بقلم : د. علي قصير (جامعة باتنة)	129

☐ ضرورة تدعيم قرينة البراءة في إجراءات القبض في القانون الجزائري.

بقلم : أ. عادل مستاري وأ. يودوح ماجدة شاهيناز (جامعة بسكرة) 141

☐ التغير الثقافي في المجتمع الصحراوي
« وادي سوف نموذجا »

بقلم : أ. د. حسان الجيلاني (جامعة بسكرة) 155

☐ العلاقة بين المنظومة التربوية والتنمية في الجزائر.

بقلم : أ. عبد الباسط هويدي (المركز الجامعي بالوادي) 179

☐ دور مكاتب الأطفال في عصر المعلومات.

بقلم : د. أحمد علي (جامعة دمشق) 189

☐ التركيب اللغوي في قصيدة : " ليلي المقدسية مهري بندقية "
للشاعر مصطفى الغماري - دراسة في الوظيفة التداولية -

بقلم : د. بلقاسم دفه (جامعة بسكرة) 215

☐ دلالية النبض في القصيدة الشعبية.

بقلم : د. علي بولنوار (جامعة المسيلة) 225

☐ الصورة الشعرية في لزوميات أبي العلاء المعري.

بقلم : أ. محمد مشعالة (جامعة باتنة) 237

☐ مداخل العربية إلى عصر العولمة.

بقلم : د. عادل محلو (المركز الجامعي بالوادي) 253

☐ بنية الإيقاع في المجموعة الشعرية « الكتابة بالنار » لعثمان لوصيف.

بقلم : أ. أحمد بقرار (جامعة ورقلة) 271

ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه، ولا يمثل بالضرورة رأي المجلة.

يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط بترتيب الباحث ولا بمكانته العلمية.

قواعد النشر فاع المجلة

- ترحب المجلة بكل إسهامات الأساتذة والباحثين ، ويشترط في البحوث والدراسات المرشحة للنشر بالمجلة ما يأتي:
- ❖ المعالجة الموضوعية وفق الأسلوب العلمي الموثق .
- ❖ الالتزام بأصول البحث العلمي وقواعده العامة والأعراف الجامعية في التوثيق الدقيق لمواد البحث .
- ❖ أن تكون الهوامش في آخر البحث متضمنة إعطاء معلومات بليوغرافية كاملة .
- ❖ تقدم البحوث مكتوبة على جهاز الحاسب الآلي مطبوعة من ثلاث نسخ مرفقة بنسخة على قرص مرن مع مراعاة التصحيح الدقيق في جميع النسخ .
- ❖ وضع ملخص بالعربية وآخر بالفرنسية أو الإنجليزية لا يتعدى الواحد خمسة أسطر .
- ❖ أن يرفق الباحث بموضوعه ورقة متضمنة التعريف به وبدرجته وإنتاجه العلمي، وكذا عنوانه البريدي والالكتروني إن وجد، ورقم هاتفه .
- ❖ أن يقر الكاتب أن البحث أو المقال لم يسبق نشره أو أرسل للنشر في مجلات أخرى .
- ❖ تخضع المواد الواردة للتحكيم السري بتوجيه من الهيئة العلمية الاستشارية للمجلة .
- ❖ يجري إعلام الكتاب بقرار التحكيم وتوصية هيئة التحرير، ولا نعداد المواد المعتذر عن نشرها لأصحابها .

توجه جميع المراسلات إلى العنوان التالي :

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات

المركز الجامعي بالوادي

حي النور - ص . ب : 789 الوادي 39000 الجزائر .



افتتاح العدد:

تواصل مسيرة مجلة البحوث والدراسات بالمركز الجامعي بالوادي بعددها التاسع في عامها السابع، والأمل يحدو من كانوا سببا في وجودها واستمرارها أن تخطو بثبات نحو الأمام، من خلال توسيع دائرة انتشارها في المؤسسات الأكاديمية، ومن ثم مساهمة أعداد أوفر من الباحثين في شتى حقول المعارف الإنسانية، لتفعيل البحث العلمي وطرح نتائجه في متناول القراء والمتخصصين، ليكون مادة ميسرة للتحليل والمناقشة والدراسة فتزداد المعارف عمقا وإثراء .

إننا لا نخفي سرا إن قلنا بأن مصاعب عدة اعترضت سبيلنا ولا تزال لمواصلت إصدار هذه الدورية، وقد أعاققت طموحنا لتحويل هذا الإصدار لسلسلة متخصصة، وكذا تدعيمها بكتاب ملحق بشكل دوري يفتح آفاقا بحثية أعمق، ويوصل صوت الباحث إلى خارج مدرجات الجامعة .. إلى جامعات أخرى وإلى مختلف دوائر المعرفة والمحيط الثقافي الوطني والخارجي .

ومع كل المصاعب فقد عزمنا منذ أن تطوعنا بإنشائها ولا نزال نتابع المسيرة بأن نبذل قصارى الجهد لدعم هذا الإصدار، والحرص على الالتزام بالخط العلمي الأكاديمي بكل موضوعية، والاستعانة بنخبة من المتخصصين في مختلف العلوم ممن أبدوا رغبتهم في التعاون العلمي مع المجلة .

إننا نشد على أيدي الباحثين لمزيد من الجهد والتحقيق والتدقيق، فإن الصفحات المنشورة ستبقى بحول الله وقوته وثيقة شاهدة على صاحبها وعلى موضوعها ما بقي الليل والنهار، فلتكن في مستوى التطلعات، فإن لم تلق عند الناس مكانها اللائق فإنها عند الله في المقام الأرفع، وفي الآخرة الرصيد الأنفع . والتاريط شاهد لنا أو علينا .

نسأل الله عز وجل التوفيق في القول والعمل . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رئيس التحرير

الدكتور إبراهيم رحمانى

التخريج عند الفقهاء والأصوليين = اجتهاد

دراسة في أهمية علم التخريج، شروطه، وهجالاته.

بقلم

أ. د / أبو بكر لشهب

معهد العلوم القانونية والإدارية - المركز الجامعي بالوادي



مملخص

سئل أحد علماء المالكية عن اختيارات الأصحاب المتأخرين كاللخمي وغيره هل تحكى أقوالا في المذهب ؟ قال: نعم، يحكى ذلك قولاً في المذهب، كما يحكى قول من تقدم من الفقهاء قولاً في المذهب، وهذا الرأي على سبيل النظر؛ لأنه رأى أن كل جواب بني على أصول مذهب مالك وطريقته والمفتى به في المذهب فيصح أن تضاف هذه الأقوال إلى المذهب وتعد منه. ونحن في هذه الورقة نتناول وبالإضافة إلى ذلك اعتماد التخريج منها للإفتاء في النوازل .

Abstract

A malekia scientist was asked about the choices of latercomers as : El-lakhmi, had it been considered as opinions in the doctrine ? He said : yes, it had. This opinion is for consideration, because he believed that every answer was based on the malek's doctrine, and this owner, it considers as adjoining opinions . we refer in this paper the adoption of " takhrij " as an approach of advisory opinion in chaos.

تمهید

تخريج الأصول من الفروع، يعرفه البعض بـ : استخلاص القواعد التي التزامها الأئمة السابقون، وجميع الضوابط الفقهية التي تتكون من الأقيسة التي استخرجوها⁽¹⁾، ويعرفه البعض بأنه : الكشف عن أصول الأئمة، وقواعدهم من خلال فروعهم الفقهية، وتعليقاتهم للأحكام؛ للحكم في واقعة جديدة بالرجوع إلى قواعدهم وأصولهم، وباتباع مناهجهم .

- تعامل مع نصوص الأئمة المجتهدين وأفعالهم وتقريراتهم من حيث دلالتها على المعاني الرابطة بينها، والعلاقات التي تجمعها، والدوافع المؤدية إلى الأخذ بتلك الآراء منهم، بهدف الوصول إلى القواعد التي بنوا عليها الأحكام.

- فهم وتحديد العلاقات الموجودة بين الفروع وضبطها بعد الفهم السليم، والدراية التامة بالتعليلات، في ضوء أصول عامة وقواعد جامعة، ومناهج محددة .

- جهده ينتظر منه الوصول إلى أحكام لم ينص عليها الإمام، ثم الحكم عليها بقواعده، ومن خلال فروعه من غير خروج على منهجه .

ولا يقدر المجتهد على تحقيق ما يصبو إليه، وما يُطلب منه، إلا بملكة فقهية، يرجح بها بين الآراء والأدلة ثم يفرع عنها انطلاقا من القواعد والأصول، أو باستقراء الفروع، ثم يحكم على - وفي - النوازل الطارئة المستجدة، ربطا بين الأصول والفروع، تحقيقا لاستمرار الشريعة من المكلفين .

فالمخرَج بهذا المفهوم مجتهد، والمجتهد مخرَج، السبب الذي يجعل من اشتراط التخريج في المجتهد واجبا وتأكيده في الفقرات الموالية .

القدرة على التخريج شرط للاجتهاد .

* اعتبر الدهلوي الطبقة الثانية من طبقات المجتهدين: المتمكنون من تخريج الأحكام على نصوص إمامهم⁽²⁾، وأشار إليه أبو زهرة في الطبقة الثانية من المخرجين بقوله: طبقة المخرجين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب.

* وذكر ابن الصلاح الطبقة الثانية من المجتهدين - المفتين - أن يكون عالما بالفقه خبيراً بأصول الفقه، عارفاً بأدلة الأحكام تفصيلاً بصيراً بمسائل الأقيسة والمعاني تام الارتياح في التخريج والاستنباط قِيماً بالحق ما ليس بمنصوص عليه في مذهب إمامه بأصول مذهب وقواعده⁽³⁾، وسماه السيوطي بـ: مجتهد التخريج⁽⁴⁾

* وعده ابن القيم في المرتبة الثانية فيمن نصبوا أنفسهم للفتوى: المجتهد المقيد في مذهب من ائتم به⁽⁵⁾.

ويمكن اختصار ما يشترط فيه:

أولاً. الشروط المتصلة بشخص المجتهد المخرج :

أن يكون كامل القوى العقلية، بالغاً عاقلاً، مؤمناً بشريعة الإسلام، ذكي بالطبع، مستعد بالفطرة إلى بلوغ درجة الاجتهاد، حتى يفهم مقاصد الكلام ليصل إلى فهم

وإدراك مقاصد الأحكام الشرعية، متصف بالعدالة، متجنب الكبائر دائماً، متقياً الصغائر في غالب الأحوال، مبتعداً عن البدعة ملتزماً السنة، قليل أو نادر الغفلة، شديد الانتباه.

ثانياً - الشروط المتصلة بعلمه:

القدرة على فهم وتحليل خطاب الشارع العربي باللغة العربية، عالماً بالتفسير، والأخبار وأسانيدھا والحكم عليها، ملماً بمواقع الإجماع، ومواضيع القياس وكيفيات النظر والاستدلال، ملماً بطرق ووسائل الاستنباط الصحيح من الأدلة .
والمخروج طبقة من طبقات المجتهدين، ودرجة من درجات المفتين، ومن خصوصيات الفتوى أنها تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال، لهذا فإنه لا بد للمشتغل بالتخريج من العلم بالخلاف .

العلم بالخلاف وأسبابه والجائز منه والممنوع:

الاختلاف نقيض الاتفاق، وكل ما لم يتساو فقد اختلف⁽⁶⁾، وفرق ابن عابدين بين الخلاف والاختلاف، فما بني على دليل: اختلاف، والخلاف: مالا دليل له، وذهب التهانوي إلى أن القول المرجوح في مقابلة الراجح خلاف ولا يسمى اختلافاً، وحقق الإمام الشاطبي في الفرق بينهما⁽⁷⁾، والذي نعينه هنا ما كان في مقابلة الراجح من حكم أو دليل مرجوح، لأن ما لا دليل له وصفه بالبطلان أو الفساد أولى؟ وليس كل تعارض بين قولين اختلافاً حقيقياً⁽⁸⁾.

والخلاف في الفروع حتمية وواقع لا يمكن إنكاره؛ نظراً لاختلاف العقول في قوة الاستنباط أو ضعفها، وإدراك الأدلة أو عدم إدراكها، ولوضوح المعاني أو غموضها، والذي يفسر النص الشرعي هو العقل في حدود اللغة، والناس في هذا متفاوتون.

وسعة العلوم الشرعية التي يتوقف عليها الاستنباط يوسع من دائرة الخلاف، ويؤكد حتمية وقوعه، وخاصة أن تنزيل أي حكم يختلف باختلاف البيئة، فهذا الإمام الشافعي يفتي بالقديم في العراق، وبالجدید في مصر، وفي البيتين يتحرى الحق، ويفتي بما اطمأن إليه.

وهكذا كل عالم قد يطمئن إلى دليل لتعديل روايه أو عدم انجلاء ما يطعن فيه من الأدلة، ولا يكون كذلك عند غيره، وقد يقدم دليلاً على آخر لقوته واعتقاده ضعف غيره، في حين يذهب غيره إلى عكس ما ذهب إليه لظهور أسباب عنده لم تتضح لغيره.

. والحكم في كل ذلك قابلية الدليل لما ذهب إليه كل عالم.

والالتزام الآداب والضوابط حتمية شرعية واجتماعية؛ فإله سبحانه وتعالى كما
 ذم - الاختلاف في العقائد والأصول -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ
 فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾⁽⁹⁾، وقال أيضا: ﴿وَلَا تَكُونُوا
 كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁽¹⁰⁾.

قرّر من جهة أخرى بأن الخلاف ظاهرة إنسانية، وآية من آياته تعالى في الكون،
 قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ الْبَشَرِ وَالْوَحْيِ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾⁽¹¹⁾ وقال أيضا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا
 يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾⁽¹²⁾.

فالاختلاف في العلم والفهم والذكاء والمدارك العقلية... الخ مظهر - وضرورة -
 حتمية ملازمة للحياة الإنسانية العلمية مرتبط بالاجتهاد، وإنكاره مكابرة، والتوسع
 فيه ذريعة يجب ضبطها، وآداب التعامل معه حتمية يجب التحلي بها⁽¹³⁾، ومرد
 الخلاف إلى أسباب خمسة:

أولها: اختلاف العقول .

ثانيها: سعة العلوم الشرعية، ومرونتها (نصوص، قواعد، وضوابط).

ثالثها: اختلاف البيئة (والأعراف والعادات).

رابعها: اختلاف في الاطمئنان إلى الدليل أو راويه.

خامسها: اختلاف في تقدير الدلالة.

كل اختلاف مرده إلى هذه الأسباب، مشروع ومعقول ومقبول، وإنكاره مخالفة
 لسنة كونية ثابتة، وحكم شرعي مستقر، والتعامل معه يكون وفق الآداب الشرعية،
 مدار ذلك على عقل قادر على التشريع وتنزيل الأحكام .

والتخريج كما يكون برّد الفروع إلى أصول المذهب، أو بالتفريع على الأصول
 يكون بالقياس وبيان وجه الشبه بين ما نص عليه الإمام وما لم ينص عليه، ويكون
 أيضا بالخروج من الخلاف أو ببيان الراجح، والتأكد من نسبة الأصول والقواعد
 والفروع لأصحابها .

إذ ليس كل منسوب إلى أئمة الفقه من قواعد أصولية أو مسائل فروعية هو من
 قولهم صراحة، فقد تكون مسائل مخرجة من نصوصهم أو فروعهم الفقهية، أو
 مفرعا انطلاقا من أصولهم وقواعدهم، فقد يخرج المجتهد فروعاً جديدة في
 مذهب إمامه قياساً وتشبيهاً لها بفروع أخرى، من باب إلحاق النظير بنظيره .

ويستنبط المجتهد من فروع إمامه أصولاً وقواعد عامة ينسبها إلى الإمام وهي في الأصل مخرجة عن فروع الإمام.

قال الدهلوي: "وقد وجدت بعضهم يزعم أن جميع ما يوجد في هذه الفروع الطويلة وكتب الفقه الضخمة، هو قول أبي حنيفة وصاحبيه، ولا فرق بين القول المخرج وبين ما هو قول أبي حنيفة، وهناك فرق بين قول أحدهم: قال الإمام، وبين قولهم: وجواب المسألة على مذهب الإمام أو أصله أو الأشبه هي قواعده، والحق أن أكثر المسائل المذكورة في الكتب المطولات من أصول مخرجة على قولهم⁽¹⁴⁾.

التفريق بين القواعد الفقهية والقواعد الأصولية شرط للتخريج:

علم الفقه وعلم أصول الفقه علمان مرتبطان ارتباط الفرع بأصله، والجزء بالكل، وكيف لا يكون ذلك وأحدهما أصل والآخر فرع له، كأصل الشجرة وفرعها، فالأصولي ينبغي أن يكون فقيهاً، والفقيه ينبغي أن يكون أصولياً وإلا كيف يمكنه استنباط الحكم من الدليل؟ وكيف يكون مجتهداً من لم يتبحر في علم الأصول؟ وكيف يخرج من لا يضبط العلاقة الترابطية بين الاثنين، ويحدد القواعد الجوامع في الاثنين؟

ومع ذلك يمكن القول: إنهما علمان متميزان؛ فأحدهما مستقل عن الآخر من حيث موضوعه واستمداده وثمرته والغاية من دراسته.

وبالتالي فإن قواعد كل علم منهما تتميز عن قواعد الآخر تبعاً لتمايز موضوع العلمين؛ فموضوع علم أصول الفقه هو أدلة الفقه الإجمالية والأحكام وما يعرض لكل منهما، وأما موضوع علم الفقه فهو أفعال المكلفين وما يستحقه كل فعل من حكم شرعي علمي. وبالتالي فإن قواعد علم أصول الفقه تفتقر وتتميز عن قواعد علم الفقه.

وأول من فرق بين قواعد هذين العلمين وميّز بينهما: الإمام شهاب الدين القرافي في مقدمة كتابه - الفروق - حيث قال: أما بعد فإن الشريعة المعظمة المحمدية زاد الله منارها شرفاً وعلواً اشتملت على أصول وفروع، وأصولها قسمان: أحدهما المسمى بأصول الفقه، وهو في غالب أمره ليس فيه إلا قواعد الأحكام الناشئة عن الألفاظ العربية خاصة، وما يعرض لتلك الألفاظ من النسخ والترجيح ونحو: الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، والصيغة الخاصة للعموم ونحو ذلك، وما خرج عن هذا النمط إلا كون القياس حجة وخبر الواحد وصفات المجتهدين.

والقسم الثاني : قواعد كلية فقهية جلية كثيرة العدد عظيمة المدد مشتملة على أسرار الشرع وحكمه، لكل قاعدة من الفروع من الشريعة ما لا يحصى، ولم يذكر منها شيء في أصول الفقه وإن اتفقت الإشارة إليه هنالك على سبيل الإجمال فبقي تفصيله لم يتحصل، وهذه القواعد مهمة في الفقه عظيمة النفع - إلى آخر ما قال⁽¹⁵⁾.

وقال في موضع آخر: إن القواعد ليست مستوعبة في أصول الفقه بل للشريعة قواعد كثيرة جدا عند أئمة الفتوى والفقهاء لا يتوجب في كتب أصول الفقه أصلاً⁽¹⁶⁾.

وإذا دققنا النظر في قواعد الأصول وقواعد الفقه لرأينا أن فروقا عدة تميز بينهما منها:

1. إن قواعد الأصول إنما تتعلق بالألفاظ ودلالاتها على الأحكام في غالب أحوالها، وأما قواعد الفقه فتتعلق بالأحكام ذاتها.
2. إن قواعد الأصول إنما وضعت لتضبط للمجتهد طرق الاستنباط واستدلالة وترسم للفقيه مناهج البحث والنظر في استخراج الأحكام الكلية من الأدلة الإجمالية، وأما قواعد الفقه فإنما تتراد لتربط المسائل المختلفة الأبواب برباط متحد ورباط واحد هو الحكم الذي سبقت القاعدة لأجله.
3. إن قواعد الأصول إنما تبني عليها الأحكام الإجمالية وعن طريقها يستنبط الفقيه أحكام المسائل الجزئية من الأدلة التفصيلية. وأما قواعد الفقه فإنما تعلق بها أحكام الحوادث المتشابهة وقد تكون أصلاً لها.
4. إن قواعد الأصول محصورة في أبواب الأصول ومواضعه ومسائله، وأما قواعد الفقه فهي ليست محصورة أو محدودة العدد بل هي كثيرة جدا مثورة في كتب الفقه العام والفتوى عند جميع المذاهب، ولم تجمع إلى الآن في إطار واحد.
5. إن قواعد الأصول إذا اتفق على مضمونها لا يستثنى منها شيء فهي قواعد كلية مطردة. كقواعد العربية - بلا خلاف.

وأما قواعد الفقه فهي مع الاتفاق على مضمون كثير منها يستثنى من كل منها مسائل تخالف حكم القاعدة بسبب من الأسباب كالاستثناء بالنص أو الإجمال أو الضرورة أو غير ذلك من أسباب الاستثناء ولذلك يطلق عليها كثيرون بأنها قواعد أغلبية أكثرية لا كلية مطردة.

ومع وضوح الفروق بين القواعد الأصولية والقواعد الفقهية فقد نجد قواعد مشتركة بين العلمين ولكن تختلف فيهما زاوية النظر؛ حيث إن القاعدة الأصولية

ينظر إليها من حيث كونها دليلاً إجماليا يستنبط منه حكم كلي، والقاعدة الفقهية الكلية ينظر إليها من حيث كونها حكماً جزئياً لفعل من أفعال المكلفين.

فمثلاً قاعدة: (الاجتهاد لا ينقض بمثله أو بالاجتهاد) ينظر إليها الأصولي من حيث كونها دليلاً يعتمد عليه في بيان عدم جواز نقض أحكام القضاة وفتاوى المفتين إذا تعلقت بها الأحكام على سبيل العموم والإجمال.

وينظر إليها الفقيه من حيث تعليل فعل من أفعال المكلفين فيبين حكمه من خللها، فإذا حكم حاكم أو قاض بنقض حكم في مسألة مجتهد فيها كالخلع هل هو فسخ للعقد أو طلاق، وقد كان حكم حاكم في مسألة بعينها بأن الخلع فسخ وأجاز العقد على امرأة خلعه زوجها ثلاثاً أو بعد طلقتين، ثم جاء حاكم آخر فأراد التفريق بين الزوجين؛ لأنه يرى أن الخلع طلاق فيقال له: لا يجوز ذلك لأن الاجتهاد لا ينقض بمثله.

ولكن لك في مسألة أخرى مشابهة أن تحكم فيها باجتهادك لا أن تنقض حكمك أو حكم غيرك في مسألة اجتهادية لا نصية، ولك أن تخرج قولاً آخر على ما قيل انطلاقاً من القواعد، وباعتبار الملابس.

فكثير من فروع الأئمة وأصولهم، إنما هي مخرجة عن مسائلهم الفرعية. كما أن جل أصولهم مخرجة في الواقع عن مسائلهم الفرعية.

تعريف التخريج:

من جهة اللغة: هو النفاذ من الشيء والظهور؛ لأن التخريج عملية نفاذ للفرع من دليله، وإظهار له بعد أن كان مختفياً فيه، بواسطة القواعد الأصولية⁽¹⁷⁾.

وعند الفقهاء والمحدثين معناه الاستنباط، ويطلقونه ويريدون به غالباً أحد أمرين:

الأول: تخريج الفروع على الأصول.

الثاني: تخريج الفروع على الفروع.

1 - تخريج الفروع على الفروع: الأصول قواعد، والفروع أحكام عملية، مستنبطة من أدلتها التفصيلية، فتخريج الفروع على الأصول، استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، بواسطة القواعد الأصولية⁽¹⁸⁾.

2 - تخريج الفروع من الفروع: ويعرف هذا النوع من التخريج، بالتخريج على نص الإمام، وقد عرف "بأنه نقل حكم مسألة إلى ما يشبهها، والتسوية بينهما فيه" أو أنه استخراج حكم مسألة من مسألة أخرى منصوصة عن الإمام⁽¹⁹⁾.

قسم ثالث: وهو بناء الأصول على الفروع، وهو ما يسمى التأصيل أو التأسيس وهو استنباط القواعد الأصولية التي لم يصرح بها الإمام من خلال الفروع المنقولة عنه.

1 - بناء الفروع على الأصول : كتب الفروع من الطراز العالي لا يكفي بعرض المسائل الفقهية بطريقة تقنية على منهج المختصرات؛ بل تربط الفروع بأصولها من كتاب وسنة وإجماع وقياس، وغير ذلك من القواعد الأصولية، التطبيقية البعيدة عن التجريد والجدل.

من القواعد الأصولية المتعلقة بالمصادر المتفق عليها، حجية القراءة، والمتعلقة بالمصدر الأول وهو الكتاب، ومسائل النسخ، مثل هل الزيادة على النص نسخ أم لا ؟ فالحنفية يذهبون إلى أن الزيادة على النص نسخ بشروط، والجمهور يخالفونهم في ذلك، وفي المسألة تفصيل .

ومن الفروع التي انبنت على هذه القاعدة، اختلافهم في القضاء بالشاهد الواحد ويمينه في بعض الحقوق والأموال⁽²⁰⁾.

فأبو حنيفة تمسك بقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمْرَتَانِ ﴾⁽²¹⁾. وأوجب الاختصار على المذكور في القرآن، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره : « أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد »⁽²²⁾ إذ جاء بخلاف النص القرآني وسلم من القدح فيه باحتمال لفظه، وأن القضية لم تنتقل صيغتها فإن ذلك زيادة على النص، والزيادة على النص نسخ، والنسخ لا يكون بأخبار الأحاد.

أما الجمهور فيقبلون الشاهد مع اليمين في الأموال، ويرون أن الزيادة على النص لا تكون نسخاً في كل المواضع، وهذا من المواضع التي لا تكون فيها نسخاً.

فالخلاف بين الجمهور والحنفية في القضاء بشاهد ويمين مبني على قاعدة أصولية وهي: الزيادة على النص هل هي نسخ أم لا ؟⁽²³⁾

اختلف أهل الأصول في النسخ إذا ورد، متى يتحقق حكمه على المكلف حين وروده إلى النبي ﷺ أو حين بلوغه إلى المكلف ؟⁽²⁴⁾. ذهب القاضي أبو يعلى إلى أن الناسخ إذا نزل ولم يبلغ المكلف فلا يكون نسخاً في حقه، وهو ظاهر مذهب أحمد وإليه ذهب إمام الحرمين والغزالي في المستصفى وابن الحاجب في المنتهى، وهو قول الجمهور⁽²⁵⁾.

وذهب البعض إلى أنه يثبت النسخ في حق من لم يبلغه الناسخ، ويقصدون بذلك لزوم القضاء، وبذلك قال أبو الخطاب، وهو مذهب بعض الشافعية وبه قال الشيرازي في التبصرة ورجع عنه في اللمع⁽²⁶⁾.

وردوا إلى مسألة النسخ المتقدمة، مسألة الخلاف في الوكيل إذا تصرف بعد عزله، ولم يعلم بذلك. فقالوا على القول بأن حكم النسخ لازم حين وروده ينبغي أن لا تمضي أفعاله بعد العزلة، وإن لم يبلغه ذلك. وعلى القول الثاني تكون أفعاله ماضية ما لم تبلغه العزلة.

وبالثاني قال بعض أهل العراق، وللمالكية والشافعية في ذلك قولان،⁽²⁷⁾ وقد نقل في الفتاوى الهندية عن الحنفية تفصيلاً في المسألة، ثم قال: « وإن عزله الموكل وأشهد على عزله وهو غائب ولم يجبره بالعزل أحد لا يعزل، ويكون تصرفه قبل العلم بعد العزل كتصرفه قبل العزل في جميع الأحكام »⁽²⁸⁾.

فمسألة عزل الموكل قبل علمه مبنية على نسخ، وعدم بلوغه إلى المكلف. وللعلماء في هذه المسألة أدلة أخرى غير القاعدة السابقة.

وأما بناء الفروع على الأصول التبعية أو المختلف فيها بين العلماء، فللاختلاف في بعض الأدلة والمبادئ التشريعية أثر على الفروع، ومن تلك القواعد الاحتجاج بالذرائع والاستصحاب والعرف والمصالح المرسلة وغيرها وهذه بعض الأمثلة التوضيحية :

أ. الاستصحاب:

هناك مسائل عديدة انبنت على الأخذ بهذا المبدأ التشريعي منها:

1 - من أتى إلى ماء ولم يجد سواه ليتوضأ منه فقال في نفسه لعل نجاسة سقطت فيه قبل أن أرد عليه، وامتنع من الطهارة به: « ليس بالممدوح وخارج عن الاستبراء لدين الله ؛ لأن الأصل الطهارة وعدم الطوارئ، واستصحاب هذا كالعلم الذي يظن منه أنه لم يسقط فيه شيء منه »⁽²⁹⁾.

2 - جبر البنت البكر على الزواج يخص الآباء، أما غيرهم من الأولياء فلا يملكون جبر البنت البكر وإن كانت يتيمة، هذا على المشهور في المذهب عند المالكية، إذا كانت البنت صغيرة.

وأما إذا بلغت البكر وخرجت من الصغر الذي كان وصفا لجبر الأب لها، فإن جبر الأب لها ثابت عند المالكية؛ وعند الشافعية استصحابا لما اتفق عليه من ذلك، ولما ثبت بالدليل قبل البلوغ⁽³⁰⁾.

ب - سد الذرائع:

وهذا المبدأ بنيت عليه عدة مسائل فرعية، وخاصة عند المالكية :

1 - مذهب مالك في صلاة الجنابة في المسجد المنع، ويقصد بالمنع هنا الكراهة.

وعلى القول بأنه طاهر (الميت)، يكون وجه المنع فيه حماية للذريعة لثلاثا ينفجر منه شيء، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نجنب صبياننا ومجانينا المساجد، قالوا هذا خيفة أن تحدث منه النجاسة قال المازري : « وهذا يؤيد ما وجهنا به حماية الذريعة »⁽³¹⁾.

2 - ومن ذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصبغ قلائد هديه بعد ذبحها؛ ليشعر من يراها أنها هدي، فيستبجحها على الوجه الذي ينبغي، وقال بعض العلماء إنما نهاه أن يأكل منها هو وأهله ورفقته حماية للذريعة أن يتساهل في نحرها قبل أوانه⁽³²⁾.

فهذه نماذج لفروع خرجت على أصول متفق عليها أو مختلف فيها.

2 - تخريج الفروع على الفروع:

المسائل الفقهية المنقولة عن الأئمة المجتهدين والتي تحوي اجتهاداتهم وقضائهم وفتاواهم بشأن أحكام الواقع، غير الشامل لكل ما يشمل حياة الناس وتصرفاتهم إلى مدى الأزمنة والعصور، فقد تحدث نوازل وحوادث في المعاملات والتصرفات لم تكن فيمن سلف، لذا يلجأ من بعدهم من تلاميذهم وأتباعهم إلى استخراج آراء لأئمتهم في تلك الوقائع والنوازل، وعزوها إليهم على أنها من تراثهم المنقول عنهم، هذا النوع من الاجتهاد أو التخريج جعل دواوين الفقه تعج بالمسائل والآراء الفقهية المنسوبة إلى أئمة المذاهب.

وهذا النوع من الاستنباط يسمى بناء الفروع على الفروع أو التخريج على نص الإمام، والتخريج كما يكون عن نصوص الإمام، قد يكون عن أفعاله وتقريراته وذلك بالقياس عليها أو دخولها في عمومها أو مقتضاها، والتخريج أنواع عديدة.

أولا - التخريج على النص عموما: للنص تعاريف كثيرة عند الأصوليين والذي يهمننا هنا أنهم حين يتكلمون عن نصوص الأئمة ومجراها أنهم يقصدون في

تعبيرهم - نص عليه - أي ما دل عليه بألفاظ صراحة، ويدخل فيه ما دل عليه بالمطابقة أو التضمنين أو الالتزام⁽³³⁾.

ومن تخريج الفروع على نص الإمام خرج المالكية فروعا من نصوص الإمام، والنص قد يكون من كلام الإمام كأقوال مالك في الموطأ، أو ما نقله عنه تلامذته في المدونة وغيرها من الدواوين ومن أمثلة ذلك:

1 - ما روي عن مالك أنه قال في المسح على الخفين: لا أمسح، فقد استنبط منه بعض المالكية عدم جواز المسح على الخفين في الحضر أو السفر، وحمله البعض على أنه اختاره في نفسه خاصة لا أنه ينكر جوازه⁽³⁴⁾، فالمالكية لهم قولان في هذه المسألة تخريجا عن نص الإمام.

2 - قال مالك في المدونة: «إن لم نجد إلا ماء حلت فيه النجاسة اليسيرة وهو قليل إنه يتيمم» أخذه البعض بظاهره وهو قول الشافعي وقال البعض الآخر: إنه قوله: «ويتيمم» يعني: ويتوضأ به ولا يترك لا أنه يتركه جملة⁽³⁵⁾.

ثانيا: التخريج على نص الإمام عن طريق لازم المذهب:

ومما له صلة بطرق التخريج استقراء رأي الإمام من لازم مذهبه، وهذا أمر متردد عند الأصوليين بين أن يدرج ضمن مصادر لازم المذهب وبالتالي يدرج ضمن الجزء الذي تقدم (التخريج على النص)؛ أو أنه من الطرق التي تتبع في التخريج.

ولازم المذهب عند الأصوليين يطلق على حالة معينة، وهي حالة ما إذا لم يعرف للمجتهد قول في المسألة، ولكن عرف له قول في نظيرها، فإن لم يكن بين المسألتين فرق البتة، فالظاهر أن يكون قوله في إحدى المسألتين قولاً في الأخرى⁽³⁶⁾.

ومن صور لازم المذهب الاستدلال بالتلازم، كأن يستدل من نفيه أحد النقيضين على إثبات الآخر، أو من إثبات أحدهما على نفي آخر، أو من حكمه بالتلازم بين شيئين على وضع التالي وفق شروط خاصة في مجال الأحكام الشرعية، كالملازمة بين النجاسة والتحريم فإذا لم يحرم شيئا نستنتج القول عدم نجاسته وهكذا...⁽³⁷⁾

كما يطلق لازم المذهب على الاستدلال على الشيء بوجود خاصيته كاستدلال على أن الوتر نفل أو ليس بفرض؛ لأنه يؤدي على الراحة⁽³⁸⁾، فلو فرض أن المقتدي أذاه على الراحة أو صرح لجواز ذلك؛ فإنه يلزم من ذلك أن يكون مذهبه ليس بفرض، وذلك لما عرف أن الأداء على الرواحل هو من خاصية النوافل⁽³⁹⁾.

ويدخل في لازم المذهب الاستدلال بالنتيجة على المنتج وبعدها على عدم المنتج، فإذا قال الفقيه إن البيع لا يفيد الملك فمعنى هذا أنه غير منعقد وهناك صور أخرى للزم المذهب تراجع في مظانها⁽⁴⁰⁾. ومن الأمثلة عليها :

1 - سجود التلاوة ليس بواجب واختلف فيه هل هو فضيلة أم سنة ؟ فعده القاضي عبد الوهاب من فضائل الصلاة، وقال غيره من المالكية: إنه سنة، وقالوا: يستقر أنه سنة من تشبيه مالك إياه في المدونة بصلاة الجنابة في الوقت⁽⁴¹⁾.

"وقد استدل من قال إنها سنة لقوله: يسجدها بعد الصبح ما لم يسفر وبعد العصر ما لم تصفر الشمس فألحقها بحكم صلاة الجنابة، ورفعها عن رتبة النوافل، وهذا يقتضي أنها سنة"⁽⁴²⁾.

2 - المكي والمدني إذا نذر الصلاة في بيت المقدس لا يخرجان إليه؛ لأن مكانهما أفضل؛ ولو نذر المقدسي الصلاة بأحد الحرمين لأتاه لأنهما أفضل من مكانه. قياساً على قول مالك: أن المكي إذا نذر إتيان مسجد المدينة أتاه، وإذا نذر مدني في إتيان مسجد مكة لم يأتها، لأن مسجد المدينة عنده أفضل من مسجد مكة. وقال البعض: الأولى أن يأتي المدني إلى المسجد بمكة والمكي مسجد المدينة؛ ليخرج من خلاف في أيهما أفضل.

فعلى القول أن الناذر يخرج من المكان المفضل إلى المكان الأفضل دون عكس. ومكانة المدينة عند مالك أفضل من مكة. لم يخرج المدني إلى مكة ووجب على الملكي الخروج إلى المدينة؛ فمالك ليس له نص في المسألة، ولكن بعض أصحابه خَرَجُوا له هذا القول قياساً على فرع آخر وهو القول أن المدينة أفضل من مكة⁽⁴³⁾.

3 - دعوة من لم يبلغه الإسلام واجبة، وبعدها يكون القتال. واختلف العلماء إذا قاتل من أمر بدعوته ولم يدعه، هل عليه الدية بقتله أم لا؟ فذهب مالك وأبو حنيفة إلى أن عليه الدية تخريجاً على أن النهي عن قتالهم قبل الدعوة لا توجب مخالفتها الدية كقتل النساء والصبيان؛ أي أن العلة هي أنهم في دار حرب فلا دية عليهم، وهو مذهب الشافعي.

وخرَجُوا على هذا التعليل قول آخر قال ابن القصار: "ولو أقام المسلم بدار الحرب مختاراً وهو قادر على الخروج منها فوقع مقتله خطأ، فإنه يؤدب لأنه مقيم بدار الحرب قياساً على المسألة الأولى"⁽⁴⁴⁾.

ثالثاً : أمثلة مخرجة عن لازم المذهب : فقد يقع التخريج عن قول أو قياساً أو إلزاماً لقول قاله الإمام أو تشبيها لفرع مسكوت عنه على فرع آخر منصوص عليه؛ ومن أمثلة ذلك :

1 - إذا اجتمع في عصر واحد إمامان تعطي البيعة للأول ويقتل الثاني إذا لم ينزل وأراد أن يشق عصا المسلمين . وهذا إذا علم من هو الأول ومن هو الثاني؛ أما إذا كان عقد لهما ولم يعلم من هو الأول لم يستحق أحدهما الاستبداد بالإمامة؛ لجواز أن يكون هو الثاني والعقد له باطل . والمسألة تكون كمسألة المرأة إذا زوجها ولياها من رجلين ولم يعلم الأول منهما، فإنه لا يثبت نكاح أحدهما إذا لم يقع الدخول⁽⁴⁵⁾.

2 - اختلف المالكية في المحجور عليه إذا رشد ولم يفك الحجر عنه هل تمضي أفعاله وهو عكس السفه المهمل؟ قال المازري: النظر عند شيخنا عبد الحميد يقتضي جواز أفعاله لوجود علة الجواز، وهي الرشد وارتفاع علة الرد وهي السفه، وهكذا اختلف في المرتد إذا باع قبل الحجر عليه قياساً على السفه المهمل⁽⁴⁶⁾.

فهذه المسائل لم يكن فيها نص عمن سبق، ولكن خرجت أحكامها قياساً على فروع أخرى لوجود أوصاف وعلل مشتركة.

رابعا : إلتزام الغير بضروع تخريجا عن فروع أخرى منقولة عنهم :

قد يقول المجتهد بقول في مسألة أو يلحق فرعاً بفرع آخر قياساً أو تشبيهاً، فيلزم ذلك المجتهد بقول أو فرع آخر تخريجاً، كأن ينتج عن ذلك الاجتهاد فرعاً أو مسألة سكت هو عنها، وهذا الإلتزام قد يكون عن طريق تلازم بين الفرع المنقول والفرع المخرج عنه، أو عن طريق القياس والشبه أو الاندراج في عموم الألفاظ وغير ذلك . مثل :

1 - إذا ملك الزوج زوجته عددا من الطلقات، فإن قضت بأقل منها، فإن الزوج لا يلزمه شيء على قول بعضهم؛ فلأنها قضت على غير الصفة التي أعطها، فلا يلزمه ما قضت به، لا سيما وأن التملك في الأعداد غرض لأن الأكثر منها يسقط النفقة ويحل الأخت المطلقة ولا يلزم خلاف غرضه، كمن باع ثلاثة أثواب فأراد قبول واحد منها فليس ذلك له : وقد ألزم ابن القصار إذا ملكها أمرها وأمر امرأة أخرى معها، فطلقت نفسها خاصة وأن ذلك لا يلزمه، ورأى أنه في معنى من ملك عددا فقضت عليه بأقل منه.

فابن القصار ألزم من قال بالمسألة الأولى أن يقول بالفرع الثاني؛ لأنهما يدوران حول تعليل واحد فألحق الثانية بالأولى⁽⁴⁷⁾، والظاهر أن الفرق بين المسألتين من وجهين:

الوجه الأول: في المسألة الأولى عندنا ذمة واحدة وفي الثانية ذمتان.
الوجه الثاني: المكلف تصرف فيما يملك هو ولا يكلف بما يملك غيره، وإلا فهو تكليف بما لا يطاق، لأنه قد تختلف إرادتان.

2 - من أعتق عبداً عن غيره سواء أكان رجل بعينه أم عن جميع المسلمين، فمذهب مالك أن الولاء للمعتق عنه رجلاً بعينه أو جماعة المسلمين. وقال ابن نافع من أصحاب مالك في المعتق عن جماعة المسلمين: إن الولاء له دونهم⁽⁴⁸⁾.

قال المازري: قال بعض شيوخنا ويلزمه على ما قال أن يقول بمذهب المخالف، إن الولاء للمعتق وإن أعتق عن رجل بعينه...⁽⁴⁹⁾

فابن نافع لم يقل إلا بجزء من المسألة وهو جواز العتق عن جماعة المسلمين، ولكنه ألزم بالجزء الثاني وهو جواز العتق عن إنسان بعينه. وهو مذهب المخالف. وهذا لتشابه المسألتين أو التلازم؛ فمن جوز العتق للجماعة فأحرى أن يجوز لفرد واحد.

خامساً: إنزام الأصحاب بأقوال تخريجاً من فروعهم: قد يلزم مجتهدوا المذهب بأقوال هي لازمة على فروعهم التي صرحوا بها عن طريق التخريج:

1 - ذهب داود وعطاء وأحمد وأبو ثور إلى أن صلاة الجماعة فرض على الأعيان، ومذهب الجمهور أنها فرض على الكفاية. قال المازري: وعلى طريقة القاضي - أبو بكر الباقلاني - إنه لو تمالأ أهل بلد على ترك الأذان لقتلوا، ينبغي أن تكون صلاة الجماعة كذلك أي لو تمالأ أهل البلد على ترك صلاة الجماعة يقاتلون عليه⁽⁵⁰⁾.

فإن تمالأ أهل المصر على ترك الأذان أثموا أجمعون وأجبروا على فعله فإن امتنعوا ولم يقدر على حملهم عليه إلا بالجهاد، جاهدوا عليه حتى يفعلوه، فإذا فعله بعضهم حتى ظهر شعار الإسلام وعرفت الدار بالإيمان سقط الفرض عنهم من جهة، وارتفع الإيجاب والجهاد، وهذا مذهب القاضي أبي بكر بن الطيب وبعض الأسيخ المتأخرين.⁽⁵¹⁾

فالقاضي أبو بكر لم ينص إلا على مسألة الأذان، ولكن المازري سحب عليها مسألة صلاة الجماعة وألزمه بقول بها.

2. ومثل ما قاله بعض المالكية: من تكرر دخوله إلى المسجد، فإنه تسقط عنه تحية المسجد، كما أن المختلفين إلى مكة والمترددين إليها من الحطابين وأهل الفاكهة يسقط عنهم الدخول بالإحرام، وكذلك اسقطوا سجود التلاوة عن القراء والمقرئين، والوضوء للمس المصحف عن المتعلمين⁽⁵²⁾.

إذا فمسألة تكرار الدخول إلى المسجد ليس فيها النص يبين حكم الصلاة فيها، ولكن خرّج بعض العلماء حكم هذه المسألة قياساً على فروع أخرى لتشابهها، ولوجود علة الحرج والمشقة.

سادساً: إحداث قول ثالث عن طريق التخريج:

قد يكون في المسألة قولان، فيعمد المجتهد إلى تخريج قول ثالث محاولاً الجمع بين القولين ومن أمثلة بذلك:

1. نكاح الشغار منهّي عنه، وقد علل بعض العلماء النهي عنه، بأنه يصير المعقود به معقوداً عليه؛ لأن الفرجين كل واحد منهما معقود به ومعقود عليه. وعلى هذه الطريقة يكون فساده راجعاً إلى عقده، ويفسخ على هذه بعد الدخول وقبلة.

وذهب بعضهم إلى أن ذلك راجع لفساد الصداق، ولأنه كمن تزوج بغير صداق، وعليه يمضي بالدخول على إحدى الطريقتين، وقد روى علي بن أبي زياد عن مالك أنه يفوت بالدخول.

وعند المالكية قولان في نكاح الشغار؛ الأول: يفسخ قبل الدخول وبعده، والثاني: مضمي بالدخول.

قال المازري: حاول بعض شيوخنا أن يخرج من مذهبنا قولاً ثالثاً؛ وهو أنه يفوت بالعقد بناءً على أحد الأقوال عندنا فيما صدّقه فاسد أنه يفوت بالعقد، وأن الفسخ فيه قبل الدخول من باب الاستحسان والاحتياط⁽⁵³⁾.

فهذا قول مخرّج من القولين السابقين وهو قول ثالث.

2. في إرجاع الزوج لزوجته أثناء العدة من طلاق رجعي اختلاف بين العلماء في جوازه بغشيان المرأة، قال المازري: إذا قلنا بأن الوطاء محرم فلا يستباح الشيء بنفسه وإنما يستباح بغيره.

وقد وقع الخلاف في هذا الغير الذي تصح به الرجعة، وقصره الشافعي على الأقوال اللفظية، وقصره المالكية على القصد. وقد أشار بعض المتأخرين من

شيوخنا إلى ترك التعويل على المقصد بمجرد أنه ينضاف إليه قول نفسي؛ وهو إيجاب الإرجاع في النفس، فيكون الاختلاف هذا مع الشيخ وبيننا وبين الشافعي في تعيين القول ونحن متفقون على إثبات أصله: فبقول الشافعي القول اللفظي قول إذا صدر عنه بمختلف الأحوال، ومختلف معه في الفعل⁽⁵⁴⁾.

ففي هذه المسألة رأيان متنازعان قد عمد بعض الشيوخ إلى تخريج قول ثالث عنهما .

والملاحظ في هذا النوع من التخريج أن المجتهد يريد أن يجمع بين القولين دون أن يلغي الآخر إلغاء كلياً، وهذا قريب من مراعاة الخلاف.

سابعاً : بناء الخلاف على الخلاف: مما يتخرج عن البناء على الفروع أن تقع مسألة فيختلف فيها الفقهاء على قولين فينتج عن تلك مسألة فرعين، وتأتي مسألة جديدة مترددة بين فرعين . ومن أمثلة ذلك:

1 - إذا غسل المتوضئ رجليه في بداية الوضوء بنية الطهارة، ثم لبس خفيه وأكمل بقية وضوئه؛ فهذه المسألة لا نص فيها للإمام، وقد وقع الخلاف فيها تخريجا على فرعين مختلف فيهما، وقد اختلف في جواز المسح عليهما بناء على أصليين مختلف فيهما جميعاً وهما:

ـ هل يصح الوضوء مع التنكيس أم لا؟

ـ وهل يرفع الحدث عن كل عضو بتمام غسله أو يتوقف ارتفاع الحدث عن إكمال الوضوء؟

فمن صحح الوضوء مع التنكيس ورأى أن الحدث يرتفع عن كل عضو بغسله خاصة اقتضى مذهبه الجواز في المسألة المذكورة⁽⁵⁵⁾.

فهذا الفرع مختلف فيه ابنى عليه أصلاً مختلفان. ويلاحظ أن هذا الفرع ابنى على فرعين. وقد أطلق المازري على الفرعين المخرج عليهما لفظ الأصلين، لا لأن المسألة من باب تخريج الفروع على الأصول، ولكن لأن هذا التخريج كان طريقه القياس، والذي من أركانه الفرع والأصل.

2 - الساحر عند المالكية إذا سحر بنفسه قتل، فإن تاب لم تقبل توبته. قال المازري: وهذه المسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق، وهو المسر للكفر المظهر للإيمان، وهذا أمر موجب لقتله كالساحر، وهذا على قول⁽⁵⁶⁾.

فإذا كانت المسألة مترددة بين فرعين كلاهما مختلف فيه، فكل واحد يحاول ردّه إلى الفرع الأقوى، والذي هو أصل لغيره من الفروع، فيصبح الخلاف في هذه الفروع ناتج عن خلاف آخر والفروع المخرج عليها، وبذلك يكون خلاف ناتج عن خلاف.

والمسألة التي بين أيدينا مبنية على فرع مختلف فيه، وهو: هل الزنديق تقبل توبته أم لا؟ فمن قال تقبل توبته قاس عليه الساحر وقال أيضا تقبل توبته، ومن قال لا تقبل خرج منه عدم قتل الساحر.

الخاتمة

الفقه ليس كله نصوص عن أئمة المذاهب بل بعضه نص منهم في كتبهم أو نقولا نقلها عنهم تلامذتهم. والجانب العظيم منه منقول عن الأئمة تخريجا عن نصوصهم وما جرى مجراها، وسواء أكان هذا من باب تخريج الفروع عن أصول الأئمة وقواعدهم أم من باب تخريج وتوليد الفروع الجديدة عن فروع منصوص عليها، كما أن بعض الأقوال كانت إلزاما لأقوال ومسائل الغير حتى ولو لم يصرحوا بها أو أنكروها.

ويبقى المجال مفتوحا في صحة نسبة تلك الفروع إلى الإمام وقد يكون التخريج ضمن عملية الاجتهاد والتوليد الفقهي المستمر، ويبنى كل مجتهد تخريجاته الفقهية بناء على أصول إمامه وفروعه؛ ولذلك كثرت في المذاهب وكثر معها قائلوها.

وأخيرا فإن أهل العلم اتفقوا على صحة نسبة آراء إلى الإمام وعلى أنها مذهبه ومن آرائه، واختلفوا في صحة نسبة أخرى إليه.

أولا - ما اتفقوا على صحة نسبته إلى مذهب الإمام:

1. قوله وخطه وتأليفه سواء كتبه بنفسه أو أملاه على تلاميذه.
2. ما نقله عنه تلاميذه وأصحابه الملازمون له نصا أو معنى.
3. ما اندرج تحت نصه العام الذي لم ير تخصيصه.
4. ما اندرج تحت نصه فيه على العلة.
5. ما قيس على نصه فيه على العلة.
6. ما قطع فيه بنفي الفارق بينه وبين ما نص عليه.
7. ما استنبط من نصه بطريق مفهوم الموافقة⁽⁵⁷⁾.

ثانياً - ما اختلفوا في صحة نسبته مذهباً للإمام:

- 1 - ما استنبط من نصه بطريق مفهوم المخالفة.
- 2 - ما دل عليه اللازم من نصه.
- 3 - ما دل عليه سكوته.
- 4 - ما دل عليه فعله.
- 5 - ما قيس على نصه الذي لم ينص على العلة.
- 6 - ما استنبط من نصين له في مسألة متشابهتين نص فيها على حكمين مختلفين.
- 7 - ما وافق الحديث الصحيح ولم يقله⁽⁵⁸⁾.

وأما الفروع المستنبطة تخريجاً على قواعد الإمام وأصوله، فقد نقل بعضهم أنه لم يقف على من نص عليه، لا في ما اتفقوا عليه، ولا فيما اختلفوا فيه؛ مما يدل على عدم صحة نسبته مذهباً له. والظاهر أن المالكية ينسبون الفروع المخترجة على أصول وقواعد إمامهم إذا كان المجتهد فقيه نفس، فقد سئل ابن عرفة: هل يجوز أن يقال في طريق من الطرق هذا مذهب مالك؟ فأجاب بأن من له معرفة بقواعد والمذهب ومشهور أقواله والترجيح والقياس يجوز له ذلك، وبعد بذل وسعه تذكر قواعد المذهب؛ ومن لم يكن كذلك لا يجوز له ذلك إلا أن يعزوه إلى من قبله كالمازري وابن رشد وغيرهما⁽⁵⁹⁾.

وحين سئل أحد علماء المالكية عن اختيارات الأصحاب المتأخرين من المالكية كاللخمي وغيره هل تحكى أقوالاً في المذهب؟ قال: نعم يحكى قول اللخمي قولاً في المذهب، كما يحكى قول من تقدم من الفقهاء قولاً في المذهب، وهذا الرأي على سبيل النظر؛ لأنه رأى أن كل جواب بني على أصول مذهب مالك وطريقته والمفتى به إنما أفتى على مذهبه، فيصح أن تضاف هذه الأقوال وتعدّ منه⁽⁶⁰⁾.

هذا والذي يظهر من كلام ابن الصلاح جواز نسبة القول المخترج على أصول الإمام مذهباً له حيث قال: "التخريج تارة يكون من نص معين لإمامه في مسألة معينة، وتارة لا يجد لإمامه نصاً معيناً يخرج منه، فيخرج على وفق أصوله بأن يجد دليلاً من جنس ما يحتاج به لإمامه وعلى شرطه فيفتي بموجبه"⁽⁶¹⁾. وهو اختيار جمهور الحنفية من المحققين منهم، وغيرهم⁽⁶²⁾.

والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق.

الهوامش :

1. موسوعة الفقه الإسلامي... عن جمعية الدراسات الإسلامية بإشراف: الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله 1/ 59.
2. حجة الله البالغة لشاء ولي الله الدهلوي .
3. أدب المفتي والمستفتي ص 91 إلى 94.
4. الرد على من أخلد إلى الأرض ص 116.
5. إعلام الموقعين 4/ 184 و 185.
6. حاشية ابن عابدين (رد المحتار) 4/ 231 .
7. الموافقات للشاطبي 4/ 161.
8. وقسمه الشاطبي : اختلاف تنوع واختلاف تضاد . راجع: الموافقات 4/ 215 .
9. سورة الأنعام الآية 159 .
10. سورة آل عمران الآية 115 .
11. سورة الروم الآية 22.
12. سورة هود الآية 118 .
13. وهناك العديد من المصنفات في العصور القديمة والحديثة في هذا المجال تبرز الأدب العالي للعلماء عند الخلاف والاختلاف .
14. الدهلوي / حجة الله البالغة ج 01، ص 362.
15. الفروق للقرافي ج 1 ص 2 و 3 .
16. الفروق ج 2 ص 110، وتهذيب الفروق ج 2 ص 124 .
17. شوشان عثمان بن محمد الأخضر / تخریج للفروع على الأصول، دار طبية السعودية، ط 1، 1998، ج 1، ص 61.
- والفيومي / المصباح المنير، ص ص 63-64، و عبد القادر الرازي / مختار الصحاح، ص ص 150-151 .
18. شوشان / تخریج الفروع على الأصول، ج 1، ص 63.
19. آل تيمية / المسودة في أصول الفقه (جمعها أبو العباس شهاب الدين الحارثي)، تحقيق محمد بن عبد الحميد، دار إحياء الكتاب العربي، بيروت، ص 533. وابن بدران الحنبلي / المدخل إلى الإمام أحمد، ص 353. ود. عبد الله التركي / أصول مذهب الإمام أحمد، ص 821. والشوشان / تخریج الفروع على الأصول، ج 1، ص 64.
20. القاضي عبد الوهاب / الإشراف على مسائل الخلاف، ج 02، ص ص 964-965. وابن رشد / بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج 02، ص 456.
21. سورة البقرة الآية 282 .
22. صحيح مسلم، كتاب القضاء، باب القضاء بشاهد ويمين، رقم 1712، ص 941.
23. ابن القصار / مقدمة في أصول الفقه، ص ص 146-148. والغزالي / المستصفى، ج 01، ص 117. ومحب الله عبد الشكور / فواتح الرحموت، شرح مسلم الثبوت، ج 02، ص ص 91-92.
24. الغزالي / المستصفى، ج 01، ص ص 120-121. وابن بدران / نزهة الخاطر العاطر شرح روضة الناظر، ج 01، ص ص 182-184. والطوفي / شرح مختصر الروضة، ج 02، ص 309.
25. الجويني / البرهان، ج 02، ص 256. والغزالي / المستصفى، ج 01، ص ص 120-121. وابن الحاجب / منتهى الأمل، ص 163. ود. عبد الكريم النملة / الخلاف اللفظي عند الأصوليين، ج 02، ص ص 95-97.
26. الشيرازي / التبصرة في أصول الفقه بشرح وتعليق الدكتور محمد حسن هيتو، ص 282. والطوفي / شرح مختصر الروضة، ج 02، ص 309. وابن بدران / نزهة الخاطر العاطر، ج 01، ص 182. والدكتور النملة / الخلاف اللفظي عند الأصوليين، ج 02، ص 97.
27. القاضي عبد الوهاب / الإشراف، ج 02، ص ص 610-611. والمعوقة، ص 209. والشيرازي / المذهب، ج 01، ص 497.
28. الفتاوى الهندية، ج 03، 637. ورستم باز / شرح المجلة، ج 02، ص 823.

29. المازري/ المعلم، ج 02، ص 310.
30. المرجع نفسه، ج 02، ص 144.
31. القاضي عبد الوهاب / الإشراف، ج 01، ص 365.
32. المازري/ المعلم، ج 02، ص 105.
33. الدكتور يعقوب الباحثين / التخريج عند الفقهاء والمحدثين، ص 191 إلى 193.
34. المازري/ المعلم، ج 01، ص 356.
35. المرجع السابق، ج 01، ص 364.
36. الزركني/ البحر المحيط، ج 06، ص 127.
37. الدكتور الباحثين / التخريج، ص ص 284 - 285.
38. الغزالي، محمد بن محمد الطوسي / شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، تحقيق الدكتور أحمد الكبيسي، مطبعة الإرشاد بغداد، طبعة 1971، ص ص 441 - 442.
39. القاضي / الإشراف، ج 01، ص 289. والغزالي / شفاء الغليل، ص ص 441 - 442.
40. الغزالي/ شفاء الغليل، ص ص 444 - 445. والدكتور الباحثين / التخريج، ص 286.
41. المازري/ المعلم، ج 01، ص 422. وشرح التلقين، ج 02، ص 790.
42. المازري/ شرح التلقين، ج 02، ص 791.
43. القاضي عبد الوهاب / الإشراف، ج 01، ص 503. والمعونة، ج 02، ص 607.
44. المازري/ المعلم، ج 03، ص 06.
45. المرجع السابق، ج 03، ص 55.
46. المرجع السابق، ج 03، ص 238.
47. المازري/ المعلم، ج 02/ ص 199. والونشريسي، أبو العباس / عدة البروق في جمع ما في المذهب من المجموع والفروق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة 1990، ص 288 - 289.
48. ولا خلاف بين العلماء في أن من أعتق عبده عن نفسه أن ولاء له وإنما الخلاف في من أعتق عن غيره.
49. المازري/ المعلم، ج 02، ص 226. والقاضي عبد الوهاب/ الإشراف، ج 02، ص 993. وابن عبد البر/ الكافي، ص 513.
50. المازري/ المعلم، ج 01، ص 437.
51. المازري/ المعلم، شرح التلقين، ج 01، ص 429.
52. المازري/ المعلم، ج 01، ص 448.
53. المازري/ المعلم، ج 002، ص 141.
54. المازري/ المعلم، ج 01، ص 188 - 189.
55. المازري/ المعلم، ج 01، ص 358 - 359.
56. المازري/ المعلم، ج 03، ص 161. والقاضي عبد الوهاب / الإشراف، ج 02، ص 845 - 847.
57. أبو الحسن البصري / المعتمد، ج 02، ص 313 - 314. الشيرازي / التبصرة، ص 516 - 517.
- الطوفي / شرح مختصر الروضة، ج 03، ص 638. وآل تيمية / المسودة، ص 532 - 535. والدكتور عبد الله التركي / أصول مذهب الإمام أحمد، ص 807 - 810.
58. شوشان/ تخريج الفروع على الأصول، ج 01، ص 424.
59. الحطاب/ مواهب الجليل، ج 01، ص 53.
60. الغبريني/ عنوان الدراية، ص 100 - 101.
61. ابن الصلاح/ أدب المفتي والمستفتي، ص 31، وص 97.
62. أمير باد شاه/ تيسير التحرير، ج 04، ص 249. وابن أمير الحاج / التقرير والتحجير، 462. والدكتور الباحثين / التخريج، ص 101 - 102.

روما وسياسة الرومنة في شمال إفريقيا

« بلاد المغرب أنهودجا »

بقلم

أ. د. بلقاسم رحمانی

قسم التاريخ - كلية العلوم الانسانية والاجتماعية - جامعة الجزائر



ملخص

بعد تدمير قرطاجة سنة 146 ق. م وتحويلها إلى ولاية رومانية أصبحت منطقة المغرب في أيدي الرومان، رغم ذلك لم يكن من السهل تحقيق احتلاله للمنطقة، فلقد واجهت الرومان ثورات ومقاومات عديدة في مختلف أنحاء المنطقة، إلا أن الرومان أكملوا سيطرتهم بتحقيق انتصارات على المقاومات وشرعوا في تحقيق تهديئة المنطقة، وفي إكمال سياسة الإخضاع العسكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والتقاضي أو ما يعرف بسياسة الرومنة.

Résumé :

Après l'effondrement de Carthage en 146 avant J.C, toute la région de Maghreb est tombée dans la main des romains, y compris Carthage elle-même. Cette domination romaine a rencontré plusieurs difficultés et résistances surtout de la part des autochtones. Cependant, les romains ont continué leurs dominations militaires, politiques, économiques et sociales en exerçant ce qu'on appelle la politique de la romanisation.

يمكننا تتبع سياسة الرومنة التي انتهجتها روما في بلاد المغرب من خلال رصدنا للنقاط التالية :

1. السياسة الادارية الرومانية في بلاد المغرب ودورها في سياسة الرومنة:

يجمع المؤرخون على أن الاحتلال الروماني لبلاد المغرب تميز منذ البداية بالتدرج والبطء، ونفس التدرج اتسمت به الإدارة الرومانية وأجهزتها في المنطقة في إطار تحويل الأنظمة الإدارية المغربية إلى أنظمة رومانية خالصة، والواضح أن السياسة الرومانية الإدارية تميزت في بدايتها بالمرونة⁽¹⁾، وهي ضرورة تطلبتها التطورات

السياسة الإدارية والعسكرية في كل مناطق الإمبراطورية، واقتضها ضرورة تحقيق أهداف روما في بلاد المغرب، وهي الأهداف التي تتمحور حول تكثيف الجهود لتثبيت السيطرة الرومانية، وبالتالي تمهيد وتهيئة النفس المغربية لتقبل الحضارة الرومانية بمختلف مظاهرها، أي قبول السكان لسياسة الرومنة، ويرى عدد من المؤرخين أن أبرز وجوه المرونة الرومانية في هذا الميدان تكمن فيما يلي:

أ - اللامركزية الإدارية:

تتمثل في عدم جعل مدينة مغربية خاضعة للرومان تتمركز فيها السلطة الإدارية لكل المنطقة المغربية، وتحت سلطة مسؤول روماني واحد، وبالتالي اعتماد سياسة تقسيم المنطقة الخاضعة إلى وحدات إدارية (ولايات) لكل منها سلطة مستقبلية وربطها بإدارة روما المركزية المباشرة، وهذا التقسيم تتضح أهدافه في أنه يمكن لحكامها من السيطرة عليها، وكذلك جمع الجباية المختلفة وخاصة استفحال المنتجات الزراعية وتصديرها إلى الرومان كذلك تسهيل عملية إخضاع العناصر الوطنية الثائرة على الرومان، إضافة إلى أن هذه التجربة صلاحيات واسعة للحكام لاتخاذ الإجراءات السريعة والرادعة دون اللجوء إلى السلطة المركزية في روما كذلك صغر مساحة الولاية يساعد الحاكم على معرفة كل دقائقها وعن كذب في شتى المجالات.

ويتضح من قراءة بسيطة لهذا النظام الروماني مدى حذر روما الشديد من تعرض مصالحها لأي خطر في هذه المناطق البعيدة عنها سواء كان خطرا محليا وطنيا ضد مصالحها، أو خطر من قبل ولاية روما الطموحين في الانفراد بالسلطة في المنطقة الغربية، وبالتالي فهذه التجزئة تهدف إلى ضرب طموح هؤلاء الحكام في التمرد ضد السلطة المركزية ورفضاً لاستقلال الجاليات الرومانية بأي مقاطعة⁽³⁾.

ب - المناطق المدنية والمناطق العسكرية:

يلاحظ أن الرومان قد قسموا بلاد المغرب إلى نوعين من المناطق الإدارية وذلك حسب مدى توغل النفوذ الروماني بها، ودرجة خضوع السكان لهذا النفوذ.

فالنوع الأول يتمثل في المناطق الأكثر أمنا وهدوءا لأنه مضى على احتلالها زمن طويل وفي هذه المناطق يستبعد قيام أي ثورة ضدها فهي ذات حكم مدني تحت سلطة حاكم يتمتع بالعضوية في مجلس الشيوخ، ولقد تمتع إقليم قرطاجة بهذه الصفة المدنية ثم منطقة نوميديا الشرقية عندما تم تحويلها إلى ولاية رومانية جديدة لسنة 46 ق.م⁽⁴⁾.

لكن المناطق التي كانت نشطة عسكريا ضد الاستعمار الروماني، فإنها تطلبت وجود نشاط عسكري روماني، فاعتبرت مناطق عسكرية أو ولايات إمبراطورية كما

عرفت خلال العهد الإمبراطوري، ويشرف على هذه المناطق ضباط سامون يعينهم الإمبراطور مباشرة دون مجلس الشيوخ، ويمارسون عملهم بتعليمات الإمبراطور⁽⁵⁾.

ويلاحظ أنه عندما تستوفي الإدارة العسكرية نشاطها بالمنطقة أي عندما يسود الأمن والاستقرار وتضعف الحركات الثورية الوطنية يتم إحلال الإدارة المدنية مكان الإدارة العسكرية وبذلك يتضح دور سياسة التقسيم والعمل العسكري في تجسيد الرومنة في المنطقة المغربية.

والظاهر أن هذه السياسة الإدارية المدنية والعسكرية تعود إلى القيصر حيث ظهرت في العهد الإمبراطورية بجلاء عند إعلانه عن إنشاء الولاية الإفريقية الجديدة في نوميديا بعد نجاحه في الحرب الإفريقية⁽⁶⁾، عوض أن يضمها إلى ولاية إفريقية القديمة لأنه يظهر أن نوميديا في نظره كانت تشكل منطقة غير آمنة ومن الضروري أن تظل معزولة عن الولاية القديمة التي سارت فيها سياسة الرومنة بشكل واسع، وحتى لاتصالها آثار الثورة الوطنية التي كان خلفاء "يوبيا" يقومون بها ويظهر أن سبب عداء قيصر للولاية القديمة يعود إلى الموقف الذي اتخذته جاليتها والسلطة الرومانية تجاهه أثناء حملته عليها، لذلك كان حذار ومرتابا منها ورأى ضرورة الفصل بينهما⁽⁷⁾.

ولقد عين القيصر "سالوست" لأن يكون على رأس الولاية الجديدة وذلك نظرا لعداء "سالوست" الكبير لأتباع "بومبي" ومجلس الشيوخ، ودفاعه المستميت عن الحزب القيصري و دوره في حملة قيصر على إفريقيا.

وبعد القضاء على ثورة "أرابيون" الوطنية ثبت قيصر أسس المستعمرات الإقطاعية التي كافا بها قيصر رجال "سيتيوس" في نوميديا ليجسد بذلك سياسة الرومنة وبذلك انتقلت حدود روما إلى ما وراء نوميديا غربا⁽⁸⁾.

وبالتالي فهذا التقسيم الإداري قيصري الأصل، والهدف المدني منه هو تنظيم أساليب أكثر في النتائج التي حققها الرومان في المرحلة الأولى ويمكن مقارنتها بما حدث في كل من نوميديا وموريطانيا⁽⁹⁾.

ج - إفريقي البروقنصلية:

تمثل في المنطقة التي ورثها الرومان عن القرطاجيين عام 146 ق.م حيث كان نظامها مدنيا منذ المرحلة الأولى و النشاط العسكري كن فيها قليلا والسبب الذي جنب هذه المنطقة الإدارة العسكرية هو أن قرطاجة كانت تتمتع في العهد القرطاجي بسلطة مدنية تعود الناس عليها فاستفاد منها الرومان كما استفادوا من الحضارة القرطاجية،⁽¹⁰⁾ إضافة إلى تغير الوضع السياسي بعد سقوط قرطاجة

ووقوف بعض المدن المستقلة إلى جانب الرومان كل ذلك أدى إلى تفكك عنصر الوحدة والتضامن القرطاجي المغربي مما جعل الرومان يطمثون إلى الإدارة المدنية لرومنة المنطقة بالتدريج.

ويؤكد المؤرخين أن نوميديا حليفة الرومان كانت الحامي الحقيقي للولاية الرومانية حيث اعترفت روما بالأراضي القرطاجية التي ضمتها مملكة نوميديا إليها قبيل سقوط قرطاجة، خاصة وأن تلك المناطق الجبلية الصحراوية موطن لقبائل يصعب انقيادها لسيطرة أجنبية فهي لا تعرف الاستقرار، ويضيف أحد المؤرخين أن المملكة النوميديّة كانت أشبه بمنطقة عسكرية بالنسبة للولاية الرومانية وأن ملوكها الأوائل قاموا بتمهيد المنطقة لمستقبل كانوا يجهلون هويته لعدم وضوح الرؤية البعيدة لديهم حيث ساد جو سياسي مشحون بالضغائن، فاعتبروا الولاء للرومان أسلوبا وحيدا للمحافظة على المملكة النوميديّة وهو الأسلوب الذي جنب الرومان مشاكل كثيرة وعاد عليهم بفوائد سياسية واقتصادية عديدة⁽¹¹⁾.

د - موريطانيا وازدواجية الإدارة فيها:

لقد ضم قيصر نوميديا رسميا للممتلكات الرومانية سنة 46 ق. م وأصبح الملك الموريطاني، "بوكوس الثاني" حليفا للرومان الذين حققوا بذلك مكسبا إقليميا نحو الغرب وتسامح قيصر مع "بوكوس الثاني" بضمه الجزء الغربي من نوميديا، كما كافا على دوره في حرب قيصر الإفريقية، واستمر بوكوس على نفس النهج الموالي للحزب القيصري إلى وفاته سنة 33 ق.م، وبذلك قدم خدمات كبرى لمصالح منها حماية ظهر للولاية الجديدة ويلاحظ أنه بعد وفاة "بوكوس الثاني" تم ضم المملكة الموريطانية مدة 08 سنوات تحت الإدارة العسكرية بأمر من "أوكتافيوس" ليتراجع عن ذلك سنة 25 ق.م عندما نصب "يوبو الثاني" ملكا على موريطانيا الموسعة والممتدة من حدود الولاية الجديدة إلى المحيط الأطلسي، ولم يعمل "يوبو الثاني" إلا على مساعدة تغلغل النفوذ الرومان في موريطانيا بصورة أكثر مما كان عليه في نوميديا وبذلك استأنف "يوبو الثاني" مهمة "بوكوس الثاني" لكن بجدية أكثر وإرادة أقوى لتجسيد سياسة الرومنة، وتدل على مخلفات الملك "يوبو الثاني" وخليفته "بطليموس" (PTOLEME) في عاصمة الملكة شرشال⁽¹³⁾⁽¹²⁾.

والواضح أن وظيفة "يوبو الثاني" جسدت التبعية الموريطانية للرومان في جميع الميادين بل اعتبر "يوبو الثاني" مسؤولا أمام الإمبراطور على المصالح الإدارية والاقتصادية والعسكرية والرومانية في مملكته في حين كانت في عهد "بوكوس الثاني" تبعية سياسية أكثر منها عسكرية أو اقتصادية.

وبذلك فإن موريطانيا شهدت حكما مزدوجا بين 33 ق.م - 40 ق.م فالحكم العسكري دام ثماني سنوات (08)، وألحقت فيه بأمالك الإمبراطورية، والحكم المدني تمظهر تحت عنوان المملكة الموريتانية امتد إلى نهاية " بطليوس " عام 40 ق.م حيث أعلن بعد ذلك الإمبراطورية "كلوديوس" عن الفصل بين الموريطانيتين القيصرية والطنجة، وأن كل منها ولاية إمبراطورية مستقلة عن الأخرى وذلك عام 42 م وبذلك ظلت الموريطانيتين ضمن المقاطعات العسكرية التي يتولى أمرها الإمبراطور وحده إلى نهاية العهد الإمبراطور الأول عام 284م⁽¹³⁾.

والمرجع لدى المؤرخين أن إطالة عمر الإدارة العسكرية في موريطانيا مرده إلى صعوبة التحكم في المنطقة وأن الحكام المحليين لم يتركزوا من التمهيد للاستعمار الروماني الكامل، ويعلل المؤرخون ذلك بالحروب التي فرضها سكان السهول العليا "الجزائرية" و المرتفعات "المغربية" على الرومان مما فرض عليهم إبقاء الإدارة العسكرية إلى زمن متأخر⁽¹⁴⁾ بل إن تراجع الليمس (LIMES) الروماني شمالا ينبئ حالة الطوارئ التي كان عليها الرومان أمام ضغط قبائل السهول والجبال إضافة إلى فقر المنطقة زراعيًا.

ولقد لجأ حكام موريطانيا الرومان إلى أسلوب التحالف مع القبائل للحدود لدرء خطرهما، دلت على ذلك نقوش "وليلي" (VOLUBILIS) التي احتفظت بنصوص اتفاقيات مسالمة مع قبائل "البقات" (BOCATES)⁽¹⁵⁾ والتي سكت الحواف الجنوبية للمستعمرات الرومانية في السهول الداخلية، وعموما لم يتجاوز التوسع الروماني في موريطانيا السهول الخصبة والسفوح الجبلية والهضاب المطلة عليها وهي المناطق الغنية زراعيًا، وبها مدن وقرى مغربية قديمة.

2- السياسة الاجتماعية الرومانية في البلاد المغربية ودورها في سياسة الرومنة :

يلاحظ أن القوانين الاجتماعية الرومانية لسكان الولايات قامت على مبدأ الطبقة الاجتماعية، وعلى مبدأ عنصري يجعل الإنسان الروماني في المرتبة الأولى بين مختلف الأجناس البشرية، ولقد سمح مع ذلك لمختلف المجتمعات بالاندماج والارتقاء التدريجي وفق شروط معينة ووفق القوانين المتعلقة بدرجات المواطنة لتصل إلى درجة المترين، رغم ذلك فالباحثون يؤكدون أن غموضا كبيرا يكتنف الحقوق والواجبات الممارسة يوميا من طرف المتمتعين بصفة الرومنة والمؤكد قلة المعلومات المتعلقة بوضعية المغاربة الاجتماعية في أواخر العهد الجمهوري وبداية العهد الإمبراطوري، فالتشريع الإداري الروماني لم يبرز لبلاد المغرب إلا في القرن الثالث الميلادي ذلك أن العهدين المذكورين لم يكن يهم أباطرته من إفريقيا إلا التزود بالمنتجات الفلاحية، ودعم الاستقرار والأمن في

إيطاليا وولاياتها الأخرى وبالتالي تركت هذه الأمور الاجتماعية المغربية للحكام المحليين الذين انشغلوا بجمع الثروة ليس إلى⁽¹⁶⁾.

ويذكر المؤرخون أن الأباطرة اهتموا بالطبقة الأرستقراطية المغربية وشجعوا الاندماج في الوضع الجديد، وبالتالي تنمية التأثير الروماني في المغرب مما أدى إلى ظهور طبقة أرستقراطية في المدن اشتهرت بولائها للرومان، وارتباطها المصلحي معهم أما الأغلبية فكانت تعيش على هامش حياة المجتمع الأرستقراطي، وأبرز مثال على ذلك يتضح في أنه عشية سقوط قرطاجة سنة 146 ق.م لم تتم اللجنة التشريعية المكلفة بهذه الولاية إلا بتحديد الولاية وتنصيب الحاكم ووضع ترتيبات لعلاقة الولاية بالمدن الحرة الحليفة، وتنظيم الجباية⁽¹⁷⁾ وهي أمور ذات طابع استعجالي.

وبالتالي ظل السكان عرضة لتصرفات الحكام الحرة حيث أنهم كثيرا ما أساءوا للسكان تحت دافع الثراء السريع⁽¹⁸⁾ لأن السلطة المركزية بروما لم تمنح الحكام صلاحيات تشريعية، وهذا يدل على أن التشريعات الرومانية لم تكن تهتم كثيرا بقضايا الشعوب الخاضعة لها، اهتمامها بالشعب الروماني ومتطلباته وذلك رغم ضخامة التشريع الروماني في العالم فإن حظ شعوب المستعمرات منها كان ضئيلا.

ونستنتج أنه ما عدا المتمتعين بصفة رومانية أو مواطنة لاتينية فإن جميع الشعوب الخاضعة للرومان في إيطاليا أو خارجها تعد في وضعية الأجانب الذين يخضعون لإدارة وإرادة الحكام الرومان في المعاملة والتسيير، وعلى هذا المنوال كانت وضعية المغاربة خاصة خلال فترة التوسعات، ويلاحظ المؤرخون أن أهم عامل حرم المغربة من الحصول على حقوق مدنية تمكنهم من التدرج نحو الحصول على إحدى صفتي المواطنة الرومانية هو أن الذين لا يملكون أراضي من سكان الولايات يعدون في وضعية الأجانب وبالتالي ملكية الأرض شرط أساسي للاندماج وباستثناء أراضي المدن الحرة فإن أغلب أراضي المنطقة كانت ملكا لكبار الملاك حيث يعددهم " بلين الصغير " بأن 06 ستة ملاك يستحوذون على تراب إفريقيا في عهد الإمبراطور "نيرون"⁽¹⁹⁾.

وفي كل الأحوال فإن المغاربة بعضهم مهزومين بسبب مشاركتهم في الحرب ضد روما، أو محايدون أجنب لم يشاركوا في الحرب فاعتبروا تابعين وأرضهم ملكا للشعب الروماني المنتصر وفي الحاليتين لم يحصل المغربي على حقوقه المدنية ومن التسميات التي أطلقوها على المغاربة الخاضعين للإدارة الرومانية اسم " ستينديار " (STIPENDIARAE) والتي اشتقت من ضريبة التعويضات الحربية التي يدفعها المغلبون للرومان وبذلك طبعت صفة المهزوم على المغاربة.

والواضح أن الولايات الجديدة الرومانية تمتعت باستقلال ذاتي وربطت زعمائها بعلاقات تحالف وحسن جوار⁽²⁰⁾، ثم فتحت باب الارتقاء الاجتماعي لأعيان ووجهاء المغاربة وبالتالي الحصول على صفة المواطنة الرومانية مقابل الولاء وخدمة مصالح روما، وكثيرا ما حصلوا على ألقاب رومانية وكل ذلك يندرج في إطار دعم سياسة الرومنة ونشر الرومنة ونشر رسالة روما الحضارية⁽²¹⁾ حيث لم تستند الأغلبية الغربية من هذه الامتيازات ويلخص " جوليان ذلك قائلا: " اعتمدت روما على ارسنقراطية البلديات لتوطيد استعمارها لبلاد البربر من دون أن تكثرت بالجماهير البربرية".⁽²²⁾

كذلك الجندية كانت مدخل للمغاربة للحصول على صفة المواطنة لكن نظرا لطول مدتها ومحدودية قدرة الجيش الروماني على الاستيعاب، وحب المغاربة للحرية ورفضهم الخضوع جعل عناصر قليلة منهم تدخل الجيش النظامي الروماني عكس الفرق المساعدة التي لا تخضع لهذه الشروط ولا تتفجع بهذه الحقوق.

ويمكن حصر وضعية المغاربة بعد الاحتلال الروماني في:

1. سكان الأرياف المغربية تدخل ضمن الحدود الرومانية يعيشون في وضع الأعداء الخاضعين، تجارهم منشآت عسكرية رومانية كاللمس (الحدود) والحصون والقلاع و مستعمرات قدماء الجنود أن بعضهم اتصال بالرومان والبعض الآخر انعزل في الجبال طلبا للحرية ورفضاً للاندماج الروماني وشكلت هذه المناطق معتقلا للثرة ضد الرومان.

2. سكان مهادنون سواء كانوا داخل الحدود الرومانية أو على حدودها فهم ارتبطوا مع روما بمعاهدات سلم أو تحالف لضعفهم العسكري أمام روما.

3. الفئة الأرسنقراطية وهي سكان المدن الذين حصلوا على أراضي وعقارات فهي قابلة لترويض والاندماج في الحياة الاجتماعية الجديدة، والارتقاء الاجتماعي لتثبيت نفوذ روما في المنطقة⁽²³⁾ وازداد عدد هذه الفئة أكثر خاصة بعد التشريعات الجديدة التي فتحت المجال واسعا ليزوب سكان الولايات في المجتمع الروماني.

3- السياسة الاستيطانية الرومانية في بلاد المغرب ودورها في سياسة الرومنة :

يؤكد المهتمون بدراسة الاستعمار لروماني في بلاد المغرب على الارتباط الوثيق بين هذا الاستعمار واستغلال الأرض، يتأكد ذلك بالتواجد الكثيف الاستعمار الروماني في المناطق الزراعية الداخلية والساحلية، وما رافق ذلك من اعتناء بالنشاط الفلاحي وظهور مدن فلاحية داخلية مزدهرة الاقتصاد الفلاحي والتجاري، بل إن ازدهار الريف المغربي يعود حسب عدد من الباحثين إلى كثافة النشاط الزراعي الذي قام به الاستعمار الروماني في هذا المجال، وهو الاهتمام الذي جسده ظاهرة الاستيطان والعمران التي طبعت سياسة الرومان بطابع استغلالي.

وهنا لا يمكن التغاضي عن الاهتمام القرطاجي والمغرب بالنشاط الاقتصادي الفلاحي، والحضاري قبل الاستعمار الروماني الذي اتخذ من المدن الفلاحية القرطاجية والمغربية نواة للمستعمرات والمدن الرومانية بعد ذلك.⁽²⁴⁾ والمؤكد لدى المؤرخين أن الرومان لم يفتحوا أبواب الاستيطان ببلاد المغرب أمام الفلاحين الرومان واللاتين قبل عام 123 ق.م، وهي السنة التي تمكن فيها النائب الشعبي " كايوس كراكوس " من إقناع مجلس الشيوخ (SENATUS) بإنشاء أول مستعمرة رومانية بإقليم قرطاج لإيواء 6000 من الفلاحين الرومان في إطار المشاريع الإصلاحية التي تقدم بها هذا النائب⁽²⁵⁾. والواضح أن سياسة الاستيطان المنظم لدى الرومان لم تنل الاهتمام الكامل في المنطقة المغربية، وذلك نظرا لتركيز سياسة الجمهورية الرومانية على تحقيق أمن المنطقة وبه تضمن استمرار مصالح روما ببلاد المغرب، وتوفير الأوضاع التي تسمح بالاستغلال الجيد لخيرات المغرب الفلاحية.

والملاحظ أن الرومان حاولوا الحفاظ على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحضارية للمنطقة التابعة للرومان ببلاد المغرب، رغم ذلك فالمؤكد أن مجلس الشيوخ الروماني كان متحفظ في سياسته الإفريقية خاصة سياسة مشاريع الاستيطان مثل مشروع " كراكوس " وهذا التحفظ يركز على سياسة التحالف مع الإمارات والممالك المحلية عن ضم تلك الممالك قبل تهيئة كل الظروف لمنع أي فشل⁽²⁶⁾، من ذلك أن روما رغم انتصارها على يوغرطة وتضحيتها الجسيمة في هذه الحرب إلا أنها لم تمد حدودها على المملكة النوميديّة المهزومة رغم توفير أغلب شروط الظلم، وهذا ربما يفسر موقف مجلس الشيوخ، إضافة إلى تحكم الظروف الداخلية للسياسة الرومانية المقررة من قبل الشيوخ في المجال الخارجي، ويلاحظ أن عنصر الفلاحة جذب بقوة الرومان إلى الأرض فهي الأساس الذي تقوم عليه حركة الاستيطان وبالتالي يتمكن الفلاحون من استغلال أراضيهم بأنفسهم مباشرة دون الاعتماد على نظام الوكالة.⁽²⁷⁾

زيادة على أن تواجد جموع الفلاحين الرومان في الأرض المغربية بإمكانه إيجاد بيئة اجتماعية رومانية تؤثر وتجذب الإنسان المغربي، وهو عامل هام في تجسيد الرومنة يدعم ويوسع سياسة الاستيطان الروماني.

والواضح أن لهذه السياسة علاقة وطيدة بأوضاع روما الاقتصادية والاجتماعية ويتعب المؤرخون أن أهم مشكل دفع مجلس الشيوخ إلى تبني مشاريع الإصلاح الزراعي، وإنشاء المستعمرات خارج الوطن هي مشاكل صغار الفلاحين، ذلك أن الريف الإيطالي تغير بشكل واضح باستحواذ الملاك الكبار على المساحات الزراعية وتناقص الملكيات الصغيرة لحساب الملكيات الكبرى.⁽²⁸⁾

واندفاع الفلاحين الصغار نحو روما طلبا للعيش واستغناء الملاك عنهم لحصولهم على أعداد كبيرة من العبيد نتيجة التوسعات العسكرية وبأقل تكلفة، وأمام فشل الإصلاحات بسبب قوة التيار المتنفذ بالأراضي بل لأودت بحياة صاحبها سنة 132 ق.م، فإن أخاه "كاپوس" أحيا الفكرة من جديد، لكن بشكل آخر وهي نقل الرومان والإيطاليين إلى أراضي الولايات الرومانية وتنظيم في شكل مستعمرات فلاحية وبذلك ساهم "كاپوس" في حركات التوسعات الكبرى للاستعمار الروماني على حساب الشعوب الخاضعة لهم، وبالتالي استراحت روما من الجو السياسي والاجتماعي الخانق وقد كانت مستعمرة قرطاجة إحدى أهم المستعمرات التي استفاد من أراضيها 6000 معمر وزع على كل منهم ما يعادل 50 هكتار للمستعمر الواحد⁽²⁹⁾.

ورغم فشل أنصار هذا النهج الإصلاحية الزراعي في روما ونجاح التيار المعارض لهم كبار الملاك الذين مارسوا شتى أنواع الضغوط على المعمرين الرومان ببلاد المغرب لكي يتخلوا عن الأراضي التي وزعت عليهم فاعلهم ظل متمسك بها، ولكن هذه الحركة الإصلاحية و سياسة الاستيطان الخارجي تتخذ أطوار أخرى بمجيء "قيصر" إلى الحكم بعد انتصاره على أعدائه في إفريقيا، بحيث أن هذه السياسة أصبحت رسمية، تجلت في أمره ببناء مدينة رومانية على تراب قرطاجة "الملعون" معلنا بذلك عن حركة استعمارية جديدة، تجلت أكثر من خروجه عن سياسة التحفظ التي ميزت قرارات مجلس الشيوخ الروماني في استعمار إفريقيا، بحيث أمر "قيصر" ببناء خمسة (05)، ستة (06) مستعمرات على إقليم قرطاجة وعلى الحدود النوميديّة بدءا من سنة 36 ق.م، وتوسيع مساحة إفريقيا الرومانية حيث أصبحت تعرف باسم "إفريقيا القديمة" على حساب مملكة نوميديا التي ألحقت بالملكيات الرومانية والتي أطلق عليه اسم "إفريقيا الجديدة" وشملت الأراضي القرطاجية التي سيطر عليها خلفاء "مسينيسا" ثم إقطاعية "سبيتيوس" شمال نوميديا⁽³⁰⁾.

وبذلك وضع "قيصر" حزاما وقائيا من المستعمرات لحماية الولاية القديمة وتعد إقطاعية المرتزقة "السيثيان" أضخم مشروع استعماري نفذته "قيصر"، ذلك أنهم وسعوا حدود إقطاعية على حساب أراضي المغاربة المجاورين نحو سيكيدة (RUSUCADE) وميلة (MILEV) والقل (CHULLU) أي شمال وشرق وجنوب سيرتا.⁽³¹⁾

رغم ذلك اعتبر المؤرخون هذه الإقطاعية أنه تخرج عن طابع المستعمرات الرومانية، ذلك مهمة هؤلاء المرتزقة بحكم موقعهم الجبلي اقتضت إخضاع السكان والنهوض بالنشاط السياسي والاقتصادي للإقطاعية وبالتالي لعبوا دورا هاما في سياسة الرومنة.

والواقع أن المؤرخين يؤكدون أن ولايتي إفريقيا واليونان قد استوعبنا الكثير من المعمرين - الجنود المستوطنين - نظرا لأهميتها الفلاحية التي تميزت بها

الولايتان، بل عدد ذلك تعبير عن سخاء القيصر لجنوده المخلصين لذلك جاد عليهم بهذه الأراضي الخصبة.

إن المتتبع لسياسة الاستيطان الرومانية ببلاد المغرب يجد أنها شهدت توقفا نسبيا بعد مقتل القيصر إلى غاية حكم "أوكتافيوس" أوغسطس" أي عام 29 ق.م وهي السنة التي تفوق فيها على خصومه وبدأ حركة الاستيطان من جديد بإرساله 3000 جندي إلى بلاده كمستوطنين جدد إلى إقليم قرطاجة ثم إلى سواحل النوميدي الموريطاني، بحيث ظهرت مستعمرات رومانية جديدة على طول هذا الساحل من المحيط الأطلسي إلى خليج السرت، ولقد قدرها بعض المؤرخين بما لا يقل عن 35 مستعمرة زيادة عن مستعمرات أنشأت في شرق نوميديا وفي الولاية القديمة.⁽³²⁾

ولقد ورد أغلبها في كتاب "بلين" القديم باسم "موريطانيا الموسعة، وتعود معظمها إلى الإمبراطورية أغسطس الذي ركز على إنشاء مدينة رومانية على أنقاض المدينة "البونية" مع الاحتفاظ بالاسم البوني لما له من سمعة كبيرة من وزن حضري أكسب قرطاجة احتراماً، وتقديراً لدى الرومان، وهدف أغسطس من هذا العمل هو إرجاع للمدينة قوتها وإشعاعها الحضاري لكن على أساس المنبع الروماني، وبذلك تعكس قرطاجة الرومنة حضارة روما بذلك تعمل على تغلغلها في الوسط المغربي المتأثر لحضارة قرطاجة القديمة ذلت المنبع الشرقي السامي، وبهذه السياسة يجسد أغسطس سياسة الرومنة في بلاد المغرب عملياً⁽³³⁾.

والملفت للانتباه أنه أزال عدة مدن مغربية قديمة سواء كانت في إقليم الولاية الرومانية أو إقليم الممالك المغربية، في حين اتبع سياسة اللين والاستمالة اتجاه المدن التي قبلت الاندماج في الحضارة الرومانية الوافدة ومثال ذلك استمالة لسكان مدينة "طنجة" ضد ملكهم "بوغود" بمساعدة حليف الرومان "بوكوس الثاني" فمنح لسكان المدينة حقوقاً رومانية، ونفس المعاملة لقيتها "ليكسوس القديمة" (LIXUS) "شالا" (SALA) حصلت على حقوق لاتينية وحقوق مستعمرة رومانية أيام "كلوديوس" عندما كثر بها العنصر الروماني، كذلك مدينة "ويليلي" العاصمة الثانية للمملكة الموريطانية، وذلك رغم عمقا الجغرافي وأصالتها المغربية فلقد وصلها المد الاستعماري الروماني وأسس بها مستعمرة فلاحية رومانية في عهد الإمبراطور "كاليغولا" الذي ألغى المملكة الموريطانية، ويعد ذلك إعلاناً عن نجاح سياسة "يوبا الثاني وابنه" بطليوس" في إقامة مستعمرات قرب تلك المدينة⁽³⁴⁾.

رغم ذلك فإنه يظهر وأن السلطات الرومانية قد اتبعت سياسة التودد إزاء القبائل المغربية منها المرونة إزاء قبائل موريطانيا القيصرية للحصول على ثقتها والاطمئنان على المستعمرات، وذلك يعكس السياسة الرومانية الحذرة والجديدة،

والتي اقتضت بعدم تغيير العلاقة القائمة بين المجتمع المدني والمجتمع الريفي، وبذلك على أراضي تلك القبائل بين أيدي أصحابها رغم ضم ممتلكات " بطليموس " وحاشيته⁽³⁵⁾.

ولقد مكنت هذه السياسة إلى حد كبير من كبت الحركات الثورية بالمنطقة في مهد مثل حركة "إيدمون" (AEDMON) الذي ثار ضد الرومان عقب مقتل " بطليموس " سنة 40م⁽³⁶⁾، بحيث لم يتمكن من تعبئة القبائل المغربية نظرا لما كان يربطها بالسلطة الرومانية من مصالح، و وجود مستعمرات لقدماء الجنود الرومان بالريف المغربي عرقل انتشار الثورات، إضافة إلى حملة أغسطس الكبرى على موريطانيا، وكذا سياسة إنشاء المستعمرات في أراضي الحلفاء ساعدت على تمهيد مجتمعات هذه الأخيرة لسياسة الرومنة.

وفي نفس الوقت تخلص روما من مشاكلها الداخلية، ولقد تجلّى رد الفعل الوطني ضد هذه السياسة الرومانية في سلسلة من الاضطرابات لكن كلها انتهت بالفشل أمام قوة إرادة الرومان في تجسيد سياسة الاستيطان عن طريق بناء المستعمرات حول المدن الموريطانية الكبرى مثل "بول" (JUL) (قيصرية)، وسيقا (SIGA)، ويلي، وطنجة، وليكسوس وغيرها، ولم تأت سنة 40م حتى كانت أهم الأراضي الزراعية الموريطانية في حوزة المعمرين الرومان⁽³⁷⁾، وبذلك ألغت مملكة موريطانيا، وتم تثبيت سياسة الرومنة في بلاد المغرب.

الهوامش:

- 1- محمد البشير شنييتي: الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146 - 40م) طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1985، ص 75.
- 2- نفس المرجع: ص 76 انظر (E) l'Afrique Ro main Alger. 1938. P 15 OALBERTINI
- 3- محمد البشير شنييتي: المرجع السابق ص 76.
- 4- نفس المرجع: ص 77.
- 5- نفس المرجع: ص 77.
- 6- هشام الصفدي: تاريخ الرومان، ج 1، ص 297 وكذلك انظر: عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الرومان، ص 276 - 277.
- 7- محمد البشير شنييتي: المرجع السابق ص 77.
- 8- شارل أندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 1، تعريب كذلك انظر: عبد اللطيف أحمد علي: المرجع السابق، ص 240 - 241.
- 9- محمد البشير شنييتي: المرجع السابق ص 79.
- 10- شارل أندريه جوليان: المرجع السابق ص 202.
- 11- محمد البشير شنييتي: المرجع السابق ص 80 - 10 - 06.
- 12- شارل أندريه جوليان: المرجع السابق، ص 178 - 201.

13 - نفس المرجع: ص 201.

- 14- AMINE A. BRIGON J. HISTOIRE DU MAROC P30-14.
- 15IBID P32-33 - GSELL 87 ATLES ARCHEOLOGIAUE DE L'ALGERIE TOME2 ET AMINE OP, CIT.P.33-37.
- 16 - 17 - محمد البشير شنييتي: المرجع السابق ص 88 - 89.
- 18 - 19 - نفس المرجع: ص 89 وكذلك أنظر GSELL ST. H. A. A. NP 47.
- 20 - 20 - وكذلك انظر GAFROT (F) DICTIONNAIRE LATIN FRANÇAIS. P 1479.
- 21 - محمد البشير شنييتي: المرجع السابق ص 89.
- 22 - شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 204.
- 23 - محمد البشير شنييتي: المرجع السابق، ص 94 - 95.
- 24GSELL(ST) ATLAS ARCHEOLOGIQUE DE L'ALGERIE TOME 2 ET AMINE OP.CIT.T.7 P57.
- 25 - IBIDEM وكذلك أنظر شارل أندريه جوليان المرجع السابق، ص 150.
- 26 - 27 - محمد البشير شنييتي: المرجع السابق، ص 118.
- 28 - هشام الصفدي: المرجع السابق، ج 1، ص 104.
- 29 - عبد اللطيف أحمد علي المرجع السابق ص 25 وكذلك أنظر هشام الصفدي المرجع السابق ص 251.
- 30MESNAGE J) RAN P 37. P101.
- 31GSELL ST) T8. OP CIT.P 161.
- 32MRSNAGE P.J) OP CIT. P 46.
- 33 - محمد البشير شنييتي: المرجع السابق، ص 133 - 134.
- 34CARCOPINO J) . LE MAROC ANTIQUE P 171.
- 35 - محمد البشير شنييتي: المرجع السابق ص 135.
- 36 - نفس المرجع: ص 135.
- 37 PONSICHE (J) .R ATR P224

المصادر والمراجع العربية:

- 1 - محمد البشير الشنييتي: الاحتلال الروماني لبلاد المغرب - الجزائر - 1985.
- 2 - محمد البشير شنييتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني- الجزائر - 1984.
- 3 - محمد البشير الشنييتي: التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة مجلة التاريخ تصدر عن المركز الوطني للدراسات التاريخية عدد 23 - 1984.
- 4 - هشام الصفدي: تاريخ الرومان الجزء الأول، بيروت 1967.
- 5 - عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني (عصر الثورة) القاهرة 1967 - شارل أندريه جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية - الجزء الأول - ترجمة محمد مزالي تونس - 1969.

المصادر والمراجع الفرنسية:

- 1 ALBERTINI (EU), L'AFRIQUE ROMAINE, ALGER.
- 2AMINE (A), BRIGNON (J) HISTOIRE DU MAROC, CASA BLANCA 1968.
- 3 GSELL (ST), ATLAS ARCHEOLOGIQUE DE L'ALGERIE 2 VOL ALGER. 1911.
- 4 GSELL (ST) HISTOIRE ANCIENNE DE L'AFRIQUE DU NORD, 08 TOMES PARIS 1928.
- 5 GAFIOT (F), DICTIONNER LATIN FRANÇAIS, HACHETTE, PARIS 1934.
- 6MENSNAGE (P.J) LA ROMANISATION DE L'AFRIQUE DU NORD PARIS 1913.
- 7 CORCOPINE (J) LE MAROC ANTIQUE, PARIS 1948.
- 8 PONSISICH (M) RECHERCHE ARCHEOLOGIQUE A TINGER ET DANS SES REGION, PARIS 1970.

الدور الاستراتيجي لوادي سوف في تجويع السلاح للثورة التحريرية

بقلم

د / علی غنابزیتہ

قسم التاريخ - معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية
المركز الجامعي بالوادي - الجزائر



مملخص

تبرز هذه الدراسة الجوانب الإستراتيجية في تاريخ الحركة الوطنية، والثورة التحريرية، والدور الإستراتيجي لوائي سوف في الإعداد المبكر للكفاح المسلح، والمساهمة في عملية جمع السلاح وترحيله إلى المناطق الشمالية، وخضوعه لمخطط مرسوم بدقة من قادة المنظمة الخاصة، إلى جانب السلاح الذي وفرته منطقة الأوراس ومناطق أخرى ، وقد جسدت الوحدة الوطنية، لتحقيق هدف واحد، وهو الوصول إلى انطلاق الكفاح المسلح، وتفجير الثورة في وجه المستعمر الفرنسي.

Résumé :

Cette étude présente l'un des côtés stratégiques du mouvement national et de la révolution algérienne et le rôle stratégique de Oued Souf dans la préparation de la lutte armée. C'est la participation à la collecte et le transport des armes, jointes à celle de l'Oures et des autres régions, ont servis à la déclaration de la lutte armée contre le colonisateur français et elles ont consacrées l'union de la nation autour d'un seul but : la libération nationale.

مقدمت

لقد حدث تطور كبير في أداء الحركة الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الثانية، وتمثل في تجاوز المطالبة بالاستقلال إلى التخطيط العسكري الذي يتطلع أصحابه إلى مقاومة الاستعمار وخوض المعركة الفاصلة، وتم اتخاذ القرار التاريخي لحزب الشعب في فبراير 1947 والذي انبثق عنه الشروع في تأسيس المنظمة العسكرية السرية التي أوكل إليها مهمة الإعداد العسكري، وكانت جناحا

عسكريا فتيا يتطلب توفير الإمكانيات المادية والبشرية الضخمة، وحيث أن طرحت مسألة التسليح، واستقر الرأي على المبادرة الفورية للحصول عليه بأي طريقة من مواقعها في داخل الوطن وخارجه.

وكان الاختيار الأولي لمنطقة " وادي سوف " الحدودية لتصبح معبرا لتجميع السلاح المطلوب، لعدة اعتبارات جغرافية وتاريخية، لأن تجارها مارسوا عمليات تهريب السلاح لمدة طويلة من محور ليبيا وتونس، فهل سلكت المنظمة الخاصة نفس السبيل في التجارة والتهريب؟! ..

والحقيقة المؤكدة أن التهريب تقوم به مجموعات من التجار التي تتهرب عن مراقبة السلطات الحاكمة الشرعية، والغرض الأساسي منه هو الكسب المادي، بينما تختلف عملية تجميع السلاح، لأنه يتم تنفيذها وفق استراتيجية مدروسة، باختيار الرجال الأكفاء، والأموال الكافية، وتحديد الأهداف بدقة أثناء التحرك. وقد آثرت عند معالجة هذا الموضوع على استخدام مصطلح " التجميع " بدل التهريب، لأن لفظ التجميع يوحي بمعنى الشرعية، ويعتبر نضالا ومقاومة للمستمر الغاصب، ومن حق الشعوب المقهورة أن تحصل على أسباب القوة ومنها السلاح، وتحمل المصاعب في البحث عنه، وتقضي العملية التخفي المستمر عن أنظار العدو أثناء الممارسة، وهو سلوك شرعي وفق منطق الدفاع عن الذات والوطن. وقد ركزت في معالجة هذا الموضوع على عدة نقاط منها:

1. البعد الاستراتيجي الدولي لمنطقة وادي سوف، ودورها التاريخي في جلب السلاح وتوفيره في فترات متعددة، وبأساليب كثيرة.

2. عمليات تجميع السلاح من الخارج، ومختلف الظروف المحيطة بها، والمراحل التي سلكت ما بين 1947-1954.

3. عمليات نقل السلاح من وادي سوف إلى بلاد الزاب والأوراس وقسنطينة وبعض المدن الأخرى بالشرق الجزائري أو الجنوب الغربي.

وتكمن أهمية الموضوع في نهايته بالكشف عن مدى استغلال المنظمة الخاصة للسلاح المطلوب من وادي سوف في تفجير ثورة نوفمبر 1954.

1. البعد الاستراتيجي الدولي لإقليم وادي سوف:

يقع إقليم وادي سوف في الجنوب الشرقي للصحراء الجزائرية، وهو يحاذي بامتداده الجغرافي منطقتي غدامس الليبية التي تبعد عنه بحوالي 500 كلم، وبلاد الجريد

التونسية التي تقترب منه بحوالي 85 كلم، فضلا عن خليج قابس الذي يقع على بعد 305 كلم إلى الشمال الشرقي من وادي سوف. كما يرتبط بالمناطق الداخلية إذ يقترب من بسكرة بنحو 220 كلم، وباتنة عاصمة الأوراس 340 كلم، وخنشلة 440 كلم. والجدير بالتنويه أن إقليم وادي سوف يمتد قديما من سطيل في الشمال إلى غدامس الليبية في الجنوب على مسافة 620 كلم، ويمتد من وادي ريغ (تقرت) في الغرب نحو بلاد الجريد في الشرق على مسافة 160 كلم، فهذا الموقع الاستراتيجي البارز أهله للقيام بدور تاريخي بداية من القرن التاسع عشر، ويمكن تتبع النشاطات الاقتصادية والسياسية التي جعلته خزاناً لجلب السلاح وتجميعه كما يلي:

أ) **المساهمة الفعالة في التجارة الدولية:** كانت القافلة تضم مجموعة متعددة من التجار الذين لا تربط بينهم سوى مصلحة الطريق،⁽¹⁾ وكان بعض التجار الكبار في سوف يستأجرون عددا من البدو من قبائل الربيع والشعانة الذين يحترفون التجارة ويقودون القوافل إلى بلاد السودان وغدامس،⁽²⁾ وبعض الأشخاص من الحضر من قرى سوف (كوينين وتكسبت وقمار على الأقل) يقودون قوافلهم بأنفسهم ويتحملون متاعب الطريق ومشاق الصحراء وصعوباتها⁽³⁾ وكانت وادي سوف منطقة لعبور القوافل نحو الجنوب ومن طرقها:

* طريق من سكيكدة إلى السودان⁽⁴⁾ وغدامس مروراً بسوف: ويبدأ هذا الطريق من سكيكدة ويتجه نحو قسنطينة وباتنة وبسكرة وتقرت إلى الهقار ومنها إلى تمبكتو ببلاد السودان، ولهذا الطريق فرع يبدأ من بسكرة ويتجه إلى وادي سوف ومنها تواصل القوافل طريقها نحو غدامس أو غات ببلاد السودان.⁽⁵⁾

* طريق نفطة وغدامس عبر وادي سوف: ويبدأ من تقرت ثم يتجه نحو الشمال ليمر بمحطة الفيض ببلاد الزاب،⁽⁶⁾ فينضم إلى القافلة تجار بسكرة، ثم يتجه الطريق نحو الجنوب الشرقي ليصل إلى كوينين بوادي سوف ومنها يأخذ اتجاهين أساسيين أحدهما شمالاً نحو مدينة نفطة مباشرة، وثانيهما نحو الجنوب إلى سوق غدامس الليبية مروراً بمنطقة البير الجديد على الحدود التونسية التي تعتبر مفترق الطريق بين الجهتين.⁽⁷⁾

وهناك طرق أخرى تنطلق أصلاً من وادي سوف، وتتجه نحو مناطق مختلفة ومنها:

* طريق وادي سوف نحو الزاب وخنشلة: يبدأ الانطلاق من قرية الديلة إلى بير العرب ثم بير النازية، ومويت التاجر، وعقلة الباجة ثم زريبة حامد وخنقة سيدي ناجي وزريبة الوادي وعين الناقة ثم بسكرة وأخيراً خنشلة.

* الطريق من سوف نحو بلاد الجريد: وينطلق هذا الطريق من الوادي إلى البهيمه ثم الدبيلة ومنها إلى بير الحاج قدور ويتصل بطريق تبسة، ومنه نحو الشرق إلى بير العادل حيث البرج، ثم بير شوشة ليهودي قرب الحدود التونسية ويستمر الطريق نحو نفطة وتوزر⁽⁸⁾.

* الطريق من وادي سوف نحو غدامس: ويبدأ من الوادي ويتجه نحو بير الجديد وبير الصف ومويت عيسى،⁽⁹⁾ ثم إلى بير الغرافة، ثم بير الصف حتى غدامس، ويتم الدخول إليها من منطقة تونين⁽¹⁰⁾.

* طريق وادي سوف إلى غات:⁽¹¹⁾ وينطلق مباشرة من وادي سوف متجها نحو الجنوب متوغلا في الصحراء عبر العرق الشرقي الكبير حتى يصل إلى غات، ومنها تسير القافلة نحو الجنوب إلى كانو⁽¹²⁾، وإلى تمبكتو⁽¹³⁾ عبر محطات عديدة.⁽¹⁴⁾

ب) حب المغامرة والغزو: عرف البدو من سكان وادي سوف بحب المغامرة، والمشاركة في عمليات الغزو أو رد الفعل التي كانت مشهورة خلال العهد الفرنسي في الجزائر، وقد حملوا السلاح ميكرا، وشارك أفراد من الشعانبة في الجيوش الاستعمارية في تونس⁽¹⁵⁾، والجزائر ضمن قوات المهاري، وكذلك في قوات المخزن الإيطالية في ليبيا، وقد فروا بأسلحتهم من الجيش استجابة لنداء سليمان الباروني⁽¹⁶⁾، وأخذت تلك العناصر في إثارة الشغب في الفضاء الواسع بين غدامس وقبلي التونسية وحتى مناطق وادي سوف، فتسببت في إزعاج الإيطاليين فضلا عن الفرنسيين الذين دعموا قواتهم في وادي سوف ونسقوا عسكريا مع منطقة قبلي التونسية⁽¹⁷⁾.

كما مارست القبائل الصحراوية عمليات الغزو على نطاق واسع في الصحراء المتاخمة لوادي سوف بين البدو وخاصة الغزو المتبادل مع منطقة الجريد التونسية، والغارات الواقعة في منطقة التوارق وخدامس وغات من جهة ومع بدو منطقة وادي سوف من جهة أخرى⁽¹⁸⁾، وتحدث الذاكرة الشعبية في وادي سوف عن المعارك بين أهل سوف والهمامة في صحن بوقمزة بسوف، ومعركة قبلي في تونس التي خلدها الأغنية الشهيرة:

وَاللّٰهُ مَا نَنْسَى نَهَارًا أَقْبَلِيَّ وَالْحَيَّ عَنْ طُولِ الزَّمَانِ إِنْوَلِيَّ

وكانت السلطات الفرنسية تغذي هذا الصراع وتدعمه تارة⁽¹⁹⁾ أو تتجاهله عن قصد في أوقات أخرى⁽²⁰⁾ وخلال تلك الغارات يتم الاستيلاء على الأموال والإبل والأسلحة⁽²¹⁾ وتخلف المعارك عددا من القتلى في صفوف الطرفين⁽²²⁾.

ج) المقاومات الشعبية ودورها في توفير السلاح: ساهمت " وادي سوف " مساهمة فعالة في دعم المقاومين بشتى أنواع الدعم المادية والبشرية، وساعدها في ذلك مجاورتها لأسواق السلاح القريبة منها في تونس وطرابلس⁽²³⁾. وقد نشط المقاومون في عملية جلب الأسلحة والذخائر من هذه الأسواق ومنهم بوشوشة ومحمد بن عبد الله وابن ناصر بن شهرة ومحي الدين بن الأمير عبد القادر، وكانت يومئذ منطقة سوف وبلاد الجريد من أهم معابر قوافل السلاح إلى المقاومين، مثلما فعل بوشوشة عام 1871. وقد أزعج هذا الفعل السلطات الفرنسية التي عرفت بهذا الأمر عن طريق الجالية اليهودية في تونس، والتي تم إقناعها فامتنعت عن بيع الأسلحة للشوار⁽²⁴⁾.

وأثناء حركة المقاومة التي قادها محي الدين بن الأمير عبد القادر بالمنطقة الجنوبية في الخط الممتد من طرابلس مروراً بسوف إلى نقطة التونسية أشارت تقارير الأيالة التونسية إلى تنقل قوافل السلاح في هذه المنطقة. ففي إحدى الرسائل الموجهة بتاريخ 14 جانفي 1871 من محمد قعيد إلى الوزير خير الدين التونسي حول حروب محي الدين بتبسة، يذكر له فيها ما يلي: "وكما نعلم جنابكم السامي أن لزام محصولات نقطة عثر على قفل (كذا) من أهل سوف متوجهين نواحي الغرب حاملين من البارود وزنه بظرفه (كذا) ثلاثة وستون رطلا، وقد وضعنا البارود المذكور تحت يد محبنا الينباش بتوزر..."⁽²⁵⁾.

وقد عثر الفرنسيون على بطاقات صادرة من زاوية نقطة للمقدم إبراهيم بن عبد الله يحث فيها الناس على جمع الأسلحة ومحاربة الفرنسيين. ووصلت هذه البطاقات والرسائل إلى مدينة تقيرت ووادي سوف. وكانت قبيلة الشعانية بسوف ذات نشاط واسع في عملية شراء الأسلحة وتوفير الذخائر وجلبها من الجريد التونسي عبر سوف لتكون وقوداً للمعارك.⁽²⁶⁾

د) ممارسة وادي سوف للتهريب: اشتهرت وادي سوف منذ تاريخها القديم بممارسة التجارة الدولية، وساعدها ذلك على ممارسة التهريب وخصوصاً مادة البارود (السلاح)، وكان الشعانية يتولون تلك المهمة ويجوبون الصحراء بين وادي سوف وليبيا في عهدها التركي⁽²⁷⁾. كما راجت تجارة البارود مع تونس التي مثلت سوقاً للسلاح جعلت فرنسا عند تغلغلها في تراب سوف بعد 1854 تعمل على منع تلك العمليات بواسطة أعوانها من الشيوخ، وقد تم اغتيال شيخ أولاد أحمد في سوف 1857 لأنه أخبر القايدي علي باي عن مكان إخفاء البارود المهرب حتى يتسنى له تطبيق السياسة الفرنسية القاضية بذلك⁽²⁸⁾.

ولكن السلطات الفرنسية كانت تغض الطرف عن عمليات التهريب التي تقوم بها القوافل التجارية التي يقودها الشعانبة منذ 1883 والتي تجلب السكر المهرب من قابس التونسية إلى سوف، والهدف من ذلك هو المحافظة على الاقتصاد الفرنسي من الانهيار، بل قامت بتبرئة ساحة تلك القوافل من تهريب البارود⁽²⁹⁾. وكانت الإبل هي أحسن وسيلة للتهريب لأنها تستطيع بسهولة تفادي المضايقات العسكرية الفرنسية والرقابة الجمركية.

وقد نشطت السلطات الفرنسية منذ الحرب العالمية الثانية في متابعة القوافل ومراقبتها، وشرعت في حفر الآبار وتشديد الأبراج ومهمتها حراسة القوافل الفرنسية ومراقبة القوافل الأهلية ومنع التهريب، واتخذت بعضها مراكز عسكرية دائمة⁽³⁰⁾، ومنها المتاخمة لتونس بير ربح والعضل وبير الجديد، وأخرى في طريق غدامس بير مسعودة وفطيمة وغيرها⁽³¹⁾.

ورغم كل العراقيل استمرت منطقة وادي سوف في تهريب الأسلحة وتجميع الذخائر من المناطق المتاخمة لها لأنها شهدت الحرب بين الحلفاء المحور، وخلفت أسلحة كثيرة حصل عليها السكان عن طريق الشراء أو المياضنة، واشتهر بعض الناس بهذه التجارة وحققوا منها ربحا معتبرا⁽³²⁾ وعندما فكرت الحركة الوطنية في الحصول على السلاح كانت وادي سوف مهياة للقيام بدورها التاريخي من منطلق الواجب الوطني.

(2) عمليات تجميع السلاح وظروفها العامة بوادي سوف:

ساهمت الصحراء الجنوبية الشرقية بفاعلية كبيرة في تمويل المنظمة السرية لحزب الشعب بالأسلحة من " وادي سوف " وعبر " بسكرة " إلى منطقة " الأوراس " في نهاية المطاف⁽³³⁾. فعندما أعلن مؤتمر فبراير 1947 عن إنشاء منظمة (l'os) تم تكليف محمد بلوزداد بتأسيس هذا التنظيم وهيكلته، وشرع فوراً في تدريب المناضلين، فطرح أول مشكلة على المكتب السياسي للحزب في شهر مارس 1947، وهي مشكلة التسليح، فاتخذ القرار بالبحث عن الأسلحة وشراء كميات منها من الداخل أو من الخارج على ما تفرضه الأحوال⁽³⁴⁾، وحيث بدأت العملية التي أحاطت بها الظروف التالية:

أ) الجانب التنظيمي: لم تكن المعلومات عن مراكز السلاح الداخلية والخارجية خافية عن المسؤول الأول للتنظيم، لأنه تعرف عن منطقة وادي سوف منذ كان رئيساً لتنظيم حزب الشعب في الشرق الجزائري 1945-1946، إذ توطدت علاقته مع السعيد

إدريس التاجر بقسنطينة⁽³⁵⁾، الذي ساعده في ربط علاقة مع التاجر المناضل أحمد ميلودي بالوادي، وقد رعى تلك الصلات فيما بعد محمد عصامي ببسكرة⁽³⁶⁾، وحيثُذ تمكن محمد بلوزداد من زيارة مدينة الوادي رفقة أحمد ميلودي لمراقبة التنظيم الحزبي والبحث عن السلاح في ذلك الوقت المبكر من سنة 1946. وعندما تأسس النظام العسكري السري، استثمر بلوزداد العلاقة السابقة مع وادي سوف، باستدعاء أحمد ميلودي سنة 1947 إلى العاصمة وكلفه بتنظيم عملية شراء الأسلحة للمنظمة السرية، وكان الوساطة في تسليم الأموال لمسؤول التنظيم بوادي سوف، هو محمد عصامي⁽³⁷⁾، وتطلبت الشؤون التنظيمية، قدوم مسؤولي التنظيم في المنظمة إلى وادي سوف ومنهم محمد العربي بن مهيدي، ومحمد بوضياف، ومصطفى بن بولعيد، من أجل تنظيم ورعاية شبكة جلب الأسلحة من الخارج⁽³⁸⁾.

وكانت التكاليف المالية لتلك العمليات تتسم بالضخامة، فالمبلغ الأول الذي تسلمه محمد عصامي سنة 1947 عن طريق أحمد محساس على دفعتين⁽³⁹⁾. كان في حدود مليوني فرنك⁽⁴⁰⁾. وتواصلت عملية الشراء بدفع حسين آيت أحمد في أواخر 1948، كل ميزانية المنظمة لسي العربي⁽⁴¹⁾ في بسكرة، وبلغت نصف مليون فرنك⁽⁴²⁾.

والجدير بالذكر أن الأموال يومئذ كانت قليلة، لأن الميزانية المخصصة للمنظمة السرية هي 100 ألف فرنك قديم، ومنها تدفع مخصصات قادة المناطق أي 6 آلاف فرنك للمتفرغ الواحد حتى ديسمبر 1948، ولم يكن النقد المتداول لدى المنظمة الخاصة يتجاوز 03 إلى 04 آلاف فرنك⁽⁴³⁾. وعندما طرحت مسألة السلاح عام 1949 كان صندوق الحرب فارغا مما تطلب من المنظمة القيام بعمليات للحصول على الأموال من مصادر مختلفة⁽⁴⁴⁾.

ب) الجانب التجميعي للسلاح: لما انتهت القضايا التنظيمية، شرع أفراد المنظمة بوادي سوف في الرحلات المتعددة للبلدان المجاورة لجلب السلاح، وكان العنصر المحوري في العملية هو المناضل ميهي محمد بلحاج⁽⁴⁵⁾، الذي كان يستأجر دليلا للقافلة التي يقودها بنفسه، وتتكون من عدد من الجمال (ما بين 04 إلى 07) والتي تحمل زاد الطريق، ومعدات شحن الأسلحة، ومنها صناديق التمر، والغراير (أكياس من الشعر)، وكانت حمولة الجمل الواحد حوالي 50 بندقية⁽⁴⁶⁾. ويمكن ذكر بعض الرحلات الخارجية:

* الرحلات نحو الأراضي الليبية: سافر خلال 1948 محمد بلحاج عدة رحلات، وكانت الرحلة الواحدة تستغرق نحو الشهرين، ومنها:

- السفر رفقة الخبير بالطرق الصحراوية المسمى " ضيف الله مصطفى القطاوي" فاتجها نحو بلدة سنانون شرقي غدامس على بعد حوالي 200 كلم بينها وبين درج، وعند جلب الأسلحة والذخيرة خبثت في غوط النخيل شرقي الوادي بقرية الطريفاي.

- السفر إلى ليبيا مرة ثانية رفقة الخبير " محمد بن الصادق" وجلب كمية كبيرة من البنادق بذخيرتها وعدد من النظارات الكاشفة للأبعاد، وفي تلك الرحلة وصل سعر البندقية الواحدة نحو 800 فرنك قديم.

- السفر في سنة 1949 رفقة الخبير " بوغزالة البشير بن نصر" وتم جلب كمية من السلاح والذخيرة.⁽⁴⁷⁾

* الرحلات نحو الأراضي التونسية: وقام محمد بالحاج برحلات متعددة إلى تونس:

- رحلات رفقة زواري الصادق بن البشير، والحاج محمد بالأطرش، وخاصة إلى منطقة دوز بالمرازيق، وجبل بن اخداج، ويكون في انتظارهم وادة علي بن الضيف في شقيقة التافزة بالرباح.⁽⁴⁸⁾

- الرحلة رفقة " غندير بشير بن محمد العيد" سنة 1951، واستطاع جلب بعض الأسلحة، وتخلف ليستكمل جمع الذخيرة، ولكنه ألقى عليه القبض داخل الحدود الشمالية الشرقية بالتراب التونسي، ومعه الذخيرة الحربية، وتم إيداعه السجن لمدة ستة أشهر في أبريل 1951.⁽⁴⁹⁾

* الرحلات المزدوجة نحو البلدين السابقين: وقام بها أيضا محمد بلحاج ما بين 1948-1953 رفقة الدليل " زواري أحمد الصادق" في أكثر من رحلة إلى تونس وليبيا، وجلبوا خلالها كميات معتبرة من السلاح خبثت في الغواطين الأول بنزلة الطلاية جنوب شرق الوادي، والثاني غوط عدايكة شرق تكسبت شمال مدينة الوادي.

وكل الأسلحة المجلوبة لم يعرف خبرها إلا المسؤول المذكور " ميهي محمد بلحاج" ومعه أيضا: أحمد ميلودي وعبد القادر العمودي، وسلطاني شوشان، وعدايكة بلقاسم.⁽⁵⁰⁾

أما الكميات الأولى فيمكن تحديدها في الجدول الموالي:

نوع السلاح	الكمية المجلوبة	تاريخ الرحلة	مصدر السلاح
بنادق ستاتي	103 قطعة مع الذخيرة	1947	الأراضي الليبية ⁽⁵¹⁾
رشاش	4 قطع، 04 صناديق ذخيرة	1947	الأراضي الليبية ⁽⁵²⁾

بنادق مختلفة	100 قطعة مع الذخيرة	أواخر 1948	(53) الأراضي الليبية
بنادق مختلفة	60 قطعة مع الذخيرة	1949	(54) وادي سوف
بنادق ستاتي	33 قطعة مع الذخيرة	بعد 1949	(55) مدينة الوادي
المجموع	300 قطعة مع الذخيرة	وهي التي رحلت للأوراس	(56)

نموذج للأسلحة التي كان مصدرها الأخير وادي سوف 1947. 1950.

وحسب شهادة محمد بوضياف، فإن الدفعة الأولى نقلت إلى الأوراس وتبلغ كميتها 300 قطعة سلاح⁽⁵⁷⁾ وهي نفس الكمية التي وردت في الجدول السابق، وهي نصف الكمية التي جلبت إلى الأوراس في تلك الفترة والتي بلغت 600 قطعة حربية، لأن منطقة الأوراس تلقت الأسلحة من تونس عبر صحراء النمامشة⁽⁵⁸⁾. ولكن الباحث يعجز عن تحديد كل الأسلحة التي جمعت في تلك الفترة بسبب الظروف الأمنية من جهة، والفترات المتتالية التي جمعت فيها، فضلا عن الظروف الصعبة التي مرت بها المنظمة الخاصة بعد 1950، ومع ذلك استمر تدفق الأسلحة من وادي سوف نحو الشمال بحذر كبير.

والجدير بالذكر أن كميات أخرى جمعت في عام 1947، وحول بعضها إلى الجنوب الغربي⁽⁵⁹⁾ في منطقة جبال غرداية ومتليلي، وبقي جزء آخر لدى مناضلي المنطقة، ويمكن الإشارة إلى أغلبها في الجدول التالي:

اسم الدليل ورافقه	كمية السلاح المجلوب	مكان تحويل السلاح
أحمد بن غريسي ورفيقه العربي عيشوش	232 بندقية مختلفة الأنواع مع ذخيرتها الحربية.	حولت إلى جبال غرداية ومتليلي بالجنوب.
التجاني أحمد ورفيقه زيتونة البشير المدعو (الشهواني)	12 قطعة حربية مع الذخيرة.	أخفيت بالبياضة بالوادي.
سعد بن محمد الكبير عيشوش	كمية معتبرة غير معروفة العدد.	تم إخفاؤها بمنطقة وادي سوف، واستعملت فيها.
المجموع	12 قطعة مع كمية معتبرة من الذخيرة الحية.	تم إخفاؤها بمنطقة وادي سوف، واستعملت فيها.
	256 قطعة من مختلف الأنواع مع الذخيرة الحية.	استعملت في الكفاح قبل وأثناء الثورة.

جدول يوضح كمية من الأسلحة التي تم جمعها عام 1947⁽⁶⁰⁾

وكانت تلك المعدات الحربية كثيرة ومتنوعة وأهمها:

1. البنادق والرشاشات والمسدسات:

* الخماسي - الألماني وكذلك الإنجليزي الصنع.

* الستاتسي - الإيطالي الصنع.

* الرشاش - الإيطالي وكذلك الإنجليزي الصنع.
* المسدس الأوتوماتيكي - الأمريكي الصنع⁽⁶¹⁾

والكمية الغالبة هي من نوع ستاتي الإيطالي الصنع، لأنه خفيف المحمل وأقل طولاً، ولم يفقد هذه الأهمية إلا بعد صنع الكلاش الروسي فيما بعد الثورة⁽⁶²⁾ كما كان متوفراً بكثرة في الصحراء الليبية، لأنه من مخلفات الاستعمار الإيطالي للمنطقة.

2. الذخيرة الحربية:

وجلبت من مختلف الأحجام، ووضعت في علب وصناديق الشاي بالخصوص، وكانت تجلب بكميات كبيرة لكل سلاح، وهي تشغل حيزاً كبيراً في حمولة القوافل من القطع الحربية الأخرى.

3. النظارات الكاشفة:

وهي تستعمل في تقريب الأهداف للمقاتلين، وتم جلب كمية منها من الأراضي الليبية خلال عام 1948⁽⁶³⁾، وندرك سعة أفق المشرفين عن تلك العمليات باقتناء المعدات الحربية المتنوعة، مما ينم عن معرفة مسبقة بشؤون الحروب.

4. المتفجرات:

كانت مادة "الديناميت" التي تصنع منها القنابل متوفرة بوادي سوف لدى السلطة الفرنسية، وتستعمل لأغراض زراعية في منطقة حاسي خليفة التي تكثر بها الحجارة القاسية من نوع الصلصالة المتواجدة على سطح الماء وتتسبب في إعاقة علف النخيل ونمو جذوره، فكلف الحاكم العسكري بالوادي المجاهد الفلاح ونيسي الأمين بتوزيع مادة التفجير، وتم ضبطها بسجل خاص، مع تحديد حصّة كل فلاح، ولكنه استطاع التحايل على تلك القوانين، وحول نحو 50% إلى المكلفين بنقل السلاح إلى الشمال⁽⁶⁴⁾ ومما أكده المجاهد عبد القادر العمودي:

"...أن المجاهد ونيسي الهاشمي اتفق مع عمه الأمين ونيسي على تزويدنا بكمية المتفجرات، فوافق، وأتذكر أنني أخذت بنفسني 02 علب détente (صاق) يستطيع تفجير 100 قنبلة، والعلبة بها حجم 10 سم / 05 سم، والكل حوالي 200، وأخذت كمية من الديناميت TNT وخيوط التفجير (الفتيل)..."⁽⁶⁵⁾.

وكانت الأسلحة تخزن عند أفراد منهم جاب الله البشير بالرقبية، ومحمد شوشان، وبلقاسم عدوكة بالوادي، وكانت تخبأ في المنازل، وأغلبها يتم دفنها في المزارع (الغيطان) في مكان لا يلفت النظر، ويموه المكان بأشياء من الوسط الطبيعي، فتلف الأسلحة بشكل جيد، ويوضع فوقها الجريد والليف في كل جانب، وتدفن قليلا، وتوضع فوقها كومة من الجلة (بعر الجمال) للتمويه، وتمكث مدة ما بين 04 إلى 05 أشهر ثم ترحل نحو الزيبان⁽⁶⁶⁾، الذي يعتبر المعبر الرئيسي للأسلحة المرحلة من وادي سوف ما بين 1947-1954.

3) عمليات نقل السلاح من وادي سوف نحو الشمال:

تعتبر عملية نقل الأسلحة إلى الداخل من المجازفات التي تحيط بها الأخطار، بسبب تعدد مراكز المراقبة وبث السلطات الفرنسية للعيون في منطقة الجنوب الصحراوي التي تخضع لحكم عسكري متشدد، ولكن ترحيل السلاح تم في تلك الظروف الصعبة باستعمال عدة وسائل للنقل ويمكن حصرها فيما يلي:

أ) نقل السلاح بواسطة قوافل الإبل: فكانت القافلة تقدم نحو وادي سوف محملة بالشعير من منطقة الزرايب بالزيبان⁽⁶⁷⁾ وبعد بيعه في سوق الوادي، تشحن بالأسلحة والذخيرة بمساعدة أبناء وادي سوف ومنهم ميهي محمد بلحاج وعبد القادر العمودي وبشير بن موسى، واستمرت تلك العمليات إلى سنة 1950. وقد وصف المجاهد عبد القادر العمودي - الذي قاد القافلة الأولى - تلك الرحلة إلى زريبة حامد بقوله: "... قبل خروجنا قمنا بالتعرف عن الطريق ثلاثة أيام، فذهبت رفقة محمد بلحاج للتعرف عن الطريق الأفضل وأقلها اختلاطا بالناس لئلا نلفت الأنظار أثناء المسير، وفي يوم الرحيل قضيناه في الغوط، ومعنا صاحبه " بلقاسم أعدوكة " ويقع الغوط في الجهة الشرقية من الوادي، فحفرنا عن السلاح وجعلناه في الغراير، وحمل كل واحد سلاحه الفردي مزودا بالذخيرة لحراسة القافلة أثناء الطريق، واتفقنا أن تنطلق القافلة بالليل، إذ يأتي الرجلين (الحمارين) اللذين أرسلنا من طرف محمد عصامي، بالإبل بعد الغروب إلى غوط أعدوكة لحمل الغراير دون أن يعلموا ما بداخلها، وكانت 07 جمال، وكان خروجنا بعد العشاء وحرصنا أن نبتعد خلال سيرنا عن العمران، وعزمنا على المسير بدون توقف حتى نخرج نهائيا من المناطق المسكونة، وسلكتنا الطريق الشرقية المعروفة والتي تبدأ من قرية البهيمة وسيدي عون، واستمر سيرنا طوال الليل وحتى وقت الظهر من اليوم الموالي، وحيث أننا توقفا في مكان به الشجر والحلفاء والحشائش التي تحتاجها الإبل، واستغرق بعضنا في النوم مع تعيين فردين للحراسة، وبعد المكوث 03 ساعات تناولنا بعض الطعام الذي

حضرناه في عين المكان، واستأنفنا المسير مرة أخرى، وكان الوصول ليلا في اليوم الثالث إلى زريبة حامد، فتم تخزين السلاح في إحدى البيوت، واتفقنا على مغادرة القرية قبل طلوع الفجر، إلى مدينة بسكرة بالحافلة لإتمام الأمر مع عصامي. وبقيت تلك الأسلحة في زريبة حامد لمدة شهر، ثم حولت إلى الأوراس، من طرف مصطفى بن بولعيد ومحمد مدور وفرد آخر، وتم نقلها بواسطة البغال لأنها الأنفع لتلك المناطق، وخزنت في منطقة أريس تحت رعاية مصطفى بن بولعيد إلى زمن انطلاق الثورة...⁽⁶⁸⁾ ويذكر محمد عصامي بعض تفاصيل العملية السابقة بقوله: "... وأمرنا بلوزداد محمد بان نبعث بهذه الكمية إلى الأوراس، فاستدعيت المحب للحركة الوطنية حمودي محمد الصغير - وهو حاليا إمام في قرية زراعية بطوماس بين ازريبة الوادي وازريبة حامد من عرش أولاد بوحديجة - وجاء إلى بسكرة وأعطيته الثمن لشراء الشعير وكراء البعير لكي يذهب إلى وادي سوف للإتيان بالسلاح. وسبق أن تفاهمت مع ميلودي أحمد وعبد القادر العمودي وبشير بن موسى وميهي محمد بلحاج على أن ينتظروه في وادي سوف. وكان ما قصدنا، فوجدهم حاضرين جميعا، وعلى أتم الاستعداد، فباعوا الشعير وملأوا الأكياس بالسلاح والخرطوش، وحملوه على الجمال، وجاءوا جميعا مع القافلة، وبلغ عدد القطع الحربية 103 قطعة... وبعد ذلك وصلوا في ماي 1948 م الموافق 1368 هـ إلى طوماس، ووضعوه في مطامير الشعير، وأهالوا عليه التراب، وبقي في السر إلى أن جاء مصطفى بن بولعيد من الأوراس. وأنبه بأن بلوزداد محمد امرني بأن أسلم إلى مصطفى بن بولعيد 50,000 فرنك لشراء البغال على أن يحمل عليها السلاح من طوماس إلى جبال الأوراس. وقسم ورقة من نوع " عشرين فرنكا " إلى قسمين: نصف منها أسلمه إلى ابن بولعيد ونصف منها أسلمه إلى من أخفينا عنده السلاح بطوماس وهو الأخ حمودي محمد الصغير بلعيد." ⁽⁶⁹⁾

ب) نقل السلاح على متن الحافلات والشاحنات: عندما كثفت السلطات الفرنسية رقابتها على القوافل، غيرت طريقة التحويل في الفترة ما بين 1950 - 1954 من وادي سوف إلى بسكرة باستغلال الشاحنات ⁽⁷⁰⁾ والحافلات، وخصوصا الأسلحة الصغيرة الحجم كالمسدسات والذخيرة والمتفجرات، فكانت توضع في صناديق التمر والشاي وأكياس تمر " دقلة بيضاء " بينما تلف البنادق في ملاحف (أغطية)، وتغلف بحصائر لمن يبحث عن العمل من المسافرين، وبعد أخذ تذكيرة السفر من المدعو النوبلي العروسي الذي كان يعمل بشركة المسافرين والذي سهل العملية، تستقبل الأسلحة في بسكرة في الغابة أو في محطة المسافرين ⁽⁷¹⁾.

ومما أكده محمد عصامي في هذا الشأن بقوله: " وقد اشترينا 35 قطعة من السلاح الحربي مع زادها من الخرطوش من وادي سوف، وضعنا عشرة منها ملفوفة داخل الحصير و " الحنبل " و25 وضعناها في صندوق. وقام بنقل هذا السلاح عصامي محمد(الراوي) وأحمد زرقوني(كذا) حيث حملاه في حافلة امعمر من وادي سوف إلى بسكرة وأخفياه في دار زرقوني احمد، وبعد مدة حاولنا إرساله إلى قسنطينة، وقد التزم باخذه عبد الحفيظ بلبكري...⁽⁷²⁾ بينما تظهر شهادة عبد القادر العمودي بعض الجوانب الأخرى للعمليات المتكررة:

" وكنا نرسل السلاح في فترات متقطعة في الحافلة في شكاير دقلة بيضاء وأحيانا في صناديق التمر أو في فراش وحصائر بعض المسافرين، وحتى العمال في شركة الحافلة ومنهم العروسي النوبلي، وكذلك في بسكرة كنا على تنسيق معهم في تسهيل العمليات المذكورة.

وشركة النقل تدعى شركة دقليون " Doglione " وصاحبها إيطالي، في الوقت الذي كنا نتجنب شركة احلاسة للنقل لأن صاحبها جزائري وتكون مراقبة أكثر من طرف السلطات، كما أرسلنا بعض السلاح في شاحنات تابعة لشركة دقليون. والذين يستقبلون الأسلحة في بسكرة هما أحمد الزقوني الذي يملك مخازن هناك، ومحمد عصامي، وعندما تتجمع كمية معتبرة من السلاح ينقل إلى أصحابه في الشمال...⁽⁷³⁾ ومنها مدن الشرق الجزائري:

" وهذا السلاح يحول إلى قسنطينة على متن شاحنة عبد الحفيظ بلبكري للنقل العمومي تحت رعاية عمار بوجريدة، قائد ولاية قسنطينة، وهذا يستقبلها من طرف عبد الرحمان قراس، ومحمد مشاطي، وعبد السلام حباشي، والثلاثة من المنظمة الخاصة، ثم توزع من طرف قائد قسنطينة ما بين عنابة، وسكيكدة، والسمنود، وسطيف، وقسنطينة، ويستعمل في تدريب أعضاء المنظمة الخاصة أولا، ولاحقا لتفجير الثورة...⁽⁷⁴⁾

كما تم نقل وسائل المتفجرات من طرف عبد القادر العمودي في فترات متقطعة، فوق الحافلة، وفي بعض الأحيان في يده، ونقلها من بسكرة إلى مصطفى بن بولعيد بآريس، وقد تحدث العمودي عن مصير تلك المتفجرات بقوله: " .. وقد قمنا بتريص لصنع القنابل في مزرعة مصطفى بن بولعيد الكائنة في فم الطوب) بالقرب من باتنة) ومكثنا ثلاثة أيام، وقد أحضرت بعض المناضلين من المنطقة التي كنت أشرف عليها، وجاءنا مدرب مختص في صنع المتفجرات أرسلته

المنظمة الخاصة، وفعلا صنعنا بعض القنابل، والشيء الذي حفظته من هذا الدرس: لا بد من وجود الصاعق والفتيل. والجدير بالذكر أن كمية من القنابل التي صنعناها، كانت مخزونة بمحل تجاري بباتنة، ولسبب ما تفجرت في وسط المدينة، فسجن صاحب المحل، ومعه مدور محمد، وتكشف البحث عن مصطفى بن بولعيد، الذي كنت معه في الجزائر، وعن طريق رشوة قدمت لبعض السلطات، أوقف تعذيب المساجين وأطلق سراحهم، وتلقينا الخبر ونحن في الجزائر..⁽⁷⁵⁾

الخاتمة

لقد أظهرت الدراسة السابقة أبرز الجوانب الاستراتيجية في تاريخ الحركة الوطنية وكشفت عن تجربتها الموفقة في التحضير والإعداد للكفاح المسلح، وحددت موقع السلاح ضمن التخطيط، والصعوبات والمخاطر التي اكتنفت عملية جمعه وترحيله، والتي ذلت في آخر الأمر لتحلي المناضلين بالصبر والتضحية، والروح المعنوية المرتفعة، وتحمل التبعات المادية. وما يمكن استنتاجه من الموضوع:

* أن منطقة وادي سوف بتجاربها السابقة في عملية التهريب منذ القرن 19م، وخلال النصف الأول من القرن 20م، تمكنت من إتقان أساليب التخفي والتمويه، واستطاعت تجاوز مراكز المراقبة الاستعمارية في الفضاء الواسع ما بين ليبيا وتونس والدول المجاورة لها، وقد سهل ذلك مهمة المنظمة الخاصة في الحصول على كميات أولية من الأسلحة. من مخلفات الحرب العالمية الثانية. ما بين 1947-1948، واستعملت فوراً في تدريب المناضلين بوادي سوف والزاب ومنطقة الأوراس على وجه الخصوص.

* تم استغلال كل وسائل النقل من قوافل الجمال والبغال، والسيارات والشاحنات، وسلوك كل الدروب الموصلة للهدف سواء كان موقعا لتواجد الأسلحة، أو المناطق الداخلية التي جمعت الأسلحة من أجلها، مع السهر التام على حفظها وإخفائها بالمناطق النائية، أو دفنها تحت الأرض، وكان التخزين. في بعض الأحيان. يترتب عنه تلف بعض الأسلحة، وتم اكتشاف ذلك عند استعمالها في الكفاح.

* خضوع عملية التجميع لمخطط واستراتيجية مرسومة بدقة من قادة المنظمة الخاصة، وأشهرهم محمد بلوزداد، وآيت أحمد، ومحمد بوضياف، ومحمد العربي بن مهيدي، وعبد القادر العمودي ومحمد عصامي، وميهي بلحاج. وأحاطت السرية التامة بتلك العمليات، مع الإسراع في مواجهة مختلف الأخطار وخاصة

بعد حادث تبسة 1950، عندما القي القبض على احد المحولين للسلاح إلى وادي سوف في الأراضي التونسية سنة 1951، وأدخل إلى السجن بسبب تلك العملية.

* مساهمة سلاح وادي سوف في تفجير الثورة في مناطق الشرق الجزائري، وقد شكل جزءا هاما من سلاح الأوراس الذين كانوا " يتنافسون في الحصول عليه، إلى أن بلغ بهم الأمر أن يسخروا من الذين يملكون بندقية صيد فحسب، بحيث يعتبرونهم متخلفين سياسيا" (76).

والجدير بالذكر أن منطقة وادي سوف لم تكن الوحيدة في تلك الفترة في توفير السلاح، بل إن منطقة الأوراس جلبته من طرق أخرى من تونس عبر صحراء النمامشة، وعموما فإن السلاح الذي جمع من مختلف الاتجاهات الجغرافية، هو في النهاية سلاح ساهم في جمعه أفراد المنظمة السرية من مناطق جسدت الوحدة الوطنية، وأبرزت التكامل بين أبناء الوطن الواحد، من أجل هدف واحد محدد، هو الوصول إلى انطلاق الكفاح المسلح، وتفجير الثورة في وجه المستعمر الفرنسي، بسلاح قديم قليل، أخذ في التزايد في مستقبل الأيام، بمواصلة الاستراتيجية مع مراعاة المتغيرات المحلية والدولية، تحت إشراف وزارة التسليح، واستمر ذلك إلى يوم الاستقلال.

- الهوامش:

- (1) محمد العربي الزيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2. الجزائر. 1984. ص 32. ص 68.
- (2) Capitaine Roger leselle – les noirs du Souf – Supplement au bulletin de liaison Saharien-SD. p 08
- (3) C 1. Bataillon – le souf etude de geographie humaine- .institut de recherches Sahariennes. Université d'Alger. 1953.M2.p98.
- (4) بلاد السودان: المقصود بها يومئذ أقطار مالي والنيجر وشمال نيجيريا.
- (5) د. يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث، ط1، قسنطينة. 1980. ص ص 271 – 272.
- (6) ويذهب إليها عن طريق سيدي عقبة وعين الناقة .
- (7) محمد العربي الزيري، المرجع السابق. ص 156 .
- (8) Commandant Couvet – Notes sur le souf et les souafa – Bulletin de la societ  de geographie d'Alger. 1934. P79 -80.
- (9) C. Roger leselle . op. Cit. p 8.
- (10) C. Roger leselle . op. Cit. p 9 - C. Couvet – Notes. p 80.
- (11) غات: واحة ليبية جنوب غرب فزان، وهي واقعة على الحدود الليبية الجزائرية ومتاخمة للتاسيلي، وهي سوق للتوارق ومركز تجاري هام يجتمع فيها التجار من مختلف أنحاء إفريقيا.
- (12) كانو: مدينة في شمال نيجيريا الحالية. وكانت من أكبر المدن السودانية وهي مشهورة بصنع الأقمشة القطنية والأحذية وتجارة الرقيق.
- (13) تمبكتو: مدينة في مالي الحالية وهي عاصمة إمبراطورية سنغاي خلال القرنين 15 – 16 م وكانت خلال القرن 19 مركزا تجاريا هاما.

- (14) محمد العربي الزيري، المرجع السابق. ص 164.
- (15) محمد المرزوقي، دماء على الحدود - الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1975، ص 102.
- (16) Rapport de chef du bureau des affaires indigènes de kebili à m. Le Résident général de la République française à tunis (19 Des 1914)
- أنظر سلسلة الوثائق التاريخية الفرنسية رقم 17، وثائق مركز جهاد الليبيين، ترجمة خالد زكي ثابت، ط1، طرابلس، 1996، ص 61-26.
- (17) Rapport de Contoleur Civil suppleant chef de l' annexe de Tozeur à m. Le Résident général de la République française à tunis (13 jan 1915) S:A C:279 D: 17 (A N T).
- (18) أنظر: محمد المرزوقي، صراع مع الحياة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1973، ص 63. وثائق غدامس التجارية والتاريخية والاجتماعية، جمع وتحقيق بشير قاسم يوشع، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1995، الصفحات: 90-91، 100-101، 123، 192، 260.
- (19) لقاء مع السيد أحمد خراز بيبته بالوادي يوم 04 / 06 / 2002.
- (20) نيكو كليسترا، تدهور التنظيم القبلي في سوف، في: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج 5، ص 18.
- (21) أنظر: « بيان بعض الغارات من أناس الشرق على أناس طرود » وثيقة أهلية توجد في مديرية المجاهدين، بالوادي. ص 02.
- (22) علي غنابزي، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، جامعة الجزائر أبريل 2002. ص 51.
- (23) د. يحي بوعزيز، « تهريب الأسلحة عبر الحدود للمقاومة الجزائرية لمحاربة جيش الاحتلال » محاضرة مخطوطة. قدمت في المنتدى الوطني الأول حول قوافل التسليح لثورة أول نوفمبر. 1954 بالوادي من 19 - 20 مارس 1999. ص 02.
- (24) Luis Rinn - Histoire de l'insurrection de 1871 en Alger - Alger. 1891. p 486.
- (25) د. يحي بوعزيز، كفاح الجزائر من خلال الوثائق، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، 1986، ص 270.
- (26) يحي بوعزيز، تهريب الأسلحة عبر الحدود - ص 04.
- (27) C. Cauvet - Notes. p 81.
- (28) نيكو كليسترا، المرجع السابق، ص 17-20.
- (29) Lettre de Gouverneur de l'arab à Le Ministre Résident à Tunis (28) avr 1888) . S: D. C:278. D: 04. (A N T).
- (30) أنظر: المراكز الاستعمارية والمهام التي تقوم بها، المنظمة الوطنية للمجاهدين، تقرير الأمانة الولائية بالوادي (ب ت).
- (31) C. Roger leselle . op. Cit. p 27 - C. Cauvet - Notes. p 76.
- (32) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ص 106.
- (33) علي غنابزي، الكفاح السياسي والعسكري للثورة التحريرية بالصحراء الجزائرية 1954 - 1962، أوت 1994، (مخ)، ص 76.

- (34) أنظر: محمد حري، جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، تر: كميل قيصر داغر، دار الكلمة للنشر، ط1، بيروت، 1983، ص 49. ومحمد الطيب العلوي، مظاهر المقاومة الجزائرية 1830-1954، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص 233، 238.
- (35) السعيد إدريس هو أخ الشهيد السعيد عبد الحفي، واصله من وادي سوف وكان يملك محلا لبيع التبغ بشارع محمد العربي بن مهيدي بقسنطينة (قديما شارع فرنسا).
- (36) محمد عصامي: عضو اللجنة المركزية لحزب الشعب، وكان يقطن مدينة بسكرة، وعرف بنشاطه الثوري في محور الزاب والأوراس والصحراء ومنها وادي سوف وقد زارها عدة مرات. (37) BEN KHEDDA Benyoucef – LES ORIGINES DU 1er NOVEMBRE 1954 – editions DAHLEB, Alger, 1989, pp 131-132. EL-HACHEMI TRODI – Larbi ben M'HIDI L'homme des grands rendez-vous- ed ENAC. Alger.1991. p86.
- (38) أنظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1990، ج3، ص 106 – 107. علي عون أبو موسى، مساهمة وادي سوف في تفجير ثورة التحرير بالسلاح والعتاد، محاضرة قدمت بدار الثقافة بالوادي 1/5/1992. توجد ضمن مدونة محاضرات الندوة الفكرية الخامسة محمد الأمين العمودي، ماي 1992، ص 26.
- (39) يذكر محمد عصامي في شهادته المدونة، «أن أحمد محساس سلمه 300 ألف فرنك من طرف محمد بلوزداد» أنظر الشهادة ضمن مدونة: مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية 1374 هـ – 1954 م، إنتاج جمعية أول نوفمبر لتخليد وحماية مآثر الثورة في الأوراس 1420 هـ – 1999 م، باتنة، مطبعة دار الهدى عين مليلة، ص 488.
- (40) BEN KHEDDA Benyoucef, OP-CIT, P 132.
- (41) هو مسؤول المنظمة بالوادي المجاهد عبد القادر العمودي.
- (42) Hocine Ait Ahmed – Mémoires d'un combattant, L'esprit d'indépendance 1942-1952, ed. Bouchene, alger, 1990, pp164-165.
- (43) محمد حري، المرجع السابق، ص 49.
- (44) OP-CIT, P 165. Hocine Ait Ahmed,
- (45) ميهي محمد بلحاج: هو ميهي البشر بن عبد القادر المدعو (محمد بلحاج) ولد بالوادي سنة 1919، وينتمي إلى عائلة ميسورة الحال، وتنتمي إلى الطريقة القادرية، وقد درس بالزاوية، واحتك بشيوخها وتشبع بالروح الثورية التي كان يمتاز بها شيخ الزاوية عبد العزيز الشريف والذي قاد جمعية العلماء ما بين 1937-1938. وهو أحد مؤسسي الخلية الأولى لحزب الشعب بوادي سوف، وحضر مؤتمر بلكور في فبراير 1947. أنظر: أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 106. علي بوصيب، محمد بلحاج الرجل الذي مكن ثورة التحرير من أول دفعة سلاح، في جريدة الشعب، العدد 13919، 23 مارس 2006، ص 10.
- (46) شهادة مسجلة أدلى بها المجاهد وادة علي بن الضيف للأستاذ بوراس طليبة بالوادي.
- (47) علي عون أبو موسى، المرجع السابق، ص 29.
- (48) شهادة وادة علي بن الضيف السابقة.
- (49) شهادة قدمت للمسمى غندير البشير من إدارة المصالح السجنية بتونس بتاريخ 20 أوت 1979.

- (50) علي عون أبو موسى، المرجع السابق، ص 29.
- (51) BEN KHEDDA Benyoucef, OP-CIT, P 132.
- (52) لقاء مع المجاهد عبد القادر العمودي بدار الثقافة بالوادي يوم 7 / 9 / 1997.
- (53) OP-CIT, P 165. Hocine Ait Ahmed,
- (54) شهادة محمد عصامي، المرجع السابق، ص 489.
- (55) BEN KHEDDA Benyoucef, OP-CIT, P 132.
- (56) تصريح محمد بوضياف، أنظر: محمد حربي، المرجع السابق، ص 49.
- (57) أنظر: محمد حربي، المرجع السابق، ص 49. مسعود كواي، منطقة وادي سوف وتهريب الأسلحة للحركة الوطنية 1946-1956، في: مجلة القباب، دار الثقافة بالوادي، عدد خاص، 2005، ص 31.
- (58) عمار قليل، ملحمة الجزائر الجديدة، دار البعث، ط 1، قسنطينة، 1991، ج 1، ص 198. محمد الطاهر عزوي، الإعداد السياسي والعسكري للثورة في الأوراس أول نوفمبر 1954 م، 1374 هـ، ضمن: مدونة مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، مرجع سابق، ص 626-627.
- (59) C. BATAILLON. OP-CIT. p 99.
- (60) أنظر: عبد الحميد بسر، منطقة وادي سوف وتهريب الأسلحة للثورة التحريرية 1945-1957-الوادي 19 افريل 2006، بحث غير منشور، ص 04.
- (61) أنظر: لقاء مع المجاهد عبد القادر العمودي بدار الثقافة بالوادي يوم 8 / 9 / 1997.
- Declaration dur l'honneur – de M. Le combattant OUNISSI MOULDI, légaliser à l'apc d' EL-MILIA. Le 11 mars 1970.
- (62) لقاء مع المجاهد عبد القادر العمودي بدار الثقافة بالوادي يوم 8 / 9 / 1997.
- (63) علي عون أبو موسى، المرجع السابق، ص 29.
- (64) نفسه، ص 30.
- (65) لقاء مع المجاهد عبد القادر العمودي بدار الثقافة بالوادي يوم 9 / 9 / 1997.
- (66) لقاء مع المجاهد عبد القادر العمودي بدار الثقافة بالوادي يوم 7 / 9 / 1997.
- (67) وهي زريبة الوادي وزريبة حامد وخاصة هذه الخيرة كانت المركز الإستراتيجي للسلاح يومئذ. أنظر: العقيد الحاج لخضر - قبسات من ثورة نوفمبر 1954 كما عايشها - كتابة الطاهر حليس، دار الشهاب، باتنة (ب ت) ص 48.
- (68) لقاء مع المجاهد عبد القادر العمودي بدار الثقافة بالوادي يومي 9 / 8 / 1997.
- (69) أنظر: مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، المرجع السابق، ص 489-490.
- (70) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 3، المرجع السابق، ص 107.
- (71) علي عون أبو موسى، المرجع السابق، ص 29.
- (72) أنظر: مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية، المرجع السابق، ص 489.
- (73) لقاء مع المجاهد عبد القادر العمودي بدار الثقافة بالوادي يومي 9 / 9 / 1997.
- (74) BEN KHEDDA Benyoucef, OP-CIT, P 133.
- (75) لقاء مع المجاهد عبد القادر العمودي بدار الثقافة بالوادي يومي 9 / 9 / 1997.
- (76) أحسن بومالي، استراتيجية الثورة الجزائرية في مرحلتها الأولى 1954-1956، منشورات متحف المجاهد، الجزائر (ب ت)، ص 79.

دور منطقتي وادي ريغ ووادي سوف
في دعم وتمهين منطقة الأوراس قبيل وخلال الثورة التحريرية

بقلم

أ/ رضوان شافو

قسم التاريخ - معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية
المركز الجامعي بالوادى



ملخص

يتناول هذا المقال العلاقة التاريخية بين منطقة الجنوب الشرقي الجزائري ومنطقة الأوراس، وذلك بحكم الامتداد الجغرافي بين المنطقتين، ويهدف هذا المقال إلى إبراز الدور الذي لعبته كلاً من منطقتي وادي ريف ووادي سوف في الثورة التحريرية من خلال الدعم المالي والعسكري لمنطقة الأوراس.

Résumé :

Cet article examine la relation historique entre le sud-Est de l'Algérie et les Aurès, en raison de l'extension géographique entre les deux régions. Cet article vise à souligner le rôle joué par la région d'oued Souf, ainsi que la région d'oued Righ pendant la révolution de la libération par in Soutien financier et militaire de l'Aurès.

مقدمت

لقد تناول العديد من المفكرين والباحثين في مجال الدراسات التاريخية من خلال بحوثهم الأكاديمية عدة قضايا ومواضيع متعلقة بتاريخ الجزائر العسكري خلال الاستعمار الفرنسي، غير أنه يبدو لنا ومن خلال قراءتنا لبعض الدراسات والبحوث أن معظم الباحثين انصبَّ اهتمامهم حول المراحل الكبرى لنضال الشعب الجزائري ضد الاستعمار الأجنبي، وقلَّ اهتمامهم حول التاريخ المحلي الخاص بالمدن والأقاليم والمناطق، ولم يكن تَطَرُّفهم إليها سوى إشارات تعريفية،

لان مثل هذه الدراسات الإقليمية تقدم لنا المادة الأولية التي يمكن أن نستخلص منها الخطوط العريضة للتطور التاريخي للبلاد، ومثل هذه الدراسات أيضا مهمة في تاريخ الجزائر انطلاقا من أعماق الشعب الجزائري وواقعه، ونخص بالذكر هنا منطقة الأوراس قلعة الصمود ومنيع الأحرار الوطنيين، ومصنع الأمجاد من تقويض الاستعمار الروماني الشرس، والبيزنطي، وفي صدر الفتح العربي الإسلامي إلى تفجير الثورة نوفمبرية ضد الغاصبين الفرنسيين، ومن بيداس، وتاكفاريناس إلى مصطفى بن بولعيد، وعباس لغرور، وصدق أحد شعراء الأوراس حين قال واصفا الشراسة الأوراسية :

وصفق ديك الحرب مني جناحه وأطلق في الأجواء أول طلقة
فخرت جيوش الغرب صرعى كأنها من الذعر خفاش هنا تحت ربوتي
هنا ثورة التحرير بالليل أعلنت جهارا على أشلاء حر وحره

وقد ارتأيت أن أسلط الضوء على منطقتين في الجنوب الشرقي (وادي سوف ووادي ريغ) بحكم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تربط بين المناطق الثلاث، أضف إلى أنهما كانتا إحدى القواعد الخلفية للتموين وتخزين السلاح قبل نقله إلى الأوراس عن طريق قوافل الجمال من وادي سوف أو عن طريق خط السكة الحديدية الرابط بين وادي ريغ ثم مشونش الى قسنطينة قبيل وخلال الثورة التحريرية. أضف إلى ذلك أن معرفة أهل وادي ريغ ووادي سوف للطرق الصحراوية التجارية وصلاتهم بأهل تونس وليبيا قد ساعدهم على أن يلعبوا دورا هاما في توفير السلاح للثورة قبل اندلاعها ثم في مراحلها الأولى، أي قبل أن تتعدد مصادر السلاح وتتنوع وسائل نقله.

وانطلاقا من هذا التقدير، ومساهمة مني وضعت إشكالية جوهرية لهذه الورقة ضمن إطارها التاريخي، والمتمثلة فيما يلي : هل كان لمنطقتي وادي سوف ووادي ريغ دور في التحضير لتفجير الثورة بالأوراس؟ وإن كان كذلك. فما هي أهم مظاهر هذا الدعم والتموين؟

وإجابتنا على هذه الإشكالية يندرج ضمن العناصر التالية :

1. تحديد المفاهيم الجغرافية للمناطق
2. نماذج من مظاهر التموين والتسليح
3. خلاصة واستنتاجات

1 - تحديد المفاهيم الجغرافية للمناطق:

1.1 : منطقة وادي ريغ :

تتميز هذه المنطقة بموقعها الاستراتيجي باعتبارها حلقة وصل بين الجنوب الشرقي والشمال الشرقي للقطر الجزائري، وضمن الإطار العام للصحراء الكبرى تتموقع منطقة وادي ريغ، تحديدا في الركن الشمالي الشرقي للصحراء الجزائرية، هذه المنطقة المنخفضة من الصحراء غنية بالمياه الجوفية الارتوازية والتي سمحت بالحياة ونشأة الواحات المسقية بالمياه الارتوازية القريبة من السطح، ويعتبر وادي ريغ أحد المكونات الرئيسية للصحراء المنخفضة التي تضم مناطق الزيبان ووادي سوف ومنخفض ورقلة، فهو إقليم مستطيل الشكل طوله حوالي 160 كلم وعرضه يتراوح بين الثلاثين والأربعين كلم، ويبدأ شمالا من عين الصفراء قرب بلدة أم الطيور، وينتهي جنوبا بقرية (القوق) قرب بلدة عمر جنوب تقرت⁽¹⁾.

ويحد الإقليم من الشمال شط ملغيغ، ومن الجنوب ورقلة، ومن الشرق العرق الشرقي الكبير، ومن الغرب منحدر حصوي وهضبة وادي ميزاب⁽²⁾، ويحدد الإقليم بخط عرض 32.54 و 34.09 شرقا، ويبعد بـ 618 كلم عن الجزائر العاصمة، و 161 كلم عن ورقلة، و 171 كلم عن حاسي مسعود، و 95 كلم عن الوادي، و 220 كلم عن بسكرة.

أما من ناحية التسمية فلقد اختلف الرحالة والمؤرخون العرب القدامى في ذلك، فقد سماها ابن خلدون في تاريخه «بلاد ريغ» أو «أرض ريغ». وسماها ياقوت الحموي في معجمه بالزاب الصغير أو ريغ⁽³⁾.

وتضم منطقة وادي ريغ أكثر من 35 مدينة وقرية ودشرة تشكل في مجموعها واحات وادي ريغ ومنها :

- منطقة المغير التي تضم كلا من : (أم الطيور، والنسيغة، وسيدي خليل، والبارد، وتندلة، والمغير).

- منطقة جامعة التي تضم : (لغفيان، والزواية، ومازر، وتقديدين، وسيدي عمران، وتمرنة، وسيدي يحي).

- منطقة تقرت التي تشمل : (سيدي راشد - اندثرت - وسيدي سليمان، والهريرة، ومقر، والقصور، وغمرة، والمقارين، والزواية العابدية، وتبسست، وتقرت، والنزلة وتماسين، وبلدة عمر، والقوق)⁽⁴⁾.

وتمثل " تقرت " العاصمة السياسية والإدارية لمنطقة وادي ريغ إذ يعود تاريخ تأسيسها إلى القرن الرابع ميلادي في عهد مملكة نوميديا، بينما العاصمة الروحية هي مدينة تماسين⁽⁵⁾ بحكم وجود مقر الزاوية التجانية، وفيما يخص عدد السكان بالمنطقة فقد أشارت بعض المصادر الفرنسية أنه قبل الاحتلال الفرنسي بلغ حوالي 33.930 نسمة، منهم 2.850 من الرحل و8.2 يسكنون ستا وثلاثين قرية⁽⁶⁾.

وحسب أقوال المؤرخين والجغرافيين القدماء بينت أنه كان لهذه المنطقة تاريخ عريق، إذ تعاقبت عليها أمم عديدة منذ العصور الحجرية إلى الفتح الإسلامي لأن التجمع السكاني الأول كان متكونا من قبائل أثنية ذات أصول زنجية⁽⁷⁾ وأيوبية، عاشوا على الحدود الجنوبية لليبياء، وقد دلت الحفريات على أن الزوج عمروا الصحراء الجزائرية منذ ما يقرب من أربعين ألف سنة⁽⁸⁾، إذ عثر علماء الآثار على نماذج من الصناعات الحجرية الرائعة بمدينة تماسين⁽⁹⁾ تعود إلى العصر الحجري الحديث.

أما في العهد القرطاجي فقد شهدت المنطقة حركة تجارية واسعة بين المناطق الشمالية والصحراوية وأقيمت أسواق نشيطة ومزدهرة على تخوم الصحراء وبالأخص على ضفاف شط ملغين من أجل تبادل السلع المختلفة التي كانت تحملها القوافل إلى هذه المراكز⁽¹⁰⁾.

ولم تخضع المنطقة للسيطرة الرومانية بحكم أن الاستعمار الروماني لما أنشأ شبكة الأبراج والحصون على امتداد الطرق التجارية توقف عند " برج مليلي " القريب من بسكرة، ولم يعثر على أي برج عبر منطقة وادي ريغ للوحدات العسكرية التي كانت تجوب المنطقة لحراسة وتفقد طرق التجارة.

أما في فترة الفتح الإسلامي فلم تحدد الوثائق التاريخية بالضبط تاريخ وصول الإسلام إلى المنطقة، إلا أن بعض الروايات تذكر أن المسلمين وصلوا إليها في النصف الثاني من القرن السابع ميلادي (1هـ، 7م)، عندما حل عقبة بن نافع على رأس جيش الفتح الإسلامي، ومن هناك انتشر الإسلام عبر كافة المنطقة،

ومنذ منتصف القرن السادس عشر ميلادي (10هـ، 16م)، عاد توحيد المنطقة من جديد تحت راية بني جلاب بقيادة الشيخ سليمان بن رجب المريني الزناتي الجلابي الذي تربع على كرسي المشيخة - تسمت الإمارة باسمه لأنه المؤسس الأول، حيث وجد الفوضى والحروب منتشرة في مختلف ربوع وادي ريغ، فقام بإخماد تلك الحروب وجعل المنطقة تحت حكمه، ليرثها من بعده أبناؤه

وأحفاده، وبذلك بدأت سلطنة بني جلاب في المنطقة أي منذ سنة 1531م، واستمرت هذه السلطة أكثر من ثلاثة قرون إلى غاية سقوط المنطقة في أيدي القوات الفرنسية عام 1854 م .

1. 2: منطقة وادي سوف :

وادي سوف منطقة ذات تاريخ عريق، وهي تحمل اسما مركبا من كلمتين : وادي، وسوف، وهي ذات عدة معاني دلالية تنسجم مع طبيعة المنطقة وخصائصها الاجتماعية والتاريخية.

إن كلمة سوف تعني النهر المائي، حسب ما ورد في الأساطير القديمة التي تطلق على نهر كان يجري بالمنطقة من الشمال إلى الجنوب، ويدعى " واد زوف Oued Zouf " أي النهر الوافر الماء، والذي كان يجري بالمنطقة فغار في أعماق الأرض، ولم يبق إلا أثره، فتغير اسمه إلى " وادي سوف ". كما أن كلمة وادي سوف في لغة الزناتيين البربر تعني النهر، وبعد إجراء مطابقة بين هذه الكلمة والكلمات البربرية القديمة (Souf) (Asouf) ذات المعنى في البربرية الحديثة أسيف (Asif) نجدها توافق معنى "الوادي" أو بمعنى أشمل "النهر" كما تتقاطع نفس الكلمة " وادي سوف " مع اللهجة التارقية في النهر الأبيض.

ويقع إقليم وادي سوف جنوب شرق الجزائر، وهو جزء من العرق الشرقي الكبير، يحده من الشرق نفطة ونفزاوة، وهي حدود تونسية، ثم بئر رومان وغدامس، ومن الجنوب واحات غدامس على الحدود الليبية، ومن الغرب وادي ريغ (تقرت - وتماسين) وورقلة، ومن الشمال بلاد الزاب بسكرة، ليمتد إلى جبال الأوراس والناماشة وإلى منطقة تقرين. أما موقعه الفلكي، فهو يقع بين خطي طول 6° و 8° شرقا وبين دائرتي عرض 32° و 34° شمالا، في حين يبلغ الامتداد من سبيل في الشمال إلى غدامس جنوبا حوالي 620 كلم، وتبلغ مساحة وادي سوف 82.800 كلم². والإقليم محاط طبيعيا بشطوط عديدة وهي : شط مروان وشط ملغيغ، وشط الغرسة من الشمال، وشط الجريد من الجهة الشرقية، وشط وادي ريغ بالغرب⁽¹⁾.

2. نماذج من مظاهر التموين والتسليح:

لقد ارتبطت منطقتي وادي ريغ ووادي سوف بروابط تاريخية أبدية بمنطقة الأوراس منذ عقود خلت، فلما وقع الاحتلال تحولت هذه المناطق إلى قاعدة خلفية للمقاومة الشعبية، وبالتالي فإن الأهالي كانوا على أتم الاستعداد للعمل العسكري في البدايات الأولى لاندلاع الثورة التحريرية، لكون أن هذه القابلية الوطنية هي امتداد

تاريخي للمقاومة الشعبية منذ 1854 بقيادة كل من الأبطال سلمان الجلابي والشريف محمد بن عبد الله والشريف بوشوشة وناصر بن شهرة وبوشمال بن قبي.

وتجدر الإشارة هنا إلى وجود سؤال قد تداول بين عامة الناس وعند بعض الباحثين وهو: هل غيّت أم غابت الصحراء في التقسيم الأول للمناطق قبيل اندلاع الثورة؟ وهذا السؤال منطلق من أن جبهة التحرير الوطني اكتشفت أهمية الصحراء إلا بعد مؤتمر الصومام سنة 1956.

يبدو لنا أن هذا السؤال في طرحه مغالطة تاريخية لا يستند إلى أدلة تاريخية، ويفتقر إلى الموضوعية، والحقيقة التاريخية هي أن الصحراء الجزائرية كانت حاضرة في أذهان القادة الستة خلال اجتماع 24 أكتوبر 1954، وهي إستراتيجية اتبعتها اللجنة الثورية للوحدة والعمل تجنباً لعدة عراقيل قد تعترض تفجير الثورة، ويذكر عمار قليل في كتابه "ملحمة الجزائر الجديدة"⁽¹²⁾ أن التقسيم الذي اعتمده القادة الستة أملت ظروف الثورة التحريرية في مرحلتها الأولى والتي لم تستدعي التفكير في جعل الصحراء منطقة مستقلة، بل وعمدت إلى تقسيمها على مختلف المناطق المتاخمة للصحراء، وبالتالي فقد كان هذا الأمر متعمداً تبعاً لعدة عوامل أهمها قلة الكثافة السكانية والإمكانات، وفي المقابل حتى تكون قاعدة خلفية للكفاح العسكري مثلما كانت خلفية للمقاومة الشعبية من جهة، وحتى تكون مكاناً لتأمين الثوريين في حالة فشل الثورة. وهنا بيت القصيد. إذ كانت مهمة البعثات التحضيرية لتفجير الثورة إلى هذه المناطق تتلخص في التعليمات التالية: جمع السلاح وتبرعات المواطنين من مال ولباس ومأكل، والتعبئة الثورية لتجنيد الشباب، والدخول مع العدو في معركة إذا اقتضى الأمر.

ولقد أجمع المجاهدون الذين تسنى لنا التّحاور معهم أن عملية تموين الثورة بدأت منذ قدوم الاتصالات الأولى، بل يذكر البعض منهم أنهم هم أول من بدأ بالاتصال بالثوار ناحية الأوراس وبوكميل⁽¹³⁾، بعد أن أرسلوا واردهم محملاً بكمية معتبرة من الأموال، مما يدل على الرغبة الجامحة التي كانت تراودهم في الالتحاق بصفوف النظام الثوري فكانوا يذهبون إليه قبل أن يصل إليهم. وقد تمثلت مظاهر التموين في العناصر التالية:

2. 1: التسليح:

الذي قدمه أهل وادي ريغ، السلاح الذي كان يتم نقله من تقرت عبر القطار الرابط بين تقرت وبسكرة إلى منطقتي مشونش والأوراس بواسطة لخضر بن موسى وعقبة العقبي اللذين كانا يعملان في القطار⁽¹⁴⁾، وقد بادر سكان المنطقة إلى التبرع

بأسلحتهم، خاصة وأن الأسلحة آنذاك كما يذكر المجاهد رابح أرميلي كانت متوفرة لدى أغلب السكان تتراوح بين البندقية الحربية الإيطالية ستاتي⁽¹⁵⁾ إلى بندقية الصيد⁽¹⁶⁾ لاسيما لدى البدو الرحل بمعدل سلاح لكل عائلة وأحيانا لكل فرد بالغ، فالبدو كما نعلم مولع بامتلاك السلاح فهو بالنسبة له تعبير عن الشهامة والرجولة ووسيلة للدود عن الحياض⁽¹⁷⁾. فكان يتم جمع الأسلحة من تبرعات المواطنين، وتخبا في القرائر (أكياس التمر)، ثم يتم تجميعها وتخبيتها في أعالي وادي ريغ لتنتقل عن طريق الجمال نحو بسكرة، أو كما يذكر نحو القائد زيان عاشور في جبل بوكحيل حيث كانوا تابعين له في تلك الفترة⁽¹⁸⁾.

أما أهل سوف فقد أشارت بعض التقارير أن القيادة المكلفة بتفجير الثورة بدأت في الاتصالات بمنطقة سوف منذ 1948، حيث اتصلت ببعض تجار السلاح، وقاموا بتشكيل خلايا سرية لجلب السلاح من الخارج ونقلها عن طريق القوافل إلى جبال الأوراس عبر محطات معينة، وتذكر التقارير أيضا أن الشهيد العربي بن مهيدي اتصل بالسيد "اميهي البشير" المعروف بتجارة السلاح وقام بتوريد قافلة سلاح من خمسة جمال ووضعت الأسلحة في مخبئين في مدينة الوادي الأول عند (عدوكة بلقاسم) والثاني في الرقية عند (البشير جاب الله). وحسب شهادة المرحوم المجاهد وادة علي بن الضيف قائلا⁽¹⁹⁾: «...أنه في حدود سنة 1948 عقدنا اجتماعا بهود الفلويين شرقي بلدة العواشير شمال الرباح، بمعية كلا من السادة محمد بلحاج، عسيلة بلقاسم، محمود بن موسى، قدري عبد الطيب القادر، وفي هذا الاجتماع قررنا الشروع في جمع ما يمكن جمعه من الأسلحة التي بحوزة المواطنين وشراء البعض الآخر، ومن هنا بدأ البحث عن الرجال المناسبين من أولي الخبرة بطرق الصحراء ومسالكها يتحملوا مسؤولية جلب الأسلحة والذخيرة إلى منطقة أعميش، وبعد التحري تم تعيين المناضلين زواري الصادق بن البشير، وتامة الحاج محمد المدعو بالأطرش تحت إشراف محمد بلحاج شخصا الذي كان يتولى عملية الشراء... ليتم نقل السلاح إلى حوش الطلاية جنوب مقبرة أولاد احمد، ومنه إلى أولاد بن خديجة بزيرية الوادي، حيث ينقل بعد ذلك إلى أريس بباتنة مع إثبات الاستلام عند العودة... وتجدر الإشارة أن الأسلحة والذخيرة كانت تحمل على ظهور الإبل في صناديق التمر والغراير (أكياس من الشعر) على شكل قوافل، وأتذكر جيدا بأننا استقبلنا أربعة قوافل تضم كل منهما ما بين 4 و7 جمال يحمل حوالي 50 بندقية...». وكلما اجتمعت كمية من السلاح في سوف وقع نقلها إلى جبال الأوراس. ففي سنتي 1945-1950 نقلت كمية غير محددة إلى أريس عن

طريق زربية حامد من طرف كلا من عبد القادر العمودي وابن موسى البشير، واميهي البشير، وسلمت إلى السيد الصغير الصدراتي الذي كان على صلة بمصطفى بن بولعيد⁽²⁰⁾.

وحسب تقرير الأمانة الولائية للمجاهدين بالوادي فإنه كان يتم تحويل كميات كبيرة من TNT من طرف المناضل ونيسي لمين الذي كانت تزوده بها السلطات الفرنسية لتسهيل عملية حفر الأرض الصلبة لغرس النخيل جهة حاسي خليفة، هذه الكمية التي صنعت بها القنابل الأولى للثورة حيث صنعت في مزرعة بن بولعيد في تازولت وقرية الحجاج⁽²¹⁾.

وصدق شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا حينما خلّد مآثر وادي سوف في إلياذة الجزائر قائلا:

ويا وادي سوف العرين الأمين	ومعقل أبطلنا الشائرين
ودرب السلاح لأوراسنا	وقد ضاقت السبل بالسالكين
أنسى ثلاثة أيام نحس	وسوستال يندب في النائحين
واخضر يحصد حمر الحوا	صل فيها ويقطع منها الوتين
وضرغامها الهاشمي الشريف	يذيق بواز العذاب المهين
وكم كان سوف لضم الصفوف	وجمع الشتات الحريص الضمين

2.2 / التموين المالي :

إن أهل وادي ريغ إن كانوا فقراء لكونهم يعتمدون على الزراعة المعاشية المحلية، فإنهم كانوا أغنياء بالروح الوطنية، فهم يثيرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وحسب شهادات بعض المجاهدين فإن المنظمة المدنية لجهة التحرير بوادي ريغ استطاعت أن توفر مالا من التبرعات وعطاءات السكان. وتديما لدور المنطقة في التموين المالي لا يمكن أن ننسى العطاء السخي للشيخ أحمد التجاني التماسيني، الذي أعطى أمرا إلى ابن حسين وكيل الزاوية بتوزر (القطر التونسي) بتسليم مبلغ هام سنوي من غلة النخيل، إلى الطالب العربي قمودي بهدف التسليح والتموين، وكذلك خصص مبلغا ماليا للقيادة السياسية بالجهة⁽²²⁾، كما يضيف المجاهد محمد بن نعمة أن السعيد عبادو - أحد قادة الثورة بالجنوب الشرقي - كان كل شهر يأتي إلى الزاوية ويأخذ مبلغ يقدر بمليون فرنك⁽²³⁾.

وفي وادي سوف فقد استطاعوا أن يجمعوا مقدارا من الأموال من خلال تبرعات وهبات السكان، ويبدو أن التنظيم المدني السياسي قد لعب دورا كبيرا في

ذلك، وكان المركز الرئيسي لجمع الأموال موجودا على مستوى حاسي خليفة بقيادة طالب بشير (كان هذا سنة 1955).⁽²⁴⁾

2. 3/ التعبئة الثورية لتجنيد الشباب:

لقد تم اختيار الكثير من شباب وادي ريغ للانخراط في صفوف جيش التحرير الوطني، فكانت وجهتهم خاصة الطلائع الأولى منهم جبال الأوراس وبوكحيل وثامر⁽²⁵⁾ وكيمل⁽²⁶⁾... وغيرها⁽²⁷⁾، حيث انضموا إلى الجيوش المنتشرة عبر فيافي الصحراء، والتي حملت أسماء قادتها مثل جيش زيان عاشور، جيش سي الحواس، جيش نور الدين منابي... وغيرها⁽²⁸⁾

وقد ذكر لنا المجاهد ازغيدي محمد بصفته عضو في جيش التحرير الوطني ناحية الأوراس أسماء العديد من أبناء المنطقة الذين التحقوا بالعمل العسكري في تلك النواحي نذكر منهم على سبيل المثال: (خليل عبد الوهاب، شهرة محمد، شهرة موسى، السبع بولعراس، كحيحة أحمد، ازغيدي بلقاسم، ازغيدي معمر، براجح إسماعيل، براجح علي، براجح حشاني، ازغيدي لخضر، النوي صالح، النوي بلقاسم، النوي سعد، دغوش صالح، أحمد فضل، بلحشاني مبروك، ذياب طلحي، سلطاني صالح، سلطاني عبد الله⁽²⁹⁾... ونضيف: أرميلي رايح، محمد زغاد، محمد ارميثة، السبع مبارك، السبع رمضان، فرطاس بوناب، سلطاني عبد القادر...⁽³⁰⁾

ويضيف حشية عمار أن عملية تجنيد البدو الرحل في صفوف جيش التحرير قد ساعدت كثيرا في حل مشكلة التسليح... ويواصل حديثه عن التسليح وعن قوافل تمرير السلاح وما تعرض له من صعوبات ومشاق جمّة، ليصل إلى القول بأن أشهر رجال القوافل كان أحد أبناء وادي ريغ وهو السعيد بازي من أم الطيور، والذي حطم الرقم القياسي في قدرته على التحمل لتسعة أيام بدون أكل⁽³¹⁾.

وفيما يخص وادي سوف فتجنيد الشباب يبدو أنه تحقق نسبيا، إذ عمل الثور على تعبئة الناس نفسيا للثورة، والشباب الذين لم يتح لهم الالتحاق بالثورة رفقة زملائهم في ذلك الوقت التحقوا بها فيما بعد حينما وجدوا الفرصة المناسبة.

2. 4/ الدخول في معركة ضد العدو:

في وادي ريغ يذكر المجاهد احمد غزال المشري عن إشباك وقع في ثلاثة أماكن بين تجار قوافل السلاح والقوات الفرنسية في ماي 1946، قائلا⁽³²⁾: «كانت مجموعة من تجار السلاح قادمة من الجنوب الليبي متوجهة نحو منطقة الاوراس

بمحولة ما يقارب من 35 إلى 40 بعيرا محملين بالسلاح، وعند وصولهم إلى منطقة "سيدي بوجنان"⁽³³⁾ اعترض طريقهم أحد القومية (خائن) وسارع إلى تبليغ حاكم إقليم تقرت آنذاك وهو "الحاكم قا Ga" مما أدى إلى وقوع الاشتباك الأول بين الطرفين في منطقة سيدي بوجنان، وأسفر هذا الاشتباك عن فقدان بعيران من جانب المقاومين، وخسائر في شاحنات العدو، ثم واصلت قافلة السلاح سيرها ليلا نحو الغرب إلى منطقة العلية، وفي الصباح فاجأتهم القوات الاستعمارية في منطقة "زبارة فاطمة" قرب شرق الشقة، إلا أن القافلة استطاعت الفرار مرة ثانية، ليقع الاشتباك الثالث بين الطرفين في منطقة "الخيراني" ما بين الشقة والعلية، ودام هذا الاشتباك من المساء إلى الليل، ونتيجة لشدة المعركة استنجدت القوات الفرنسية بشيخ الشقة لتقديم الدعم لهم، وفي نهاية هذا الاشتباك انقسمت قافلة السلاح إلى جماعتين، الأولى اتجهت إلى عرش الحمايم لأخذ السلاح المخزن، والثانية توجهت إلى وادي النساء».

هذا وتذكر بعض الروايات الشفوية أن الشهيد مصطفى بن بولعيد بعث بأحد ممثله (ولا نعلم من يكون) إلى مناطق الجنوب الشرقي بما فيهم وادي ريغ ووادي سوف طالبا منهم التريث والاهتمام بجمع التبرعات من الأموال والألبسة، وعدم القيام بأي عمل ثوري قد يلفت انتباه القوات الاستعمارية إلى أن تفرض الثورة التحريرية وجودها على أرض الميدان، لأن ارتكاب أية حماقة أو خطأ بهذه المناطق سيؤدي حتما إلى فرض طوق أمني على الحدود الشرقية مما يتسبب في وقف الإمدادات والمساعدات الخارجية التي تأتي من الدول الشقيقة المجاورة.

وبعد تفجير الثورة التحريرية تكثفت الاتصالات بين قيادة المنطقة الأولى بالأوراس والجنوب الشرقي، وفي هذا الصدد روى لنا المجاهد أحمد غزال المشري قائلاً⁽³⁴⁾: «إن مصطفى بن بولعيد لما كان متوجها إلى المشرق العربي توقف بمدينة خنشلة وكان ذلك في 31 جانفي 1955 فعقد اجتماعا لتنصيب قادة النواحي، فعين حم (محمد) لخضر⁽³⁵⁾ على منطقي وادي سوف ووادي ريغ، ولا ندري ما كانت رتبة آنذاك، ولكنه كان في جيش التحرير الوطني، وعليه فقد تكفل حم لخضر بهذه المهمة الصعبة فقام بتكوين ثلاثة خلايا ثورية في أوائل 1955 الأولى خلية وسط تقرت بقيادة بلقاسم بن حمي علي، ثم خلفه حم بوليفة عمران، والثانية خلية شمال تقرت بقيادة الشهيد الطيب بن موسى، وكانت تشمل المقارين، الطيبات، الهرهيرة، مقر، والخلية الثالثة جنوب تقرت بقيادة محجوبي بشير، وكانت تشمل تماسين إلى غاية منطقتي الشقة والعلية».

أما على مستوى وادي سوف فقد أرخت الكتابات المحلية والوطنية لمعركة "غوط شيكة" أوت 1955 التي سقط فيها العديد من الشهداء كانوا قد كلفوا بمهمة من طرف قيادة جيش التحرير في الولاية الأولى المؤلفة من شيحاني بشير وعباس لغرور والأزهر جدري، وذلك بالتوجه من جبال الأوراس إلى منطقة وادي سوف لجلب السلاح وجمع المال، وقد عين على رأس هذه المهمة "حم الأخضر" لكونه ابن المنطقة يعرفها ويعرف أهلها جيدا، إضافة إلى بعض السوافة المعروفين منهم: قريد عبد المالك، الساسي بن داسي، العربي الأغواطي، العربي بوغزالة.. وغيرهم. وهنا لا يتسع المجال لذكر كل تفاصيل المعركة، لكن ما يمكن قوله هو إن الثور انهزموا في هذه المعركة وذلك لعدم تكافؤ العدة والعتاد، فقد استعملت قوات العدو أنواعا مختلفة من الأسلحة منها المدافع والطائرات عندما عجزت قواته عن التقدم، الأمر الذي حتم على الثور الانسحاب من غوط شيكة إلى غوط خماد، بعد استشهاد حوالي 25 مقاوما، ثم نقلوا الجرحى والمثونة (وعدددهم 12) وتوجهوا إلى الشمال في اتجاه جبال الأوراس. وبخصوص خسائر العدو تم إسقاط طائرتين وقتل أكثر من 500 جندي.⁽³⁶⁾

3/ خلاصة واستنتاجات :

من خلال ما سبق ذكره يمكن أن نستشف النتائج التالية :

1/ إن اشتباك " سيدي بوجنان" سنة 1946 بوادي ريغ، ومعركة "غوط شيكة" سنة 1955 هما وجهان من الوجوه الرائعة للثورة التحريرية الكبرى حيث مثلا التضامن والتلاحم الشعبي بين الشمال والجنوب في سبيل دعم مسار الثورة التحريرية.

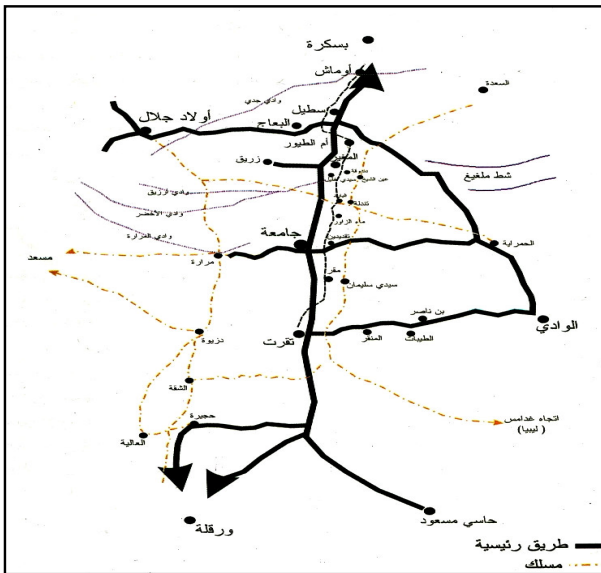
2/ اعتبار مناطق الجنوب خاصة " وادي ريغ ووادي سوف " من المراكز الهامة، لتقديم الدعم المادي والمعنوي للمقاومين ضد فرنسا وذلك بتزويدهم بالموثونة والرجال.

3/ إن أبناء وادي ريغ ووادي سوف لم يقتصر دورهم على الدعم المادي والمعنوي لمنطقة الأوراس فقط، بل لعبا دورا كبيرا في تحريك النشاط الثوري في جهات أخرى من الولايات التاريخية، وعلى الحدود الشرقية التونسية والليبية، وفي فرنسا، ولدينا أمثلة عديدة في هذا الصدد نذكر منها على سبيل المثال: الشهيد بشير كدة الذي كان يعمل كفدائي بعنابة واستشهد في إحدى عملياته الفدائية، الشهيد مولاتي السايح الذي كان يعمل كمسبل في الجزائر العاصمة، الشهيد بركة عبد الرزاق الذي عمل كمسبل في منطقة بوسفر بوهران.

4/ إن الأوضاع التي عاشتها المنطقتين قبيل اندلاع الثورة من انتشار للحركة السياسية والثقافية، وظهور تنظيمات حزبية وجمعيات ثقافية دينية توعوية، قد هيأت المناخ والجو المناسب لاستقبال البعثات الثورية التي كانت تأتي من الأوراس، والمساهمة أيضا في تعبئة الشباب والدفع بهم قدما نحو الكفاح المسلح.

5/ أن الاتصالات والبعثات التي دأبت المرور على المنطقة تحت إشراف كل من القادة: مصطفى بن بولعيد ومن بعده بشير شبحاني وعباس لغرور.. وغيرهم، قد آتت أكلها بعد أن انخرط العديد من سكان المنطقة في التنظيم الثوري بمختلف أشكاله (فدائيون، مسلون، جنود في جيش التحرير الوطني....)، وساروا في ركب الثورة التحريرية إلى أجل غير مسمى.

6/ الاشتباكات التي وقعت بهذه المناطق (هود شيكة 1955. حاسي خليفة 1954، قرداش 1958...) تدخل ضمن إطار فك الخناق على جبال الأوراس الأشم وتشتيت جهود الاستعمار في الجنوب وفي الشمال وفي كل مكان من ارض الوطن. مخطط يوضح المسالك الخاصة بحركة قوافل السلاح والخلايا الثورية المتوجهة نحو الشمال الشرقي انطلاقا من وادي ريغ ووادي سوف



الإحالات :

- 1- عبد الحميد إبراهيم قادري، التعريف بوادي ريغ، تقرت، منشورات جمعية الوفاء للشهيد، 1999، ص1
- 2-Boozid Touati, «Les Potentialités Hydrique et la Phoeniciculture Dans La vallée de L'oued Righ, Bas-Sahara Algérienne » Thèse de doctorat de 3eme Cycle Laboratoire de Géographie Physique, Université de Nancy ,1986,p13
- 3- ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز جنحي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ/ 1990م، ص129
- 4- محمد الطاهر عبد الجواد، عاصمة وادي ريغ أيام بني جلاب، الملتقى التاريخي الثالث حول فترة حكم بني جلاب، أبريل 1998، تقرت، منشورات جمعية الوفاء للشهيد، ص48.
- 5- تماسين مدينة تاريخية، 10 كلم جنوب تقرت تشتهر بكونها ثاني مقر للزاوية التجانية،
- 6- معلومات قدمها الضابط كاريث عن الصحراء عام 1839م وهي موجودة في الملف H227
ب: AM.G.
- 7- Souad Selami, « Touggourt Esquisse Historique », Ouargla, Imprimerie du Sud , 1998, p 04
- 8- عبد القادر حليمي، جغرافية الجزائر، طبيعية، بشرية، اقتصادية، الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، ط1، 1968، ص122.
- 9- هي مدينة تبعد عن تقرت حوالي 12 كلم، وهي مقر دائرة تتكون من بلديتين هما : تماسين وبلدة عمر.
- 10- إبراهيم مياي، من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص41.
- 11- André voisin : Op cit, 03. -12
- 12- عمار قليل، ملحمة الجزائر الجديدة، الجزائر، ج2، ص
- 13- جبل بوكحيل يقع ناحية بوسعادة، به مركز لقيادة جيش التحرير الوطني تابع للولاية السادسة.
- 14- قام الشهيد لزهاري التونسي بتهريب لخضر بن موسى وعقبة العقبي المشرفين على نقل المتونة من تقرت نحو الجبال بعدما علم من أحد أصدقائه كان يعمل بجهاز الشرطة اسمه محمد نواري من بريكة، وفي نفس الوقت يعمل لصالح الثورة داخل صفوف العدو.
- 15- تسمى البندقية الحربية الإيطالية "بالستاناي" لأن مخزنها يحتوي على ست خراطيش فقط، وكانت متوفرة بنسبة عالية، ويتم الحصول عليها من تبرعات القبائل البدوية، وتكنم سلبيتها في محدودية الخراطيش وعدم انفجار الكبسولة أحيانا.
- 16- شهادة المجاهد رابع أرميلي يوم: 29/03/2008.
- 17- حشية عمار، في الأطلس الصحراوي، د.ط، الوادي - الجزائر: دار إفريقيا، 2001، ص10؛ انظر أيضا: الهادي درواز، الولاية السادسة التاريخية- تنظيم ووقائع (1954-1962)، ص50.
- 18- شهادة المجاهد رابع أرميلي، مصدر سابق.

- 19 - شهادة المجاهد وادة علي بن الضيف، أرشيف متحف المجاهد لولاية الوادي
- 20 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1. مج 3. 2005. ص 107.
- 21 - تقرير الأمانة الولائية للمجاهدين بالوادي في الملتقى الوطني الغول حول المعارك الكبرى بالولاية التاريخية الأولى. باتنة. 21/ 22 مارس 2000. ص 7
- 22 - عبد الباسط قادير، سورة يس في ذكر ثمانين، كتاب لم ينشر بعد.
- 23 - شهادة المجاهد محمد بن نعية يوم: 27/ 12/ 2007 .
- 24 - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق. ص 118.
- 25 - جبل ثامر يقع بدائرة عين الملح بالقرب من بوسعادة، ولاية المسيلة.
- 26 - كيميل تمثل عمق جبال الأوراس وبها مركز قيادة الولاية الأولى أثناء الثورة التحريرية.
- 27 - مجموعة من الباحثين، قاموس الشهيد لولاية ورقلة، جمعية الوفاء للشهيد، وادي سوف، دار الآمال للطباعة، 2006 ص 464.
- 28 - الهادي درواز، من تراث الولاية السادسة التاريخية، مرجع سابق، ص 35.
- 29 - شهادة المجاهد ازغدي محمد يوم: 26/ 03/ 2008.
- 30 - المنظمة الوطنية للمجاهدين - قسمة جامعة، وثيقة بعنوان: معارك وشهداء منطقة جامعة.
- 31 - عمار حشبة، مصدر سابق، ص 14.
- 32 - المجاهد احمد غزال المشري بتاريخ 29/ 10/ 2006 بمتحف المجاهد بتقوت
- 33 - منطقة تقع جنوب تقوت وهي تابعة لبلدية النزلة، وتشمل هذه المنطقة إلى اليوم على مقر لنشاط الأخوات الزرق (les seures blaux)
- 34 - شهادة المجاهد احمد غزال المشري، مصدر سابق
- 35 - هو من أولاد عمارة بالدرميني، فرع أولاد زيقزاو، كان متزوجا وله ابنة واحدة، شارك مبكرا في الحركة الوطنية، وعاش الثورة مند بدايتها وكان عمره سنة 1955 حوالي ثلاثين سنة، وأول معركة اشتبك فيها مع العدو كانت بحاسي خليفة في 17 نوفمبر 1954، للمزيد من المعلومات انظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج 3، ط 2، 2005، ص 121.
- 36 - أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق. ص 138

النمو السكاني وعلاقته بالبيئة

- مع الإشارة لحالة الجزائر-

بقلم

د / وصاف سعیدی

وَأ / خولت مرداسي

كلية العلوم الاقتصادية - جامعة ورقلة



ملخص

يقود النمو الديمغرافي المرتفع في الدول المحدودة الموارد أو التي لا تستغلها استغلالا مناسباً إلى مشكلات كثيرة ما تعيق عملية التطور والتنمية فيها، ومن هذه المشكلات انخفاض المستوى الصحي والتعليمي والاقتصادي وارتفاع معدل البطالة والطلب على المواد الغذائية. في هذا السياق سنحاول معالجة موضوع في غاية الأهمية يتعلق بأثر النمو السكاني على البيئة من خلال دراسة تأثير الانفجار السكاني ومضاعفاته على البيئة في العالم عموماً والجزائر بوجه خاص مما ينعكس بشكل غير مباشر على النمو والتنمية، وبالتالي إعاقه تحقيق ما يعرف بالتنمية المستدامة.

Résumé :

L'explosion démographique et l'exploitation irrationnelle des ressources à travers le monde entier en général et dans les pays sous-développés en particulier, sont deux facteurs déterminants qui entravent de plus en plus le processus de développement durable dans ces pays.

Le présent article traite de la problématique de l'explosion démographique notamment en ce qui concerne ses impacts négatifs sur l'environnement et par conséquent sur la croissance économique et le développement durable en Algérie.

مقدمتہ

لقد برزت في الآونة الأخيرة مجموعة من القضايا الشائكة التي أخذت بتفاقمها تقلق العالم بأسره. ومن أبرز هذه القضايا مشكلة النمو السكاني المتسارع

وما صاحبه من تزايد في الطلب على الموارد الطبيعية خاصة المياه العذبة والطاقة، وكذا تفاقم مشكلات التلوث والتصحر، بالإضافة إلى بروز قضايا أخرى. وتتفاوت حدة آثار هذه المشكلات على دول العالم تبعاً لدرجة نموها وغناها بالموارد الطبيعية. كما يجري تحديد العمل في مجال السكان والأمن الغذائي على أنه من مجالات الأولوية في التنمية المستدامة لتلبية لطلبات خطة عمل مؤتمر القمة العالمي للأغذية والتي تعتبر القضايا السكانية جزءاً أساسياً فيها. حيث تتركز نشاطات مصلحة التنمية المستدامة في هذا المؤتمر على التفاعلات بين ديناميكية السكان والبيئة الطبيعية الحيوية والعوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية مع التنمية المستدامة باعتبارها الهدف الأسمى⁽¹⁾.

و تبعاً لما سبق سنحاول في هذه الورقة البحثية معالجة أثر النمو السكاني على البيئة من خلال التطرق إلى العناصر التالية:

أولاً: أعراض الانفجار السكاني، سماته، أسبابه ومضاعفاته.

ثانياً : تأثير النمو السكاني على البيئة في الجزائر، بالتركيز على التغيرات المناخية، تلوث الهواء، نقص الموارد المائية، الأرض، إضافة إلى إبادة الغابات، والإعمار المتسارع والسيئ .

أولاً - أعراض الانفجار السكاني :

لقد شغلت المسألة السكانية اهتمام الساسة والفلاسفة والاقتصاديين منذ أقدم العصور ولا تزال تحتل مكاناً متصديراً من الناحية النظرية والتطبيقية في حقل الدراسات الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة. كما أن السكان يتضاعفون، ثم يتضاعفون، ويبدو وكأن الأرض تنصف وتنصف مجدداً في حجمها، إلى أن تقلص في نهاية الأمر إلى درجة تنخفض فيها إمدادات الطعام إلى مستوى أدنى من المستوى الضروري للحياة. وحين يطبق قانون تناقص العوائد على عرض كمية ثابتة من الأرض، فإن إنتاج الطعام لن يجري معدل نمو السكان حسب متوالية هندسية⁽²⁾.

إن هذا الطرح المتشائم مالتوس⁽³⁾ يقر بأنه على البشر ممارسة تنمية اقتصادية يمكن أن تدوم وأن يتعلموا كيف يتعايشون مع ندرة الموارد إضافة لما يعانونه من المشاكل البيئية التي لا يمكن إصلاحها⁽⁴⁾.

على الرغم من الدراسات الإحصائية الدقيقة التي أجراها مالتوس فإن الدراسات الحديثة أثبتت بأن التكنولوجيا والتقانة المتطورة كفيلاً بأن تنفي تنبؤات مالتوس على الأقل في الدول الصناعية المتطورة، إذ تعرف ارتفاعاً في مستويات

المعيشة والازدياد السريع في الأجور الحقيقية بالموازاة مع التراجع في معدل النمو السكاني، بحيث تجاوزت الزيادة في الإنتاج الزيادة في عدد السكان . إلا أن نظرية مالتوس ما تزال مهمة لدراسة سلوك السكان في الهند، وأثيوبيا، نيجيريا ودول نامية أخرى ما زالت في سباق ما بين تزايد السكان وتوفير إمدادات كافية من الطعام. وفيما يلي مختصر للقواعد الأساسية لنظرية مالتوس في السكان، وقد بنى نظريته وفق فرضيتين⁽⁵⁾:

- إن الغذاء ضروري لحياة الناس .

- إن الشهوة الجنسية بين النوعين لازمة وضرورية، وستبقى على ماهي عليه. ثم أكد أن قوة السكان في التزايد أعظم من قوة الأرض في إنتاج القوت للإنسان والسكان. وانتهى مالتوس في الأخير إلى تحديد الدعائم الأساسية لنظريته كما يلي:

- يحدد الطعام بالضرورة عدد السكان.
 - يتزايد السكان عندما يتزايد الطعام.
 - تفوق الزيادة السكانية نسبة الزيادة في إنتاج الطعام ، ومن ثم تتدخل العوائق لإحداث التوازن بين السكان وإنتاج الطعام.
1. التضاعف السريع لعدد السكان:

لقد بلغ عدد سكان العالم عام 1800م المليار، وعام 1960م الثلاثة مليارات وقد يستقر الرقم في أواسط الواحد والعشرون على تسعة مليارات. هذا التسارع المذهل للنمو الديموغرافي يغذي الفكرة القائلة بأن هذا هو مصدر كل المتاعب الحالية. إلا أن التحليل الصحيح يدل على تنوع شديد في الأوضاع الديموغرافية، في حين أن هناك ميل إلى تبسيط المشكلة بإقامة التعارض بين دول الشمال ودول الجنوب، إلا أن الزيادة السكانية ليست هي العامل الوحيد في التأثير على التنمية والبيئة، وليست بالضرورة الأكثر رجحاناً، وهذا ما يظهره الفحص الدقيق للعلاقات بين مستخدمي الموارد والسكان المعنيين بذلك⁽⁶⁾.

إن وتائر هذا النمو غاية في السرعة، فبينما استغرق العالم 123 سنة لينتقل من المليار الأول إلى المليار الثاني فقد بلغ المليار الخامس خلال ثلاثة عشر عاماً فقط . وعلى الرغم من أن معدلات هذا النمو عرفت تناقصاً خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين، حيث بدأ السكان يتزايدون وبمعدلات متناقصة إلا أن العالم لن يعرف استقراراً في نمو السكن إلا بعد نصف قرن⁽⁷⁾. وفيما يلي جدول يوضح تطور عدد السكان العالم في الفترة ما بين 1900 . 2000.

الجدول رقم (1): تطور عدد السكان العالم في الفترة 1900 - 2000

السنة	عدد السكان بالمليون	المتوسط السنوي لنمو السكان %
1900	1600	--
1950	2500	1.1
1965	3200	1.9
1985	4800	2.5
2000	6000	1.7

المصدر: محمد عبد البديع، اقتصاد حماية البيئة، دار الأمين، القاهرة، 2003، ص 20.

نلاحظ من خلال الجدول أعلاه أن عدد سكان العالم تضاعف مرتين في الفترة الممتدة من 1900 إلى 1965، وذلك بوتيرة بطيئة نسبياً، ثم اقترب من التضاعف للمرة الثانية ولكن هذه المرة بوتيرة سريعة، أي في ظرف 35 سنة فقط، وهذا أيضاً ما يعكسه المعدل السنوي لنمو السكان الذي كان 1.1% في بداية القرن العشرين ليتقل إلى 2.5% في منتصف الثمانينات ثم تراجع ليصل إلى 1.7% عام 2000، ويعود هذا التراجع إلى الجهود التي بذلت على مدى الربع الأخير من القرن العشرين.

الجدول رقم (2): يوضح توزيع عدد سكان العالم بين الدول تبعاً لمستويات الدخل.

	عدد السكان بالمليون نسمة			متوسط المعدل السنوي لنمو السكان %		
	1980	1991	1998	1980 - 1970	1980 - 1990	1998 - 1990
الدول منخفضة الدخل	2508.6	3127.3	3514.7	3.4	2.4	2
الدول متوسطة الدخل	1132	1401	1496.4	3.2	2.8	1.5
الدول مرتفعة الدخل	789.2	822.3	885.5	1.2	0.7	0.7
العالم	4429.9	5350.6	5896.6	2.9	1.7	1.6

المصدر: المرجع السابق، ص 181

نلاحظ من خلال الجدول أعلاه أن الجزء الأكبر من سكان العالم يقطن في الدول منخفضة الدخل بنسبة 59.6% من إجمالي السكان في عام 1998، أما 25.4% من السكان فهم من الدول متوسطة الدخل، في حين القلة التي تحظى بمستوى مرتفع من العيش تمثل سوى 15% وهي تنتمي إلى الدول المتطورة، وهذا ما يعكس التوزيع السيئ للدخل حيث نجد ما يقارب ثلثي البشر فقراء والسبع أغنياء

والربع يتأرجحون بين الفقر والغنى⁽⁸⁾، وفيما يلي نعرض لأهم أسباب الانفجار السكاني.

2- أسباب الانفجار السكاني :

لقد ساعدت تضافر مجموعة من الأسباب على نشوء ظاهرة الانفجار السكاني وتفاقمها وستعرف عليها من خلال تناول العناصر التالية:

أ. مؤشرات المواليد والوفيات: تشير مؤشرات المواليد والوفيات إلى وجود فارق واضح بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات في مختلف دول العالم، والجدول التالي يبين ذلك:

الجدول رقم (3): يوضح معدلات المواليد والوفيات في القارات وعلى مستوى العالم

في الفترة (1965 . 1990)

المتوسط السنوي لمعدل الوفيات لكل ألف من السكان		المتوسط السنوي لمعدل المواليد لكل ألف من السكان		القارات
1990 - 1985	1970 - 1965	1990 - 1985	1970 - 1965	
10.1	21.5	45.2	47.7	إفريقيا
9.1	14.1	25.4	38.4	آسيا
8	10.9	28.8	35.6	أمريكا اللاتينية
8.2	9.8	21.1	24.8	أمريكا الشمالية
10.8	10.3	13.5	17.7	أوروبا
9.9	13.3	26	33.9	العالم

المصدر: المرجع السابق، ص186.

من خلال الجدول أعلاه نلاحظ أن متوسط معدل المواليد كان مرتفعاً خلال سنوات السبعينات في كل من إفريقيا، آسيا، أمريكا اللاتينية، وكان منخفضاً في كل من أمريكا الشمالية وأوروبا وكان مرتفعاً على مستوى العالم كله. أما في الفترة 1985 . 1990 فقد انخفض بشكل طفيف في إفريقيا، أما في بقية القارات فقد انخفض بوتيرة ملموسة وكذا الحال نفسه بالنسبة لبقية دول العالم. وبمقارنة متوسط معدل الوفيات مع متوسط معدل المواليد نلاحظ أنه كان منخفضاً انخفاضاً ملموساً خلال السبعينات في جميع القارات، ونفس الشيء خلال الفترة 1985 . 1990 التي انخفض فيها معدل الوفيات على ما كان عليه، مما زاد في اتساع الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات وهو ما أدى بدوره إلى تفاقم مشكلة الانفجار السكاني .

جدول رقم (4) : يوضح معدلات المواليد والوفيات تبعا لمستويات الدخل في العالم
في الفترة (1970 . 1993)

الدول	معدل المواليد لكل ألف من السكان		معدل الوفيات لكل ألف من السكان	
	1970	1993	1970	1993
دول منخفضة الدخل	39	28	14	10
دول متوسطة الدخل	31	23	12	8
دول مرتفعة الدخل	17	13	10	9
العالم	32	25	12	9

المصدر: المرجع السابق، ص 187.

يوضح الجدول السابق ارتفاع معدل المواليد في الدول ضعيفة ومتوسطة الدخل وكذا على مستوى العالم في بداية العقد الثامن من القرن العشرين، حيث اتجه في بداية العقد الأخير إلى الانخفاض في فئات الدول الثلاث وعلى مستوى العالم. ففيما يتعلق بمعدل الوفيات فالفرق بينه وبين معدل المواليد كبير في كلتا الفترتين في كل من الدول الضعيفة والمتوسطة الدخل، وأيضا على مستوى العالم. وكما سبق القول فإن هذا الفارق بين المعدلين كان أساسيا في تفاقم مشكلة الانفجار السكاني.

ب . مؤشرات الخصوبة والعمر المتوقع : يقصد بمعدل الخصوبة متوسط عدد الأبناء لكل امرأة في سن الإنجاب في فترة زمنية معينة، وهو محصلة لمعدل المواليد ومعدل الوفيات، فكلما ارتفع الأول وانخفض الثاني زاد معدل الخصوبة . أما العمر المتوقع فهو متوسط عمر الفرد في فترة زمنية محددة والذي يتوقف على معدل الوفيات، وفيما يلي جدول يوضح معدل الخصوبة والعمر المتوقع في القارات وعلى مستوى العالم خلال الفترة (1965 . 1990)

الجدول رقم : (5) معدل الخصوبة والعمر المتوقع في القارات وعلى مستوى العالم
خلال الفترة (1965 . 1990)

	معدل الخصوبة		العمر المتوقع	
	1965 - 1970	1985 - 1990	1965 - 1970	1985 - 1990
إفريقيا	6.6	6.2	44	51
آسيا	5.7	3.1	53	61
أمريكا اللاتينية	5.2	3.6	58	65
أمريكا الشمالية	3.5	2.6	68	72
أوروبا	2.5	1.8	71	74
العالم	4.9	3.3	55	61

المصدر : المرجع السابق، ص 188 .

يوضح الجدول أعلاه ارتفاع معدل الخصوبة في البلدان النامية (إفريقيا، آسيا وأمريكا اللاتينية) مقارنة مع أمريكا الشمالية وأوروبا في الفترة 1965 - 1970. ثم انخفض في إفريقيا انخفاضاً طفيفاً، أما في بقية دول العالم فقد انخفض بوتيرة ملموسة في الفترة ما بين 1975 - 1990، حيث يعكس هذا الانخفاض الجهود المبذولة للسيطرة على هذه الظاهرة. كما يوضح هذا الجدول أيضاً انخفاض العمر المتوقع في العقد السابع في كل من إفريقيا، آسيا وأمريكا اللاتينية وارتفاعه في كل أمريكا الشمالية وأوروبا، أما في العقد التاسع فقد ارتفع وهذا من شأنه أن يحد من الجهود المبذولة من أجل السيطرة على الظاهرة.

ج - أسباب ارتفاع معدلات الخصوبة والعمر المتوقع :

بعدما تناولنا الأسباب أدت مجتمعة إلى تفاقم مشكلة النمو السكاني، بقي علينا أن نبحث عن السبب الذي ساعد على وجود الأسباب السابقة، حيث نجد بأن التقدم في مجال الرعاية الصحية من جهة والتقدم العلمي الاقتصادي من جهة أخرى كان المسببان الرئيسيان للأسباب السابقة الذكر، فالتقدم الصحي أدى إلى رفع معدلات العمر المتوقع، وكذا انخفاض معدلات الوفيات، وأيضاً زيادة معدل المواليد بسبب ما تلقاه النساء الحوامل من رعاية طبية ومتابعة أثناء الحمل والولادة تحت الإشراف الطبي، الأمر الذي أدى إلى انخفاض حالات الإجهاض وحالات موت الحوامل أثناء الولادة، فضلاً عن التطور الطبي في مجال التلقيح ضد الكثير من الأمراض والأوبئة التي تصيب الكبار.

وعلى غرار التطور الطبي فإن التطور الاقتصادي قد ساهم هو الآخر في رفع مستويات المعيشة وتحقيق الرفاه للكثيرين من سكان البلدان المتقدمة، فعلى الرغم من أن معدلات الخصوبة في هذه البلدان تعد منخفضة - مقارنة مع معدلات الخصوبة في البلدان النامية - فإن معدل الأعمار المتوقعة يعتبر في الدول النامية منخفضاً مقارنة مع معدل الأعمار المتوقعة في الدول المتقدمة مما كفّل لسكانها حياة أكثر رفاهية وأقل معاناة مما هو عليه الحال في الدول النامية.

3 - مضاعفات الانفجار السكاني :

لقد كان محور السكان /الموارد الطبيعية والبيئة أحد محاور المؤتمر الدولي للأمم المتحدة حول السكان في 1984، إذ يعتبر هذا المؤتمر أول محاولة لتجاوز المفاهيم التقليدية للقضايا السكانية وذلك بدمج العنصر البيئي ضمن إشكالية السكان .

إن هذا الطرح الجديد يربط في الأصل الانتهاكات البيئية بالنمط الإنمائي السائد والمتسبب في الرفاهة والفقر إذ يعتبران مدمران للبيئة في الوقت نفسه حيث :

الرفاهة (الرخاء) ————— المخبذير الاستغلال المفرط للموارد الطبيعية = استنزاف

(تخمة الطاقة - حضارة السيارات الفردية - التسليح).

الفقر (خاصة) مع الضغوط السكانية ————— استغلال مفرط للموارد الطبيعية الهشة والقليلة (تهميش وتفقير الأرياف - تجريف الأراضي - استغلال مفرط لأراضي المراعي - قطع الأشجار) .

إن هذا المثال الوارد أعلاه ما هو إلا مثالا مبسطا لعلاقة الإنسان بالبيئة، ضربناه لتوضيح استنزاف هذا الأخير للموارد الطبيعية وهي نقطة التقاء واحدة تعكس سلوك الإنسان مع البيئة . والسؤال المطروح هنا هو كيف يمكن أن نحدد نوعية التفاعل بين السكان والبيئة ؟ وهذا ما سنحاول الإجابة عنه في العناصر المتبقية من البحث ⁽⁹⁾، وفيما يلي بعض العناصر التي توضح مضاعفات الانفجار السكاني :

أ - العلاقة بين السكان والموارد الطبيعية :

يقصد بالموارد الطبيعية "كل معطيات البيئة من مواد يستهلكها الإنسان مباشرة كما هي، أو يستخدمها كمدخلات في العملية الإنتاجية ليستهلكها فيما بعد كسلع وخدمات" ⁽¹⁰⁾ . وتنقسم هذه الموارد إلى موارد متجددة (مثل الكائنات الحية: كالحيوانات والنباتات، وكائنات غير حية: كالترية، الماء والهواء)، و موارد غير متجددة، ذلك أنها تكونت نتيجة لعمليات جيولوجية عبر فترات طويلة من الزمن تمتد إلى ملايين السنين (مثل البترول، الغاز، الفحم، المعادن وغيرها من الموارد) . ويعد استنزافها من أبرز مضاعفات الانفجار السكاني، ونقصد هنا باستنزاف الموارد الطبيعية استهلاكها بمعدلات تفوق معدلات تجدها أو إيجاد بدائل لها.

وربما يكون عدم تامين وتسعير هذه الموارد سببا من أسباب الاستنزاف وهو في الوقت نفسه لا يعكس الندرة النسبية التي تتميز بها مما يعرض الموارد غير المتجددة للنضوب والموارد المتجددة لفقدان القدرة على التجدد .

ولعل من بين أهم مظاهر هذا الاستنزاف الاستغلال الجائر للأراضي الزراعية عن طريق الزراعة المكثفة والرعي اللاعقلاني، مما يفقد الأرض خصوبتها وتماسكها كما يعرضها للانجراف والتصحر، ويحدث هذا في الدول النامية على

وجه الخصوص، وتعتبر إفريقيا من أكبر الدول التي تعاني من هذه الظاهرة لأنها تعرف نموا ديمغرافيا كبيرا.

لقد أدت توليفة من كثافة السكان المرتفعة والاستثمار المنخفض إلى تقليل حصة الفرد من الأرض القابلة للزراعة من 0.5 هكتار عام 1965 إلى 0.3 هكتار في عام 1987 في بورندي⁽¹¹⁾، وأدى ذلك إلى فترات راحة الأرض في أجزاء كثيرة من (بورندي، رواندا، كينيا، ليبيريا وموريتانيا) لم تعد كافية لاسترداد الخصوبة.

كما أن الزيادة السريعة للسكان أدت إلى تقلص الغابات والمساحات الخضراء من خلال قطع الأشجار وبناء المساكن بسبب التوسع العمراني العشوائي .

ب. مشكلة نقص الغذاء: سنتناول في هذا العنصر العناصر التالية :

مفهومها : يقصد بمشكلة نقص الغذاء حدوث نقص واضح في كمية الغذاء ونوعيته عن المعدلات المعقولة المتمثلة في الحد الأدنى للسعرات الحرارية⁽¹²⁾.

وتتمثل مشكلة الجوع هي نقص كمية الغذاء عن الحد الأدنى المقبول، أما سوء التغذية فهو نتيجة للنقص في أنواع الأغذية كالبروتين والفيتامين . ولأن الزيادة السكانية عرفت نموا سريعا، فإن ذلك أدى إلى عدم تناسب الكميات المنتجة من الغذاء مع نسبة النمو السكاني مما دفع العديد من الدول النامية إلى استيراد كميات كبيرة من المنتجات الغذائية كالحبوب لتغطية حاجياتها.

مظاهرها ومخاطرها⁽¹³⁾: تتمثل مشكلة نقص الغذاء في مظاهر عدة نذكر منها:

- انتشار الأمراض الغذائية : وتنقسم إلى نوعين الأولى تتعلق بالتغذية كما ونوعا وتنتشر عموما في الدول النامية (مثل: الأنيميا، السل، الهزال، الكساح،...)، أما النوع الثاني فهي أمراض تنتشر في الدول المتقدمة على وجه الخصوص، وهي نتيجة الإفراط في استهلاك الغذاء (مثل البدانة وما ينجر عنها من مشاكل صحية كثيرة)⁽¹⁴⁾.

- تكرار المجاعات في الكثير من الدول النامية التي تتعرض من حين لآخر لنوبات الجفاف كما حدث في منطقة حزام الجوع الإفريقي .

- تزايد حجم الاستيراد من المواد الغذائية وبالتالي زيادة مصاريفها من طرف

الدول النامية بشكل مطرد.

أسبابها : فضلا عن كون الزيادة المتسارعة للسكان هي العامل الذي أدى إلى مشكلة نقص الغذاء فقد انعكست هذه الزيادة على مجموعة من العوامل أدت بدورها هذه الأخيرة إلى تفاقم المشكلة ومن أهمها:

. إجهاد الأرض عن طريق الزراعة المكثفة ، إضافة إلى عوامل ليست لها علاقة بنمو السكان مثل الأحوال الجوية التي تميل إلى الجفاف الشديد، مما ساهم في إفقار الأراضي وزيادة هشاشتها وعطوبيتها ، كما تتبع الدول النامية تقنية زراعية تقليدية واستخدام السلالات النباتية والحيوانية ذات المردودية المنخفضة .

- الأزمات الاقتصادية الحادة التي أصابت الاقتصاد الرأسمالي والتي تنعكس سلباً على الدول النامية من خلال رفع أسعار المعدات والآلات الزراعية التي تستوردها الدول النامية من الدول الرأسمالية .

. الظروف الاقتصادية والسياسية والمتمثلة في :

- العجز في الموارد المالية وانخفاض الدخل الوطني وبالتالي دخل الفرد وهو ما يقلل من قدرة الدول النامية على تمويل مشاريع التنمية الزراعية .
- التوسع في إنتاج المحاصيل التجارية كالقطن والشاي وال فول السوداني على حساب المحاصيل الغذائية.
- اضطراب العديد من الدول إلى تصدير جزء كبير من إنتاجها البروتيني الحيواني .

• استخدام الغذاء كسلاح بيد الدول الغنية، حيث تسعى هذه الأخيرة إلى تحقيق بعض المكاسب الاقتصادية والسياسية على حساب الدول النامية.

ج - البطالة:

تعتبر البطالة العالية مشكلة اقتصادية واجتماعية، فمن الناحية الاقتصادية، تعد تبديداً لموارد قيمة . أما من الناحية الاجتماعية فهي مصدر معاناة هائلة، حيث يتوجب على العمال عاطلين تدبر معيشتهم بمداخل أقل، وفي فترات البطالة العالية تمر المحنة الاقتصادية فتؤثر على مشاعر الناس وحياة أسرهم⁽¹⁵⁾ .

انطلاقاً من هذه الفكرة نستطيع القول بأن النمو السكاني السريع أفرز مشكلة هي من أهم المشاكل التي تعاني منها الدول النامية على غرار الدول المتقدمة مما انجرت عنه العديد من المشاكل الاقتصادية الأخرى والتي تحدثنا عنها مثل سوء التغذية وكذا المشاكل الاجتماعية كالانحراف وانتشار السرقة والجريمة .

فضلاً عن كون البطالة من المشاكل الحادة التي تواجه العالم اليوم، فهي أصبحت تهدد البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لكثير من الدول. فإذا كانت الدول المتقدمة تعاني من ارتفاع نسبة البطالة فيها فماذا عن الدول النامية التي تتخبط في الديون. أما بالنسبة للدول العربية فشأنها شأن بقية الدول النامية تعاني

هي الأخرى من البطالة بجميع أنواعها المقنعة وغير المقنعة، ففي كثير من الدول العربية غير البترولية تعجز الدولة على توفير العمل إلا لنسبة ضئيلة منهم⁽¹⁶⁾.
د. الفقر والامية⁽¹⁷⁾ :

من نتائج ظاهرة النمو السكاني هناك 1.3 مليار نسمة يعانون من الفقر المدقع، ونحو 840 مليون يعانون من نقص التغذية، وما يقارب 1.4 مليار نسمة يفتقرون إلى مياه الشرب النظيفة، وثالث سكان العالم أميين، وهي نسبة مرتفعة تدل على عدم فعالية برامج محو الأمية.
هـ. التلوث:

إن الزيادة المفرطة في السكان أدت بالضرورة إلى زيادة الإنتاج والاستهلاك فزادت معهما المخلفات الصلبة والسائلة والانبعاثات الغازية والأترية في الجو، حيث ساهمت هذه الملوثات في تسارع تدهور البيئة بشكل ملحوظ إلى قلة، إن لم نقل عدم انتشار الوعي البيئي لدى السكان في الدول النامية على وجه الخصوص.
و. اضطراب البيئة:

بعدما تناولنا في عناصر سابقة بعض الممارسات السلبية التي تميز علاقات الإنسان مع البيئة، فإن لم يكن هذا الأخير سببا في معظم الاضطرابات التي تتعرض لها البيئة، فهو بالتأكيد كان سببا في معظمها، ففضلا عما يسببه للأرض من تصحر وإفقار، فهو كذلك كان وما يزال سببا رئيسا في انقراض بعض الأنواع والسلالات من الحيوان والنبات و الأسماك نتيجة للصيد المنظم وهو أيضا المسؤول عن تزايد مشكلة الاحتباس الحراري، وثقب الأوزون والتقلبات المناخية مما سبب تدهور أو القضاء على الكثير من أنظمة البيئية، نتيجة الاستهلاك المفرط للطاقة وتزايد انبعاث الغازات الدفينة.

إن العلاقة بين النمو السكاني والتنمية الاقتصادية ليست علاقة بسيطة من السهل تفسيرها، كما أنها ليست ثابتة بالضرورة على مر السنين.
ثانيا : تأثير النمو السكاني على البيئة في الجزائر :

إن الحديث عن تأثير النمو السكاني على البيئة في الجزائر يقودنا إلى الحديث عن مشكلة التفهقر البيئي التي تعود إلى العديد من المشاكل الحيوية التي تتمخض عنها، و التي تؤدي إلى تهديد الإنسان، وهو ما يبرز جليا في نقص الغذاء وتدهور الصحة العمومية ومستويات المعيشة، وتراجع إنتاجية الأرض، وتقهقر الموارد البيئية وازدياد العبء السكاني. وهذا ما يؤدي إلى تعرض الأنظمة البيئية الحساسة لضغوط هائلة،

مثل إزالة الغطاء النباتي، وتردي التربة، والتصحر، وتلوث الهواء والتربة والمياه. فلقد حاول الاقتصاديون إعطاء تفسيراتهم لهذه المشكلات تبعا لمذاهبهم وتوجهاتهم الفكرية، وهو ما يفسر تعدد طرق المعالجة لمثل هذه المشاكل.

عرفت الفترة الممتدة بين عام 1988 و 1996م، زيادة هائلة في السكان، تمثلت في زيادة قدرها 688.000 نسمة، (أي بزيادة 180.000 شخص إضافي في السنة)، وبذلك حققت معدلات نمو عالية جدا، أي حوالي 03%، في حين عرفت الفترة الممتدة بين عامي 1997 و 2003م هبوطا شديدا في النمو السكان، لدرجة أن الزيادة الإضافية لم تتعد 386.000 نسمة فقط، وهو ما جعل معدل النمو لا يتعدى 2%، بفعل التفاعل الحاصل بين العديد من العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والتي أدت إلى تواصل الهبوط في معدلات النمو السكاني إلى حدود 1.9% في نهاية 2004 وبداية 2005، وبتعداد سكاني قدره 32.6 مليون نسمة. ومن المرشح أن يصل عدد سكان الجزائر في أفق 2015 إلى حوالي 38.1 مليون نسمة⁽¹⁸⁾.

1 - التغيرات المناخية وتلوث الهواء :

تعتبر الانبعاثات الغازية الناتجة عن عوادم السيارات، ترميد النفايات، والصناعة المصادر الأساسية لتلوث الجو في الجزائر. ففي المنطقة الحضرية مثلا تتسبب حركة مرور السيارات في التلوث الجوي بسبب ارتفاع عدد سيارات الحاضرة من جهة، وقدمها من جهة أخرى، حيث أن 40% منها تجاوزت مدة سيرها 20 سنة، مما أدى إلى انبعاث نسب عالية من الغازات السامة بسبب رداءة محركات السيارات⁽¹⁹⁾.

ضف إلى ذلك ما ينجر من الانبعاثات الغازية الناتجة عن المصانع التي تقع على الشريط الساحلي أين تتمركز أكبر نسبة من السكان، مما زاد من نسبة الأمراض المتعلقة بالتنفس والصدر كالحساسية والربو وبعض الأمراض الأخرى مثل السرطان في المناطق التي بلغت مستويات التلوث فيها حدودا حرجية، خاصة مع غياب الإجراءات التي تخفف من خطورة هذا المشكل، وفيما يلي جدول يوضح حالات الوفيات والاستشفاء بسبب الإصابة بمرض تنفسي حاد (الربو مثلا) خلال الفترة 1995 - 1999:

الجدول رقم: (7)

يوضح حالات الوفيات والاستشفاء بسبب الإصابة بمرض تنفسي حاد 1995 - 1999

الوحدة : نسبة مئوية

الوفيات	حالات الاستشفاء	السنوات
1.283	20.025	1995
1.309	26.138	1996
1.177	28.761	1997
1.053	27.822	1998
1.106	37.571	1999

المصدر: وزارة تهيئة الإقليم والبيئة، مرجع سابق، 2000، ص 87.

يشير الجدول أعلاه عن ارتفاع عدد حالات الاستشفاء في الفترة الممتدة ما بين 1995 - 1999، حيث انتقل من 20 % إلى أكثر من 37% مما يؤكد تزايد عدد المصابين من جراء التغيرات المناخية وتلوث المياه. أما بالنسبة لحالات الوفيات فنلاحظ شبه استقرار في حالات الوفيات نتيجة تزايد عدد المصابين رغم تزايد حجم الإنفاق العمومي على قطاع الصحة في الجزائر.

2. نقص الموارد المائية :

تعاني المياه كمورد طبيعي من العديد من المشاكل ومن بينها الشح الطبيعي بسبب تناقص تساقط الأمطار، والاستنزاف الذي تتعرض له نتيجة لسوء الاستغلال وتدهور السدود بسبب التوحد بالإضافة إلى تسرب 2/1 من المياه الموزعة جراء قدم القنوات وعطبها. وتعد الجزائر من بين البلدان الأكثر فقرا بالنسبة لموارد المياه أي دون المستوى النظري للندرة المحددة من طرف البنك العالمي بـ 1000 متر مكعب سنويا لكل فرد⁽²⁰⁾.

وقد تسبب النمو السكاني المرتفع في إحداث ضغط كبير على الموارد المائية مما قلل من نصيب الفرد من هذا المورد، حيث أن معدل الحصة المخصصة له لا تكفي وهي مقدرة بـ 75 ل في اليوم في حين تبلغ الحصة المحددة في المعايير الدولية بـ 135 ل للفرد في اليوم، والجدول التالي يوضح نصيب الفرد من المياه الصالحة للشرب منذ 1962 وإلى غاية 2020⁽²¹⁾:

الجدول رقم (09): يوضح تطور نصيب الفرد الواحد من المياه الصالحة للشرب في الجزائر سنويا خلال الفترة 1962 - 2020

الوحدة : متر مكعب

السنة	1962	1990	1991	1998	2000	2020
نصيب الفرد من المياه الصالحة للشرب	1500	720	680	630	500	430

المصدر: عميرة جوييدة، مرجع سبق ذكره، ص 115.

من خلال الجدول أعلاه نلاحظ بأن نصيب الفرد من المياه الصالحة للشرب يتناقص إلى أن يصل إلى 430 متر مكعب سنة 2020.

3. إعمار متسارع وسريع⁽²²⁾ :

ارتفعت نسبة إعمار البلاد من 40 % سنة 1977 (أي حضريان (2) مقابل ثلاثة (3) ريفيين) إلى حوالي 50 % سنة 1987 ((1) حضري مقابل (1) ريفي)، لتصل إلى 60% سنة 1998 ((3) حضريين لريفيين ((2)، ما معناه أن السكان الحضريين الذين كان عددهم 6.779.000 نسمة في سنة 1977 قد ارتفع إلى 17.460.000 نسمة في سنة 1987 (أي تضاعف هذا العدد بثلاث مرات) في عشرين سنة.

إن انتقال السكان من الريف إلى المدينة أدى إلى تفاقم المشاكل البيئية التي تعاني منها المدن الجزائرية بصفة عامة، والمدن الساحلية بصفة خاصة. بسبب تمركز السكان في شمال البلاد فالجزائر العاصمة التي كانت تحتل ما لا يزيد عن 7.500 هكتار سنة 1970، قد تضاعفت مساحتها بثلاث مرات منذ ذلك الوقت لتمتد إلى 17.000 هكتار. أما مدينة عنابة فقد درت مساحتها بـ 1200 هكتار سنة 1962، وأصبحت سنة 1987، وهي تستهلك منذ ذلك الحين حوالي 80 هكتار في السنة.

إن تبذير الأراضي الزراعية القيمة التي يسببه الانتشار المفرط للقطاع الحضري، وهذا التعمير المبالغ فيه يولد تبذير أخرى للموارد (الماء، الإصابات المتنوعة الناجمة عن تلوث الحضري ...)، وهو ما يؤدي إلى تضاعف المشاكل التي تواجهها المدن ذاتها.

4. الأرض وإبادة الغابات⁽²³⁾ :

تسبب التوسع العمراني في إتلاف آلاف الهكتارات من أخصب الأراضي الزراعية في شمال البلاد، مما أدى إلى انخفاض كبير في مساحة الأراضي المزروعة، حيث انخفضت من 0.8 هكتار لكل فرد في سنة 1962 إلى 0.32 هكتار لكل فرد في 1991، وقد تنخفض إلى 0.13 هكتار في سنة 2005.

فالتوسع العمراني لمدينة الجزائر مثلا أدى إلى القضاء على سهل متيجة الذي يعتبر من أخصب الأراضي في الجزائر، حيث تحتل المساحات العمرانية حاليا 10% من مساحة متيجة و 21% من مساحة الساحل.

إن غياب سياسة خاصة بمكافحة الانجراف والتوسع العمراني العشوائي كان وما يزال من بين أهم الأسباب التي أدت إلى تدهور وضعية الأراضي، كما أن الرعي الجائر والاقتلاع غير المسؤول للأشجار من أجل الاستفادة من خشبها (بسبب ارتفاع

سعره)، واللجوء إلى خشب التدفئة في المناطق المعزولة التي لم تستفد بعد من الغاز الطبيعي، وكذا نشوب الحرائق زاد من إتلاف الغابات، حيث تجاوزت المساحة المتلفة 1 مليون هكتار في الفترة 1955 - 1997، أي ما يعادل نسبة إتلاف قدرها 4000 مليون هكتار سنوياً، أي ما يعادل 21% خلال 42 سنة، بالإضافة إلى 487.900 هكتار من الأراضي التي طالتها التصحر و 215.000 هكتار شبه متصحرة .

خاتمة

من خلال دراستنا لهذا الموضوع تبين لنا أن المشكل أكبر من مجرد حصر القضية في مجموعة من الدراسات والبحث في انعكاسات النمو السكاني على البيئة في العالم، بل على الحكومات والشعوب أن تسعى بطريقة جديدة لإيجاد الحلول لهذه المشكلات وذلك من خلال السياسات البيئية الفعالة التي تساهم في القضاء على الفقر والامية وتهتم بصحة الأفراد وراحتهم، وبما أنه لا يمكن النظر إلى البيئة على أنها كيان مستقل بذاته لأنها بوصفها ممارسة اجتماعية كفيلة بأن تشرك بطريقة أو بأخرى كافة أعضاء المجتمع، ولهذا بات من الضروري على الحكومات أن تساعد في نشر الوعي البيئي لدى هؤلاء الناس وترشدهم إلى الطريقة السليمة في التعامل مع بيئتهم والحفاظ عليها وفي نهاية هذا المقال يجب التأكيد على ما يلي :

- ضرورة تكاثف الجهود المبذولة من أجل حماية البيئة حتى تتحقق الغاية المرجوة من السياسات البيئية المرتبطة بالتنمية.
- ضرورة بناء قاعدة وطنية للعلم والتقنية تسمح بتنمية القدرة الذاتية على استيعاب المعرفة والقيام بإيجاد النظم والأساليب والتقنيات الملائمة لحماية البيئة.
- تنشيط الوعي الاجتماعي بتنظيم الأسر حتى تنعكس آثارها الإيجابية على مستوى الأسر، والتقليل من حجم الإنفاق الاجتماعي للدولة.
- يجب تدبر أمر المشاكل البيئية على نحو نشط كجزء من عملية النمو، إذ لا يجوز تأجيل التحسينات البيئية إلى حين تمكن المداخل المتزايدة من توفير موارد إضافية للحماية البيئية.
- الهوامش :

1 - 18/10/2006, http://www.fao.org/sd/pe3_ar.htm.

2 - بول آ. سامويلسن، وليام د. نورد هاوز، ترجمة هشام عبد الله، الاقتصاد، ط 15، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2001، ص 372 - 373.

- 3 - مالتوس من عائلة أرستقراطية بريطانية ولد عام 1766 م وتوفي عام 1834 م كان أبوه صديق شخصي لكل من - ديفيد هيوم - وجان جاك روسو - وقد تأثر أباه بتيار التفاؤل الذي كان سائدا حينذاك بزعامة كل من جدوين و دين كوندرسيه وغيرهم من الكتاب ، نشر مالتوس عدة أعمال بحثية لكن أبرزها المقال الذي نشره سنة 1803 م والذي جاء بعد جولة قاده نحو أوروبا مرتين جمع خلالها مادة علمية كثيرة، وبعد النقد اللاذع الذي لاقاه من جراء نشره لمقال سنة 1798 م بعنوان "رسالة عن المبدأ السكاني أو رأي حول آثاره الماضية والحاضرة على السعادة الإنسانية مع بحث حول أماننا الخاصة بالإزالة أو التحقيق في المستقبل من الشرور التي يحدتها " .
- 4 - لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى:
Malcolm Gillis et les Autres, Traduction de la 4 édition américaine par Bruno Baron-Renault, Economie du développement, éditions de Boeck Université, 1998.
- 5 - على حدوش، محاولة تحليل أثر النمو السكاني على التنمية وإسقاطها على حالة الجزائر للفترة (1980-1993)، مذكرة ماجستير غير منشورة، كلية الاقتصاد، جامعة الجزائر، 1995، ص 16-17.
- 6 - 18/10/2006, <http://www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=1bb104425-64580&search=books>
- 7 - عدنان الأحمد، وآخرون، التربية البيئية والسكانية، منشورات جامعة دمشق، 2003-2004، ص 193.
- 8 - محمد عبد البديع، مرجع سابق، ص 181.
- 9 - عزام محبوب، السكان والتنمية المستدامة في المغرب العربي، مجلة بحوث اقتصادية عربية، العدد 03، تصدرها الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية، 1994، ص ص 35-36.
- 10 - من استخلاص الباحثين .
- 11 - محمد عبد البديع، اقتصاد حماية البيئة، القاهرة، دار الأمين للنشر والتوزيع، ص 203.
- 12 - عدنان الأحمد، وآخرون ، التربية البيئية والسكانية ، منشورات جامعة دمشق، 2003-2004 ، ص 195 .
- 13 - المرجع نفسه، ص 195 .
- 14 - هذا لا ينفي تواجد النوع الأول في الدول المتقدمة والنوع الثاني في الدول النامية .
- 15 - بول آ. سامويلسن، وليام د. نورد هاوس، ترجمة هشام عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص 595
- 16 - صالح وهبي، قضايا عالمية معاصرة، ط1، دار الفكر للتوزيع، 2004، ص 33.
- 17 - محمد عبد البديع، مرجع سبق ذكره، ص 208.
- 18 - سنوسي خنيش، إستراتيجية إدارة حماية البيئة في الجزائر، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزائر، كلية العلوم السياسية والإعلام، 2005، ص 259.
- 19 - عميرة جويده، المشاكل البيئية المترتبة عن النمو السكاني في الجزائر، مجلة دراسات اقتصادية، مركز البصيرة للبحوث والدراسات الإنسانية، عدد 06، جويلية، 2005، ص 109.
- 20 - المرجع نفسه، ص 114-115.
- 21 - المرجع نفسه، ص 115.
- 22 - وزارة تهيئة الإقليم والبيئة، تقرير حول حالة ومستقبل البيئة في الجزائر، 2000، ص 17.
- 23 - عميرة جويده، مرجع سبق ذكره، ص ص 117-118.

استراتيجية التهيئة الإدارية في الفكر الإداري

(الكلاسيكي والحديث)

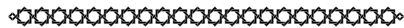
- رؤية نقدية -

بِقَلَم

د / الطاهر الإبراهيمي

وَأ / سَلِيمَت بوزید

جامعة محمد خيضر بسكرة. الجزائر



ملخص

تعتبر التنمية الإدارية الأداة الهامة والضرورية لإصلاح وتطوير الأجهزة الإدارية من أجل الرفع من مستوى كفاءتها؛ فهي تمثل القاعدة العملية التي تقف عليها مشروعات إدارة التنمية وخططها وأهدافها.

ونظرا لهذه الأهمية التي تكتسبها التنمية الإدارية سنحاول إبراز جوانبها الأساسية كما تعرض لها كل من الفكر الإداري (الكلاسيكي والحديث) برؤية نقدية تقف عند جوانب القوة والضعف في طروحاتها ذات الصلة.

Abstract

Management development is important and necessary tool to rehabilitate and develop the administrative machinery for the lifting of the level of efficiency; it represents a practical rule, which stands for management projects and development plans and objectives.

In view of this the importance of management development we will try to highlight the fundamental aspects of development against each of the management culture (classical and modern) and thereby show the strengths and weaknesses associated with this thought through the vision of a monetary objective.

مقدمة

يبرز موقع التنمية الإدارية في الفكر الإداري من خلال النظر لأهميتها بالنسبة للأفراد والمنظمات والحكومات وانطلاقاً من الإقرار بأن التنمية الإدارية هي عامل رئيسي يساعد الدول المتقدمة وغير المتقدمة على إزالة الصعوبات ووضع الحلول الجذرية لما يعترضها من مشاكل.

كما يمكن النظر إلى موقع التنمية الإدارية في الفكر الإداري من زاوية أن كل فرع من فروع الإدارة يبحث في جانب من جوانب التنمية محاولا الإسهام في تحقيق أهدافها؛ فإدارة الأفراد كأحد فروع الإدارة إنما تسهم في زيادة وعي وفهم المدير بأهمية وبفعالية الأفراد، وكذلك فإن المنظمة تزوده بآخر الأساليب الحديثة المستخدمة في كيفية الحصول على قوة العمل الفعلية وكيفية العمل على تدريب الأفراد وتنمية مهاراتهم وقدراتهم.

وفي هذا المقال نحاول تسليط الضوء على أهم نظريات التنظيم (الكلاسيكية والحديثة) التي بُني عليها تطور الإدارة من أجل تحديد الجوانب الرئيسية في هذه النظريات والتي لها علاقة مباشرة بالتنمية الإدارية من خلال التركيز على كيفية تنمية الإدارة وذلك على نحو زماني المنطق يعرض الفكر الإداري في سياقه التاريخي كما يلي :

1/ المدخل الكلاسيكي:

لقد ظهرت في بداية القرن الماضي (1900-2000) عدة مفاهيم في إدارة المنظمة وبنائها، وبدأت تتطور منذ ذلك الحين، وتعرف حاليا بالمدخل الميكانيكي أو الآلي أو التقليدي في تنظيم المنظمات ويتضمن هذا المدخل ثلاث نظريات هي: نظرية الإدارة العلمية، ونظرية المبادئ الإدارية والنظرية البيروقراطية.

1.1. نظرية الإدارة العلمية "Scientific Management Theory" "أبرز من كتب في الإدارة العلمية هو فريدريك تايلور Taylor Fridriew الذي أصبح اسمه عنوانا لها نشر في عام 1911 كتابه الشهير مبادئ الإدارة العلمية "The principles of scientific management" ذاكرة فيه أن الهدف الأساسي للإدارة هو ضمان تحقيق أعلى الأرباح لها وللعاملين فيها .

* المبادئ التي توصل إليها تايلور للإدارة العلمية:

قدم تايلور أربعة مبادئ للإدارة العلمية، يمكن النظر إليها على أنها وصايا من الضروري أن يلتزم بها المدير الراغب في جعل إدارته مبنية على أسس علمية وهي:
أ/ لا بد من استخدام العلم في تصميم الأعمال؛ إذ يجب التوصل إلى أسس علمية لتحل محل الأسس التقليدية القديمة لأداء الأعمال في المنظمة، وكذلك إمكانية قيامها بطريقة علمية.

ب/ يجب أن يتم اختيار العاملين بطريقة علمية وموضوعية؛ بحيث تتقابل مواصفات العامل مع متطلبات العمل.

د/ لا بد أن تدعم الإدارة العاملين، وأن يعاد توزيع العمل بينها وبينهم على أساس قيامها بمهام التخطيط والتنظيم والرقابة وقيام العاملين بمهام التنفيذ.

هـ/ تدريب العمال بطريقة علمية حتى يؤدي كل عامل أعلى مستوى من العمل.
و/ برهن أن الإدارة علم يخضع لتجارب وأبحاث يمكن الوصول بموجبها إلى قوانين وقواعد يمكن أن تطبق على كافة الأنشطة.

ز/ الأخذ بمبدأ الإدارة بالاستثناء، حيث يرى تايلور أنه يجب أن يحصل المدير على تقارير موجزة عن الأنشطة التي تقوم بها الإدارة؛ لكي يجد الوقت الكافي لوضع الخطط العريضة للسياسة العامة.

هكذا بالرغم من أن مبادئ تايلور كانت موضوعة للتطبيق على مستوى المنظمة ككل؛ إلا أن اهتماماته وأبحاثه كانت مركزة على مستوى الإدارة التنفيذية (على مستوى الورشة أو المصنع الصغير).

من ذلك يظهر أن الإسهام الأساسي لحركة الإدارة العلمية هو الاتجاه نحو التخصص وتقسيم العمل يصبح أداء العمل بأعلى كفاءة فعالية.

كما أن الأهمية المعطاة من حركة الإدارة العلمية لتصميم العمل شجعت المديرين على البحث عن أفضل طريقة لأداء العمل «One best way»؛ ولهذا فإن الإدارة العلمية لم تقدم فقط مدخلا رشيدا لحل مشاكل التنظيم ولكن أسهمت - أيضا - بصورة كبيرة في جعل الإدارة مهنة تخصصية⁽¹⁾.

ولذلك فإن جوهر الإدارة العلمية في اعتقاد تايلور هو ثورة في التفكير؛ بمعنى تغيير تفكير الإدارة نجاح الأفراد وتغيير الأفراد تجاه الإدارة فيها أن هدف كل من الإدارة والأفراد هو نجاح المنظمة في أعمالها، لذلك يتطلب الأمر من كل منهما التعاون مع الآخر وهذا لا يتحقق إلا بوجود عدالة في التفاعل بينهما، ولا يقتنع كل منهما بهذه العدالة إلا إذا كانت تركز على تجارب ودراسات علمية⁽²⁾. وهذه المراكز الأساسية لتحقيق التنمية الإدارية.

* جهود نظرية الإدارة العلمية في التنمية الإدارية :

The efforts of scientific management in administrative development

إن عمليات البحث والدراسة والتحليل للفروض التي نادت بها نظرية الإدارة العلمية تقدم منهجا علميا تطبيقيا يساعد على تحقيق التنمية الإدارية، حيث تؤكد هذه الفروض على ضرورة وضع نظم وأساليب علمية وأهمية تخطيط الإنتاج وتوقيته وتوزيعه والاهتمام بدراسة الزمن والحركة.

وضرورة تدريب العمال على تفادي الحركات الغير ضرورية في أداء الأعمال والتي ينجم عنها الإجهاد وضياح الوقت وذلك حتى يتسنى الوصول إلى أكبر قدر من الاقتصاد في الوقت والجهد حتى يتحقق أعلى مستوى من الكفاءة والفعالية،

وهذا يسهم بشكل مباشر في تنمية الأجهزة الإدارية الإنتاجية على وجه الخصوص على اعتبار أن التدريب أهم مرتكز تعتمد عليه أهداف التنمية الإدارية. كما تؤكد هذه الفروض على ضرورة تزويد العمال بالحافز المادي لأداء العمل مقابل الوصول بالإنتاج إلى المعدل المطلوب، وتوفير الظروف الفيزيائية المناسبة والمحيفة بالعمل لأداء العمل في جو مناسب وبالإمكانات المطلوبة. ومراعاة تصميم الوظائف الإدارية في كل المستويات الإدارية، إذ أن عمليات تصميم الوظائف تساعد على تحقيق التنمية الإدارية والتي تعتمد في الأساس على منهجية التطوير لكل العمليات الإدارية.

هذا وتعتبر هذه الجهود المبذولة جهودا لها دور حاسم في تحقيق التنمية الشاملة بشكل عام والتنمية الإدارية بشكل خاص؛ من خلال المبادئ المهمة السالفة الذكر والتي ركزت عليها نظرية الإدارة العلمية وطبقته في الأجهزة الإدارية للدول الغربية في سبيل تحقيق درجات عالية من الكفاءة والفعالية.

إن التaylorية مشروع علمي ارتبط من حيث النشأة بمستوى أيديولوجي وأخلاقي يجعل من الإنسان العامل أداة إنتاج وخدمة تصب في دائرة المصالح السياسية والمالية للطبقة المهيمنة في المجتمع الأمريكي بالأساس، وتقدم التبرير الإيديولوجي الذي يلمع الرؤية المحافظة والسكونية للبنى الاجتماعية.

وعليه فإن التنمية الإدارية التي تحققت جراء الأخذ بمبادئ فكر هذه النظرية انحصرت على رفع كفايات الإنتاج الصناعي المولد للربح، ومن ثمة القوة والمهابة للمالكين، وعليه فإن الأخذ بطروحات يستوجب تفرع مفاهيمها ومسلّماتها من شحنات وحوامل نشأة، تماشيا مع منطق بيئة الدراسة والتغيير خصوصا إذا عرفنا أن بيئة الإدارة في العالم الثالث ليست على تنضيد واحد مستقر وأنها اصطحابا مع هذه الحقيقة يكون واجبا الالتزام قراءة متحركة تأخذ بمتغيراتها الذاتية ولا تستبعد الخبرة الإنسانية كلما كان ذلك يبين نفعه في تنمية الإدارة.

واهتم تايلور أيضا بتطبيق سلسلة من الإجراءات والأساليب والطرق الفنية للرفع من الكفاءة الإنتاجية كوظيفة واحدة من وظائف الإدارة وهي طاقة الإنتاج ولم يتطرق إلى وظائف أخرى من وظائف الإدارة أو حتى التنسيق بينها بالرغم من خطورة وأهمية كل منها، وعليه كان من الضروري بروز نظريات أخرى تسهم في تحديد معالمها الأساسية وأهميتها منهم "لوثر جوليك، وليندال أبيرويك، وموني رايلي وهنري فايول.

1-2. نظرية المبادئ الإدارية : Theory of administrative principes

ظهرت جهود فايول في مجال الإدارة العامة في فرنسا عام 1916 تحت عنوان "الإدارة الصناعية والعامة" Administration industrielle et Général وقد كتب

فايول - مدير عام شركات التعدين والفحم - وقدم خبراته الطويلة وملاحظاته الهامة التي أسهمت في تحديد أسس الإدارة وهو في هذا لم يحاول أن يخرج بنظرية للإدارة أو فلسفة شخصية له؛ ومع ذلك فالملاحظات التي أبداها تتلاءم مع نظرية الإدارة التي تأخذ مكانها الآن.

وقد اهتم فايول بالإدارة في قطاع الأعمال، ولما كانت الأصول العلمية للإدارة يمكن أن تسري في ميداني الإدارة العامة وإدارة الأعمال فإن الحقائق الهامة التي أبرزتها تشمل:

1. النواحي الفنية .. (أي الإنتاج)
2. النواحي التجارية (المشتريات والمبيعات والتبادل)
3. النواحي المالية (الموارد المالية، الاستثمارات، المصروفات).
4. نواحي الأمن.
5. نواحي الحسابات.
6. الإدارة (التخطيط، التنظيم، التوجيه، التنسيق، الرقابة).

وقد أورد فايول أن هذه المهام توجد في كل منظمة مهما يكن حجمها، وأن المهام الخمس الأولى يدركها الجميع، ولذلك ركز على دراسة العنصر الأخير أي الإدارة، وقد تضمن مؤلف فايول موضوعات تعالج صفات الإداريين وتدريبهم لاتخاذ القرارات في منظمات الأعمال⁽³⁾.

وتتضمن الصفات الجسمانية، العقلية، والتربوية، والصفات المتعلقة بالخبرة والمتعلقة بالعمل الذي يؤديه الفرد، وقد لاحظ فايول أن الأنواع المختلفة من القرارات التي يحتاجها المدير تعتمد على المركز الذي يشغله الهيراركية التنظيمية؛ بينما نجد أن القدرة الفنية مطلوبة بدرجة كبيرة في مستوى الإدارة التنفيذية⁽⁴⁾.

لقد آمن فايول بأهمية وجود مبادئ عامة في الإدارة وأكد على ضرورة إتقانها من قبل الذين يريدون النجاح في المنظمة، وتعتبر صياغة هذه المبادئ من أولى المحاولات لوضع عملية لتنظيم المنظمة وحتى وقتنا الحاضر⁽⁵⁾

وهنا نتوصل إلى الحقيقة التالية والتي تنص على أن عمليات التنمية الإدارية هي حصيلة الإدارة الناجحة في كل المستويات، تلك الإدارة الواعية والكفوة في الممارسة.

حدد فايول أربعة عشر مبدءاً للإدارة مكوناً بذلك الأساس للنظرية الإدارية Theory administrative وهذه المبادئ هي: تقسيم العمل، توازن السلطة، النظام، مبدأ وحدة القيادة، سيادة المصلحة العامة، العدالة، المبادرة، روح الجماعة، وحدة التوجيه، المكافأة أو التعويض، الترتيب، استقرار العمالة، المساواة، الأمر.

ولقد فرق فايول بين أسس وعناصر الإدارة، فقد قصر الأسس على المبادئ الأربعة عشر السابق ذكرها، أما عناصر الإدارة تضم الوظائف الخمس الآتية: (التخطيط، التنظيم، التوجيه، التنسيق، الرقابة) والتي تم ذكرها سابقا. ويعد فايول أول رواد الإدارة الذين حددوا عناصر العملية الإدارية بهذه الدقة رغم ما أدخل عليها من تعديلات لاحقة بعد ذلك.

كما تضمن مؤلف فايول موضوعات تعالج صفات الإداريين وتدريبهم، كما لفت الأنظار إلى ازدياد حاجة الفرد إلى هذه المهارات كلما ارتقى في السلم الوظيفي، ولذا فهو ينتقد بشدة خلو مناهج المعاهد الفنية من الموضوعات المتصلة بالمهارات الإدارية مؤكدا على أن القدرات الإدارية يمكن اكتسابها مثلما تكتسب المهارات والقدرات الفنية⁽⁶⁾.

* جهود نظرية المبادئ الإدارية في التنمية الإدارية: Efforts of administrative principle theory in Developments

لقد استخدمت أسس ومبادئ نظريات الإدارة بما فيها نظرية المبادئ الإدارية والتحديث، وفي كل العمليات الإدارية حتى تواكب التغيرات الحديثة في البيئة المحيطة⁽⁷⁾، إذ يرى المنظرون أن توفير هذه الأسس وتطبيقها في بيئة صالحة سوف يعطي الثمار المطلوبة، وهذا ما تحتاجه التنمية الإدارية، فقدرات ومهارات الأفراد هي مطلب إجباري لتحقيق التنمية الإدارية، وثقة الفرد في قدراته وثقته في تحقيق النجاح على مستوى التنظيمات ستكون عملا نابعا من قيم ومبادئ وأعراف ثابتة وراسخة في عقل الفرد العامل من أجل الإنجاز التنموي في الإدارة في المقام الأول. وبناء على هذا المفهوم يرى رواد هذه النظرية ضرورة إكساب الأفراد العاملين مبادئ الإدارة السليمة والمناداة بتطبيقها وترسيخها في أذهانهم حتى يسهل تحقيق التنمية الإدارية.

إن الاختلاف الحاصل بين فايول وتايلور يتمثل في أن تايلور ركز على المشروعات الإنتاجية الصغيرة وعلى وظيفة واحدة ألا وهي وظيفة الإنتاج، ثم فصل التخطيط عند التنفيذ مما كان له أثره السلبي على البيئة التنظيمية للعمل تمثلت أهم مظاهره في :

- انهيار مستويات المهارات في الصناعة والنزول بجميع الأعمال إلى مستوى واحد من المهارة المنخفضة نسبيا، وعليه فلا يوجد مدرج للوظائف يرتقي من خلاله العامل.
- ترتب على النتيجة السابقة أن أصبح للعامل مركز ثابت في المجتمع ليس له أن يتجاوزه إلى غيره فجعله جامدا وسط عالم متحرك.

» كما أدى تكريس العامل بجهده في عملية محددة إخضاعه إلى الرقابة المحكمة والقيود التي تفرضها المنظمة لتحقيق الكفاءة العالية إلى فقدانه لقدرته الذهنية وضاق أفقه في توجيه وتطوير العمل وزادت تبعيته.

لكن مدرسة العملية الإدارية لفايول تنظر إلى مبادئ الإدارة من وجهة نظر شمولية؛ بمعنى أن المبادئ التي ركز عليها فايول يمكن تطبيقها في المنظمات وعلى أي مستوى بغض النظر عن طبيعة العمل الذي تعمل في إطاره المنظمة، بمعنى أنه حاول تطوير نظرية عامة للإدارة مازالت مفيدة حتى الوقت الحاضر، ولم تتجاهل دور البيئة الداخلية والخارجية التي تؤثر على الوظائف الإدارية المختلفة، ويمكن لنا إيجاز معنى شمولية العملية الإدارية التي نادى بها فايول في النقاط التالية:

♦ أن وظائف الإدارة لا ترتبط بزمان أو مكان بمعنى أن لها ما يعرف بعالمية التطبيق فطالما أن الشخص في منصب "مدير" فلا بد له أن يطبق وظائف الإدارة وهي التخطيط، التنظيم، التوجيه، الرقابة سواء كان الشخص مدير المنظمة جزائرية أو أمريكية أو هندية ... الخ.

♦ أن المبادئ التي نادى بها فايول في العملية الإدارية تنطبق على جميع أنواع المنظمات سواء كانت منظمات تابعة للقطاع العام أو القطاع الخاص، أن المبادئ تنطبق أيضا على جميع مستويات الإدارة سواء كان المدير في مستوى الإدارة العليا أو الوسطى أو الدنيا.

وبناء على هذا يرى رواد هذه النظرية ضرورة إكساب الأفراد العاملين مبادئ الإدارة السليمة والمناداة بتطبيقها وترسيخها في أذهانهم حتى يسهل تحقيق التنمية الإدارية؛ فقدرات وكفاءات العمال هي مطلب أساسي ومهم لتحقيق أهداف التنمية وثقة العامل في قدرته في تحقيق النجاح على مستوى التنظيمات سيكون عاملا نابعا من قيم ومبادئ ثابتة في عقل الفرد العامل من أجل تنمية الأجهزة الإدارية. إن البحث في تطبيق مبادئ هذه النظرية مرتبط ارتباطا وثيقا بعمليات الإدارة من تخطيط وتنفيذ وتوجيه .

فالعملية الإدارية تبتدئ بالتخطيط، وذلك بتحديد الأهداف والعناصر الواجب استخدامها وكيفية استخدامها والوقت اللازم لتنفيذها، ثم التنظيم والذي هو تحديد من سيقوم بكل جزء من أجزاء العمل المقرر وتحديد المسؤوليات ومنح السلطات اللازمة، ويتبع ذلك التوجيه والإرشاد بكيفية العمل والدفع بمن يقوم به. وهذه الوظائف في جميع الأحوال يجب التأكد من أن ما تم بشأنها مطابق للأهداف المرسومة لها من حيث الكمية والنوعية والوقت من خلال عملية الرقابة،

وهذا لن يتأتى إلا من خلال اتصال إداري ناجح ومشاركة فعلية في اتخاذ القرارات بشأن كل عمليات وإجراءات الأجهزة الإدارية مع توفر تفويض حقيقي لجزء من المهام والمسؤوليات لتفعيل العمل الإداري تحقيقاً لأهداف التنمية الإدارية في الجزائر، لأنه حقيقة استطاعت هذه المفاهيم إضافة إلى المبادئ العلمية في هذه النظرية أن تحقق نجاحات كبيرة في المجتمع الغربي، حيث طبقت في بيئة عمل صالحة ونجحت في الوصول إلى تطوير وتنمية أجهزتها الإدارية، لكنها مع ذلك تعرضت لجملة من الانتقادات منها:

- تعارض وتناقض المبادئ التي قدمتها منها تعارض مبدأ التخصص مع مبدأ وحدة الأمر؛ حيث أنه في حالات كثيرة يتطلب اتخاذ القرارات الرجوع إلى عدة مستويات إدارية أو عدة تخصصات للإحاطة بالمشكلة موضوع البحث، وبالتالي فإذا انطبق مبدأ وحدة الأمر فقد يعني هذا عدم تطبيق مبدأ التخصص، ثم نصل إلى التناقض بالنسبة لمبدأ وحدة الأمر ومبدأ التنسيق، فالمبدأ الأول يقضي أن لا يكون للمرؤوس أكثر من رئيس واحد بينما ينص المبدأ الثاني على ضرورة وجود أكثر من رئيس للمرؤوسين إذا كان عمله ذو تأثير على أعمال الآخرين.

- تتسم المبادئ المتعلقة بوحدة الأمر ووحدة التوجيه ووحدة الاتصالات بالجمود ويأتي هذا الجمود من أن هذه المبادئ تؤكد وتؤيد فكرة استقلالية الإدارات المختلفة داخل المنطقة الواحدة، وفي ذلك تعارض مع مفهوم الأنظمة الذي يركز على المنظمة ككل متكامل، وعليه فإن الاهتمام بأجزاء المنظمة أي أقسامها قد يكون هاما، إلا أن دراسة طبيعة التفاعل وطبيعة العلاقات بين هذه الأجزاء قد يكون هاما؛ إلا أن دراسة طبيعة التفاعل بين هذه الأجزاء هو الشيء الأكثر أهمية، وهذا هو الفارق بين النظرة الجزئية والنظرة الشمولية.

بالرغم من ذلك فإن هذه الانتقادات لا تفقد النظرية أهميتها وقيمتها من حيث المبادئ التي قدمها لتحقيق كفاءة الأجهزة الإدارية.

1.3. النظرية البيروقراطية The Bureaucratic Theory

إذا كان هنري فايول مؤسس للنظرية الإدارية الحديثة، فإن ماكس فيبر بدأ بالتنظير على عكس ما بدأ به كل من تايلور وفايول حيث استخلص كل منهما المبادئ من خلال رصد وتحليل ملامح الممارسة العملية، أما فيبر فقدم مبادئ وقواعد معيارية يؤدي الالتزام بها من وجهة نظره إلى زيادة كفاءة التنظيم⁽⁸⁾، فكان أول من وضع نظرية منظمة عن التنظيم البيروقراطي⁽⁹⁾.

قدم فيبر آراؤه في البيروقراطية في سياق نظريته الخاصة "بهيكل السلطة" «The theory of authority structure» والتي قادته إلى تحليل المنظمات وفقا

لعلاقات السلطة الموجودة فيها، وكانت دراساته في هذا المجال تنبع من نقطة أساسية وتتركز حول السؤال التالي لماذا يطيع الأفراد الأوامر ويتصرفون وفقا لما يقال لهم؟

كما قدم في دراساته توضيحات على جانب كبير من الأهمية لاسيما في مجالات القوة والشرعية والسلطة***

* النموذج المثالي للبيروقراطية لدى فيبير:

أ. السلطة الكارزمية في الشكل البيروقراطي للتنظيم: فالبيروقراطية تحل مشكلة نقل الكاريزما لشخص ما بواسطة إضفاء صفة القوة والسلطة على المركز والوظيفة وليس على الشخص، وهذا التحقيق التكافؤ للأشكال البيروقراطية في التنظيم، وتمثل البيروقراطية بالنسبة لفبير شكلا من أشكال الإدارة، وتقوم على أساس الشرعية، وتستمد شرعيتها من اعتقاد عام لدى الأفراد مفاده أن الحكام يعملون وفقا للقوانين القانونية، وقد ربط فيبير السلطة الشرعية بأشكال تنظيمية معينة مثل تصميم وضبط العمل الإداري البيروقراطي وطبيعة التعيين في المراكز البيروقراطية وعمليات الترقية للعمال والموظفين.

ب. السلطة التقليدية: أما السلطة التقليدية فتستمد شرعيتها من الاعتقاد في قوة العادات والتقاليد والأعراف السائدة، وشرعية المكانة التي يحتلها هؤلاء الذين يشغلون الأوضاع الاجتماعية الممثلة للسلطة التقليدية؛ فالقائد التقليدي يصدر أوامره معتمدا على إمكانياته الوراثية؛ وغالبا ما تعبر هذه الأوامر عن رغباته الشخصية؛ ولذلك تتسم بالطابع التحكيمي، وإذا كان ذلك في حدود التقاليد والعادات المقبولة.

ج. السلطة القانونية: وتستمد شرعيتها من قوة القواعد واللوائح القانونية ومجموعة المعايير الموضوعية غير الشخصية؛ فالشخص القوي يحتاج إلى قدرات ومهارات تؤهله لمركز أو وظيفة معينة في السلطة⁽¹⁰⁾.

يعرض فيبير الخصائص أو العناصر العامة التي يتميز بها نموذج المثالي للبيروقراطية كما يلي:

1. التحديد القاطع للواجبات والمراكز: إن كل فرد في التنظيم البيروقراطي يشغل مركزا معينا، هذه المراكز محددة بطريقة قاطعة، وليس لأي فرد حق الإدعاء بأفضليته لعمل معين إلا إذا كانت مؤهلات الفرد وقدراته تناسب هذا العمل، والأعمال تفصل تماما عن شاغليها، وهذا الفصل يحرر التنظيم من الاعتماد على أي فرد مهما كانت قدراتهم، كما يمكن من شغل الوظائف الشاغرة بأفراد آخرين، طالما كانت مؤهلاتهم تتناسب مع خصائص تلك الأعمال.

2 . العلاقة الوظيفية: إن العلاقات الوظيفية داخل المنظمة هي علاقات شخصية تكون علاقات بين المراكز وليست علاقات بين الأفراد الشاغلين لهذه المراكز هذه خاصية تضمن نوعاً من التعاون الموضوعي اللازم لإنجاز الأعمال، وبذلك ينتقي الطابع الشخصي للعلاقات وبهذه الوسيلة يسود الرشد والحكم الموضوعي بعيداً عن الأهواء والتفضيلات الشخصية.

3 . معايير محددة لأداء العمل: لكل عمل في التنظيم طريقة محددة لأدائه ينبغي أن يتمسك بها جميع الأفراد ؛ هذه الطرق يعبر عنها في شكل قواعد وإجراءات مكتوبة System of rules ومحددة تحديداً قاطعاً، وتطبق بصفة ثابتة ومنظمة .

4 . التخصص الوظيفي: يقوم التنظيم البيروقراطي على درجة عالية من التخصص الوظيفي، ومن ثم فإن اختيار الأفراد لتولي المراكز يكون على أساس الخبرة الفنية والإدارية، ولذلك فإن التعيين يتم طبقاً لاختبارات الكفاءة كما أن التدريب يعتبر ضرورياً لرفع كفاءة العاملين⁽¹¹⁾.

5 . التدرج الهرمي: حيث تنظم الوظائف على أساس التدرج الهرمي « Hierarchy » المستند إلى السلطة الرسمية "Formal authority" ويدعم ذلك بما يلي:

✓ إن النموذج البيروقراطي المثالي حسب رأي فيبر يعتبر من النظم الرشيدة التي يمكن استخدامها في تحقيق السيطرة على الأفراد في الأعمال الكبيرة؛ فهو يوفر الدقة والاستقرار والانضباط المحكم ويمكن الاعتماد عليه في مجال تحقيق النتائج الكفؤة في المنظمة.

وفضلاً عما سبق فإن مفهوم "الرشد" الذي يقوم عليه النموذج البيروقراطي يعطي نوعاً من التفوق على أي بديل تنظيمي آخر، فهو أسلوب علمي موضوعي مجرد بعيداً عن المعايير الشخصية ومع ذلك فقد تعرض هذا النموذج إلى جملة من الانتقادات نذكر منها مايلي:

- إن الترشيح التنظيمي ليس سوى صورة مثالية وهمية وذلك لنقص المعرفة وعدم وضوح النتائج؛ إذ أنه لا تتبادر إلى ذهن "المنظم" كل البدائل المحتملة والممكنة لحل كل المشكلات التي يواجهها التنظيم.

- كما افترضوا افتراضاً رئيسياً في تحليلاتهم هو أن الإنسان في جو من التسامح سوف يتصرف بطريقة رشيدة أي مثلاً يطلب منه التنظيم الرسمي إتباعه لهذه القواعد واللوائح، فإن لهذا الكلام تبرير إيديولوجي يعمل على تبرير صرامة القواعد واستبعاد العلاقات الشخصية بين الأفراد العاملين، وكما سنرى في دراسة ميرتون وسلازنيك وجولدنر فإن وجود الخصائص الشخصية في التنظيمات البيروقراطية تفسر النتائج غير المقصودة للبيروقراطية جنباً إلى جنب مع النتائج المقصودة لها :

- تناقض مبدأ التدرج الهرمي مع مبدأ الخبرة والتدريب كأساس لاختيار الموظفين.
- إهمال الطبيعة النفسية والاجتماعية للإنسان ومعاملته كألة.
- نجاح التنظيم لا يتوقف على الخصائص الداخلية فحسب بل يرتبط بالبيئة الخارجية، وهذا ما لم يأخذ به فيبر لأن البيروقراطية تعالج التنظيم كنظام مغلق.
- بوجه عام يمكن القول بأن النظريات التقليدية (الكلاسيكية) وضعت اللبنات الأولى لمجموعة المبادئ التي يركز عليها التنمية الإدارية وحققت المزايا التالية:
 1. تقديم المنهج العلمي في دراسة المشكلات الإدارية.
 2. يمكن أن تكفل بإنجاز الأعمال بموضوعية وكفاءة.
 3. ركزت هذه النظريات على أهمية الكفاءة وجعلها غاية في حد ذاتها.
 4. إبراز أهمية التخصص وتقسيم العمل وتحديد المسؤوليات وحسن الاختيار للعاملين وتوفير الخبرة والمهارة في تحقيق الكفاءة⁽¹²⁾.
- توجيه الاهتمام نحو الاعتماد على الأسلوب العلمي بدلا من الطرق العشوائية سواء في تصميم العمل أو اختيار العاملين أو في التدريب.
- إن هناك الكثير من المبادئ التي قدمها هذا المدخل مازالت تستخدم حتى الوقت الحاضر.
- في نفس الوقت يواجه هذا المدخل مجموعة من الانتقادات من أهمها :
 - الافتراض بأن الأفراد يمكن حثهم على العمل عن طريق المكاسب المادية فقط مع إهمال تطلع الأفراد إلى تحقيق مطالب اجتماعية ونفسية خاصة بعد ارتفاع مستواهم المادي.
 - إهمال الدور الذي يلعبه العنصر البشري في تحديد فعالية الأداء.
 - عدم واقعية بعض فروضها مثل فكرة الرشد.
 - عدم الاعتراف بالتنظيم غير الرسمي.
 - إغفال عملية اتخاذ القرارات والتركيز على الأعمال الروتينية وتنميط الإجراءات وإعطاء القدر اللازم من الأهمية للسلطة والمراكز في التنظيم على حساب العمل⁽¹³⁾.
 - افتراض أن المنظمة نظاما مغلقا وعدم الاهتمام بتأثير البيئة الخارجية المحيطة والتي تؤثر تأثيرا كبيرا على نتائج عمليات التنمية الإدارية.
 - مبدأ وحدة الأمر يقضي بأن لا يكون للمرؤوسين أكثر من رئيس واحد لكن المبدأ الثاني يرى ضرورة وجود أكثر من رئيس إذا كان عمله ذا تأثير على الآخرين

* جهود نظرية البيروقراطية في التنمية الإدارية: Efforts of bureaucratic theory in development

يلاحظ مما سبق أن إسهامات النظرية البيروقراطية في تحقيق التنمية الإدارية هي إسهامات واضحة من خلال دراسة وتحليل نظرية البيروقراطية ومفاهيمها ومبادئها؛ فهي تؤكد على أن يتم تنظيم المناصب وفق مبدأ التسلسل الإداري لربط العلاقات بين الرئيس والمرؤوس، وتسلسل السلطات الرئاسية حتى تصل القاعدة إذ يخضع كل منصب أقل لإشراف وضبط المنصب الأعلى منه .

يكون لكل منصب مجال اختصاص محدد وواضح على أسس معقولة وأن يتم توعية العاملين بأهمية الالتزام بالمسؤوليات المطلوبة منهم وذلك لتسهيل عمليات الرقابة الإدارية وأيضا محاسبة كل عامل مرتكب لمخالفة في مجال وظيفته، ومن هنا يدرك بأن المسؤولية والصلاحيات المعطاة له يقابلها مساءلة ومحاسبة.

كما تركز النظرية البيروقراطية أيضا على ضرورة اختيار الموظفين على أسس من القواعد أو المعايير العلمية، ويتم التأكد من المؤهلات الفنية بالاختيار السليم والصحيح من خلال وضع الموظف المناسب في الاختصاص المناسب، وهذا يعتبر من الجوانب المهمة والأساسية في تنمية الموارد البشرية وبالتالي تحقيق تنمية الأجهزة الإدارية.

كما أكدت أيضا على ضرورة تنمية كفاءات وقدرات العاملين من خلال البرامج التدريبية وعلى ضرورة تأهيلهم في مختلف المستويات الإدارية فنجاح العملية التنموية يعتمد على كفاءة الموارد البشرية وحسن استغلالها، وهذا شرط أساسي وضروري لتحقيق أهداف التنمية الإدارية.

كما أكدت على أن يحصل كل موظف على مقابل مادي للعمل في صورة مرتب ثابت ويكون له الحق في المعاش، ويعتمد نظام الترقية فيه على الأقدمية أو الكفاءة أو كليهما ويعود تقدير ذلك كله للرؤساء المشرفين.

عموما النموذج الفيبري يحقق المزايا الآتية: الدقة، المعرفة الكاملة بالمستندات، السرعة، الاستمرار والوضوح، الوحدة والخضوع الكامل للرؤساء، تخفيض التكلفة الإنسانية والاقتصادية للعمل.

* الانتقادات الموجهة للنظريات التقليدية:

تعرضت النظريات التقليدية للتنمية الإدارية لمجموعة من الانتقادات أهمها:

1. إغفال النزعة الإنساني في المنظمة.
2. النمط الدكتاتوري السلطوي.
3. عدم واقعية بعض فروضها مثل فكرة الرشد.

4. عدم الاعتراف بالتنظيم غير الرسمي.
5. الاهتمام البسيط بأهمية الصراعات الداخلية في المنظمة.
6. إغفال عملية اتخاذ القرارات والتركيز على الأعمال الروتينية وتنميط الإجراءات وإعطاء القرار اللازم من الأهمية للسلطة والمراكز في التنظيم على حساب العمل .
7. عدم الاهتمام بتأثير البيئة الخارجية المحيطة والتي تؤثر تأثيرا كبيرا على نتائج عمليات التنمية الإدارية.
8. تعارض بعض المبادئ التي نادى بها مثل تعارض مبدأ وحدة الأمر مبدأ التخصص.
9. مبدأ وحدة الأمر يقضي بأن لا يكون للمرؤوسين أكثر من رئيس واحد لكن المبدأ الثاني يرى ضرورة وجود أكثر من رئيس إذا كان عمله ذا تأثير على الآخرين.
- يرى البعض أن هذا المدخل قدم مساهمات لا يمكن إنكارها في مجال الفكر الإداري من أهمها:
 - توجيه الاهتمام نحو الاعتماد على الأسلوب العلمي بدلا من الطرق العشوائية سواء في تصميم العمل أو اختيار العاملين أو في التدريب.
 - أن هناك كثيرا من المبادئ التي قدمها هذا المدخل مازالت تستخدم حتى الوقت الحاضر وفي نفس الوقت يواجه المدخل مجموعة من الانتقادات من أهمها:
 - ♦ الافتراض بأن الأفراد يمكن حثهم على العمل عن طريق المكاسب المادية فقط مع إهمال تطلع الأفراد إلى تحقيق مطالب اجتماعية ونفسية خاصة بعد ارتفاع مستواهم المادي.
 - ♦ افتراض أن المنظمة والأداء الإداري بها يمثل نظاما مغلقا؛ أي أن المنظمة نظام ساكن يمكن تحديد معايير الأداء فيه بشكل مسبق.
 - ♦ إهمال الدور الذي يلعبه العنصر البشري في تحديد فعالية الأداء .
 - ♦ افتراض وجود وظائف إدارية ومبادئ لها صفة العمومية؛ مهما أثر متغيرات الموقف⁽¹⁴⁾.

2/ النظريات الكلاسيكية الحديثة للتنمية الإدارية Classic modern théories of management development

1. 2. منظور النظريات الكلاسيكية الحديثة للتنمية الإدارية:

احتلت العلوم السلوكية مكانا هاما في النظريات الحديثة للتنمية الإدارية فقد ظهرت مدارس جديدة في دراسة وتحليل الأجهزة الإدارية؛ بحيث أخذت بعين

الاعتبار نواحي الضعف أو القصور الذي وقعت فيه النظريات التقليدية وهي تنظر في الجهاز الإداري ومكوناته الأساسية والمتغيرات المؤثرة في سلوك المنظمات الإدارية التي يتضمنها هذا الجهاز.

2.1.1. مدرسة العلاقات الإنسانية:

ترى نظرية العلاقات الإنسانية في تحليلها لإصلاح وتنمية الإدارة على أن العلاقات الإنسانية بين العاملين في التنظيم هي الأساس الذي يجب الارتكاز عليه في جهود التنمية الإدارية، حيث تعد أفكار مدرسة العلاقات الإنسانية المحاولة الأولى لدراسة السلوك الإنساني داخل المنظمات وأثره على زيادة الإنتاجية؛ أي بمعنى دراسة دافع الأفراد وأنماط سلوكهم والعلاقات الاجتماعية والشخصية المتداخلة من أجل الفهم السليم لدراسة الإدارة، لقد أدخلت هذه المدرسة إلى عالم الإدارة مفاهيم جديدة وأساسية مثل الإدارة بطريق المشاركة في اتخاذ القرارات، الإدارة بطريق الأهداف، إثارة الدوافع، الروح المعنوية، تنمية المنظمات، جماعات العمل، إدارة التغيير، الاتصالات، إدارة الصراعات التنظيمية.. الخ.

ويركز الكثير من أنصار هذه المدرسة على أن المنظمات لكي تبلغ أهدافها بكفاءة يجب أنت تأخذ بعين الاعتبار الجانب البشري من تكوينها، بمعنى آخر يجب أن يكون هناك توافق ما بين أهداف المنظمة وأهداف العاملين بها؛ وكلما كان هذا التوافق كاملاً كان هذا في صالح كل من التنظيم والفرد⁽¹⁵⁾.

2. أهداف مدرسة العلاقات الإنسانية: تهدف مدرسة العلاقات الإنسانية إلى

تحقيق ما يلي:

1. تنمية المسؤولية المتبادلة بين المنظمة والعاملين فيها لتحقيق نتائج ايجابية تمكن من التقليل من حجم التعارض الذي قد ينشأ بينهما.

2. الارتفاع بمستوى الكفاءة الإنتاجية من خلال تنمية التعاون الاختياري بين العاملين وتوفير مبدأ المشاركة في اتخاذ القرارات وتقرير السياسات مما يؤدي إلى رفع الروح المعنوية للأفراد.

3. التنبؤ بالحاجات والمشكلات الخاصة بالعاملين والعمل على منعها واستخدام كافة الوسائل التي تمكن من التعرف على هذه المشكلات ووضع الحلول المناسبة لها؛ سواء كان ذلك في صور أجور أو ظروف عمل مناسبة أو تحقيق نوع من الرعاية الصحية والاجتماعية للعاملين أو توفير برامج تدريبية مناسبة لهم.

4 - وضع الأسس التي تمكن من إشعار كل فرد بمدى أهميته في المنظمة، وكذلك توفير الفرص المناسبة للتقدم والاستقرار في العمل.

5 - تدعيم وإيجاد روح الود والتفاهم بين العاملين ؛ وذلك من خلال توفير النظم المناسبة التي تعمل على القضاء على المشكلات بين العاملين⁽¹⁶⁾.

ومن بين الرواد الذين ساهموا في تطوير هذه المدرسة نذكر:
ألتون مايو Elton Mayo، ماري باكر فوليت "Mary parkart Follet"، شستر بارنار "Chester Bernard"، دوكلاس مكروجر "Douglas McGregor"، كريس أرجريس "Chris Argyris"، هربرت سيمان "Herbert Siman".

وكانت بداية حركة العلاقات الإنسانية الحقيقية في مجال الصناعة والعمل تلك البحوث التي أجراها التون مايو "Elton Mayo" ويطلق عليه أبو علم الاجتماع الصناعي Father of sociology وزملاؤه روثلسبرجر "Rothlisberger" ووليم ديكسون "W.J.Dickson" على عمال مصنع "هاوثورن" التابع لشركة الكهرباء الفرنسية بالقرب من شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ما بين عامي (1927 - 1932)⁽¹⁷⁾.

أ/التون مايو "Elton Mayo" والعلاقات النفسية والاجتماعية للعاملين (1880 - 1949):
ولد ألتون مايو في أستراليا، ثم انتقل إلى أمريكا ليعمل أستاذاً في جامعة هارفرد وعاش فيها بين عام (1927-1933)، أجرى هو وزملاؤه مجموعة من التجارب على إنتاجية العامل بتغيير ظروف العمل؛ لمعرفة أثر هذه التغييرات التي تتمثل في الإضاءة، أوقات الراحة، مدة العمل، تقديم مشروبات صباحية كالقهوة، المؤثرات العاطفية، الرضا الاجتماعي، وقد أجريت هذه التجارب في شركة ويسترن إلكتريك أمريكا في مصانع هاوثورن.

لقد كان سائدا لدى المهتمين بشؤون الإدارة وجو علاقة قاطعة بين مدى جودة البيئة المادية التي يعمل فيها الشخص وبين سعادته ومقدار إنتاجيته، ومن أمثلته البيئة المادية: درجة الحرارة، التهوية، الإضاءة، الضوضاء، إلى غير ذلك، ولتحديد العلاقة بين الإضاءة كعامل رئيسي من هذه العوامل وبين كفاءة الفرد قام ألتون بالإشراف على عدة دراسات في مصانع هاوثورن التابعة لشركة ويسترن إلكتريك، وكان الهدف المبدئي لهذه التجارب تحديد أثر الإضاءة على إنتاجية العمال، فاختار فريقين من العمال يعملان تقريبا في ظروف عمل متشابهة من حيث الأجور والآلات المستخدمة وتم تثبيت الإضاءة للفريق الأول، وتغيير الإضاءة للفريق الثاني؛ بالإضافة إلى ذلك كان يتم الإعلان عن تغيير الإضاءة دون أن يحدث أي تغيير بهدف معرفة أثر "الإيحاء النفسي" على الإنتاجية، وقد خلصت هذه التجربة إلى أثر ارتفاع الروح المعنوية في زيادة الإنتاج.

ولاحظ "مايو" بعد ذلك أن إنتاجية العمال تزيد مع تحسين وزيادة الإضاءة، ولكن لوحظ أن عودة مستوى الإضاءة إلى ما كانت عليه لم ينقص من زيادة

الإنتاج واستنتج "مايو" ورفاقه أنه ليس هناك أية علاقة بين كثافة الإضاءة ومعدل الإنتاج⁽¹⁸⁾.

وقد رأى "مايو" وزملاؤه أن زيادة الإنتاج لا تعود إلى عنصر الإضاءة؛ وإنما ترجع إلى إدخال بعض التغييرات على ظروف العمل مثل: فترات الراحة ووجبات الغذاء وتقليل ساعات العمل اليومي فأحس العمال بأن إدارة المصنع تهتم بهم وبعملهم وبصحتهم، مما تسبب في رفع روحهم المعنوية وزيادة إنتاجياتهم، وأجريت تجربة لمعرفة أثر الصداقة في الإقبال على العمل، مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج تتم اختيار ست فتيات تربط بينهن صداقة وطلب إليهن أن يعملن في حرية داخل حجرة مستقلة عن باقي العمال، وقد تبين من هذه التجربة أن جو الانسجام والصداقة يولد نوعاً من المسؤولية الجماعية التي تحفز على العمل، كما أن نظم الرقابة التي وضعتها الإدارة العلمية لا دخل لها في زيادة الإنتاج.

أجرى "التون مايو" مقابلات عديدة مع العمال في مصنع "هوثورن" لمعرفة اتجاهات ومشاعر العاملين بالمصانع نحو الآلة ونحو العمل ونظمه، ونحو جماعات العمل الرسمية وغير الرسمية، ولاحظ وجود أنماط سلوكية مختلفة في المؤسسة كاتجاهات التراخي والعداء والإحباط.

وخلص "مايو" من هذه المقابلات إلى أن هذه الاتجاهات ناجمة عن أسلوب الإدارة الذي يتجاهل مشاعر العاملين، فنظرة الإدارة للعامل على أنه آلة فقط تؤدي إلى عدم إحساس العامل بقيمته وإلى عدم تعاونه وعدم انتمائه للعمل⁽¹⁹⁾.

2.2.2. المدرسة السلوكية:

يرى أصحاب هذه النظرية أن العامل الأساسي المحدد لكفاءة الإدارة وقدرتها على تحقيق أهدافها هو الإنسان، وبمعنى أدق السلوك الإنساني⁽²⁰⁾.

حيث تقوم على دراسة شخصية الفرد ونشأته ودوافعه والعوامل التي تؤثر في تكوينه حتى تكون الصورة عن السلوك متكاملة، وتوجه اهتمامها إلى دراسة العوامل المؤثرة على التفاعل من ناحية، وبين السلوك الفردي والجماعي من ناحية والعوامل البيئية المؤثرة فيه من ناحية أخرى، وبذلك تساعد هذه المدرسة في التوصل إلى أفضل الطرق للتعامل مع العاملين وتحقيق الأهداف الإنتاجية التي تسعى إليها⁽²¹⁾.

ويرى أنصار هذه المدرسة أن تفهم سلوك واحتياجات الأفراد العاملين بالمنظمة هو أساس الإدارة الفعالة، وأن العنصر البشري يستحق أن يكون محور الاهتمام التنظيمي⁽²²⁾.

ويمكن تحديد أسس هذه المدرسة في الآتي:

1. التعلم والتعليم والتدريب هي عمليات رئيسية في نمو الشخصية الإنسانية.

2. الاهتمام بالجماعة ودورها في توجيه مواقف الأفراد نحو أهداف المنظمة.
3. التركيز على موضوع التفاعل بين الأفراد والمنظمة وكيفية توجيه العاملين لصالح أهداف المنظمة.
4. أهمية ثقافة المنظمات وضرورة مراعاتها عند صنع القرار وأهمية احترامها.
5. الاهتمام بالجوانب النفسية والاجتماعية للفرد داخل المنظمة.
6. العنصر الإنساني هو مصدر للتغيير في السلوك التنظيمي.
7. الاهتمام بموضوع بناء وتدعيم الولاء المؤسسي لدى العاملين تجاه المنظمات التي يعملون بها⁽²³⁾.

كما يهتم هذا المدخل بدراسة مصدر السلطة ودوافع السلوك داخل التنظيم وخاصة السلوك غير الرسمي، ومدى تأثير هذا السلوك على تحقيق التنظيم لأهدافه، كما يركز أيضا على دراسة تأثير الاتصال على ممارسة السلطة وعوامل الاستقرار أو التغيير التنظيمي، كما يهتم بتأثير القيم في السلوك التنظيمي، وتأثير الضغط الاجتماعي على تعديل السلوك داخل التنظيم⁽²⁴⁾.

وترجع جذور هذه النتائج التي توصلت إليها دراسات وبحوث علماء النفس والاجتماع والانثروبولوجيا ودارت حول المفاهيم والمناهج التي تستخدم في دراسة الإدارة والعوامل المؤثرة على سلوك المنظمات والعاملين فيها والمتغيرات التي تحكم ما يتخذ من قرارات والعلاقات الاجتماعية في العمل وردود فعل العاملين إزاء بعضهم البعض في المنظمات، وإزاء مؤسساتهم وأنماط القيادة التي يستخدمها الرؤساء في التأثير على أداء العاملين، وتسيير أجهزة الإدارة باعتبارها كيانا اجتماعيا يتأثر بالقوى النفسية والاجتماعية للأفراد⁽²⁵⁾.

* أهم رواد هذه المدرسة:

من أهم هذه المدرسة نجد كلا من هربرت سيمون "Herbert Simon" وهوايت "W. Whyte" أرجيس، مازلو، ماكجريجر.

ولقد ركز رواد هذه المدرسة على تفسير سلوك الأفراد داخل المنظمات على اعتبار أن المنظمة عبارة عن بيئة خاصة يعيش فيها الأفراد أو يعملون بها، وبالتالي فإنها تطبع سلوكهم وشخصياتهم بطابع خاص يختلف محتواه وفي مداه تبعا لدرجة سلوكياتهم التي يمارسونها مع محاولة إظهار مدى تأثير انتمائية العاملين لمنظماتهم على حياتهم الاجتماعية والنفسية.

* الفرق بين النموذج التقليدي للتنظيم ونموذج العلاقات الإنسانية:

لعل من أبرز الفروق بين النموذجين أن الفكر التنظيمي التقليدي حين تعامل مع الإنسان باعتباره عنصرا من عناصر التنظيم ركز فقط على الجوانب

الفسولوجية فيه؛ أي قدراته الجسمية وإمكانياته على أداء الأعمال الموكلة إليه باستخدام قواه العضلية .

بينما اتجه نموذج العلاقات الإنسانية إلى تأكيد أهمية التكوين النفسي والاجتماعي للإنسان، والتأكيد على قدراته الفكرية والذهنية وتأثير الحاجات الاجتماعية في تشكيل سلوكه واستجاباته لمطالب التنظيم.

*** جهود نظرية العلاقات الإنسانية في التنمية الإدارية Efforts of human relations theory in development**

لقد انصبت جهود هذه النظرية حول الإنسان (الفرد، العامل) وضرورة توفير كل الاحتياجات الضرورية له لأنه أساس التنمية وعنصرها الحيوي؛ فالاهتمام بتوفير حاجات الأفراد وتنمية مهاراتهم يدفع التنمية إلى الأمام؛ ويحقق مستويات معيشية مقبولة وحياة كريمة؛ فإشباع حاجات الأفراد للوصول بهم إلى مرحلة تحقيق الذات، وتوفير المناخ الوظيفي الصحي الذي يتحقق فيه الاحترام المتبادل بين الرئيس والمرؤوسين والاتصال الفعال يمكن الموظف من تأدية واجباته؛ إضافة إلى إبداء آرائه واجتهاداته وتقديم اقتراحاته وتوصياته وكل مما يتطلبه العمل الإداري الجيد الذي يحقق المصلحة العامة من خلال المشاركة في اتخاذ القرارات، وهذا من شأنه أن يساعد على تحقيق التنمية الإدارية .

ومن الملاحظ أن العلاقة بين الرئيس والمرؤوسين في بيئة العمل في الدول النامية تفتقد إلى المصادقية والإخلاص؛ فهي بعيدة عن الموضوعية، وهذا أحد العوائق الرئيسية التي تواجه التنمية الإدارية.

إن توفر المصادقية في العمل وما تمت ضمنه من علاقات وظيفية حسنة وعلى كل المستويات، وفي كل التنظيمات الإدارية يعني توفير البيئة السليمة لقيادة عمليات التنمية والتطوير الإداري بشكل عام⁽²⁶⁾.

إن أوضح شيء في المنظمة هو تنظيمها الرسمي، وهو الذي يضمن السياسات والنظم والتعليمات، وينص على العلاقات بين الأفراد كما يجب أن تكون عليه هذه العلاقات ويوجد إلى جوار هذا التنظيم تنظيم آخر غير رسمي، حيث يكون الناس في اتصالهم ببعضهم البعض وفي علاقاتهم جماعات غير رسمية تجمع بينها قيم ومعتقدات ومعايير ونظرا لأن الانضمام إلى هذه الجماعات يتم تلقائيا فإن تأثيرها على السلوك يكون قويا ولا يمكن إنكاره .

وعلى هذا الأساس نحن بدورنا نوافق على كثير من المبادئ التي نادى بها نظرية العلاقات الإنسانية لعلّمتها وواقعيتها وتطابقها مع المتغيرات الرئيسية للدراسة، ولا نتفق معها إلا في فكرة معالجة هذه القضايا في إطار نسقي غلق وإنما

نعالجها في إطارها النسقي المفتوح؛ أي بمعنى في إطارها الكبير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وما لهذه الأبعاد من تأثيرات حقيقية على المنظمات بمختلف أنواعها، وذلك بتبني أيضا مدخل النظم في هذه الدراسة، وهو المدخل الذي يعتمد على النظرة الشمولية للأمر، بمعنى أنه ينظر إلى الأمور في كليتها وليس في جزئياتها .

وهذا المدخل يؤكد ويركز على وجود علاقة متداخلة ومعتمدة على بعضها البعض بين الأجزاء التي تنمي إلى الكل، ويضع إطارا متكاملات للتعرف على العوامل الداخلية والخارجية المحيطة بالمنظمة ويساعد الإدارة على التعرف على مدى التعقيد في هذه العوامل، وفي الظروف البيئية المحيطة مما يجعلها على وعي بمدى صعوبة العمل الإداري، ومن ثم بذل جهود لمواجهة الظروف والمشاكل المحيطة وبالتالي السير في تحقيق أهداف التنمية الإدارية.

3/ خصائص النظريات الحديثة: اتسمت النظريات الحديثة للتنمية الإدارية بالخصائص التالية:

- 1 . دراسة السلوك الإنساني في الأجهزة الإدارية، والتركيز على الموارد البشرية باعتبارها أحد المحددات الرئيسية لثقافة المنظمات وتنميتها؛ فالقيم هي مؤثرات التنمية الإدارية ومحدداتها الأساسية.
- 2 . دراسة العمليات الداخلية وأوجه التفاعل والتبادل بين أعضاء الأجهزة الإدارية، ودراسة عمليات اتخاذ القرار والمراحل التي يمر بها هذا القرار باعتبارها تشكل إحدى الدعائم الاستراتيجية الهامة في كيان الجهاز الإداري، وكذا التركيز على أهمية المشاركة في عملية اتخاذ القرارات .
- 3 . الاهتمام بدراسة عمليات القيادة والاتصالات، واعتبارها من المؤشرات الأساسية المحددة لنشاط الجهاز الإداري وكفاءته.
- 4 . التركيز على دراسة أثر الدوافع الإنسانية والبحث في تنوع الحوافز المناسبة لتحفيز أعضاء الجهاز الإداري على بذل مجهود أكبر .
- 5 . الاعتراف بأهمية التنظيم غير الرسمي وأثره في كفاءة الجهاز الإداري.
- 6 . النظر إلى المراكز والأدوار داخل المنظمات على أنها تتسم بنوع من المرونة بحيث تعتبر شرطا ضروريا لتحقيق التلاؤم المطلوب بين أوضاع الجهاز من جهة وبين التغيير الذي قد يطرأ على وسائل العمل وطرقه، أو السياسات الإدارية المعمول بها من ناحية أخرى⁽²⁷⁾.

3.1. نظرية النظم أو النسق المفتوح: يلاحظ أن كل مدخل من المداخل السابقة قد يكون صحيحا في النظر إلى المشكلة من زاوية معينة وقد تكون هي حجر

الزاوية أو المدخل السليم للحل، وقد يكون المدخل السليم هو استخدام هذه المدخل مجتمعة للوصول إلى الفعالية المطلوبة.

والمطلوب إذن هو وضع إطار مفاهيمي واسع ومفصل يمكن أن يساعدنا على تشخيص المشكلة وتحديد الأداة أو مجموعة الأدوات التي تؤدي العمل بأفضل ما يمكن؛ وبالتالي تحقيق التنمية الإدارية؛ ولذلك ظهرت العديد من الكتابات التي حاولت أن تتوصل إلى منهج متكامل يمكن أن ينظر إلى المشكلة الإدارية من زاوية أكثر شمولية

ويمكن التعرض في هذا الصدد إلى منهجين أساسيين هما:

1- مدخل أو منهج الأنظمة The systems approach

2- المنهج الموقفي The contingency approach

هذان المنهجان يختلفان عن المناهج الأخرى في تأكيدهما على أن المنظمة ليست إلا نظاما مفتوحا « Open system » يتأثر كثيرا بالبيئة المحيطة به وخصوصا البيئة المهمة « Tasked virronoment » سواء تعلق منها بالأسواق أو بوسيلة أداء العمل (التكنولوجيا) أو بالثقافة السائدة في المنظمة؛ حيث أن عناصر البيئة تختلف من منطقة إلى أخرى؛ بذلك فإن بناء المنظمة يختلف من حالة على أخرى حتى يعكس هذه العوامل المتغيرة.

يهدف منهج النظام أو النسق أساسا إلى إلقاء الضوء على علاقة المنظمة بالبيئة المحيطة بها، سواء أكانت بيئة مباشرة تؤثر على نشاط المنظمة بطريقة مباشرة أو كانت بعيدة تؤثر على المنظمة بطريقة غير مباشرة⁽²⁸⁾.

* المكونات الرئيسية للنظام: تقسم المكونات الرئيسية للنظام إلى مايلي:

1. المدخلات Inputs (بشرية، مادية، تكنولوجية، تنظيمية).
 2. العمليات Operations: وتشتمل على الأنشطة التي تقوم بها الإدارة.
 3. المخرجات « Out put » (سلع وخدمات، إنتاج معنوي كتغير سلوك وتقديم أفكار وآراء أو خدمات): وهي إفرازات النظام الإداري للبيئة الخارجية.
 4. البيئة: وهي مثلة بالبيئة السياسية والاجتماعية، وعادة تتفاعل أجزاء النظام الإداري فيما بينها إلى جانب تفاعلها مع المحيط الخارجي (البيئة)⁽²⁹⁾.
 5. التغذية العكسية « Feed back »: ولكي يضمن التنظيم معرفة المدى الذي تحقق مع الأهداف والنتائج الخاصة بالأداء، ومدى تناسب أنظمتها الفرعية ومخرجاتها مع احتياجاتها، لابد من وجود معلومات مرتدة لمعرفة مدى تقبل البيئة لتلك المخرجات، وتسمى هذه العملية بالتغذية العكسية⁽³⁰⁾.
- يتميز النظام المفتوح بالاتجاه دائما نحو التنوع « Differentiation » والتخصص.

يتميز النظام المفتوح أيضا بقدرته على إيجاد أكثر من وسيلة للوصول إلى نفس الغاية « Equifinality » وكذلك قدرته على الوصول إلى نفس الغاية من نقاط بدايات متنوعة، وفي مجال المنظمات الإدارية يصدق ذلك أيضا فالتنمية الإدارية يمكننا الوصول إليها من عدة طرق⁽³¹⁾.

من خلال الاتصالات الفعالة التي تربط كل من الرئيس والمرؤوسين وتحقيق الأهداف المطلوبة وأيضا المشاركة الفعالة لهؤلاء المرؤوسين في القرارات التي تخص الجهاز الإداري وأيضا من خلال تفويض ناجح لبعض المهام والمسؤوليات الإدارية لتسهيل عمل الإجراءات والعمليات الإدارية.

ولا شك أن منهج "النظم" قد وجه أنظار الباحثين إلى القوى الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والتكنولوجية المحيطة بالمنظمة، وإلى أهمية كل من الأهداف والأدوار والمعايير والهياكل ووسائل الأداء والعنصر البشري والبيئة، ولقد كان من نتائجه أيضا إبراز أهمية الأنساق الفرعية ووظائفها مواءمتها مع النظام الأم. لقد كان من مزايا هذا المدخل أنه بين أن هذه العناصر كلها متكاملة ومستمرة في تفاعلها وتأثيرها المتبادل على المنظمة، إلا أنه فشل في أن يحدد بدقة تأثير كل عنصر على انفراد، ومدى مساهمة كل عنصر في بناء المنظمة⁽³²⁾.

ولكي يُضمن بقاء التنظيم المفتوح في حالة دوران ونشاط مستمر يجب توفر الشروط التالية:

1- قدرة النظام على الصمود في وجه الفناء، ويضمن لنفسه البقاء من خلال قدرته على استيراد مصادر الطاقة من المجتمع وادخارها بحيث تضمن له التغلب على عوامل الفناء بصفة لا نهائية خاصة إذا ارتبطت التنظيمات الاجتماعية ببيئتها وحرصت الحصول على المزيد من الموارد والطاقات المختلفة.

2- توفر المعلومات وفهم الظروف المحيطة كضرورة يتفهم بواسطتها النظام مدى تقبل المجتمع المنتجات التي يقدمها إليه، وتعطي صورة كافية لكيفية أداء النظام في هذا المجتمع ومدى تناسب المخرجات مع ظروف المجتمع واحتياجاته (تغذية ارتجالية) وأهمية هذه المعلومات تساعد على تصحيح انحرافات النظام على المسيرة الاعتيادية والعودة إلى المسار السليم.

3 - صفة التوازن الديناميكي؛ يتميز النظام المفتوح بحالة من التوازن، حيث تعمل الأنشطة المختلفة على استيراد الموارد والمخلات وإنتاج المخرجات وتقديمها للمجتمع بشكل يحقق للنظام حالة من الثبات النسبي، وحالة التوازن هذه ليست جمودا أو عدم حركة؛ فتوقف النظام عن العمل يعني قرب نهايته، وأن ديناميكية النظام تستلزم تحركه واستمراره⁽³³⁾.

* تقييم نظرية النظام المفتوح:

يمكن تقييم نظرية النظام المفتوح (والتي لاقت رواجاً كبيراً) في الفكر الإداري من الناحية الإيجابية بأنها تعطي اهتماماً متزايداً لدور البيئة وتأثيراتها في المجتمع وانعكاسات هذه التفاعلات على نشاط التنظيم أو الجهاز الإداري عامة، إن النظرية تحاول أن تتميز بالدقة والعملية حيث أنها تضع للنظام الإداري حدوداً معينة تعمل ضمن خطوط بيئية مميزة وله حيوية تميزه عن غيره من الأنظمة الأخرى.

إن نظرية النظام المفتوح تُعنى بقدرة النظام على العمل واستمراره في تأدية وظائفه من خلال عمليات الأنشطة التي تحوّل المدخلات إلى مخرجات ثم تحليل المعلومات لغرض ديمومة النظام وصيانه ومساعدته على التكيف والتأقلم وفق متطلبات البيئة وعناصرها المتنوعة⁽³⁴⁾.

* تطبيق نظرية النظم في التنمية الإدارية :

بعد تحليل النظم الدارسة والشاملة للنظام، إذ يساهم إلى درجة كبيرة في تحقيق ومساندة التنمية الإدارية من خلال النقاط التالية:

- إن تحليل النظم يعتمد على أنواع متعددة من الخبرات والمعارف التي تتطلب العمل الجماعي الذي يساهم في دراسة وتحليل نظم محددة ومحاولة الوصول إلى حقيقة المشكلات ومقومات التطوير والتنمية الإدارية.

- إمكانية المقارنة بين التكاليف والعوائد والقيام بعملية قياس المخرجات بالنسبة للمدخلات، فكلما كان هذا القياس ناجحاً دلّ على كفاءة النظم الإدارية .

- الأخذ بعين الاعتبار البيئة المحيطة وما تشتمل عليه من متغيرات تجعل القدرة على التأكد من نتائج العمل محدودة.

ومن الفوائد التي يحققها تحليل النظم في مجال التنمية الإدارية :

1. استثمار أفضل للإمكانيات المادية والبشرية .
2. الحصول على إجراءات وأساليب عمل أكثر كفاءة وفعالية.
- تحقيق طرق للأداء لتقليل الإسراف والضياع وفقدان الموارد والوقت.

خاتمة

حاولنا في هذا المقال تشخيص نظريات التنظيم بشقيها الكلاسيكية والحديثة بعين ناقدة من أجل التعرف ورصد أهم إسهامات هذا الفكر الإداري في مجال تنمية وتطوير الأجهزة الإدارية، والتي ركزت في معالجتها على جانبين أساسيين بحيث تناولت النظريات الكلاسيكية الجانب الاقتصادي بصفة رئيسية، بينما النظريات الأخرى بالإضافة إلى ذلك تطرقت إلى الجانب النفسي الاجتماعي في حين ظهرت عقب هذه النظريات نظريات أخرى منها : نظرية النظم، النظرية

الموقفية والاتجاهات النظرية الحديثة، في نطاق أعمال التنمية الإدارية بغية الاستفادة من إيجابيات هذا الفكر وتوظيفه في إصلاح وتنمية الأجهزة الإدارية العربية ومنها الجزائرية، وأيضاً من أجل تفادي المطبات التي وقع فيها هذا الفكر وتكييف كل ذلك حسب الواقع الإداري العربي الجزائري.

- الهوامش :

- * نقد نظرية التنظيم « Organisation theory » * بمثابة منهج لفهم وتحليل لمنظمات وتفسير السلوك وقياس الأداء التنظيمي وفقاً لعدد من المبادئ والقواعد الإدارية.
- (1) محمد فريد الصحن، إبراهيم سلطان، مبادئ الإدارة، الإسكندرية: الدار الجامعية، 2000، ص 52-53.
- (2) عادل حسن الصرن، صناعة التنمية الإدارية في القرن الحادي والعشرين، دمشق: دار الرضا للنشر، 2002، ص 30-31.
- (3) محمد عبد العزيز، الاقتصاد الإداري - مدخل تحليل كمي -، الإسكندرية: مكتبة الإشعاع الفنية، ص 50-51.
- (4) فريد الصحن، مرجع سابق، ص 57.
- (5) سعيد مؤيد سالم، تنظيم المنظمات - دراسة في تطور الفكر التنظيمي خلال مائة عام -، عمان: علم الكتب، 2002، ص 65.
- (6) إبراهيم عبد الهادي المليجي، استراتيجيات وعمليات الإدارة، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، 2002، ص 50-51.
- (7) موسى اللوزي، التنمية الإدارية - المفاهيم، الأسس، التطبيقات -، عمان: دار وائل للنشر والتوزيع، 2000، ص 58.
- (8) محمد إسماعيل بلال، السلوك التنظيمي بين النظرية والتطبيق، الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة، 2005، ص 25.
- (9) علي عبد الرزاق جليبي، علم اجتماع التنظيم - مدخل للتراث والمشكلات والموضوع والمنهج -، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2001، ص 40.
- * البيروقراطية: كلمة مركبة من مقطعين الأول Bureau والثاني cracy وهو مشتق من الأصل الإغريقي Kratic ومعناه أي: To be strong أو القوة أو الحكم، وعليه يكون المعنى الحرفي لكلمة البيروقراطية "هو سلطة المكتب أو الإدارة عن طريق المكتب management the office، وهناك عدة تعريفات للبيروقراطية، لها معنيين الأول: وهو المعنى العلمي المنصرف إلى تنظيم المنظمة وفق أسس علمية محددة لتحقيق أهداف معينة بواسطة مجموعة الأفراد والإمكانات المادية والفنية المختلفة، والثاني: هو المعنى الشعبي يمسد الجوانب المستنجة للكلمة ويقصد به الجمود الإداري والتعقيدات المكتبية والالتزام الحرفي بالنصوص والإجراءات الرسمية والنزعة إلى السيطرة والتعالي والهروب من المسؤولية وإساءة استعمال السلطة
- * القوة (Power): تعني القدرة أو القابلية في إرغام الآخرين على الطاعة بغض النظر عن مقاومتهم الشخصية.
- *** الشرعية (Legitimation): فتعني تقبل الأفراد للقوة لأنها متفقة وقيمهم الخاصة.
- *** السلطة (Authority): بمعنى الدمج بين الجانبين أعلاه؛ أي إطاعة الأوامر وتقبلها طوعية من قبل المرؤوسين
- (10) سعيد عيمد مرسي بدر، الإيديولوجيا ونظرية التنظيم - مدخل نقدي -، الإسكندرية: دار المعرفة الجديدة، 2000، ص 96-97.
- (11) محمد فريد الصحن وآخرون، مرجع سابق، ص 66-67.
- (12) علي ناصر شتوي آل زهران، مرجع سابق، ص 140.

- (13) حنفي محمود سليمان، وظائف الإدارة، الإسكندرية: مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، 1998، ص ص 22-23.
- (14) محمد إسماعيل بلال، السلوك التنظيمي بين النظرية والتطبيق، الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة، 2005، ص 27.
- (15) جمال الدين لعويسات: السلوك التنظيمي والتطور الإداري، الجزائر، دار هومة، دون سنة نشر، ص 22.
- (16) حسين عبد الحميد رشوان، علم الاجتماع التنظيم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000، ص ص 74-75.
- (17) حسين عبد الحميد رشوان، العلاقات الإنسانية في مجالات علم النفس - علم الاجتماع - علم الإدارة، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1887، ص 42.
- * لمزيد من الاطلاع انظر كتاب عبد الله محمد عبد الرحمن، علم الاجتماع الصناعي النشأة والتطورات الحديثة، مرجع سابق، ص ص 109-114.
- (18) جمال الدين لعويسات، مرجع سابق، ص 20.
- (19) حسين عبد الحميد رشوان، العلاقات الإنسانية في مجالات علم النفس - علم الاجتماع -، مرجع سابق، ص 43.
- (20) عيسى الرفاعي، احتياجات التطور الإداري في القطاع الحكومي، ندوة التطوير الإداري في الكويت: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، 1982، ص 123.
- (21) حسين عبد الحميد رشوان، الإدارة والمجتمع - دراسة في علم اجتماع الإدارة -، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2006، ص 144.
- (22) طارق طه، السلوك التنظيمي في بيئة العولمة والانترنت، الإسكندرية: دار الفكر العربي، 2006، ص 60.
- (23) مدحت محمد أبو النصر، بناء وتدعيم الولاء المؤسسي لدى العاملين داخل المنظمة، القاهرة: يترك للطباعة والنشر والتوزيع، ص 22.
- (24) إبراهيم عبد الهادي المليجي، استراتيجيات وعمليات الإدارة، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، 2004، ص 109.
- (25) حسين عبد الحميد رشوان، مرجع سابق، ص 92.
- (26) علي ناصر شتوي آل زهران، مرجع سابق، ص ص 63-64.
- (27) رعد حسن الصرن: مرجع سابق، ص ص 117-118.
- (28) محمد محمد بدران، أسس الإصلاح الإداري في تطوير التنظيم - دراسة في الهيكل التنظيمي ومحددات تطويره، القاهرة: دار النهضة العربية، 1985، ص 2.
- (29) مهدي حسن زويلف، سلمان أحمد اللوزي، التنمية الإدارية والدول النامية، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 1993، ص ص 82-83.
- (30) المرجع السابق، ص 84.
- (31) محمد محمد بدران، مرجع سابق، ص 69.
- (32) المرجع السابق، ص 76-77.
- (33) حلمي شحادة محمد يوسف: إدارة التنمية - العلم والعمل، عمان، دار المناهج للنشر والتوزيع، 2001، ص 94.
- (34) المرجع نفسه، ص 96.

دور تسيير الموارد البشرية في خلق القيمة

بقلم

أ / هاشمي عبايستر

كلية العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير

جامعة بسكرة - الجزائر



ملخص

نظرا لأهمية خلق القيمة في المؤسسة، سعت هذه الأخيرة - ولا زالت تسعى - للبحث عن المصادر الكفيلة بتحقيق هذا المطلب الأساسي، وفي هذا الإطار تعتبر الموارد المتاحة لها - على اختلافها وتنوعها - أهم هذه المصادر. لكن التطور الكبير الذي مس البعد الإنساني في المؤسسة، جعل الموارد البشرية في مقدمة هذه المصادر " حيث لم يعد الأفراد مجرد موارد كغيرها من موارد المؤسسة، بل أصبحوا بمثابة منابع حقيقية لخلق القيمة⁽¹⁾ نظرا لما يمثله هؤلاء من مهارات، التي أصبحت بحق القلب النابض للمؤسسة . ولذلك يلعب تسيير الموارد البشرية دورا محوريا في خلق القيمة لجميع الأطراف الآخذة، وهذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه هذا المقال.

Résumé:

Vu l'importance de la création de valeur dans l'entreprise, cette dernière n'a guère cessé de chercher, et elle continuait à chercher les sources adéquates pour la réalisation de cet objectif fondamental.

Dans ce contexte, les ressources qui lui sont disponibles sont considérées comme les plus importantes. Mais, les grandes évolutions des dimensions humaines dans l'entreprise ont fait que les ressources humaines soient en premier rang de toutes ces ressources ; du fait que « les employés ne sont plus seulement considérés comme des ressources, mais comme des sources de création de valeur »⁽¹⁾. Et ce, en raison de ce que représentent ceux-ci en matière de compétences qui constituent vraiment le cœur de l'entreprise.

C'est pour cela que la gestion des ressources humaines joue un rôle central dans la création de valeur pour toutes les parties prenantes. Et c'est ce que nous allons l'éclaircir dans le présent article.

مقدمتہ

"ت.م.ب" (تسيير الموارد البشرية) في خلق القيمة، لكنهم مُجمعون اليوم على أن هذا التسيير يعتبر من أهم الممارسات التي من شأنها أن تلعب دوراً مركزياً في خلق

القيمة لجميع الأطراف الآخذة، وبالتالي تحسين القدرة التنافسية للمؤسسة، لأنه ينصب على أهم أصولها المتمثلة في الموارد البشرية. هذه الأخيرة التي تعتبر "المصدر الحقيقي لتكوين المزايا التنافسية" (2) و "المنبع الفعلي لخلق القيمة" (3). وبغية تسليط الضوء على دور "ت.م.ب" في خلق القيمة، قسمنا هذا المقال إلى قسمين، حيث تناولنا في البداية أهمية خلق القيمة لجميع الأطراف الآخذة، ثم تطرقنا إلى إبراز دور "ت.م.ب." في خلق هذه القيمة.

أولاً: أهمية خلق القيمة

يعتبر خلق القيمة محور اهتمام المؤسسات منذ أمد طويل، وقد ازداد هذا الاهتمام خاصة مع نهاية الألفية الثانية، أين أصبح بقاء المؤسسة مرهوناً بمدى خلقها القيمة لجميع الأطراف الآخذة.

1. أهمية خلق القيمة لجميع الأطراف الآخذة

لقد ارتبط خلق القيمة لمدة طويلة بالجوانب المالية في المؤسسة، حيث سعت هذه الأخيرة إلى خلق القيمة للمساهمين فحسب، وبالتالي تعظيم ثروتهم، واعتبرت ذلك الهدف المالي الأول الذي يجب تحقيقه، وهذا ما نلمسه بوضوح في قول G. (1994) B.Stewart: "... إن الهدف المالي الأول هو تعظيم ثروة المساهمين، وفائدة ذلك لا تعود على المساهمين فحسب، بل تعود على المؤسسة ككل..." (4).

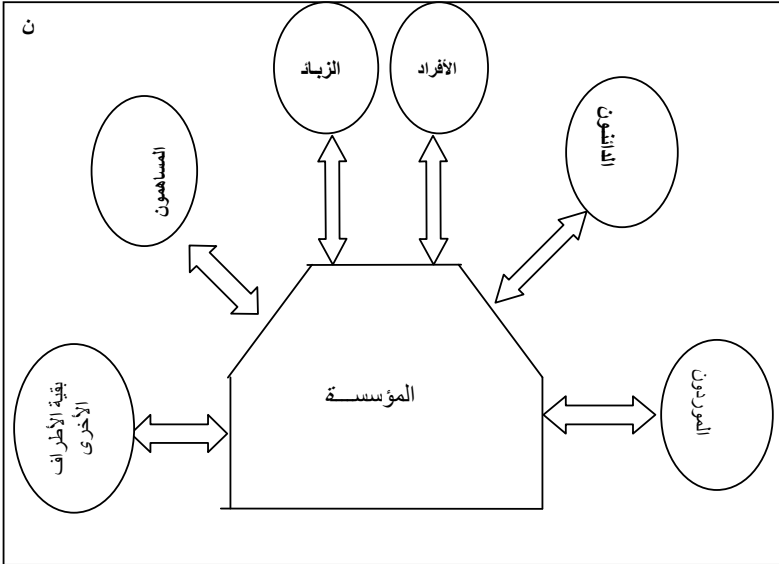
لكن - ورغم أهمية خلق القيمة للمساهمين - إلا أن التركيز على هذا الهدف سيؤدي إلى إهمال الأطراف الأخرى للمؤسسة، خاصة الإنسان الذي يعتبر ثروتها الأساسية (5)، لاسيما وأن التجارب الميدانية أظهرت أن المؤسسات التي تأخذ بعين الاعتبار جميع الأطراف الآخذة في خلق القيمة أكثر نجاحاً وازدهاراً من تلك التي لا تهتم إلا بخلق القيمة للمساهمين، إضافة إلى ذلك، فقد وجد كل من Heskett و Kotter أن المؤسسات الأمريكية الكبرى التي أولت الأهمية نفسها لجميع شركائها، تضاعفت مبيعاتها. في ظرف أحد عشر سنة - أربعة أضعاف مبيعات المؤسسات التي ركزت اهتمامها على المساهمين فحسب (6)، وهذا يُثبت بوضوح أهمية خلق القيمة لجميع الأطراف الآخذة.

وعلى هذا الأساس، اقترح عدد من الباحثين منظوراً آخر يأخذ بعين الاعتبار كافة أطراف المؤسسة، وهكذا ظهرت عدة نظريات تعارض هدف تعظيم ثروة المساهمين فحسب (Les shareholders) وتسيير المؤسسة على هذا الأساس، وتنادي بضرورة خلق القيمة لجميع شركاء المؤسسة بما فيهم المساهمين (Les shareholders).

يمكن تعريف هؤلاء الشركاء - حسب Freeman (1984) - بأنهم كل الأطراف (مجموعات أو أفراد) التي يمكن أن تؤثر أو تتأثر بنشاط المؤسسة في إطار سعيها لتحقيق أهدافها (7)، وقد حدد Freeman خمسة أطراف رئيسية هي (8): المساهمون، الدائنون، الزبائن، الموظفون، الموردون، المليونرون.

أما M. B. E. Clarkson (1995) فقد قسّم هؤلاء الشركاء إلى قسمين⁽⁹⁾ : شركاء ابتدائيون (Partenaires primaires) ضروريون لحياة المؤسسة، مثل المساهمين، الزبائن، الدائنين، المورددين، المجتمع، الحكومة، العمال... وشركاء ثانويون (Partenaires secondaires) مثل جماعات الضغط، ووسائل الإعلام... بينما قسّم كل من S. L. Tiras و R.. M. Brown و B. Ruf⁽¹⁰⁾ (1997) الشركاء إلى اختياريين (Volontaires) مثل المساهمين، الزبائن، الدائنين، المورددين، الأجراء... وغير اختياريين مثل: المحيط، المجتمع... وبشكل عام، يمكن تصنيف هؤلاء الشركاء في ست مجموعات رئيسية هي: المساهمون، الزبائن، الأفراد، الدائنون، الموردون، بقية الأطراف الأخرى، حيث يجب على المؤسسة أن تخلق القيمة لكل واحدة من هذه المجموعات، وبالمقابل تُسهم كل مجموعة في خلق القيمة للمؤسسة.

الشكل 1.2.2 : خلق القيمة للأطراف الآخذة.



المصدر: من إعداد الباحث

إذن تعتبر مسألة خلق القيمة لكل هذه الأطراف مسألة مهمة، ومطلبا حيويا لضمان بقاء المؤسسة واستمرارها، إذ لا مبرر لوجود مؤسسة لا تخلق القيمة.

يمكن أن تتجلى أهمية خلق القيمة كذلك من خلال تأثيرها على عدد من الأدوات والمتغيرات الأساسية بالنسبة للمؤسسة، مثل: التنافسية، الإستراتيجية، ثقافة المؤسسة، وهذا ما سنتطرق إليه في العناصر الموالية.

II. خلق القيمة وتنافسية المؤسسة

"إن المؤسسة التي لا تنجح في إشباع حاجات أو الرد على تطلعات عملائها أو عمالها أو المساهمين فيها... من غير المحتمل أن تُحقق ميزة تنافسية على منافسيها" (11) ولذلك تتوقف تنافسية المؤسسة بشكل أو بآخر على مدى خلقها القيمة لزبائنها خاصة ولبقية شركائها عامة، وفي ما يلي بيان مختصر لذلك:

1. تأثير خلق القيمة للزبائن على التنافسية: يمكن أن نعرف التنافسية بأنها " قدرة المؤسسة على اقتطاع حصة من السوق والدفاع عنها وتوسيعها وبالتالي الحفاظ على مكانتها التنافسية"، لكن ذلك لا يتحقق إلا باستقطاب الزبائن والحفاظ عليهم، وهذا بدوره لا يكون إلا بإرضائهم والاستجابة السريعة لتطلعاتهم، سواء بشأن السعر أو الجودة أو أجل التسليم، وبعبارة جامعة: خلق القيمة لهم.

ولعل هذا ما دفع البعض إلى تعريف التنافسية بأنها " القدرة على إنتاج السلع والخدمات بالنوعية الجيدة، والسعر المناسب، وفي الوقت المناسب،..." (12)، وكان الكاتب - من خلال ذكره لمحددات القيمة الثلاثة: السعر، الجودة، الأجل - يودُّ القول بأن التنافسية هي القدرة على خلق القيمة للزبائن أفضل من المنافسين.

من هذا المنطلق، يمكن القول ألا مجال للحديث عن التنافسية، ولا سبيل لتحسينها دون خلق القيمة للزبائن، ولذلك فهم يمثلون محور اهتمام المؤسسة في الصراع من أجل التنافسية.

2. تأثير خلق القيمة للأفراد على التنافسية: خلق القيمة للأفراد عامل أساسي لتحسين التنافسية، لأن ذلك كفيل بتحفيزهم وضمن وفائهم وتنمية مهاراتهم، التي تعتبر من أهم عوامل نجاح المؤسسة وأفضل مصادر مزاياها التنافسية، والمنبع الحقيقي لخلق القيمة. ولذلك يمكن اعتبارها (المهارات) محور اهتمام المؤسسة الداخلي، على غرار الزبائن الذين يمثلون محور اهتمامها الخارجي في سياق التنافسية. فاستقطاب أفراد مهرة والحفاظ عليهم وتنمية مهاراتهم يعني الحصول على ثروة حقيقية ورأسمال بشري لا يقل أهمية عن رأسمال المساهمين. بل لا يمكن أن نتصور مؤسسة دون مهارات، لأنها (المؤسسة) - كما يرى بعض المؤلفين - ليست سوى "مجموعة المهارات التي يمتلكها كل عضو من أعضائها" (13) ولذلك فإن لخلق القيمة للأفراد أثرا كبيرا على تنافسية المؤسسة.

3 - تأثير خلق القيمة للمساهمين على التنافسية: يعتبر خلق القيمة للمساهمين ضروريا هو الآخر لتحسين التنافسية، باعتبار أنهم مصدر التمويل الرئيس للمؤسسة، وأصحاب رؤوس الأموال التي بدونها ستفشل كل أنشطتها، بل ستصاب كل وظائفها بالشلل، وبالتالي لا معنى للحديث عن التنافسية في مؤسسة مشلولة ضمن محيط يتطلب ديناميكية كبيرة وسرعة تصرف فائقة. ولذلك فإن خلق القيمة لهم يلعب دورا مهما في تحسين تنافسيته، من خلال إلى الحفاظ عليهم واستقطاب مساهمين جدد، وبالتالي توفير الأموال اللازمة للقيام بكافة الأنشطة الضرورية لخلق القيمة والحصول على أفضليات تنافسية.

4 - تأثير خلق القيمة للدائنين على التنافسية: يشكل الدائنون مصدرا آخر من مصادر تمويل المؤسسة، وعدم إرضائهم سيؤدي إلى فقدان هذا المصدر، مما ينجم عنه صعوبة توفير الأموال الضرورية للسير الحسن لنشاط المؤسسة، وهذا ما ينعكس سلبا على أدائها، والتزاماتها تجاه زبائنهم، ومن ثم على تنافسيته، ولذلك فإن لخلق القيمة للدائنين تأثيرات قد تكون كبيرة على التنافسية.

5 - تأثير خلق القيمة للموردين على التنافسية: يعتبر الموردون طرفا مهما بالنسبة للمؤسسة، خاصة كُبريات الشركات الصناعية، ذاك أن جودة منتجاتها وأسعارها وآجال تسليمها إلى الزبائن تعتمد بشكل كبير على جودة وأسعار المواد الأولية وآجال الحصول عليها من الموردين. ولذلك فإن خلق القيمة للزبائن يتأثر - إلى حد بعيد - بنوعية علاقة المؤسسة بمورديها. لذلك فهي تسعى لتسيير هذه العلاقة من أجل تحسينها، وهو ما يعد عاملا مهما لتنافسيته⁽¹⁴⁾، وبطبيعة الحال فإن هذا التحسين لا يكون إلا بخلق القيمة لهم، وعليه فإن لهذا الأخير تأثيرا مهما على تنافسية المؤسسة.

6 - تأثير خلق القيمة لباقي الشركاء على التنافسية: يتمثل أولئك الشركاء في بقية الأطراف التي يمكن أن تتبادل التأثير مع المؤسسة كالمحيط الايكولوجي أو المحيط الاجتماعي. وخلق القيمة لها يسهم بدوره في تحسين التنافسية بشكل أو بآخر؛ فبالنسبة للمؤسسات التي قد تؤثر سلبا على البيئة أو المجتمع - بفعل طبيعة نشاطها - يعتبر خلق القيمة لهذين الجانبين مهما، لأن من شأنه أن يحسن صورة المؤسسة، وهذا يساعدها كثيرا على استقطاب المهارات والزيائن. كما أن المؤسسة التي تخلق القيمة لهذه الأطراف تتمكن من جذب رؤوس أموال معتبرة في السوق المالية (Les fonds éthiques)⁽¹⁵⁾. وكل هذا يؤثر بدون شك على التنافسية. (سنعود للحديث عن هذه الأموال عند التطرق لدور "ت.م.ب" في خلق القيمة لباقي الشركاء).

III . خلق القيمة وثقافة المؤسسة

يؤدي السعي الجماعي لخلق القيمة إلى بث روح التعاون وتعزيز الثقة بين مختلف الأطراف الفاعلة، وتغليب الصالح العام والمصالح المشتركة على المصالح الفردية والسلوكيات الانتهازية. وهذا ما سيتيح عنه التقليل من النزاعات و الصدامات المترتبة عن تعارض مصالح الأطراف الآخذة، وتشجيع العمل الجماعي المبني على الثقة والتعاون في سبيل تحقيق الربح الجماعي والفائدة الشاملة. يمكن أن نلمس هذا التوجه بوضوح في خطاب رئيس الوزراء الإنجليزي السابق T. Blair - عام 1996 في " سنغافورة " أيام كان زعيما للمعارضة - حيث قال: "...إننا سنبنّي علاقات ثقة ليس في المؤسسات فحسب، بل وفي المجتمع كذلك، وأعني بالثقة أن نعتز بأن لنا شيئا مشتركا نعمل من أجله جميعا، ونستفيد منه جميعا..."⁽¹⁶⁾.

IV . خلق القيمة وإستراتيجية المؤسسة

يعتبر خلق القيمة والحفاظ عليها هدف إستراتيجية المؤسسة، وذلك من خلال منح هذه الأخيرة أفضلية تنافسية تمكنها من بلوغ هذا الهدف، لكون " الأفضلية التنافسية تعتبر ركيزة إستراتيجية من ركائز خلق القيمة "⁽¹⁷⁾. لذلك، تلعب إمكانية خلق القيمة والحفاظ عليها في هذا القطاع أو ذاك - انطلاقا مما تمتلكه المؤسسة من موارد ومهارات - دورا مهما في تحديد إستراتيجية المؤسسة إزاء كل قطاع من قطاعات نشاطها. إذن يبدو جليا أن خلق القيمة لجميع الأطراف الآخذة مطلب أساسي وضرورة ملحة لضمان بقاء المؤسسة وتفوقها. لذلك سعت هذه الأخيرة - ولا زالت تسعى - للبحث عن المصادر الكفيلة بتحقيق هذا المطلب الأساسي.

في هذا الإطار تعتبر الموارد المتاحة للمؤسسة - على اختلافها وتنوعها - أهم هذه المصادر. لكن التطور الكبير الذي مس البعد الإنساني، جعل الموارد البشرية في مقدمة هذه المصادر، "حيث لم يعد الأفراد مجرد موارد كغيرها من موارد المؤسسة، بل أصبحوا بمثابة منابع حقيقية لخلق القيمة"⁽¹⁸⁾ نظرا لما يمثله هؤلاء من مهارات، أصبحت بحق القلب النابض للمؤسسة. لذلك يلعب "ت.م.ب" دورا محوريا في خلق القيمة لجميع الأطراف الآخذة، وهذا ما سنناقشه في العنصر الموالي.

ثانيا: الدور المحوري لتسيير الموارد البشرية في خلق القيمة

لقد صار اعتماد المؤسسات اليوم كبيرا على الموارد البشرية لخلق القيمة لجميع شركائها، ولذلك يلعب تسيير هذه الموارد دورا محوريا في تحقيق هذا الهدف، وهذا ما سنحاول تبياناه من خلال العناصر التالية:

I. خلق القيمة للزبائن

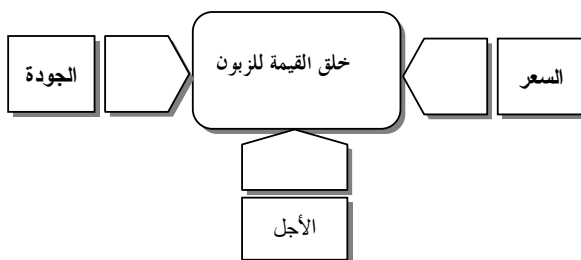
إن اقتطاع حصة من السوق في محيط شديد التنافس - من خلال استقطاب الزبائن - عملية صعبة ومكلفة، كما أن الحفاظ على هذه الحصة - من خلال ضمان وفائهم - عملية أكثر صعوبة وأعلى تكلفة، ويعتبر خلق القيمة للزبائن جوهر هاتين العمليتين وأساس نجاحهما، لأن "الزبون يعتبر الجهة التي تُشجَّنُ متتوج المؤسسة وتكيف قدرتها على تحقيق الأرباح" ⁽¹⁹⁾.

وعلى هذا الأساس، يمكن خلق القيمة للزبون وفق ثلاث اتجاهات رئيسية هي ⁽²⁰⁾:

- التكلفة (السعر).

- الجودة.

- الأجل (أجل التسليم). الشكل 2.2.2: محددات خلق القيمة لدى الزبون



المصدر: من إعداد الباحث.

1. التكلفة (السعر):

يمكن للمؤسسة أن تخلق القيمة للزبائن عن طريق التكلفة باكتساب أفضلية تنافسية فيها. وهي أفضلية لا يمكن تحقيقها إلا بالتحكم الجيد في هيكل التكاليف، وتخفيضها إلى أدنى المستويات الممكنة، وذلك وفق إستراتيجيات محددة.

وهنا يلعب "ت. م. ب" دورا كبيرا في تخفيض التكاليف والتحكم فيها، وذلك من خلال توفير المهارات الضرورية والحفاظ عليها وتمييزها لتلعب الأدوار الآتية: أ - ابتكار أساليب وتقنيات جديدة (وهذا نوع من الإبداع) ⁽²¹⁾ للتحكم في صيرورة العملية الإنتاجية وباقي الأنشطة الأخرى، والتأثير على عوامل التكاليف فيها بشكل يسمح بتخفيض هذه الأخيرة.

ب - التحكم في التكنولوجيا الجديدة - التي تعتبر مصدرا مهما لأفضلية التكلفة ⁽²²⁾، والتي تتطلب دون شك مهارات خصوصية - وبالتالي مواكبة مختلف تطورات هذا الميدان، والتخلي عن التكنولوجيا القديمة التي تصبح مكلفة مقارنة بالجديدة.

ج - تحسين ليونة المؤسسة (La flexibilité) وزيادة سرعتها في رد الفعل عن طريق تكوين الأفراد وتنمية مهاراتهم، وهو ما يجنبها تحمل تكاليف كبيرة ناجمة عن ضعف الليونة وبطء رد الفعل إزاء ما يحدث من تحولات.

د - التحكم في المهارات - من خلال تسييرها - لتلعب الأدوار المذكورة أعلاه، لأن ذلك يتطلب بدوره مهارات فائقة من قبل مسيري الموارد البشرية.

هذا ويعتبر استقرار العمال بدوره أحد أهم العوامل المؤثرة على التكاليف؛ فكلما زاد معدل دوران العمال - وبالتالي عدم استقرارهم - ارتفعت التكاليف، ومرد ذلك الأسباب التالية:

أ - زيادة تكاليف التوظيف⁽²³⁾.

ب - صعوبة الإحلال خاصة إذا كانت المهارات المغادرة نادرة، وهذا له أثر كبير على الميزة التنافسية المعتمدة على هذه المهارات، سواء كانت أفضلية تكلفة أو تميز.

ج - عدم تحصيل عوائد الاستثمار في التكوين، لأن عوائده لا تتحقق إلا في الأجل الطويل⁽²⁴⁾ وهذا يتطلب استقرار الأفراد المكوّنين.

د - عدم الاستفادة من أثر التجربة (وبالضبط أثر التعلم (L'effet d'apprentissage).

هـ - ضعف ليونة المؤسسة وبطئها في رد الفعل، وما لذلك من نتائج مكلفة إن لم تكن مدوّرة.

و - تدهور سمعة المؤسسة وتشوه صورتها (الاستقالات والتسريحات...) وما لذلك من انعكاسات على قيمتها، سواء المالية (أسعار الأسهم) أو المحاسبية (القيم المعنوية).

إن لاستقرار العمال تأثيرا كبيرا، ليس على التكلفة فحسب، بل وعلى خلق القيمة للزبون بشكل عام، فقد اقترح F.F. Reichheld نموذجا اقتصاديا شرح فيه العلاقة بين خلق القيمة واستقرار العمال، ولخص ذلك في عدة محاور أساسية⁽²⁵⁾:

أ - الفعالية: فكلما كانت التجربة الميدانية للعمال أطول، كلما ازدادت الفعالية.

ب - اختيار الزبائن: فرجل البيع الخبير (صاحب التجربة الطويلة) يعرف جيدا كيف يجد أفضل الزبائن ويحافظ عليهم عكس البائع المبتدئ.

ج - وفاء الزبائن: ينسج الأفراد المستقرون علاقات شخصية مع الزبائن مما يساعد على الحفاظ عليهم.

د - توصيات الزبائن: أثبتت التجربة أن الزبائن قد يفضلون التعامل مع أشخاص بعينهم، وأن بقاءهم أوفياء للمؤسسة رهن وجود هؤلاء الأفراد، ولذلك من مصلحة المؤسسة الحفاظ على استقرارهم.

هـ - توصيات العمال: قد يوصي العمال المستقرون بتوظيف أشخاص هم عادة الأفضل من بين المرشحين، مما يحسّن عملية التوظيف ويخفّض تكاليفها.

ونضيف إلى هذه المحاور تأثير استقرار العمال على تكاليف التوظيف والتكوين، وقد سبق التعرض لهذا.

وبشكل عام، تلعب مختلف سياسات وممارسات "ت.م.ب" دورا أساسيا في تحقيق استقرار العمال وبالتالي المساهمة في تحقيق أفضلية السيطرة بالتكاليف وخلق القيمة للزبائن.

2. الجودة؛

تعرف جودة المنتج عموما بأنها "قدرة هذا الأخير على إشباع حاجات مستخدميه"⁽²⁶⁾، وهذا يتفق مع تعريف D.GARVIN وفق مقارنة المستهلك L'approche consomateur الذي مفاده أن "الجودة هي القدرة على إرضاء تطلعات المستهلكين"⁽²⁷⁾. وبطبيعة الحال، فإن هذا الإشباع أو الإرضاء لا يتحقق إلا بخلق القيمة للزبائن.

يمكن للمؤسسة أن تخلق القيمة للزبائن. من حيث الجودة - عن طريق اكتسابها أفضلية التميز (La différenciation) التي تجعل الزبائن مستعدين لاقتناء المنتج بأسعار أعلى من أسعار المنتجات المنافسة، لما فيه من مميزات خصوصية وجذابة.

وفي هذا السياق، يلعب "ت.م.ب" دورا أساسيا في هذه الأفضلية، من خلال توفير المهارات الضرورية وتحفيزها وتنميتها وتحقيق التعاون بينها لبناء المهارات الجماعية التي هي أساس هذا التميز التنافسي.

يمكن أن نلمس هذا الدور من خلال اتجاهين اثنين:

- تحسين جودة المنتج نفسه.

- تحسين جودة الخدمات المرافقة له.

1 - تحسين جودة المنتج نفسه: تلعب المهارات دورا أساسيا في تحسين جودة المنتج لاسيما وأن هذا الأخير أصبح يعتمد على المكون المعرفي أكثر من اعتماده على المكون المادي. فالأفراد بمهاراتهم وأفكارهم وإبداعاتهم بإمكانهم تحسين المنتجات الموجودة بإدخال تحسينات وتغييرات تسهل استعمالها أو تحسن نوعية خدماتها. وهذا ما يعرف بالإبداع الجزئي⁽²⁸⁾. كما يمكنهم ابتكار منتجات جديدة متميزة تماما عن منتجات المنافسين، وهو ما يعرف بالإبداع الكلي⁽²⁹⁾.

2- تحسين جودة الخدمات: يمكن للمؤسسة كذلك أن تخلق القيمة للزبائن بتحسين جودة الخدمات التي تقدمها لهم والمرافقة لمنتوجها، مثل: نوعية المعاملة، الاهتمام بانشغالهم والرد على احتجاجاتهم، خدمات ما بعد البيع... ذاك أن "الحفاظ على التفوق والتميز في هذه الخدمات يعتبر أفضلية تنافسية، ومصدرا حقيقيا لخلق القيمة للزبائن"⁽³⁰⁾: فلو أن زبونا خُير بين مؤسستين متماثلتين من حيث جودة

وسعر المنتج، لاختار المؤسسة التي تحسن استقباله، وتنصت لاستفساراته، وترد على احتجاجاته وتعامله بامتياز لوفائه... وفي هذا الإطار، يلعب الأفراد دورا مهما في تحسين نوعية هذه الخدمات، وبالتالي إنجاح علاقة المؤسسة بزملائها وضمائمهم، لاسيما وأنهم من سيمثل المؤسسة عند التعامل مع الزبون (رجال البيع مثلا).

وقد ساعدت العديد من الدراسات على إبراز هذا المفهوم، من بينها: الدراسة التي أجراها Jaques Horowitz (1987)، الذي استخرج عشرة عوامل مؤثرة على علاقة العميل بالمؤسسة سلبا أو إيجابا، ولاحظ أن للأفراد دورا أساسيا في التأثير على أغلب هذه العوامل.⁽³¹⁾

وعلى كل حال، فإن لـ "ت.م.ب" دورا مهما في خلق القيمة للزبائن من خلال منحهم الجودة العالية لإشباع حاجاتهم والاستجابة لانتظاراتهم، وذلك بتوفير المهارات الضرورية وتحفيزها وتنميتها لتواكب تطورات المحيط.

3. الأجل:

والمقصود به أجل التسليم، ومراعاته ضرورية ومهمة للغاية لخلق القيمة للزبون، لأن أي تقصير في هذا الجانب من شأنه تدمير قيمة المنتج لدى الزبون، إذ لا قيمة لمنتج - مهما كانت جودته عالية، ومهما كان سعره مناسباً - إن لم يستلمه العميل وقت ظهور الحاجة إليه، لا قبل ذلك ولا بعده.

كما أن ترك الزبون ينتظر طويلا للحصول على المنتج سيؤثر سلبا على جودة الخدمة المرافقة له، وتفقد المؤسسة بذلك تميزها في هذا الجانب، مما قد يدفع العميل للغزوف عن اقتنائه والبحث عمن هو أسرع تسليمًا من بين بقية المنافسين. وبهذا الصدد، يلعب "ت.م.ب" دورا مهما في احترام آجال التسليم، وذلك من عدة وجوه، نذكر من بينها ما يلي:

أ - تحقيق استقرار العمال الذي يؤدي إلى انعكاسات إيجابية بشأن احترام الآجال مثل:

- الاستفادة من أثر التعلم، وهذا يؤدي إلى إنجاز المهام في وقت أقل، وبالتالي احترام آجال التسليم.

- بناء علاقات مستقرة بين الزبائن ورجال البيع، وهذا ما يسهل مهمة تتبع تطورات رغباتهم وتحولات ميولهم وأذواقهم للرد عليها بسرعة، بالإضافة إلى معرفة الوقت الذي يرغبون فيه الحصول على المنتج.

ب - تكوين الأفراد لتنمية مهاراتهم وزيادة قدرتهم على التأقلم السريع مع تغيرات أذواق المستهلكين للرد عليها في الوقت المناسب.

ج - بناء علاقات مستقرة مع الموردين - نتيجة لخلق القيمة لهم - وهذا ما ينتج عنه استلام الموارد الضرورية في الأجل المناسبة، والحيولة دون تعطل نشاط المؤسسة وبالتالي احترام آجال التسليم.

وعموماً، يلعب "ت.م. ب" دوراً مهماً في تمكين المؤسسة من التحكم في الوقت، وبالتالي احترام آجال التسليم.

ذلك، وتعتبر عملية خلق القيمة للزبون - بشكل عام - عملية حساسة جداً، فأى تقصير فيها قد ينجم عنه نتائج وخيمة على المؤسسة؛ فقد أثبتت الدراسات⁽³²⁾ أن عدم إرضاء زبون واحد سيدفع هذا الأخير إلى التعبير عن شعوره بعدم الرضا إلى أربعة عشر زبونا آخر من زبائن المؤسسة في المتوسط، مما يجعلهم زبائن محتملين لعلامات منافسة، بينما يؤدي إرضاء - حسب دراسة أخرى⁽³³⁾ - إلى التعبير عن شعوره بالرضا إلى عدد أقل بكثير من الزبائن (حوالي أربعة أو خمسة زبائن فقط)، وهذا ما يُبين أكثر فأكثر خطورة مسألة خلق القيمة للعملاء وحساسيتها "لكونها المتغير المتحكم في سلوكهم الشرائي الذي يعتبر عاملاً مركزياً في التميز التنافسي"⁽³⁴⁾.

هذا عن دور "ت.م. ب" في خلق القيمة للزبائن، فماذا عن دوره في ذلك إزاء الأفراد؟

II - خلق القيمة للأفراد

يلعب الأفراد الدور المنوط بهم كاملاً، وليشاركوا بفعالية في خلق القيمة وإنجاح المؤسسة وتحسين أدائها وتنافسيتها، لابد أن يشعروا بالإنصاف بين ما يقدمونه من رأس مال بشري (والذي لا يقل أهمية عن رأس مال المساهمين)، وبين ما يتلقونه من عوائد بالمقابل، ولا يشترط أن تكون هذه العوائد مالية فحسب، بل يمكن أن نلمسها من خلال نوعية العلاقة التي تربط المؤسسة بأفرادها⁽³⁵⁾.

صحيح أن المؤسسة التaylorية أوجدت - في وقت مضى - توازناً بين مساهمات الأفراد وبين ما يتلقونه من أجر بالمقابل (أين كان الأفراد أقل تكويناً، ولا يتعدى طموحهم مجرد الحصول على المال لتلبية الحاجات الاستهلاكية)، إلا أن هذا التوازن لم يعد قائماً اليوم؛ فالأفراد لم يعودوا في حاجة إلى المال فقط، بل أصبحوا في حاجة إلى الاعتراف أيضاً⁽³⁶⁾، وهذا هو خلق القيمة بالنسبة لهم، لذلك لابد من تفسير هؤلاء الأفراد تسييراً يكفل لهم الحصول على هذه القيمة "التي أصبحت عاملاً إستراتيجياً لا يمكن إغفاله، لأنه يؤثر على أداء المؤسسة وتنافسيتها"⁽³⁷⁾.

إذن يلعب "ت.م. ب" - الذي يعتبر التجسيد الحي لنوعية العلاقة بين المؤسسة وأفرادها - دوراً أساسياً في خلق القيمة للأفراد، لضمان استقرارهم واستمرار عطائهم وزيادة فاعليتهم، وذلك من خلال جملة من الممارسات والمهام مثل: تصميم نظام محكم للأجور، إشراكهم في صنع القرارات، التكوين، تحسين ظروف العمل والأمن،

تسيير الحياة المهنية... هذا فضلا عن الدور الذي تلعبه هذه الممارسات والسياسات في تسهيل استقطاب مهارات أخرى من خارج المؤسسة.

من جهة أخرى، يعتبر خلق القيمة للمديرين (Les dirigeants) - الذين هم جزء لا يتجزأ من أفراد المؤسسة - بالغ الأهمية، ذاك أنهم "فاعل رئيس في عملية خلق الثروة في المؤسسة، وبمقدورهم التأثير على توزيعها بين مختلف الشركاء"⁽³⁸⁾، كما أنهم يعتبرون "أعوان المساهمين ووكلاءهم والقائمين على تسيير المؤسسة باسمهم ولصالحهم"⁽³⁹⁾، إضافة إلى ذلك فهم المسؤولون بالدرجة الأولى على ضمان حسن سير المؤسسة، بوضع الإستراتيجيات الملائمة، واتخاذ القرارات الصحيحة في الأوقات المناسبة، هذا إلى جانب كونهم همزة وصل بين المساهمين وبقية الأطراف الأخرى. ولهذا فمن الطبيعي أن تكون مسألة خلق القيمة لهم على درجة كبيرة من الأهمية لما لها من تأثير على مدى التزامهم بلعب أدوارهم ونجاحهم في أداء مهامهم على أكمل وجه .

وبشكل عام يسعى المديرون إلى تعظيم المزايا والعوائد التي يستفيدون منها من خلال مناصبهم كمديرين، ومن خلال ما يقومون به من استثمارات ونشاطات، وهذا مقابل ما يقدمونه من رأس مال تسييري.⁽⁴⁰⁾

وهنا يلعب "ت.م.ب" دورا مهما في خلق هذه القيمة، بالمساهمة الفعالة في إنجاح هذه الاستثمارات والنشاطات عن طريق توفير وتسيير ما يلزم لذلك من موارد بشرية، والمشاركة بفعالية في بناء المهارات الجماعية التي هي أساس تفوق المؤسسة وبقائها، ولذلك يولي المديرون اهتماما كبيرا بما لديهم من رأس مال بشري، ولعل هذا ما دفع رجل الأعمال الأمريكي D.carnegie إلى القول: "خذوا كل ما أملك من آلات، لكن اتركوا لي رجالي فمعهم سأبدأ من جديد"⁽⁴¹⁾.

وفيما يلي نتطرق إلى دور "ت.م.ب" في خلق القيمة للمساهمين .

III . خلق القيمة للمساهمين

يبحث المساهمون عن عوائد عظمى مقابل ما أسهموا به من رؤوس أموال. وهذا يتوقف طبعاً على مدى قدرة المؤسسة على تحقيق عوائد ملائمة مقابل استثماراتها ونشاطاتها، لتتمكن من إجراء توزيعات مرضية للمساهمين بعد الوفاء بالتزاماتها المالية تجاه دائئتها. وهو ما يعتمد بدوره اعتمادا كبيرا على أفراد المؤسسة ونوعية تسييرهم. وبعبارة أخرى، فإن خلق القيمة للمساهمين مرهون بمدى تفوق المؤسسة ونجاحها. أي بمدى قدرتها على خلق القيمة للزبائن وامتلاك أفضليات تنافسية تعزز مكانتها التنافسية في السوق. هذا إلى جانب قدرتها على خلق القيمة لباقي الشركاء، والتي تعتبر ضمان ربحية المساهمين في الأجل الطويل.⁽⁴²⁾

وملاك (ضمان) ذلك كله، توافر المؤسسة على نوعية عالية من الموارد البشرية (مهارات) وإتياع ممارسات تسيير كفيلة بالحصول على هذه الموارد وتحفيزها وتمييزها في الوقت المناسب، ولهذا يولي المساهمون اهتماما كبيرا بنوعية الموارد البشرية المتوفرة في المؤسسة، وكذا بمستوى الاستثمارات غير المادية، خاصة تلك المساعدة على توفير هذه الموارد وتمييزها لتلبية حاجة المؤسسة للمهارات الضرورية.

وكمثال عن هذا الاهتمام،⁽⁴³⁾ تقوم الشركة السويدية "SKANDIA" كل عام بنشر وثيقة تدعى *Customer value* تصف فيها للمساهمين كافة الاستثمارات غير المادية الرامية إلى تعظيم أرباحهم مستقبلا. وهذه المبادرة تعتبر محاولة من الشركة للحفاظ على مساهميتها وجذب آخرين جدد، وبالتالي تحسين قيمة أسهمها في السوق المالية وضمان الحصول على رؤوس الأموال الضرورية لمزاولة نشاطها.

من جهة أخرى، فقد حدد كل من Ernst و Young (1997) عشرة عوامل الأكثر تفضيلا لدى المستثمرين الماليين عدا العوامل المالية، واعتبرا - من خلال دراستهما - أن قدرة المؤسسة على جذب أفراد مَهَرَة (مهارات) تعتبر واحدة من بين هذه العوامل العشر⁽⁴⁴⁾، وهذا يبين الدور الذي يلعبه "ت. م. ب" في خلق القيمة للمساهمين.

وفيما يلي نعرض على طرف آخر وهو الدائنون لبيان دور هذا التسيير في خلق القيمة لهم.

IV. خلق القيمة للدائنين

يمكن للمؤسسة أن تخلق القيمة لدائنيها من خلال الوفاء بالتزاماتها تجاههم في الأجل المحددة وبأسعار فائدة مرضية، لأن هؤلاء لن يتعاملوا إلا مع مؤسسة تمتلك ضمانات كافية للتسديد وفق ما تم الاتفاق عليه. وبطبيعة الحال يعتبر الأداء الجيد والنجاح المستمر للمؤسسة أفضل ضمان لأولئك الدائنين، وأحسن مؤشر لمدى قدرتها على الوفاء بالتزاماتها تجاههم.

لكن حصول المؤسسة على هذا الضمان يتوقف بشكل كبير على نوعية رأس مالها البشري الناتج عن تراكم المعارف والخبرات والمهارات التي يمتلكها أفرادها. وهذا التراكم لا يتحقق إلا بتسيير محكم لمواردها البشرية، ولذلك فهو من أهم الممارسات التي تساعد المؤسسة على خلق القيمة لدائنيها.

من جهة أخرى، يمثل التعامل مع عميل عملاق ومشهور - له وزنه وسمعته - قيمة معتبرة بالنسبة للدائن، ولما كان وزن العميل وسمعته معتمدا على نوعية موارده البشرية وكيفية تسييرها، فإن لهذا الأخير دورا في خلق مثل هذه القيمة للدائن، وبالتالي الحفاظ عليه كمصدر تمويل مهم.

V. خلق القيمة للموردين

تسعى المؤسسة لخلق القيمة لمورديها من خلال التعامل الدائم معهم، بتقديم مخطط طلب مستمر وبأسعار مرضية للطرفين. لكن ديمومة هذا التعامل المرضي تتوقف

على السير العادي لنشاط المؤسسة واستمرارها، وهذا بدوره يرتكز أساسا على حسن أدائها ونجاحها في خلق القيمة لزملائها.

ولما كان لـ "ت.م. ب" دورا مهما في تحسين الأداء وخلق القيمة للزملائن، فإن مساهمته أساسية في استمرار التعامل المرضي مع الموردين، وتوطيد العلاقة التي تربطهم بالمؤسسة ومن ثم خلق القيمة لهم.

من جهة أخرى - وعلى غرار الدائنين - يمثل وزن العميل وشهرته قيمة معتبرة لدى المورد، وعاملا مؤثرا على طبيعة العلاقة بينهما، وهذه قيمة يلعب "ت.م. ب" دورا فعالا في خلقها والحفاظ عليها كما ذكرنا سابقا.

إضافة إلى هذه الأطراف يمتد دور "ت.م. ب" ليلخلق القيمة لمن بقي من الشركاء الذين يمكن أن يؤثروا على استمرار المؤسسة ويهددوا بقائها، وهذا ما سنعالجه في العنصر الموالي.

VI - خلق القيمة لبقية الشركاء

ذكرنا سابقا أنه يمكن تلخيص باقي شركاء المؤسسة في جانبين أساسيين من المحيط هما المحيط الإيكولوجي والمحيط الاجتماعي:

يعتبر المحيط الإيكولوجي طرفا مهما بالنسبة للعديد من المؤسسات، خاصة تلك التي يشكل نشاطها خطرا إيكولوجيا، كالصناعات الكيميائية أو النووية. لذلك يتوجب على هذه المؤسسات أن تخلق القيمة لهذا المحيط، وذلك بتجنب تلويثه وتدميره والمساهمة في تربيته وحمايته. وما تطور معايير "الايزو 14001"، واهتمام المؤسسات بالحصول عليها، إلا دليل قوي على أخذ الجوانب الإيكولوجية للمحيط بعين الاعتبار.

في هذا الإطار، يلعب "ت.م. ب" دورا مهما في خلق القيمة لهذا المحيط؛ فابتكار تكنولوجيات جديدة أقل تلويثا، أو الحصول عليها والتحكم فيها، بالإضافة إلى إبداع طرق وأساليب إنتاجية جديدة من شأنها الحفاظ على البيئة، أو تحسين منتجاتها لتصبح أقل إضرارا أو تلويثا... كل هذا يتوقف - إلى حد بعيد - على نوعية أفراد المؤسسة وكيفية تسييرهم، لأنه يتطلب بالدرجة الأولى معارف معينة ومهارات خاصة، بالإضافة إلى اعتماد سياسات وممارسات تكفل الحصول على هذه المعارف والمهارات وتسييرها بما يضمن خلق القيمة لهذا المحيط. كما يتطلب هذا وعيا كبيرا وحسا مشتركا من جانب الأفراد لتنجح المؤسسة في هذه المهمة. هذا بغض النظر عما يتطلبه ذلك من أموال ضخمة واستثمارات معتبرة لا تطيقها إلا مؤسسة ناجحة في نشاطها، جيدة في أدائها.

إضافة إلى الجانب الإيكولوجي، يعتبر الجانب الاجتماعي من المحيط طرفا مهما لا يمكن إهمال انتظاراته إزاء المؤسسة. حيث يتعين على هذه الأخيرة أن تخلق له القيمة من خلال توفير مناصب شغل، عدم تسريح العمال (استقرارهم)، عدم تشغيل الأطفال، الحفاظ على صحة المستهلك واحترام قيمه وأخلاقه ومعتقداته... الخ، وكل هذا يتوقف

على مدى نجاح المؤسسة ونموها، وخلقها القيمة لزبائنها. إذ لا يمكن أن نتصور مؤسسة متدهورة الأوضاع متراجعة النمو، توفر مناصب شغل أو تخلق القيمة لزبائنها، وبما أن استقرار العمال ونجاح المؤسسة بشكل عام يعتمد كثيرا على نوعية "ت. م. ب"، فإن لهذا الأخير دورا أساسيا يلعبه في خلق القيمة للمحيط الاجتماعي.

ومما يدل على أهمية هذه الجوانب (سواء الاجتماعية أو الإيكولوجية) أن هناك مبالغ ضخمة على مستوى السوق المالية تسمى "Les fonds éthiques" (حوالي 1.2 مليار دولار سنويا في الولايات المتحدة الأمريكية فقط إلى غاية عام 2000) تبحث عن الاستثمار في المؤسسات التي يسميها البعض "المسؤولة اجتماعيا"⁽⁴⁵⁾ وهو ما يدفع المؤسسات للتنافس من أجل خلق القيمة لهذه الجوانب، وتعزيز دور "ت. م. ب" في ذلك للظفر بأوفر نصيب من هذه الأموال.

خاتمة

لا شك أن الموارد البشرية تعتبر اليوم أهم الموارد الاستراتيجية للمؤسسة، لكونها أصبحت تمثل عنصرا أساسيا لخلق القيمة وتحسين التنافسية؛ نظرا لما يمتلكه العنصر البشري من مهارات ومعارف، التي تعتبر مصدرا أساسيا لتكوين المزايا التنافسية، ومنبعا حقيقيا لخلق القيمة.

ولهذا ازداد الاهتمام بتسيير الموارد البشرية، الذي أصبح يحتل مكانة كبيرة ضمن انشغالات المؤسسة في إطار سعيها لخلق القيمة، كونه العملية الأساسية الكفيلة بتوفير ما يلزم من الموارد البشرية كما ونوعا، وتنظيمها وتفعيلها وتوجيهها ورقابتها، بُغية خلق القيمة لجميع الأطراف الآخذة.

وهذا ما حاولنا توضيحه وإبرازه من خلال هذا المقال، حيث تبين لنا أن تسيير الموارد البشرية يلعب دورا محوريا في خلق القيمة لجميع الأطراف، لأن هذه القيمة تتوقف أساسا على الأداء الجيد والمتكامل للمؤسسة، وهذا بدوره أصبح مرهونا اليوم بنوعية الموارد البشرية وكيفية تسييرها.

- الهوامش:

(*) تنبيه: ليس المقصود بالخلق الإيجاد من العدم، لأن هذا من خصائص المولى تبارك وتعالى، وإنما المقصود به تكوين قيمة من مكونات سابقة، واستخدام مصطلح "خلق القيمة" استخدام مجازي للحفاظ على أصل الكلمة "Création de valeur".

(1) G. Le Boterf: *Construire les compétences individuelles et collectives*, Ed.: Les éditions d'Organisation, Paris: 2000-2001, 2ème éd., p 206.

(2). جمال الدين محمد المرسى: الإدارة الاستراتيجية للموارد البشرية، المدخل لتحقيق ميزة تنافسية لمنظمة القرن الواحد والعشرين، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2003، ص 23.

(3) G. Le Boterf: op.cit., p 206.

(4) J. Caby et G. Hirigoyen: *La création de valeur de l'entreprise*, Ed.: Economica, Paris, 2001, 2ème éd., p 102.

(5) Idem, p 101.

- (6) O. Jokung-Nguéna et autres : *Introduction au management de la valeur*, Ed. : Dunod, Paris, 2001, p 17.
 (7) Idem, p 17.
 (8) Idem, p 17.
 (9) J. Caby et G. Hirigoyen, op.cit., p 104.
 (10) Idem, p 104.

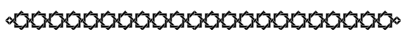
(11) جمال الدين محمد المرسى، المرجع السابق، ص 24.

(12) كمال رزيق وفارس مسدور: مفهوم التنافسية، الملتقى الدولي حول تنافسية المؤسسات الاقتصادية وتحولات المحيط، جامعة بسكرة، أكتوبر 2002، ص 105.

- (13) C.-H. Besseyre des Horts : *Vers une gestion stratégique des ressources humaines*, Ed.: Les éditions d'Organisation, Paris, 1988, p 80.
 (14) O. Jokuang-Nguéna et autres, op.cit., p 21.
 (15) A. Meignant : *Ressources humaines. Déployer la stratégie*, Ed.: Liaison, Paris, 2000, p 62.
 (16) Idem, p 106.
 (17) J. Caby et G. Hirigoyen, op.cit., p 33.
 (18) G. Le Boterf, op.cit., p 206.
 (19) O. Jokung-Nguéna et autres, op cit., p 19.
 (20) Idem, p 16.
 (21) Med Said Oukil : *Economie et gestion de l'innovation technologique*, Ed. : O.P.U.Alger, 1995, p 17.
 (22) P. Dussaugue et B. Ramanantsoa : *Technologie et stratégie d'entreprise*, Ed. : Ediscience international, paris, 1994, pp 71-76.
 (23) A. Meignant, op.cit., p 57.
 (24) Idem, p 57.
 (25) Idem, p 57.
 (26) J.-P. Helfer et autres: *Management, Stratégie et Organisation*, Ed. : Vuibert, Paris, 2000, 3 ème éd., p 325.
 (27) J.-C. Tarondeau : *Stratégie industrielle*, Ed. : Vuibert, Paris, 1998, 2ème éd, p 236.
 (28) Med Said Oukil, op.cit., p 17.
 (29) Idem, p 17.
 (30) A. Meignant, op.cit., p 51.
 (31) J. Horowitz : *La qualité de service, à la conquête du client*, in : A. Meignant, op.cit., pp 51-52.
 (32) A. Meignant, op.cit., p 51.
 (33) O. Jokung-Nguéna et autres, op.cit., p 40.
 (34) A. Meignant, op.cit., p 50.
 (35) Idem, p 54.
 (36) Idem, p 55.
 (37) Idem, p 53.
 (38) F. Bancel : *La gouvernance des entreprises*, Ed. : Economica, Paris, 1997, p 7.
 (39) J. Caby et G. Hirigoyen, op.cit., p 52.
 (40) F. Bancel, op.cit., p 18.
 (41) Y. Emery et F. Gonin : *Dynamiser les ressources humaines*, Ed. : Bibliothèque Ressources humaines, 1999., p 9.
 (42) A. Meignant, op.cit., p 50.
 (43) Idem, p 55.
 (44) Idem, p 56.
 (45) Idem, p 62.

دور الأمم المتحدة في مكافحة جريمة تبييض الأموال

بقلم
د / علي قصير
قسم العلوم القانونية - كلية الحقوق
جامعة باتنة - الجزائر



ملخص

إن التطور المذهل لأنماط الجريمة جعل لمكافحةها داخليا ودوليا ضرورة حتمية، إذ يتبين أنه عن طريق الاتجار غير المشروع والذي يحقق أرباحا طائلة يشجع المنظمات الإجرامية الدولية عل اختراق وإفساد هياكل الحكومات والمؤسسات التجارية والمالية المشروعة والمجتمع . وهذا يستدعي تقوية الوسائل القانونية الفعالة للتعاون الدولي في المسائل الجنائية لمنع الأنشطة الإجرامية الدولية من الاتجار الغير مشروع .

Résumé :

Le développement extraordinaire des types du crime conduit à l'impératif d'un contrôle au niveau national et international, car il montre que grâce au trafic illicite qui font d'énormes profits, il encourage les organisations criminelles internationales pour pénétrer et corrompre les structures des gouvernements et des institutions commerciales et financières légitimes, ainsi que de la communauté. Cela nécessite le renforcement des moyens juridiques efficaces de coopération internationale en matière pénale pour prévenir les activités criminelles du trafic illicite international.

مقدمة

في ظل الآثار السلبية التي انعكست على المجتمع الدولي ظاهرة تبيض الأموال مما دعا هيئة الأمم المتحدة أن تصدر العديد من الاتفاقيات والقوانين والقرارات لمصادرة الأموال التي تمول الإرهاب والاتجار بالمخدرات، هذا دفع العديد من الدول الأجنبية والعربية لرصد المشكلة وإصدار القوانين التي تجرم تبيض الأموال على المستوى الدولي وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية، التي تعتبر من أكثر الدول حماساً واهتماماً لمكافحة عملية تبيض الأموال غير المشروعة . إلا أن هذه العملية أصبحت من المسائل الهامة والمعقدة في العالم، لذا عملت هيئة الأمم المتحدة على حث الدول لإصدار قانون لمكافحة الجريمة المنظمة، وقد أدى اهتمام المجتمع الدولي إلى إبرام العديد من الاتفاقيات الدولية وانعقاد العديد من المؤتمرات تحت رعاية الأمم المتحدة ومجلس المجموعة الأوروبية.

إن البنية الأولى قد انطلقت من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الاتجار غير المشروع في المخدرات والمؤثرات العقلية بفيينا سنة 1988، أول اتفاقية تتضمن نصوصاً لتجريم غسيل الأموال، لكن اقتصر نطاقها على تجريم غسيل الأموال الناتج عن الاتجار غير المشروع في المخدرات والمؤثرات العقلية متناسبة مع بقية الأنشطة الإجرامية التي تدر أموال طائلة للمنظمات الإجرامية كالاتجار بالأسلحة والاتجار بالأعضاء البشرية والمتاجرة بالرقيق الأبيض وتهريب المهاجرين وغيرهم.

والإشكالية المطروحة تتمثل في ما مدى دور الأمم المتحدة في مكافحة جريمة تبيض الأموال ؟

للإجابة على ذلك نتناول في المبحث الأول مفهوم عملية تبيض الأموال، وفي المبحث الثاني دور الأمم المتحدة في مكافحة جريمة تبيض الأموال.

المبحث الأول

مفهوم عملية تبيض الأموال

لقد انقسمت التشريعات والآراء الفقهية والقانونية في شأن تعريف جريمة تبيض الأموال إلى قسمين ما بين مضيق وموسع، إذ يقتصر التعريف الضيق لجريمة تبيض

الأموال والذي يتعلق بالأموال غير المشروعة الناتجة عن تجارة المخدرات، ومن هذه التشريعات والآراء الفقهية اتفاقية فيينا لعام 1988 التي تناولت جرائم المخدرات وغسيل الأموال الناجمة عنها، قانون المخدرات والمؤثرات العقلية والسلائف والتوصيات الصادرة عن المجموعة الأوروبية لسنة 1991⁽¹⁾.

جرّمت الأعمال التي من شأنها تحويل الأموال أو نقلها من العلم لأنها مستمدة من جريمة المخدرات أو من فعل من أفعال الاشتراك في مثل هذه الجرائم، بهدف إخفاء أو تمويه المصدر غير المشروع للأموال، أو قصد مساعدة أي شخص متورط في ارتكاب مثل هذه الجرائم للإفلات من العواقب القانونية.

ولم يكن تبييض الأموال ظاهرة جديدة، بل يعود تاريخ ظهورها إلى ظهور الجريمة المالية، إلا أن المرتكبين لها يعتمدون إلى استعمال الأموال الناتجة عن جرائمهم بشكل يخفي حقيقتها.

إن تزايد وانتشار هذه الظاهرة أدى إلى جلب نظر المجتمع لها خاصة عندما يصبح شخص لا يملك سوى لقمة عيشه ثريا بشكل مفاجئ دون أن يكون هناك مصدر مشروع وراء هذا الإثراء المفاجئ.

نتناول في المطلب الأول تعريف جريمة تبييض الأموال وفي المطلب الثاني مراحل تبييض الأموال وفق ما يلي :

المطلب الأول

تعريف جريمة تبييض الأموال

رغم التسميات المختلفة التي تطلق عليها إلا أن هدفها واحد، لكن نرى التسمية السليمة هي جريمة تبييض الأموال لأنها أنسب معنى لها باعتبار أن الأموال تبيض بعدما تكون قدرة وسخة نتيجة لمصدرها غير المشروع، وأن هذه التسمية تعكس المعنى الحقيقي للجريمة بكل ما تحمله من معاني⁽²⁾.

حيث عرفت جريمة تبييض الأموال بأنها : إخفاء مصادر الأموال القدرة الناتجة عن تجارة المخدرات ودخولها في مجال الاستثمار⁽³⁾.

كما عرفت التوصية الصادرة عن مجلس اتحاد المجموعة الأوروبية في 15 حزيران 1991م جريمة تبييض الأموال بأنها كل العمليات المتعلقة بالمخدرات والمأخوذة عن اتفاقية فيينا لعام 1988م.

مما سبق يتبين أن التعريف السابق لجريمة تبييض الأموال هو التعريف الضيق إلا أن التعريف الواسع للجريمة هو: جمع الأموال القذرة الناتجة عن جميع الجرائم والأعمال غير المشروعة وليس فقط تلك الناتجة عن تجارة المخدرات⁽⁴⁾.

ومن التشريعات والآراء الفقهية التي اعتمدت التعريف الواسع لتبييض الأموال القانون الأمريكي لعام 1986م الذي عرف في مقدمته تبييض الأموال بأنها: جميع العمليات المصرفية التي تهدف إلى إخفاء المصدر الجرمي للأموال .

إلا أن فريق العمال المالي في التعاون لمكافحة تبييض الأموال GAFI⁽⁵⁾ اعتمد تعريفاً واسعاً لتبييض الأموال فشمّل أنواعاً أخرى من المال المبيض المتأتي عن الاتجار بالسلاح والتهرب من الضرائب والجمارك⁽⁶⁾.

ويتبين مما سبق أن التعريف الضيق اعتبر أن تبيض الأموال سلوك أو فعل يقصد من خلاله إخفاء المصدر الحقيقي للأموال الناتجة عن تجارة المخدرات، وهو ما اعتمدته اتفاقية فيينا بحصر تبييض الأموال بالجرائم المتعلقة بالمخدرات فقط، ولكن هل يمكن اعتبار أن تجريم تبييض الأموال واقعيًا يقتصر فقط على جرائم المخدرات .

إن الجرائم الأخرى كالسرقة وتجارة السلاح وتجارة الرقيق الأبيض يمكن أن تنتج عنها أموال طائلة يعتمد أصحابها على تبييضها، ولا تقل خطورتها عن جريمة المخدرات .

إلا أنه يجب أن نعرف جريمة تبييض الأموال تعريفاً وافياً لتشمل حصيلة الجرائم الأخرى غير جريمة المخدرات، وعليه فهناك من يرى بأن جريمة تبييض الأموال تعرف بأنها: (كل فعل يقصد به تمويه أو إخفاء مصدر الأموال والمداخيل الناتجة بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن ارتكاب إحدى الجرائم).

المطلب الثاني

مراحل تبييض الأموال

يتطلب لعملية تبيض الأموال المرور بمراحل عديدة تدخل فيها الأموال القذرة وغير المشروعة وتخرج فيها نظيفة ومشروعة، والهدف من هذه المراحل هو دمج الأموال الوسخة والقذرة مع آلاف المليارات من الأموال التي ترد من نشاطات مشروعة .

إلا أن العديد من الخبراء قسّموا هذه المراحل الأساسية إلى ثلاث عمليات تتم بشكل منفصل أو في وقت واحد والمراحل هي :-

الفرع الأول : التوظيف

إن عملية التوظيف للأموال القذرة يهدف إلى إزالة مكان اكتسابه سعياً إلى دمجها في مناطق عمل تجاري يكون من السهل فيه التخفي، ويكون من الصعوبة التعرف على حقيقة مصدرها، كما أن عملية التوظيف تركز على تحويل المال القذر إلى ودائع مصرفية، وإلى إيرادات وأرباح وهمية؛ ومن ثم توظيف الأموال في عدة حسابات مصرفية في دولة واحدة أو في عدة دول⁽⁷⁾.

ويقصد بتوظيف الأموال أو الإيداع لتلك الأموال الناتجة عن تجارة المخدرات، أو الجرائم الأخرى كالاتجار بالأعضاء البشرية، أو الاتجار بالرقيق الأبيض أو السلاح، أن يتم إيداع تلك الأموال في حسابات بنكية في صورة إيداعات، أو شراء مؤسسات تجارية أو أسهم وخاصة الأسهم لحاملها، والتي لا تبين مصدر تلك الأموال أو شراء السبائك الذهبية، وهي خطوة هامة وخطيرة لأنها تشير إلى وجود مبالغ طائلة في يد مالكها بدون أن يتواجد لديه أي مصدر مشروع لهذا الدخل لذا فهو يسارع إلى إيداعها أو تغيير شكلها.

وتعتبر هذه المرحلة هي الأكثر تعقيداً لتجار المخدرات، وعائدات الجرائم الخطيرة، وهي الأكثر تشعباً فمن الصعب لرجال المباحث القائمين بالتحري متابعة مصادر تلك الأموال⁽⁸⁾.

الفرع الثاني : التكديس أو التجميع

تسمى هذه المرحلة بمرحلة بتكديس الأموال بغرض تمويه المصدر غير المشروع لهذه الأموال، والقصد من التكديس أو التجميع منع عودة الأموال غير المشروعة مرة أخرى إلى المصدر غير المشروع⁽⁹⁾. وعلى هذا الأساس تعود الأموال القذرة إلى حسابات مصرفية مفتوحة باسم شركات محترمة وعلى هذا المستوى من حلقة التبييض يصبح المال جاهزاً للدخول في المشاريع الاقتصادية بشكل قانوني.

لكن عندما ينجح المبييض في إيداع أمواله غير المشروعة داخل القطاع المالي والمصرفي للدورة الاقتصادية، يشرع بعد ذلك في مرحلة التوظيف وهي التجميع ومن ثمة يقوم بخلق عدة صفقات مالية تهدف إلى إخفاء مصدر المال وإبعاده قدر الإمكان عن إمكانية تتبع حركته من أجل مصدره غير المشروع.

إن مرحلة التعقيم أو التمويه يكون الغرض الأساسي من ورائها هو تفضيل الجهات الأمنية والقضائية عن المصدر غير المشروع للأموال، فعندما ينجح الجاني

في وضع أمواله غير المشروعة داخل الدورة الاقتصادية ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة التوظيف، ثم التجميع الذي نحن بصدده؛ فيقوم بسلسلة من الصفقات مالية لا غرض من ورائها إلا طمس جميع المعالم التي قد تسبب بكشف مصادر تلك الأموال، ومن ثم يكون في مأمن المتابعة.

الفرع الثالث : الدمج أو التكامل

تشكل هذه المرحلة في عملية تبيض الأموال الدمج أو التكامل الذي يمثل السعي إلى إضفاء شرعي للأموال غير المشروعة في نشاطات اقتصادية عادية بصورة نموذجية، تبدو معها تلك الأموال وكأنها ناتجة من نشاط تجاري مشروع⁽¹⁰⁾.

ومن وجهة أخرى يعاد ضخ الأموال غير المشروعة التي تم تمويه مصدرها في الاقتصاد مرة أخرى حتى تكتسب مظهرا قانونيا⁽¹¹⁾.

فتصرف تلك الأموال غير المشروعة في شراء سلع غالية الثمن أو في مشروعات تجارية أو عقارية تدر عائدا مشروعا وتختلط بذلك الأموال المشروعة مع الأموال غير المشروعة بلا تفرقة. وهذا هو الهدف الأساسي الذي يرجوه القائم بهذه العمليات.

وبذلك يتم تطهير الأموال غير النظيفة بإدماجها في عمليات مشروعة أو أنشطة اقتصادية مشروعة فلا تبدو الأموال ذات صلة بأي أنشطة إجرامية وتظهر في إطار الكسب المشروع الذي لا غبار عليه⁽¹²⁾.

وفي أغلب الأحيان تكون المؤسسات البنكية المسؤول الأول والراعي الأساسي لمثل تلك العمليات، وإن كان من الصعب إثبات التواطؤ بين البنك وصاحب المال غير المشروع، إلا أن البنوك قد تستغل وجود فروع لها في عدد من بلدان العالم لإدماج هذه العمليات بكل يسر وسهولة.

وعليه فالهدف الأساسي المتوخى من الإتيان بكل تلك المراحل، وترتيبات إتمامها على الوجه الأكمل ليس وراءه إلا الحرص الشديد على ضمان إخفاء الرابطة بين المجرم والجريمة. والملاحظ أن هناك نسبة كبيرة جدا من الأموال التي يتم تبيضها تأتي في المقام الأول عن طريق الاتجار بالمخدرات، وهذا على المستوى العالمي؛ نظرا للعائدات المرتفعة لمروجيها في شتى الدول وممارستهم لهذه التجارة القذرة.

المبحث الثاني

دور الأمم المتحدة في مكافحة جريمة تبييض الأموال

معاهدة فيينا لتبييض الأموال

نظرا لخطورة الأمر وتعلقه بأكثر من دولة فقد عقدت اتفاقية فيينا في 1988/12/19م، والتي جسدت جرائم المخدرات وتبييض الأموال الناتجة عنها، وقد وصل عدد الدول المنظمة للاتفاقية سنة 1994م إلى 103 دولة، بالإضافة إلى دول المجموعة الأوروبية، أي ما يعادل 54 بالمائة من عدد دول العالم، وإدراكا لخطورة هذه الجريمة ومالها من آثار سلبية على اقتصاديات المجتمع الدولي بصفة عامة فقد أضنت الجهود الدولية من أجل جعل حد لهذه الظاهرة والعقاب على مرتكبيها وتوقيف المنحرفين والمساهمين فيها، وتبع ذلك عقد قمة اقتصادية سنة 1989م أصدرت فيه 40 توصية، وهي عبارة على ميثاق يحكم مكافحة تبيض الأموال في كافة الدول⁽¹³⁾.

المطلب الأول

نطاق الاتفاقية

تهدف اتفاقية فيينا إلى تعزيز التعاون بين الدول لتمكين من التصدي لمختلف مظاهر الاتجار غير المشروع في المخدرات والمؤثرات العقلية، والذي له بعد دولي . كما أكدت الاتفاقية على جميع الأعضاء اتخاذ التدابير الضرورية واللازمة بما في ذلك التدابير التشريعية والإدارية وفقا للأحكام الأساسية لنظمها التشريعية.

لقد جاء في مواد الاتفاقية أن تجريم الأفعال الاتحادي في غيابة المصنفات الخلية كل تدابير التجريم وما يتعلق بتنظيم تمويل عمليات الإنتاج والمتاجرة بمواد المؤثرات العقلية على اختلاف أنواعها، كذلك تحويل الأموال أو نقلها مع كونه يعلم أنها مستمدة من أفعال غير مشروعة، وأي سلوك أو فعل يهدف إلى إخفاء أو تمويه المصدر غير المشروع للأموال، أو تقديم إي مساعدة لأي فرد متورط في ارتكاب مثل هذه الجرائم على الإفلات من تسليط العقوبة القانونية لأفعاله.

وجاء في نص الاتفاقية على مكافحة التمويه أو إخفاء العمليات المستمدة من المخدرات والمؤثرات العقلية أو مصدرها أو اكتسابها وحيازتها واستخدام هذه الأموال بطرق غير شرعية .

الضلع الثاني : مصادرة الأموال الملوثة

قضت بعض أحكام الاتفاقية على ضرورة أن يتخذ كل طرف ما قد يلزمه من تدابير للسيطرة على المتحصلات المستمدة من الجرائم المختلفة أو الأموال التي

تساوي قيمتها قيمة تلك المتحصلات أو الوسائل أو أية أشياء أخرى، أو إخفاء أثرها بقصد مصادرتها أو تبديلها إلى أموال أخرى، وكذلك الأموال الناجمة عن اختلاط المتحصلات من أموال اكتسبت بطريقة غير مشروعة.

الفرع الثالث: السرية المصرفية

تضمنت الاتفاقية العديد من الأحكام التي تتيح وقف العمل بنظام السرية المصرفية عند تعلقه بأفعال إنتاج مؤثرات عقلية أو الاتجار بها أو تبييض أموال، وجاء في إحدى فقراتها على ضرورة تقديم أطراف الاتفاقية المساعدة لبعضهم البعض قدر الإمكان والتبادل في أي تحقيق أو متابعات أو إجراءات قضائية تتعلق بالجرائم غير المشروعة، وذلك بتوفير النسخ الأصلية أو الصور المصادق عليها من المستندات والسجلات المصرفية وسجلات الشركات والعمليات التجارية، ولا يجوز لأي طرف أن يمنع الطرف الآخر من تقديم المساعدات القانونية المتبادلة بحجة سرية العمليات المصرفية.

المطلب الثاني

الإطار العام للتوصيات

يتمثل الإطار العام للتوصيات في ما يلي :

- يجب على كل دولة أن تتخذ الخطوات المناسبة لتطبيق معاهدة فيينا لكي تشرع في التصديق عليها.
- حثت الاتفاقية الدول الأطراف على استحداث أو تطوير أو تحسين البرامج التدريبية الخاصة بالموظفين المكلفين بتنفيذ القوانين وغيرهم، وأن تتناول هذه البرامج بصفة أساسية الأساليب المستخدمة في ارتكاب جرائم الاتجار غير المشروع في المخدرات وغسيل الأموال المتحصل فيها والتقنيات والطرق المستخدمة في نقل هذه الأموال أو في إخفاءها أو تمويلها⁽¹⁴⁾.
- لا تكون القوانين المتعلقة بالمؤسسات المالية سرية حتى تنفذ التوصيات.
- يجب أن يكون النظام فعالاً لمكافحة غسيل الأموال، ويكون التعاون بين أطراف متعددة في تطبيق التعاون القانوني بين الأطراف من حيث الاستلام والتحريات ومكافحة المجرمين .

إن هذه التوصيات تدعو مسؤولي الدول لاتخاذ إجراءات فاعلة للحد من غسيل الأموال بوضع تشريعات جديدة انطلاقاً من التوقيع على المعاهدة وإعادة

النظر في التشريعات القديمة القائمة من أجل مكافحة أنجع لجريمة تبييض الأموال بتغيير تلك النصوص القانونية المحلية لغسيل الأموال .

الفرع الأول : تجريم نشاط غسيل الأموال

هناك مجموعة من الصور المكونة لجريمة غسيل الأموال طبقا لاتفاقية فيينا، منها تحويل الأموال من جريمة مرتبطة بتجارة المخدرات مع علم فاعلها بأنها مجرمة، أو يكون شريكا في مثل هذه الجرائم كالتصدير والاستيراد أو السمسرة فيها، أو متابعة أي شخص في ارتكاب مثل هذه الجرائم .

في حالة الكتمان أو التمويه لأموال غير مشروعة من مصدرها أو طريقة التصرف فيها كذلك حركتها أو اكتسابها مع العلم بأنها مأخوذة من الجرائم المنصوص عليها سابقا. أو استخدام تلك الأموال وحيازتها عند التسليم مع العلم بأنها جرائم مأخوذة من عمل إجرامي.

وبالرجوع للمادة 1\3 من الاتفاقية فإن غسيل الأموال يعتبر جريمة عمدية، لا يتصور أنها تأتي عن طريق الإهمال أو الخطأ . وأنها مستمدة من إحدى الجرائم التي نصت عليها اتفاقية غسيل الأموال سنة 1988م.

وإن تحويل الأموال غير مشروعة لا بد أن يكون مستمدا من نص الاتفاقية، وقد جعلت النشاط غير المشروع من الجرائم المؤقتة وليس من الجرائم المستمرة إذ اشترطت توافر العلم بالمصدر غير المشروع للأموال في الوقت الذي يحصل في تسليمها (15).

الفرع الثاني : الجوانب الإجرائية للاتفاقية فيينا 1988م

تكون جريمة غسيل الأموال ذات طابع دولي لكونها تعبر الحدود الوطنية، مما يستوجب الملاحقة الجنائية والتعاون الدولي للمساعدة على قمع هذا النشاط. لقد أولت اتفاقية فيينا أهمية للتعاون الدولي من أجل ملاحقة جرائم غسيل الأموال ودعت إلى تطوير مبدأ سرية الحسابات المصرفية التي تكون عائقا لملاحقة نشاط غسيل الأموال (16).

وبينت الاتفاقية مصادرة الأموال وإجراءات التجميد للفرض المؤقت على تحويلها أو التصرف فيها أو حركتها أو وضع اليد أو الحجز عليها بصورة مؤقتة بمقتضى أمر صادر عن محكمة أو سلطة مختصة (17).

وبما أن نشاط غسيل الأموال ذو طابع دولي فإن مسألة الاختصاص بالعقاب تبدو دقيقة وصعبة، فإذا وقع النشاط الدولي في الجريمة الأصلية على إقليم دولة ما

والنشاط المتابع في إقليم دولة أخرى فلاي دولة ينعقد الاختصاص ؟ هل ينعقد في إقليم الدولة الأصلية أو الدولة التبعية ؟

لقد أخذت اتفاقية فيينا بمبدأ إقليمية الجريمة لمحاكمة نشاط غسيل الأموال سواء وقع الجرم على إقليم الدولة أو على متن السفينة حاملة الراية أو الطائرة وقت وقوع الجريمة . حيث ينعقد الاختصاص لمحاكم تلك الدولة ⁽¹⁸⁾ .

كما أن الاتفاقية تبنت مبدأ الشخصية في شقه الإيجابي فأجازت انعقاد الاختصاص للمحاكم التي يقع في إقليمها محل الإقامة المعتاد للشخص المرتكب الجريمة ⁽¹⁹⁾ .

وبهذا سمحت الاتفاقية للدولة التي يوجد على إقليمها مرتكب الجريمة بالملاحقة إذا كان يتمتع عليها التسليم لدولة أخرى.

وطبقا لاتفاقية فيينا فلا يجوز لأي دولة عضو فيها على الامتناع عن تقديم المساعدة القانونية المتبادلة بحجة سرية الحسابات أو المعاملات المصرفية. ولقد تضمنت الاتفاقية التزام الدول الأعضاء بتقديم المساعدات القانونية في كثير من المجالات كالتفتيش وشهادات الأشخاص وتبليغ الأوراق القضائية وكذلك تحديد المتحصلات أو الأموال أو الوساطة أو غيرها من الأشياء لأغراض الحصول على أدلة ⁽²⁰⁾ .

ودعت الاتفاقية إلى التعاون بين الدول الأعضاء للكشف عن هوية الأشخاص المشتبه في تورطهم في الجرائم، وكشف الأموال المتحصل عليها من تلك الجرائم ووسائل هذه الأموال.

الخاتمة

إن عملية تبييض الأموال وما تدرّه من مبالغ طائلة دون تعب أو عناء وما تشكله من خطورة على المجتمع الدولي في الكثير من المجالات الحيوية تجعل هذه الجريمة في غاية الخطورة، وأنها ظاهرة قائمة بذاتها تستحق الدراسة والعناية لضخامة المبالغ التي يجنيها الاتجار الدولي بالمخدرات وغيرها من الجرائم المشابهة، إن ما يجنيه هؤلاء من تبييض الأموال من إرباح طائلة وثروات هائلة مكتسبهم من التدخل في شؤون الدول . وتوسعت عملية تبييض الأموال على الصعيد الدولي وأصبحت خطرا عالميا يهدد أمن واستقرار الدول، لذا يتطلب الأمر وضع تدابير مضادة من جانب المجتمع الدولي ككل، وهذا من أجل قطع الطريق

على المجرمين وحرمانهم من تلك الإيرادات غير المشروعة والتي اكتسبت من سلوكات مدمرة للمجتمعات .

ولقد أصبح من واجب الدول جميعها الانضمام إلى مختلف الاتفاقيات الدولية التي تجرم الأفعال غير المشروعة، وكذلك ضرورة التعاون الدولي فيما يخص مكافحة الجريمة المنظمة، من خلال تنسيق الجهود والإجراءات التشريعية التي تحقق هدف كل دولة، ودراسة القوانين التي سنتها الدول الرائدة في مكافحة هذه الجريمة منذ ظهورها. كما أنه من الضروري جدا عقد اتفاقيات إقليمية ودولية لمكافحة تبيض الأموال .

- الهوامش

- 1- د/ نادر عبد العزيز شافي، تبيض الأموال دراسة مقارنة، ط 2001، ص 172.
- 2- د/ فؤاد كامل، مقال تحت عنوان، غسيل أموال المخدرات القذرة، منشورات المجلة العربية للدراسات القانونية والأمنية، العدد الخامس عشرة، سنة 1993 ص 151.
- 3- د/ محمد شعيب، جريدة السفير، بتاريخ 29 تموز 1998.
- 4- نادر عبد العزيز شافي، المرجع السابق، ص
- 5- جهاز تابع لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية في الأمم المتحدة - مكلف بالتنسيق الدولي في شأن مكافحة تبيض الأموال.
- 6- د/ منى الأشقر، تبيض الأموال الناتجة عن الاتجار غير المشروع بالمخدرات، مركز المعلوماتية القانونية في الجامعة اللبنانية، 1995، ص 25.
- 7- د/ نادر عبد العزيز شافي، دراسة مقارنة، ط 2001، ص 178.
- 8- هدى حامد قشقوش، جريمة غسيل الأموال، نطاق التعاون الدولي، دار النهضة العربية، ط 2003، ص 52.
- 9- هدى حامد قشقوش، المرجع السابق، ص 53.
- 10- دراسة للمحامية أن تي فيتال، حول عملية غسيل الأموال وتأثيرها على الاقتصاد الأمريكي .
- 11- د/ هدى حامد قشقوش، المرجع السابق، ص 54.
- 12- د/ جلال وفاء محمددين، دور البنوك في مكافحة غسيل الأموال، دار الجامعة الجديدة للنشر، الإسكندرية، سنة 2001، ص 15.
- 13- المستشار الاقتصادي صلاح الدين حسن ألسبتي، غسيل الأموال، الجريمة التي تهدد استقرار الاقتصاد الولي، الطبعة الأولى، 2003، دار الفكر العربي، ص 21.
- 14- المادة 9 الفقرة الثانية من الاتفاقية
- 15- د/ جلال وفاء محمددين، المرجع السابق، ص 57.

- 16 - المادة 5 / 7 من الاتفاقية .
- 17 - المادة 5 من الاتفاقية .
- 18 - المادة 1 / 4 من الاتفاقية .
- 19 - المادة 1 / 4 ب من الاتفاقية .
- 20 - المادة 7 من الاتفاقية .

ضرورة تدعيم قرينة البراءة في إجراءات القبض في القانون الجزائري

بقلم

أ/ عادل مستاري

و أ/ بودوح ماجدة شاهيناز

كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة بسكرة

ملخص

تعد الحرية أئمن ما يمتلك الإنسان، وأن المساس بها اعتداء على مبدأ هام أقرته جميع المواثيق الدولية، الإقليمية والتشريعات الداخلية، هو مبدأ قرينة البراءة الذي يعد حجر الزاوية للعدالة الجنائية.

ولما كانت الإجراءات الجزائية هي أعمال تمس بالحرية الشخصية وتعرض الحقوق والحريات للخطر والتي من بينها إجراءات القبض على المتهم، سواء في مرحلة التحقيق كأصل عام، أو في مرحلة التحريات في حدود معينة (التلبس) هنا تبرز أهمية وضرورة تدعيم قرينة البراءة وإحاطتها لجميع الضمانات الكفيلة للوصول إلى محاكمة عادلة.

فالسؤال المطروح هنا : متى يكون هذا القبض مشروعاً؟ ومتى يغدو تعسفياً؟ وما هو القدر الضروري لاتخاذ من أجل الحد من هذه الحرية؟

Résumé :

La liberté est la plus chère possession pour l'être humain. L'atteinte de cette possession est considérée comme une agression d'un principe principal avouer par toutes les chartes étatique et territoriales et les législations intérieures.

C'est le principe de présomption d'innocences, qui est la constitution de code de procédures pénales.

Les procédures pénales étaient des travaux qui touchent la liberté personnelle et expo vent les droits et les libertés en danger.

Parmi ces procédures, celles d'arrestation d'inculpe que ce soit à l'étape d'investigation comme une base générale ou à l'étape d'enquêtes dans des limites précisé (flagrant délit). D'ici apparaît la nécessité de renforcement de présomption d'innocences et l'entourer par toutes les garanties assurant à arriver à un procès équitable.

La question qui se pose maintenant, quand elle cette arrestation est légitime ? Quand elle devienne arbitraire ? et quelles sont les procédures nécessaire pour limiter cette liberté?.

مقدمة

إن الحرية أئمن ما يمتلك الإنسان، وأن الدفاع عنها هو واجب كل نظام قانوني، والمساس بهذه الحرية إنما هو اعتداء على مبدأ هام أقرته جميع المواثيق الدولية والإقليمية وكذا التشريعات الداخلية، ألا وهو مبدأ قرينة البراءة الذي يعدّ دستور قانون الإجراءات الجزائية وحجر الزاوية للعدالة الجنائية، والمانع الذي يحول دون المساس بحقوق الإنسان وضماناته في مراحل الدعوى الجزائية.

لذا نجد المشرّع الجزائي لا يتوانى في حماية الحقوق والحريات من خلال القانون الجنائي بشقيه الموضوعي والإجرائي، وهو في ذلك يهدف إلى تحقيق التوازن بين حماية المصلحة العامة وعدم المساس بالحرية الفردية، متخذاً في ذلك إحدى الأساليب الثلاثة التالية:

* تجريم الأفعال الماسة بهذه الحقوق والحريات والمعاقبة عليها مثل المساس بالحق في الحرية الشخصية، الحق في الحياة الخاصة... الخ.

* تتم هذه الحماية من خلال الموازنة مع ما يتمتع به الغير من حقوق وحريات، فلا يجوز أن تكون هذه الحماية وسيلة للعصف بها.⁽¹⁾

والأسلوب الثالث والذي هو موضوع مقالنا هذا، هو ضمان التمتع ببعض الحقوق والحريات كقيد على الإجراءات الجزائية، حيث أن هذه الأخيرة تعدّ أهم المجالات الحساسة للحقوق والحريات، على اعتبار أن الأسلوب الأول (تجريم الأفعال: قانون العقوبات) لا تكون له فعالية إلا من خلال انتقاله من مرحلة السكون إلى مرحلة الحركة عن طريق قانون الإجراءات الجزائية، حيث يجعل القواعد الموضوعية (قانون العقوبات) في حركة دائمة من أجل تطبيق هذه القواعد وتقرير عقوبات على كل من يعتدي على حقوق الفرد والجماعة، ويكون ذلك عبر مراحل الدعوى الجزائية، بالإضافة إلى كون هذه الإجراءات هي أعمال من طبيعتها أنها أعمال تمس الحرية الشخصية مساساً مباشراً، وتعرض الشخص إلى الخطر بمجرد دوران الاشتباه حوله من طرف السلطة المناط بها الكشف عن الجرائم، ويستمر هذا الخطر خصوصاً لحظة اتخاذ إجراءات القبض سواء في مرحلة التحقيق كأصل عام أو في مرحلة التحريات في حدود معينة، وفي هذه المرحلة أي مرحلة التحريات فإن الاستيقاف، إنما هو إجراء قبض مؤقت يمس مباشرة بالحرية الفردية ويتخذ في مرحلة الأصل فيها أنها تتم من جانب واحد ويكون محله

ضرورة تدعيم قرينة البراءة في إجراءات القبض في القانون الجزائري ————— أ. م. مستاري وأ. م. ش. بودوح

شخصاً لم يكتسب بعد صفة المتهم، ولا يجوز مباشرة حقوق الدفاع، وبالتالي تبرز أهمية وضرورة تدعيم قرينة البراءة منذ البداية وإحاطتها بجميع الضمانات الكفيلة بالوصول إلى محاكمة عادلة ومنصفة تشمل جميع المعايير المنصوص عليها في المواثيق الدولية والإقليمية والتشريعات الداخلية وعلى رأسها الدستور، وعليه عمدت الدول في تشريعاتها الداخلية إلى محاولة التخفيف من الاعتداء والمساس بهذه الحقوق والحريات سواء بتطبيق المواثيق الدولية أو الإقليمية لحقوق الإنسان أو من تلقاء نفسها، وهذا ما هو حاصل في الكثير من الدول العربية ومنها الجزائر من خلال تعديل قانون الإجراءات الجزائية للسنوات (2001، 2004، 2006)، حيث راعى المشرع في ذلك احترام الحقوق والحريات الفردية في الإجراءات الماسة بهذه الأخيرة.

فالحرية الفردية هي حق دستوري واجب حمايته، وأن قرينة البراءة هي التي تحدد النطاق القانوني لممارسة المتهم لحريته. فالمشرع بتقريره وتخويله سلطة التحقيق وسلطة الاتهام - في حدود معينة - إجراء القبض على المتهم، فلا يجوز التضحية بصفة مطلقة بحقه في الحرية، بل يجب أن يكون التدخل بالقدر الضروري الذي من خلاله تقيد الحرية ويمس بها من أجل المصلحة العامة، وما تقوم به هذه السلطات إنما هو تمحيص للشك والشبهات التي توافرت ضد المتهم.

وعلى هذا الأساس ما دام قانون الإجراءات الجزائية يمس مساساً مباشراً بالحرية الشخصية، وأن قرينة البراءة هي الركيزة الأساسية للشرعية الدستورية في قانون الإجراءات الجزائية، فمن الواجب تدعيم هذه القرينة لحماية حرية المتهم من خلال تحديد مشروعية إجراء القبض، ومتى يغدو قبضاً تعسفياً؟، وما هو القدر الضروري لاتخاذ من أجل الحد من هذه الحرية؟، وما هي الضمانات الواجب توافرها لتدعيم قرينة البراءة للوصول إلى محاكمة عادلة تتوفر على جميع معايير حقوق الإنسان وحقوق الدفاع؟.

وللإجابة على كل هذه التساؤلات نتعرض في هذا المقال إلى مفهوم الحق في الحرية كحق من حقوق الإنسان، وعلاقته بقانون الإجراءات الجزائية مع تحديد مركزه القانوني، ثم البحث في مبدأ قرينة البراءة كدعامة أساسية للحقوق والحريات، وأخيراً التعرض لتقييد هذا الحق (الحق في الحرية الشخصية) للمصلحة العامة من خلال إجراء القبض على المتهم باعتبار أنه إجراء جبري قهري يؤدي إلى المساس بالحرية الشخصية للمتهم، بل يمكن أن يعطلها لضرورات التحقيق.

أولاً: الحق في الحرية الشخصية وعلاقته بقانون الإجراءات الجزائية.

إن المبدأ الأساسي هو أن لكل إنسان الحق في الحرية الشخصية، حيث تعدّ هذه الأخيرة من أهم الحقوق التي يتمتع بها الإنسان باعتبارها الشرط الرئيس لممارسة نشاطه وتعبيره عن ذاته، والحرية حالة أصيلة في كل إنسان ولا يجوز المساس بها. ⁽²⁾

ونجد أن هذا الحق معترف به ومعلن بشكل أساسي ومباشر في جميع المواثيق الدولية ⁽³⁾ والإقليمية والتشريعات الداخلية، فقد نصت المادة (03) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان 1948 بقولها: « لكل فرد حق في الحياة والحرية وفي الأمان على شخصه ».

كما أن العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية نص في مادته (1/9) على: « لكل فرد حق في الحرية وفي الأمان على شخصه، ولا يجوز توقيف أحد أو اعتقاله تعسفاً، ولا يجوز حرمان أحد من حريته إلا لأسباب ينص عليها القانون وطبقاً للإجراء المقرر فيه ».

أما المواثيق الإقليمية فنجد أن الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان نصّت على هذا الحق في المادة 1/5 بقولها: « لكل فرد حق في الحرية وفي الأمان على شخصه،... » وفي التشريعات الداخلية فإن الحق في الحرية الشخصية يعدّ حقاً دستورياً منصوص عليه ومؤكّد في القوانين الداخلية، وأن حماية هذا الحق هو واجب دستوري، ومن هنا كانت الشرعية الدستورية هي الضمان الأعلى للحقوق والحريات.

فقد نص الدستور الجزائري الصادر في 28 نوفمبر 1996 في العديد من مواده على حماية الحرية الشخصية مثل المادة 47 « لا يتابع أحد ولا يوقف أو يحتجز إلا في الحالات المحددة بالقانون، وطبقاً للأشكال التي نص عليها القانون ».

أما بالنسبة للحماية القانونية لهذه الحرية فإننا نجد أن توفير هذه الحماية هو الذي يضيف عليها التداخل مع معنى الحق، فنتيجة للحماية القانونية للحرية تعطي لصاحب هذا الحق صلاحية ممارسة حقه باختياره، وبهذا المفهوم يرتبط الحق في الحرية الشخصية ارتباطاً جوهرياً بالحماية من التعرض للإجراءات الماسة لهذا الحق دون أي سند قانوني. ⁽⁴⁾

هذا ما يقودنا إلى علاقة هذا الحق بقانون الإجراءات الجزائية من خلال تحديد المركز القانوني للحق في الحرية الشخصية.

حيث يتحدد هذا المركز من خلال النظر إلى طبيعة الإجراءات الجزائية و التي هي أعمال تمس مساسا مباشرا بالحرية الشخصية كما قلنا سابقا، وأنها تعرض الحقوق والحريات للخطر، هذه الإجراءات تمر بمرحلتين أساسيتين هي مراحل الدعوى الجزائية، وهما مرحلة ما قبل المحاكمة ومرحلة المحاكمة، وفي كلتا المرحلتين تتعرض حرية المتهم لإجراءات تمس بحريته الشخصية، بمعنى أن المركز القانوني للحق في الحرية في قانون الإجراءات الجزائية يتحدد وفق محورين: محور مراحل الدعوى الجزائية ومحور طبيعة السلطة التي تقوم بالإجراء الجنائي .

دون أن ننس أن المتهم يعدّ أحد أطراف الدعوى الجزائية، وبالتالي فهي تدار من جانبه أيضا من خلال حقه في الدفاع . فقانون الإجراءات الجزائية لا تنحصر مهامه في وضع التنظيم القضائي لتجسيد مبدأ حق الدولة في العقاب فقط، بل هي أعمال إجرائية تتم في مواجهة المتهم، وتمس حريته الشخصية مساسا مباشرا، وفي مباشرتها لهذه الإجراءات تتحدد الصورة الدقيقة للحقوق والحريات⁽⁵⁾، فإذا كانت تهدف إلى تحقيق مصلحة الدولة لاستفاء حقها في العقاب بصفة مطلقة دون النظر للحقوق والحريات الفردية، فنحن أمام النظم التسلطية أو الحكمية، وهذا ما يعبر عنه بالفكر التسلطي الذي يعطي للدولة جميع الحقوق والسلطات ويتجاهل قيمة الفرد في المجتمع، فهنا لا مجال للحديث عن الحرية الشخصية، أما في النظم الديمقراطية فإن النظام الإجرائي المتمثل في قانون الإجراءات الجزائية يهدف من خلال مباشرة إجراءاته إلى المحافظة على التوازن بين استفاء حق الدولة في العقاب وضمان حرية المتهم.

فقانون الإجراءات الجزائية في الفكر التسلطي هو تقوية سلطة الدولة وتجريد الفرد من ضماناته في الحرية، أما في الدولة القانونية فإن قانون الإجراءات الجزائية هو دستور الحريات أو القانون الذي ينظم الحقوق والحريات.

ثانيا: مبدأ قرينة البراءة كضمانة أساسية للحق في الحرية الشخصية.

إن مبدأ قرينة البراءة ما هو إلا تأكيد لأصل عام هو حرية المتهم، هذا ما يترتب عليه ضرورة حماية جميع الحقوق والحريات، وعلى هذا الأساس فإن تدعيم قرينة البراءة إنما هو زيادة في حماية الحقوق والحريات. لذلك وجب الاعتماد على أصل البراءة في تحديد الإطار القانوني الذي يتم بداخله تنظيم ممارسة المتهم لحريته الشخصية⁽⁶⁾، هذا الإطار القانوني ما هو إلا مجموع الضمانات التي تكفل حماية الحرية الشخصية من التعرض للخطر خارج القانون. فما هو إذن المقصود بقرينة البراءة؟

ضرورة تدعيم قرينة البراءة في إجراءات القبض في القانون الجزائري ————— أ. ع مستاري وأ. م ش بودوح

* تعريف قرينة البراءة:

إن البحث في المدلول الحقيقي لمبدأ قرينة البراءة إنما يتحدد بالنظر إلى الحرية الشخصية أو الفردية، وعليه فإن قرينة البراءة تهدف أساساً إلى حماية الحرية الشخصية للمتهم⁽⁷⁾، هذا الأخير ومهما بلغت جسامة جريمته وتوفر الأدلة ضده يبقى بريئاً ويعامل بهذه المعاملة طوال مراحل الدعوى الجزائية إلى حين صدور حكم للفصل فيها. هذا ما يعطي بالمقابل التزاماً ملقى على عاتق السلطات المناط بها البحث والتحري والتحقيقات لمعاملة من قيدت حريته الشخصية كإجراء القبض عليه، باعتباره شخصاً بريئاً تحترم حريته الشخصية وإنسانيته أياً كان نوع الجريمة التي ارتكبها. وهذا الأصل (افتراض البراءة) مؤسس على الفطرة التي جبل الإنسان عليها، فقد ولد مبرئاً من الخطية والمعصية.⁽⁸⁾

وقد جاء هذا المبدأ مكرساً في جميع المواثيق الدولية، حيث أكدت على معاملة المتهم بهذا الأصل في جميع مراحل التحقيق لحين صدور حكم نهائي، فقد جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في مادته 11/1 بقولها: « كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن يثبت ارتكابه لها قانوناً في محاكمة علنية ... ».⁽⁹⁾

وأكدته الاتفاقية الأوروبية في المادة (2/6)، والاتفاقية الأمريكية في المادة (1/8)، كما نجد الميثاق العربي لحقوق الإنسان أكد على هذا الحق في نص المادة 7 بقولها: « المتهم بريء إلى أن تثبت إدانته بمحاكمة قانونية تؤمن فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه ».⁽¹⁰⁾

أما التشريعات الداخلية فنجد أن التشريع الجزائري أقر هذا المبدأ في الدستور في نص المادة 45 بقولها « كل شخص يعتبر بريئاً حتى تثبت جهة قضائية نظامية إدانته، مع كل الضمانات التي يتطلبها القانون ».

وإذا بحثنا عن الأساس القانوني لقرينة البراءة فإننا نلمسها من خلال قانون الإجراءات الجزائية، فهي تعدّ الركيزة الأساسية للشرعية الدستورية في هذا القانون، على اعتبار أن الركيزة الأولى للشرعية الدستورية في قانون العقوبات هي مبدأ شرعية الجرائم والعقوبات، هذه الأخيرة لا تكف لوحدها لحماية الحرية الشخصية للإنسان حال اتخاذ إجراءات لازمة في مواجهته كإجراء القبض مثلاً، ومن ثم كان لزاماً وجود ركيزة أخرى تنظم الإجراءات الجزائية وتكمل الجزء الأول من الشرعية الجنائية وهي الشرعية الإجرائية المتمثلة في افتراض الأصل في البراءة. وبالتالي فإن حماية الحرية الشخصية وما يتصل بها من حقوق الإنسان

الأخرى هي الأساس القانوني لقرينة البراءة وهو ذات الأساس التي تنبع منه شرعية الإجراءات الجزائية.⁽¹¹⁾

وتبدو أهمية مبدأ قرينة البراءة وضرورة دعمها من خلال الحاجة الماسة إلى حماية الحرية الشخصية للمتهم منذ بداية الإجراءات الجزائية من خلال الدعوى الجزائية خصوصا مرحلة ما قبل المحاكمة على أساس أن هذه المرحلة تتخذ فيها العديد من الإجراءات القهرية و الجبرية الماسة بحرية المتهم كالقبض والتفتيش، ومع أن مرحلة المحاكمة تثور فيها مشكلة الحرية الشخصية، إلا أن هذه المرحلة مخصصة أساسا لفحص وتقدير عناصر الإثبات، ومن هنا قد لا تكون ثمة حاجة لاتخاذ الإجراءات الجبرية إزاء المتهم.⁽¹²⁾

ففي مرحلة قبل المحاكمة وجب تدعيم قرينة البراءة بتوفير جميع الضمانات الضرورية منذ البداية (مرحلة جمع الاستدلالات) وتبلور هذه الضمانات أساسا في:

- تنظيم المشرّع للإجراءات الجزائية تنظيما دقيقا.

- بيان سبب هذه الإجراءات.

- بيان السلطات المختصة بها من ناحية أخرى.

- أن يسمح للمتهم الطعن فيها.

وخلاصة القول في هذا العنصر أن احترام قرينة البراءة هو عدم المساس بالحرية الشخصية وهو الأصل، والنيل منها يكون الاستثناء. في حدود معينة، وأن تدعيمها يعني عدم التعسف في الإجراءات التي تنال من هذه الحرية، ومعاملة المتهم على أنه شخص بريء، وأنه من خلال النتائج المترتبة عنها والمتمثلة في حمل عبء الإثبات على عاتق سلطة الاتهام وتفسير الشك لمصلحة المتهم وبناء الحكم بالإدانة على الجزم واليقين، لا يعني ذلك أن مبدأ قرينة البراءة يؤدي إلى إهدار و تجاهل المصلحة العامة التي تقضي بمعاقبة المجرمين وذلك باتخاذ الإجراءات الجزائية في مواجهتهم، بل إن هذه الإجراءات تعمل في إطار الموازنة بين مصلحة المتهم في حماية حريته الشخصية ومصلحة المجتمع في اتخاذ الإجراءات، بشرط أن يكون لها سند قانوني يسمح بالحد من هذه الحرية، وذلك بالقدر الذي يتيح تمحيص الشك والشبهات التي توافرت ضده، كل ذلك في إطار ما يسمح به التحقيق طالما أنه يجري في حدود القانون⁽¹³⁾ وهذا ما سوف نراه من خلال العنصر التالي.

ثالثاً: إجراءات القبض بين تقييد الحرية الشخصية واحترام قرينة البراءة.

قلنا فيما سبق أن قانون الإجراءات الجزائية يعدّ من المجالات الحساسة للحقوق والحريات نظراً لطبيعة أعماله التي تمسّ مساساً مباشراً بالحرية الشخصية، من بين هذه الأعمال أو الإجراءات إجراءات القبض على المتهم.

هذا الإجراء يتخذ عبر مراحل الدعوى الجزائية وهو كأصل عام من إجراءات التحقيق، وتقوم به سلطة الاتهام في حدود معينة (حالة التلبس بالجريمة)، كما أن الحجز للنظر يعدّ قبضاً نظراً لكونه يقيد الحرية لمدة قصيرة وقد نص عليه المشرع الجزائي الجزائري في قانون الإجراءات الجزائية في الباب الثاني تحت عنوان التحقيقات في الفصل الأول في الجناية أو الجنحة المتلبس بها، ووعياً من المشرع الجزائري بخطورة هذا الإجراء فلم يتوانى بالتطرق إليه في كل مرة يصدر تعديلاً جديداً لقانون الإجراءات الجزائية، وذلك بإضافة ضمانات جديدة آخرها في 20/12/2006.

وباعتبار أن إجراء القبض يقيد الحرية الشخصية، بل يمكن أن يعطلها لضرورات التحقيق فإن آثار قرينة البراءة (والتي تعدّ الإطار القانوني الذي تمارس فيه هذه الإجراءات)، تنعكس على مراحل الدعوى الجزائية من خلال:

1. مرحلة جمع الاستدلالات: حيث أن قانون الإجراءات الجزائية حظر على رجال الضبطية القضائية القيام بأعمال التحقيق إلا في حالات معينة (التلبس، الإنابة القضائية)، وهي حالة حجز الشخص للنظر فإن هذا الأخير يجب أن يكون له سند قانوني (م 51 ق ا ج).

2. مرحلة التحقيق: تظل قرينة البراءة منتجة لآثارها، حيث أنه في هذه المرحلة تتخذ العديد من الإجراءات القهرية والجبرية منها إجراء القبض، على أساس أن مرحلة التحقيق مقررة للبحث عن الأدلة وتمحيصها بغية تقديم المتهم للمحاكمة، وهنا أحاط المشرع هذه المرحلة بضمانات عديدة تأسيساً على مبدأ قرينة البراءة، وفي ذلك ليس تعارضاً أو عائقاً أمام تحقيق المصلحة العامة، لأنه ليس من الممكن أو المنطقي البحث عن الجرائم وإثباتها بدون قيود وضوابط وبدون مراعاة الحق في الحرية الشخصية.

وعلى ضوء ذلك فإن قانون الإجراءات الجزائية في تطبيقه يعتمد على مبدأ قرينة البراءة في تحديد النطاق القانوني لممارسة المتهم لحيته الشخصية ومباشرة كافة حقوقه (حق الدفاع مثلاً).

وسوف نستشف هذه الضمانات لتبيين مظاهر تدعيم قرينة البراءة من خلال تحليلنا لأحكام إجراءات القبض.

1. تعريف القبض:

بالرغم من أن معظم التشريعات الوضعية تعزف عن وضع تعريف للقبض وهذا شيء مألوف عند التطرق إلى مدلول الأفكار القانونية، بحيث يترك تعريفها دائما للفقهاء، إلا أننا نجد المشرع الجزائري قد عرّف القبض في نص المادة (119 ق إج ج) كإجراء من إجراءات التحقيق بقولها: « الأمر بالقبض هو ذلك الأمر الذي يصدر إلى القوة العمومية بالبحث عن المتهم وسوقه إلى المؤسسة العقابية المنوه عنها في الأمر حيث يجري تسليمه وحبسه ».

وقد عرفه الفقه القانوني على أنه: « حجز الشخص لفترة من الوقت لمنعه من الفرار تمهيدا لسماع أقواله بمعرفة الجهة المختصة⁽¹⁴⁾ ».

أما المؤتمر الدولي الخامس لمنع الجريمة ومعاملة المجرمين، فقد عرّف القبض بأنه: «إجراء من إجراءات التحقيق في الدعوى الجنائية، يتضمن أخذ شخص بالإكراه تحت الحراسة لفترة زمنية وجيزة، سند من سلطة قانونية بهدف إحضاره أمام السلطة المختصة، لتأمر باستمرار وضعه تحت الحراسة، أو إطلاق سراحه ». وقد عرّفته محكمة النقض المصرية: « من المقرّر أن القبض على الإنسان إنما يعني تقييد حريته والتعرض له بإمساكه وحجزه ولو لفترة يسيرة تمهيدا لاتخاذ بعض الإجراءات ضده⁽¹⁵⁾ ».

من خلال كل هذه التعاريف والتعريف الوارد في نص المادة (119 ق إج ج) تبرز طبيعة إجراء القبض والذي يمس بالحرية الشخصية مساسا مباشرا ويسلبها، وتنصب على حرية الشخص في التنقل ولو لفترة وجيزة (الإستفاف).

2. أحكام القبض:

إن إجراء القبض باعتباره إجراء قهريا يمس الحرية الشخصية، فإنه يسند كأصل عام لسلطة التحقيق، كما أن القانون أجاز هذا الإجراء في حدود معينة لرجال الضبطية القضائية حال التلبس بالجريمة¹⁶، أي أن إجراء القبض يجب أن يكون له سند قانوني، ويجب أن تضطلع به سلطة مختصة وفي ذلك تدعيم لقرينة البراءة، وهذا واضح من خلال نص المادة (51 ق إج ج) بقولها: « إذا رأى ضابط الشرطة القضائية لمقتضيات التحقيق أن يوقف للنظر شخصا أو أكثر... فعليه أن يطلع وكيل الجمهورية بذلك ويقدم له تقريراً عن دواعي التوقيف للنظر... »

ضرورة تدعيم قرينة البراءة في إجراءات القبض في القانون الجزائري ————— أ. ع. مستاري وأ. م. ش. بودوح

من نص هذه المادة يتبين لنا أن الحجز للنظر يعد إجراء قبض حتى ولو كان لفترة قصيرة، وبالتالي؛ وجب أن يستند إلى نص في القانون وتقوم به السلطة المختصة بذلك، وله شروط محددة، كتسيب هذا الإجراء وعدم فوات مدته المنصوص عليها قانونا (48 ساعة) وإلا اعتبر حجرا تعسفيا (م 2/51 ق إ ج ح).

واضح من خلال هذا السرد مظاهر تدعيم قرينة البراءة في إجراءات القبض، حيث أن هذا الأخير لا يمكن اتخاذه إلا بعد توافر الأدلة والقرائن التي تؤكد أن الشخص المطلوب القبض عليه هو الذي ارتكب الجريمة أو له علاقة بها، كما أنه إجراء مؤقت يستمر لفترة قصيرة لحين عرض المقبوض عليه على السلطة المختصة بالتحقيق.

وفي تحديد السلطة أو الجهة المختصة بهذا الإجراء يعدّ ضمانه أساسية للحق في الحرية الشخصية، مما يؤدي إلى عدم إساءة استعمالها أو التعسف فيها. وأن في إجازة المشرع لاتخاذ هذا الإجراء في حدود مقرر قانونا فيه ضمانه أساسية للحرية الشخصية، مع ملاحظة أن هناك فرق بين القبض والإستيقاف، فهذا الأخير يعدّ تقييدا لحرية الشخص لفترة قصيرة جدا وهو ما يسمى بالقبض المادي وهو يختلف عن القبض القانوني في أنه بالرغم من تشابههما في أن كليهما يقيد الحرية الشخصية، إلا أن القبض المادي لا يعدو أن يكون مجرد تعرض الضبطية القضائية لشخص وضع نفسه طواعية واختيارا موضع الشبهات والريب الظاهرة⁽¹⁶⁾، ومع ذلك وجب أن يتخذ من طرف السلطة المختصة قانونا.

ولقد كان موضوع القبض و ضماناته موضع اهتمام كبير على المستوى الدولي والداخلي، خصوصا حقوق المقبوض عليه و ضماناته التي يتمتع بها في مواجهة السلطة المختصة بالقبض، فقد حظرت القبض على الأشخاص بشكل تعسفي، وفي حالة القبض على الشخص وجب علمه بأسباب هذا القبض والتهمة الموجهة إليه ... الخ، من الحقوق المقررة قانونا.

ويظهر ذلك من خلال:

أ. الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: المادة (09) «لا يجوز اعتقال أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفا».

ب. الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان: والتي بينت الحالات أو الشروط القانونية الواجب توافرها للقبض على المتهم في نص المادة 1/5 بقولها: «لكل فرد

الحق في الحرية وفي الأمان على شخصه، ولا يجوز تجريد الفرد من حريته إلا في الحالات التالية وطبقا للإجراءات المقررة في القانون:

أ. احتجاز فرد بعد إدانته أمام محكمة مختصة.

ب. القبض على فرد أو احتجازه بسبب عدم امتثاله لحكم صادر عن محكمة، أو لضمان امتثاله لأي التزام ينص عليه القانون.

ج. ضبط أو احتجاز فرد بغرض عرضه على السلطة القضائية أو لوجود أسباب معقولة تدعو للاشتباه في ارتكابه لجريمة ما أو في فراره بعد ارتكاب جريمة.

ح. الميثاق الإفريقي لحقوق الإنسان: اعتبرت اللجنة الإفريقية أن القبض على شخصية سياسية ما واحتجازها "وفقا لهوى رئيس الدولة"، دون تهمة أو محاكمة لمدة 12 عاما بمثابة انتهاك للحق في الحرية الذي تكفله المادة 06 من الميثاق الإفريقي.⁽¹⁷⁾

د. الميثاق العربي لحقوق الإنسان: نص في المادة (08) على: « لكل إنسان الحق في الحرية والسلامة الشخصية، فلا يجوز القبض عليه أو حجزه أو إيقافه بغير سند في القانون، ويجب أن يقدم إلى القضاء بلا إبطاء ».

ومن بين الضمانات المنصوص عليها أيضا العلم بأسباب القبض والتهمة الموجهة إلى المقبوض عليه والمنصوص عليها في المادة (2/9) من العهد الدولي لحقوق المدنية والسياسية، والمادة (2/5) من الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان.

وعلى المستوى الداخلي فإن جميع التشريعات الداخلية، أكدت على ضرورة حماية الحرية الشخصية في مواجهة الإجراءات الجنائية عن طريق وضع الضمانات الواجب توافرها عند قيام السلطات المناط بها إجراءات القبض، حيث نجد المشرع الجزائري الفرنسي في مقدمة قانون الإجراءات الجزائية في نص المادة الأولى التمهيدية والتي ورد فيها:

» III - تفترض براءة كل مشتبه فيه أو متهم طالما لم يثبت إدانته،... والإجراءات القسرية التي قد يعترض لها هذا الشخص يجب أن تتخذ بناء على قرار من السلطة القضائية أو تحت رقابتها، ويجب أن تكون لازمة بالضرورة للإجراءات، ومتناسبة مع خطورة الجريمة ولا تمثل اعتداء على كرامة الشخص (...).⁽¹⁸⁾

أما التشريعات العربية فقد أيدت وكرّست جميع النصوص القانونية العالمية والإقليمية الداعية إلى ضرورة حماية الحرية الشخصية وعدم تقييدها إلا إذا كان هناك خطر يهدد أمن المجتمع، وتم وفق شروط محددة قانونا وفي أضيق الحدود⁽¹⁹⁾، وأهم هذه الحقوق:

أ- تحديد السلطة المختصة بإصدار أمر القبض: والتي حصرتها في السلطة القضائية، وكما هو واضح في قانون الإجراءات الجزائية الجزائري من خلال قضاء التحقيق كأصل عام، وسلطة الاتهام في حدود معينة كما سبق بيانه، وأكدته المواد (2/35، 126 ق إ ج المصري)، (107 إجراءات ليبي)، (142 قانون المسطرة الجنائية المغربي).

ب- إبلاغ المقبوض عليه بأسباب القبض والتهمة المنسوبة إليه: نشير إلى أن قانون الإجراءات الجزائية الجزائري لم يشر صراحة إلى هذا الحق، إلا أنه من خلال تحليل نص المادة (52 ق إ ج) والتي نصت على البيانات الواجب توافرها في محضر سماع الموقوف للنظر، ضرورة ذكر الأسباب التي استدعت التوقيف للنظر وكذا نص المادة (110 ق إ ج)، وقد نصت المادة (35) من قانون الإجراءات الجزائية السعودي على أنه في غير حالات التلبس لا يجوز القبض على أي إنسان إلا بأمر من السلطة المختصة.... ويجب إخباره بأسباب إيقافه.

ج - حق المقبوض عليه في الاتصال بأسرته ومحاميه: نصت عليها المادة (51 مكررا 1 ق إ ج ج) بقولها: « يجب على ضابط الشرطة القضائية أن يضع تحت تصرف الشخص الموقوف للنظر كل وسيلة تمكنه من الاتصال فورا بعائلته »، كما نصت على ذلك المواد (67 من ق م ج المغربي)، (13 ق إ ج التونسي).

كما أن هناك حقوق أخرى مكفولة قانونا مثل حظر التعذيب والمعاملة المهينة، والتي نصت عليها جميع القوانين مثل المادة (40 ق إ ج المصري).

إلا أنه من بين أهم الضمانات المقررة في القبض هي تحديد مدة القبض والتي لجأت فيه غالبية القوانين العربية إلى تحديده صراحة (48 ساعة: م 51 ق إ ج ج)، (24 ساعة في قانون الإجراءات الجزائية السعودي: المادة 33)، وفي حالة الزيادة على ذلك دون مبرر قانوني أصبح القبض والاحتجاز تعسفيا.

الخاتمة

من خلال استعراضنا لهذا المقال، يتبين أن هذا الموضوع يدور حول الحرية الشخصية من حيث تحديد مفهومها وحمايتها في قانون الإجراءات الجزائية،

وتعلقها التام بمبدأ قرينة البراءة، وانتبهنا إلى أن دعم هذه القرينة واحترامها يتمثل في عدم المساس بالحرية الشخصية، وأن هذا المبدأ هو الذي يحدد الإطار القانوني لممارسة المتهم لحقوقه وحرياته، والتي تنعكس آثاره على مراحل الدعوى الجزائية منذ البداية.

وأكدنا على أن تدعيم قرينة البراءة لا تفهم على أنه وسيلة لإفلات المجرمين من العقاب، وإنما تحقيق التوازن بين حماية حق المتهم في الحرية الشخصية في مواجهة الإجراءات الجزائية وحماية المصلحة العامة.

وبما أن الإجراءات الجنائية هي إجراءات ماسة بالحرية الشخصية خصوصا إجراءات القبض، كان لا بد من تقييد هذه الإجراءات قانونا من حيث تحديد السلطة المختصة بهذا الإجراء، وبيان القدر الضروري لاتخاذها، ومتى يصبح هذا الإجراء تعسفيا، وتكريس حقوق المقبوض عليه إلى حين محاكمته، وهذا ما لمسنه من خلال استعراضنا لمعايير المحاكمة العادلة على المستوى الدولي، خصوصا حقوق المتهم قبل المحاكمة وكذا في التشريعات الداخلية خصوصا القوانين العربية (القانون الجزائري).

ونخلص إلى القول أنه لما كانت الإجراءات الجزائية إجراءات جبرية قهرية تمس بالحرية الشخصية للمتهم خصوصا إجراءات القبض، فإنه من الضروري أو الواجب تدعيم قرينة البراءة وضماناتها، والذي يقتضي عدم المساس بالحرية الشخصية للمتهم قبل الحكم بإدائته إلا في حدود معينة ومحددة قانونا، ويجب احترامها منذ بداية الاتهام إلى نهاية صدور الحكم النهائي، فإذا تم إجراء القبض من دون مراعاة لهذه الضمانات والتي أساسها تدعيم قرينة البراءة، فإن ذلك لن يوصل إلى محاكمة منصفة وعادلة للمتهم.

الهوامش:

- (1) أحمد فتحي سرور، الحماية الدستورية للحقوق والحريات، دار الشروق، 2000، ص 363.
- (2) ياسر حسن كلزي، حقوق الإنسان في مواجهة سلطات الضبط الجنائي، دراسة مقارنة، الطبعة الأولى، الرياض، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، 2007، ص 129.
- (3) محمود شريف بسيوني، الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان، المجلد الأول، الوثائق العالمية، القاهرة، دار الشروق، 2003، ص 28.
- (4) دليل المحاكمات العادلة، <http://www.edhrap.net> - <http://www.hrinfor.net>، ص 23.
- (5) أحمد فتحي سرور، مرجع سابق، ص 380.
- (6) المرجع نفسه، ص 602.

* يسود في القانون المقارن مبدآن أساسيان: مبدأ الفصل بين سلطة الاتهام وسلطة التحقيق ومبدأ الجمع بينهما، وهناك مبدأ الفصل بينهما وبين سلطة الحكم، وفي هذا الفصل أو الجمع تتأرجح ضمانات المتهم وحقه في الحرية الشخصية.

(7) السيد محمد حسن شريف، النظرية العامة للإثبات الجنائي، القاهرة، دار النهضة العربية، 2002، ص 447.

* في المملكة العربية السعودية هناك ميل واضح إلى منع منح المتهم في بعض الجرائم ضمانات احترام الحقوق الشخصية نظرا لخطورتها على سلامة المجتمع، وهذا الإجراء ليس له ما يبرره. ينظر: نايف بن محمد السلطان، حقوق المتهم في نظام الإجراءات الجزائية السعودي، دار الثقافة، 2005، ص 08.

(8) خيري أحمد الكباش، الحماية الجنائية لحقوق الإنسان، دراسة مقارنة، القاهرة، دار الجامعيين، 2002، ص 909.

(9) محمود شريف بسيوني، مرجع سابق، ص 29.

(10) ياسر حسن كلزي، مرجع سابق، ص 148.

(11) حسن يوسف مصطفى، مقابلة، الشرعية في الإجراءات الجزائية، الأردن، دار الثقافة، 2003، ص 66.

(12) السيد محمد حسن شريف، مرجع سابق، ص 468.

(13) المرجع نفسه، ص 508.

(14) ياسر حسن كلزي، مرجع سابق، ص 131.

(15) سعيد محمود الديب، القبض والتفتيش في قانون الإجراءات الجنائية، دار الكتب القانونية، 2006، ص 77.

* تقتضي حالة التلبس وجوب السرعة في اتخاذ الإجراءات قبل ضياع الدليل والآثار التي تؤدي إلى الكشف عن مرتكبي الجريمة.

(16) محمد الطراونة، ضمانات حقوق الإنسان في الدعوى الجزائية، دراسة مقارنة، الطبعة الأولى، الأردن، دار وائل للنشر والتوزيع، 2003، ص 67.

(17) دليل المحاكمات العادلة، مرجع سابق، ص 24.

(18) مدحت رمضان، تدعيم قرينة البراءة في مرحلة جمع الاستدلالات في ضوء تعديلات قانون الإجراءات الجنائية الفرنسي، القاهرة، دار النهضة العربية، ص 7.

(19) ياسر حسن كلزي، مرجع سابق، ص 156.

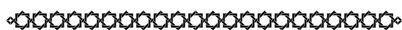
التغير الثقافي في المجتمع الصحراوي

« وادی سوف نمودجا »

بقلم

أ. د / حسان الجيلاني

قسم الإعلام والاتصال - جامعة بسكرة - الجزائر



ملخص

يعتبر التغير الاجتماعي والثقافي سنة الحياة والكون ، فكل شيء يتغير في الحياة، ولا شيء يبقى على حاله، لذلك فإن بحثنا هذا يدرس ميكانيزمات التغير ونظرياته، وطرقه، ووسائله، وعوامله، كل ذلك في تطبيقها على حالة مجتمع وادي سوف كنموذج للتغير الذي يشهده العالم في جميع مجالات الحياة، فهل التغير من ناحية نظرياته، وأساسه، وقواعده ينطبق على حالة وادي سوف ... ؟ وهل المجتمع السوفي يشهد حالة من التغير الثقافي، والاجتماعي ؟ هذا ما يحاول البحث الإجابة عليه.

Résumé :

Le changement social et culturelle c'est un principe de vie , et rien ne reste a son état , cette recherche étudie le mécanisme de changement et ses théories , et sa manière;et son facteur ,tout sa lorsqu'on l'applique sur l'état de oued souf comme modèle échantillon,on pose les question est ce que le changement et sa théorie, et ses règles , sont ils appliqués sur l'état de oued souf ...!Et est ce que la société soufi passe dans cet état de changement culturelle et sociale ...! Cette recherche essaye de répondre a ces question.

تمہد

يعتبر التغيّر سنة الحياة والكون، وقد ذهب عدد كبير من الباحثين والعلماء إلى أن الثابت الوحيد في هذه الدنيا هو التغير، فلا شيء يظل على حاله. كما اكتشف

العلم الحديث أنه حتى المادة التي كان يُعتقد بجمودها وثباتها تم التأكيد على أنها متغيرة، ومتبدلة من حال إلى آخر.

وإذا كان هذا التغير حاصل في المادة، ففي الحياة الاجتماعية يكون أكثر وضوحا.

إن الإنسان دائم التغير والتحول، وفي المجتمع الجزائري يعتبر هذا التغير صفة مميزة له، وعاملا من عوامل تطوره في بعض الأحيان.

ونظرا لاتساع هذا الموضوع وأهميته فإننا سنحصره في المحاور التالية:

أولا: تحديد بعض المفاهيم كالتغير، والثقافة، والفرق بين التغير الثقافي والاجتماعي، وما الذي يتغير في الثقافة. وأخيرا تطرقنا إلى تعريف المجتمع الصحراوي المقصود بالبحث، وحاولنا التركيز على مجتمع وادي سوف باعتباره أولا يمثل المجتمع الصحراوي أحسن تمثيل، وثانيا باعتباره يشهد تغيرات جذرية، وثالثا لم يسبق أن تناوله أحد بالدراسة والبحث خاصة من الجانب السوسيوثقافي.

كما تناولنا لمحة تاريخية عن مجتمع وادي سوف وأهم الأجناس الوافدة عليه منذ التاريخ القديم، وكيف تصاهرت ثقافات هذه الأجناس المختلفة، وتولدت عنها الثقافة الحديثة التي يشهدها المجتمع السوفي.

وأخيرا تعرضنا إلى عامل أساسي أسهم بدور فعال في عملية التغير الثقافي وهو عامل الهجرة الوافدة إلى الوادي من القطر التونسي في سنة 1962 مع استقلال البلاد. هذه الهجرة التي لعبت دورا حاسما في تغيير الكثير من عادات وتقاليد أهل سوف.

ثانيا: لقد قسمنا التغير الثقافي بدوره إلى ثلاث موضوعات هي كالتالي:

الموضوع الأول: تغير الجانب المعنوي (السلوكي)، وتناولنا فيه عادات الطعام والنوم واللباس ودورة الحياة من ميلاد وزواج ووفاة بين القديم والحديث، وما الذي تغير في هذه العادات. وحاولنا في بعض الأحيان قياس درجة هذا التغير.

الموضوع الثاني: التغير في الجانب المادي (التكنولوجي)، وركزنا على التغير الطارئ على وسائل النقل والأواني والأدوات المستخدمة في الحياة اليومية، كما ركزنا على الهوية الثقافية أو التخلف الثقافي بين الجانب المادي والمعنوي للثقافة.

الموضوع الثالث: التغير في الجانب الإستمولوجي (المعرفي)، وتناولنا فيه محور التعليم والإعلام والتراث الشعبي.

المبحث الأول : تحديد بعض المفاهيم

أولاً : التغير الاجتماعي

تذهب آراء الكثير من علماء الاجتماع إلى أن التغير الاجتماعي سنة الحياة والكون، وأنه لا شيء ثابت لا يتغير. فالحقيقة الثابتة أو المبدأ الذي ربما لا يتغير هو مبدأ التغير نفسه فهو الحقيقة الثابتة الوحيدة التي لا تتحول.

وقد عرفت الإنسانية مبدأ التغير منذ القديم حيث أدرك الإنسان البدائي بثاقب بصيرته أن الحياة تتبدل، وأنا كما قال الفيلسوف اليوناني قديما «لا نسبح في نفس النهر مرتين» لذلك فالتغير هو سنة الحياة والكون.

وقد كان هذا المبدأ شاملا لكل ما هو معروف في الوجود، فلا الجبال ولا الأراضي ولا الصخور يمكنها أن تثبت على حالة واحدة.

وقبل الخوض في تعريفات التغير الاجتماعي تجدر التفرقة بين عدة مفاهيم فقد نجد أنفسنا أمام الكثير من المفاهيم المتداخلة مع التغير *Changement*، فهناك مثلا التطور *Evolution*، والتقدم *Progrès*، والنمو *Développement*، وحول هذا الموضوع يرى بوتومور *Bottomore* بأننا نلاحظ مفاهيم التغير والتطور والتقدم والنمو تختلط في بعض الأحيان، أو يربط الفكر بينها في موضوع واحد. وكأن يحدث في حالات أخرى أن يفرق العلماء بينها، ولكنها كانت تعتبر مصطلحات مرتبطة ببعضها البعض ارتباطا منطقيا⁽¹⁾.

وعلى الرغم من ذلك فإنه يجدر بنا التفرقة بين هذه المفاهيم، فالتطور والتقدم يدلان على التحول في الاتجاه الأفضل والأحسن أي التقدم نحو الأمام، فهو تدرج من حال إلى حال أفضل منه. أما إذا انتقلنا إلى تعريف التغير وجدناه يعني تحولا من حال إلى آخر، وقد يتخذ هذا التحول أشكالا مختلفة، فقد يكون تحولا عميقا في شكل ثورة أو انتفاضة، وقد يأخذ شكلا تدريجيا فيصبح إصلاحا. وقد تطرق العلماء إلى تحليل وتفسير التغير فاختلفت الآراء وتعددت المذاهب. وسوف نتناول هذه الآراء في النقاط التالية:

1/ هناك زاويتين افتراضيتين مختلفتين تحاولان تفسير التغير (الأولى زاوية القائلين بأن مجمل المجتمعات تتوجه ضرورة نحو حالة مثالية أفضل، والثانية زاوية القائلين بأن التغير هو تراجع ونكوص)⁽²⁾.

إلا أننا نقف من هاتين الزاويتين موقف الرابط فلا نعتبر كل حالات التغير نكوصا، ولا نفرسرها على أساس التطور، فأحيانا تشكل حالة التغير تطورا وتقدما،

وأحيانا أخرى تظل مجرد تحول من حالة إلى أخرى دون تفسيرها على أساس التطور أو النكوص، وفي بعض حالاته يعتبر التغير نكوصا.

2/ لا يمكن تفسير التغير على أساس سبب مهيمن، فالكثير من الأسباب المتداخلة والمتشابكة تحدث التغير كما أن هناك أنماطا داخلية أو خارجية أو مختلطة، كما أن مسارات التغير قد تكون أحادية الخط أو دائرية أو تكرارية، ويمكن توقع حدوث بعضها كما يصعب توقع حدوث البعض الآخر منها.⁽³⁾

ومنه نخلص إلى تحديد التغير بأنه كل تحول يحدث في النظام الاجتماعي سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية معينة أو محددة، سواء كان ذلك في المجتمع المحلي الحضري أو المجتمع العام؛ فإن أي تغير يحدث لا بد أن يؤدي إلى سلسلة من التغيرات الفرعية التي تصيب معظم جوانب الحياة بدرجات متفاوتة ولم يعد التغير ظاهرة مرضية تصيب المجتمع وإنما هو ظرف ضروري ومقرر دائم الحدوث.

فالتغير هو نوع من التطور الذي يحدث تأثيرا في النظم؛ أي: يؤثر في البناء ووظائفه، وهو نتيجة عوامل ثقافية واقتصادية وسياسية تتداخل بعضها مع بعض.

إن التغير تحول يصيب النظم والقيم والمعايير السائدة لدى أفراد المجتمع، وهو نوعان: مادي ومعنوي حيث يتضمن الأخير تغير اتجاهات الناس وقيمهم وعاداتهم وسلوكاتهم.

ثانيا : الثقافة

ما يميز الإنسان عن الحيوان هو موضوع الثقافة، إذ إن الحياة الإنسانية تتميز بثقافتها والفرق الأساسي بين الإنسان والحيوان يتمثل في ذلك الفعل الذي يحاول كل منهما إشباع حاجاته عن طريقه، فيلجأ الحيوان إلى الغريزة في إشباع غرائزه، في حين يلجأ الإنسان إلى العقل وإلى الإبداع. وهي طرق تحقق له إشباع الحاجات بسهولة ويسر، وتكثر الطرق والأساليب التي ينقلها عن الأجيال السابقة والتي ينقلها بدوره إلى الأجيال اللاحقة وهذه الأساليب والطرق هي التي نطلق عليها اليوم بالثقافة.

ولذلك فهي تتميز بثلاث خصائص هي:

1. إنها اختراع واكتشاف إنساني، فليس للحيوان ثقافة، لأنه يعيش على الغريزة، فالثقافة تتميز بأنها إنسانية.

2. إنها تنتقل من جيل إلى جيل على شكل عادات وتقاليد ونظم وقوانين، وكل جيل يضيف إليها نماذج جديدة، كما قد تنتقل من وسط اجتماعي إلى آخر.

3. إنها قابلة للتعديل والتغيير، إذ يلجأ كل مجتمع وكل جيل إلى تغيير نماذجه وفق ما يحيط به من ظروف خاصة⁽⁴⁾.

كما قسم علماء الاجتماع الثقافة إلى نوعين هما: الثقافة المادية والثقافة المعنوية:

1/ الثقافة المادية : وتتمثل في كل ما يصنعه الإنسان لسدّ حاجاته اليومية، من ملابس وأسلحة وآلات ومعابد ووسائل نقل واتصال، وكل ما يخترعه الإنسان من أساليب ووسائل مادية تلبي حاجاته المتزايدة.

2/ الثقافة المعنوية : وتتمثل في الأفكار والعادات والتقاليد والقيم والعلوم والفنون والشعائر والطقوس، وحتى السحر والشعوذة، وكل ما ينتجه الإنسان من معاني وقيم ودور يؤديه في الحياة الاجتماعية. وتعتبر الثقافة المعنوية أبقي وأدوم من الثقافة المادية التي هي دائمة التحول والتغير.

ثالثاً: تعريف الثقافة

من حيث المفهوم : من العسير وضع تعريف جامع مانع للثقافة نظراً لتعقدها وشموليها والتعاريف الكثيرة التي صاغها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا ساعدت لإثراء موضوع الثقافة حيث إنها في الأخير تكمل بعضها، ونظراً لكثرة هذه المفاهيم فسوف نتوقف عند بعضها، ونحاول في الأخير الخروج بتعريف يتعلق بموضوع بحثنا:

1/ الثقافة: هي منظومة القيم الأساسية للمجتمع، وتنزع ثقافة المجتمع إلى الانتظام في مجموع عناصر منسقة، ومتتامة فالكل هو المطنح الثاني للأناسة فهذه ترى في الحياة الاجتماعية منظومة تتربط كل جوانبها ومعالمها ترابطاً عضوياً⁽⁵⁾.

2/ ولعل التعريف المناسب، والذي وجد شبه اتفاق بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، ما وضعه تايلور (1832-1917) الذي يعرف الثقافة والحضارة بأنها ذلك الكل المعقد الهائل الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والقواعد الأخلاقية والقانونية والأعراف وكل السلوكات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع⁽⁶⁾.

3/ كما قدم "فيرث" تعريفاً آخر للثقافة يقول فيه (إذا نظرنا إلى المجتمع على أنه يمثل مجموعة من الأفراد، فإن الثقافة طريقتهم في الحياة، وإذا اعتبرناه مجموعة العلاقات الاجتماعية فإن الثقافة هي محتوى هذه العلاقات، وإذا كان المجتمع يهتم بالعنصر الإنساني وبتجميع الأفراد والعلاقات المتبادلة بينهم فإن الثقافة تعني بالمظاهر التركيبية المادية واللامادية التي يتوارثها الناس ويستخدمونها ويتناقلونها)⁽⁷⁾.

4/ يعرف كل من كروبر A.I Krober وكلاكهون Klukhon الثقافة بأنها تتألف من أنماط مستمرة وظاهرة للسلوك المكتسب والمنقول عن طريق الرموز، فضلا عن الإنجازات المتميزة للجماعات الإنسانية ويتضمن ذلك الأشياء المصنوعة، ويتكون جوهر الثقافة من أفكار تقليدية وكافة القيم المتصلة بها⁽⁸⁾.

رابعا، التفرقة بين التغير الثقافي والتغير الاجتماعي

أدى عدم التحديد الدقيق للكثير من المفاهيم إلى خلط كبير بينهما. ومن ذلك نجد من يعتبر التغير الثقافي هو نفسه التغير الاجتماعي، كما أثير جدل كبير حول أيهما أوسع انتشارا وأكثر شمولية.

ولا داعي للدخول في تلك التفاصيل والجدل الطويل، ولكننا مباشرة بعد أن نقوم بتعريف التغير الثقافي والتغير الاجتماعي نستطيع أن نستخلص التفرقة بينهما. فالتحول الاجتماعي هو كل تحول يحدث في النظم والإنسان والأجهزة الاجتماعية، سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية محددة. ولما كانت النظم في المجتمع مترابطة ومتداخلة ومتكاملة بنائيا ووظيفيا فإن أي تغيير يحدث في ظاهرة لا بد أن يؤدي إلى سلسلة من التغيرات الفرعية التي تصيب معظم جوانب الحياة بدرجات متفاوتة⁽⁹⁾.

فالتغير الثقافي أشمل وأعم من عملية التغير الاجتماعي، إذ يتناول كل تطور أو تحول يحدث في عنصر من عناصر الثقافة سواء كان ذلك في الفن أو الفلسفة أو العلم أو الصناعة، كما يشمل فوق ذلك كله مجمل التغيرات التي تحدث في أشكال وقواعد النظام الاجتماعي⁽¹⁰⁾.

وعليه فالتغير الثقافي بمفهومه الواسع يعني كل تحول يحدث في ثقافة المجتمع المادية والمعنوية، فالتغير الاجتماعي يعتبر تغيرا ثقافيا، فهناك نوع من التداخل والتشابك، ولا يمكن الفصل بينهما إلا من أجل البحث والتحليل العلمي، فكل التغيرات الاجتماعية ترد إلى التغيرات الثقافية إذا اعتبرنا أن الثقافة أشمل وأعم في مفهومها من التغير الاجتماعي.

خامسا: ما الذي يتغير في الثقافة؟

ولكن ما هي أوجه التفرقة بين الأنماط الثقافية التقليدية والحديثة؟ وكيف نستطيع أن نميز بينهما؟ بمعنى: ما هي المؤشرات التي تدل عن التغير الحاصل في ثقافة المجتمع ونظمه؟.

حاول كثير من العلماء وضع مؤشرات تدل على هذا التغير، بل ذهبت بعض الأبحاث إلى محاولة تكميم هذه المؤشرات وقياسها بصورة عددية، ولكن ذلك ظل مجرد محاولات، ولعل أهم ملامح الأنماط الثقافية القديمة قبل أن يحدث عليها أي تغيير تتمثل في :

أولاً : بساطة النظام التكنولوجي واتسامه بعدم التعقيد والنمو.

ثانياً : انخفاض المستويات التعليمية والتربوية.

ثالثاً : محلية العلاقات الاجتماعية، أي: اقتصرها على داخل النسق.

رابعاً: سيادة العلاقات الاجتماعية الأولية.

خامساً: عدم توفر الرشد الاقتصادي .

سادساً: نقص القدرة على الانفتاح العقلي، أو إمكانية التعاطف مع الأدوار الجديدة.

أما الأنماط الثقافية بعد وقوع التغير فتتمثل في التجديد والنمو والرشد والتقدمية⁽¹¹⁾.

وبالإضافة إلى ذلك نرى أن التغير - كما ذكرنا سابقاً - قد يكون نكوصاً، وتخلفاً، ورجعة إلى الوراء، كما حدث بالجزائر في عقد التسعينات حيث تغير المجتمع ولكنه نكوص إلى الوراء.

سادساً: المجتمع الصحراوي

بما أن وطن الجزائر فسيح وشاسع، وبما أن المجتمع الصحراوي نفسه يختلف باختلاف موقعه، فهناك الغرب والوسط والشرق، وتسهيلاً لمهمة البحث، ونظراً لمعرفتنا بالمجتمع الصحراوي الشرقي أكثر، واحتكاكنا به، لذلك رأينا أن نركز بحثنا حول المجتمع الصحراوي الشرقي والذي يبدأ من "بسكرة" شمالاً، وينتهي إلى "وادي سوف" في الجنوب الشرقي، إلى "ورقلة" و"غرادية" و"الأغواط" في الجنوب الأوسط. كما أنني سأركز على التغير الثقافي لمجتمع "وادي سوف" حيث عاصرت الكثير من التغيرات التي طرأت عليه، وكنت في بعض الأحيان متفاعلاً مع الكثير من تلك التغيرات.

وقبل الدخول في تفاصيل التغيرات الثقافية التي طرأت على هذا المجتمع، لابد أن نتوقف عند الجانب البيئي ونعرف بموقع ولاية "وادي سوف".

أ/ البيئة الجغرافية: تقع ولاية "وادي سوف" في العرق الشرقي للصحراء الجزائرية الشاسعة، وتحدها شمالاً "بسكرة" و"خنشلة"، وشرقا كل من الجنوب

التونسي و"تبسة"، وغربا "تقرت" و"ورقلة"، وجنوبا "حاسي مسعود" و"غدامس" (الليبية).

هذا بالنسبة للموقع الجغرافي. أما إذا حاولا الغوص في المحيط البيئي ومدى تأثيره على السلوك الثقافي وخصائصه فإننا لا نبالغ إذا ذهبنا إلى أن البيئة الجغرافية الواحدة تعتبر من أكبر العوامل التي تعمل على التغيرات الثقافية، وقد تقف حائلا دون ذلك، ولن نتحدث هنا عن تأثيرها في مجالات الحياة المختلفة كالصناعة والزراعة والاقتصاد، ولكن سوف نركز على دور البيئة وتأثيرها الثقافي الذي ينعكس على سلوك الأهالي.

لقد ثبت بالأدلة أن الطبيعة تؤثر في السلوك الإنساني، وهذا الرأي قال به الأقدمون منذ أرسطو إلى غاية ابن خلدون.

كما ذهب بعض الباحثين إلى أن البيئة الجغرافية لا تسمح بإمكانية ظهور ثقافة معينة بل إنها تفرض ذلك إلى حد كبير⁽¹²⁾. وهذا ما يسمى بالحدودية الجغرافية وهي لا تقتصر على الإنسان وثقافته فحسب بل تأثيرها يتبدى حتى في الحيوانات والحشرات والنباتات، فللصحراء حيوانات تختلف في لونها، ومنظرها عن حيوانات المناطق الباردة، بل تتميز صحراء "وادي سوف" ببعض الحيوانات غير الموجودة في مناطق أخرى كالزواحف ومنها: "الشرشمان" مثلا، وبعض الطيور النادرة التي لا تستطيع العيش إلا في البيئة الجغرافية لوادي سوف.

وإذا كانت منطقة "سوف" تتميز بفصلين طوال السنة، وهما فصل البرودة الذي يقتصر على ثلاثة أشهر تقريبا، وفصل الحر الذي قد يمتد إلى تسعة أشهر؛ فإن ذلك قد لعب دورا أساسيا في التأثير على السلوك والثقافة، بل وأدى في بعض الأحيان إلى نوع من إعاقة الإبداع، وسيطرة نسبية لثقافة الخضوع والسلبية.

فالثقافة السوفية متأثرة إلى حد بعيد كما هو الشأن بالنسبة للثقافات العالمية، بالمناخ، والبيئة الطبيعية.

بل قد نذهب مع ابن خلدون في قناعاته بحدودية الظروف الطبيعية على الإنسان فنجد أنه يبالغ في ذلك حتى فاق من سبقه من فلاسفة الحدسية، فهو يربط بين الطعام والذكاء، ويفسر ذكاء بعض الشعوب إلى نوع الأطعمة التي تتناولها.⁽¹³⁾

وإذا كنا نؤيد التأثير الذي تتركه البيئة على ثقافة الشعوب وإبداعها، فإن هذه الظروف لا ينبغي أن تقف حاجزا عائقا دون التغير والتطور، فالفكر الغربي ظل يصور لنا أن سكان المناطق الحارة في إفريقيا مثلا هم أقل ذكاء من شعوب المناطق المعتدلة، وبالتالي فإن

الإبداعية تقل عند الشعوب التي تتسم طبيعتها بالحرارة الشديدة، وهذا الرأي فيه الكثير من التطرف والمبالغة، ذلك أن التجربة أثبتت أن سكان الصحراء الجزائرية "حيث تسيطر الحرارة المرتفعة صيفا" لا يقلّون ذكاء وفطنة وإبداعا عن نظرائهم سكان الشمال، بل نجد سكان الجنوب أكثر تفوقا في كثير من العلوم وفي بعض مجالات الحياة، كالتجارة التي يتفوق فيها أهل "وادي سوف" و"وادي ميزاب" (سكان غرداية).

ويردد سكان الشمال مثلا يدّل على تفوق أهل سوف على الطبيعة فيقولون: "كل آفة وخلق لها ربي آفة وحتى الرمل خلق له ربي السوافة"، وهو يدل على سيطرة أهل سوف على البيئة وتحكمهم في مسارها، خاصة تحرك الرمال، والرياح العاتية، والأمطار... الخ.

ب/الأجناس: نظرا للموقع الاستراتيجي الذي تحتله "وادي سوف" فقد تعاقبت عليها أجناس كثيرة ابتداء من البرابرة القدماء إلى الكنعانيين والوندال والعرب المسلمين والفرنسيين، وغيرهم، إلا أن الاستقرار الحقيقي شهدته المنطقة مع مجيء وفود الهلالين الذين توزعوا على أراضي "سوف" وأسسوا المدن، وزرعوا الأرض واستقرت أحوالهم، وذلك بداية من القرن الثاني عشر الميلادي.

لقد استقر الإنسان بوادي سوف منذ عدة قرون، وبدأ يصنع ثقافته على مَرّ السنين، وكان هدفه الأساسي هو التكيف مع البيئة عن طريق توفير حاجياته الأساسية من مأكّل ومشرب، وملبس ومسكن.

وعاش السوفي حيناً من الدهر معتمدا على الصيد وجمع الثمار، وكانت ثقافته تزداد عمقا ووعيا، وبدأ في تجاربه الأولية المتعلقة بممارسة الزراعة والرعي، حيث عرف الإنسان السوفي الأول كيف يقيم مسكنه الذي يقيه حر الصيف، وبرد الشتاء وقد أوصلته ثقافته إلى انجاز الزرائب وهي مساكن تصنع من أعمدة وسيقان النخيل المتوفر في المنطقة. وهنا ظهر مستوى ثقافي جديد تمكن الإنسان بواسطته من الاستقرار والانسجام مع الطبيعة، مع العلم أن الإنسان الأول الذي استوطن هذه الأرض لم يعرف الاستقرار نهائيا بها إلى زمن مؤرخ المنطقة الشهير الشيخ محمد العدواني. كما عرف المجتمع السوفي التكتل في قرى زراعية: "الزقم"، "قمار"، "حاسي خليفة"، "المقرن"، "المغير"، "جامعة"،... الخ.

وأصبحت مدينة الوادي (وادي سوف وادي ريغ) من أهم الحواضر في كثافة السكان، والعمران.

لقد تصاهرت على أراضي سوف الكثير من الثقافات بما تحمله من عادات وتقاليد وقيم وأعراف. ونستطيع أن نحصر هذه الثقافات فيما يلي:

أولاً: ثقافة البربر القدماء الذين وفدوا إلى "سوف" منذ أقدم العصور ولا زالت آثارهم موجودة إلى اليوم، فهناك الكثير من أسماء الأماكن المعروفة إلى اليوم ك: "تكسبت"، و"تاغزوت"، و"الدريميني" ... وغيرها، وحتى أسماء بعض التمور مازالت إلى اليوم مشهورة بأسمائها الأمازيغية ك: "تكرمست"، و"تفروين"، و"تفرايت" ... وغيرها.

ثانياً: الثقافة التالية التي انصهرت مع ثقافة البربر هي للعرب الهلاليين الذين دخلوا مع البربر في صراعات، ثم بمرور الزمن اندمج الجميع في وحدة، حيث استطاع البربر أن يعتنقوا الإسلام وأن يتقنوا العربية، وتصاهروا مع العرب. ومن القبائل العربية التي استقرت بوادي سوف من بني هلال نذكر منهم: "طرود"، و"عدوان"، الذين مازال أحفادهم يعيشون إلى اليوم.

ثالثاً: ثقافة الزنوج أو السود الوافدين من السودان، وليبيا، وبعض البلدان الإفريقية الأخرى.

رابعا : الاحتلال الفرنسي الذي حمل عناصر ثقافية جديدة، وإن كان اعتناقها من طرف الأهالي قليل، وانسجامها مع الثقافة السوفية ضعيف إلا أنها تركت بصمات واضحة لا يمكن إنكارها. كل تلك الثقافات تصاهرت، واختلطت فيما بينها وأنتجت ما يعرف اليوم بالثقافة السوفية التي تلاقت فيها الكثير من العناصر وتشكلت عادات أهل سوف من كل هذه العناصر والفصائل، وإن كنا نرى أن غلبة العنصر العربي الإسلامي على كل تلك العناصر أمر ظاهر للعيان فلا زالت بسوف إلى اليوم الكثير من العادات والتقاليد والقيم التي ترجع بأصولها إلى الهلاليين والفاطميين والعرب المسلمين بصفة عامة، خاصة المتعلقة باللباس وعادات النوم وتقاليده الزواج والميلاد والتداوي بالأعشاب وغيرها.

ج/الهجرة : لم تتوقف الهجرات على مر التاريخ من وادي سوف خاصة إلى تونس وليبيا والمدن الجزائرية، ولكن الهجرة التي شهدتها سوف مع بزوغ فجر الاستقلال في صائفة 1962 هي أكثر الهجرات تأثيراً في ثقافة سوف ذلك أن هذه الهجرة كانت أعمق تأثيراً للأسباب التالية :

1/ المهاجرون الذين رجعوا إلى أرض سوف وهم أبناءها وليسوا غرباء عنها فقد قضوا سنوات طويلة خارج الوطن خاصة بتونس بحثاً عن الرزق الذي ضيقه الاحتلال الفرنسي عليهم.

2/ هؤلاء المهاجرون حملوا ثقافة وعادات البلدان التي كانوا يعيشون فيها.

3/ بما أن الكثير من عادات هؤلاء المهاجرين كانت أحسن حالا من العادات القديمة لأهل "سوف" خاصة فيما يتعلق بالطبخ الطعام والتنظيف وترتيب البيت، والعناية بالأطفال. إذن فقد اعتنق أهل سوف هذه العادات الجديدة الوافدة عليهم من اللاجئين كما يطلقون عليهم .

4/ كان العامل الذي صعد من قوة التأثير أكثر هو أن العائدين كانوا ممثلين في عدد كبير جدا من العائلات والأسر، ولم يكونوا أفرادا منعزلين، وهذا ما جعلهم يتوغلون في عمق المجتمع ويؤثرون في ثقافته بقوة.

5/ كما أن إقبال المواطنين من أهل سوف على الزواج من بنات الأسر المهاجرة كان له أبلغ التأثير أيضا حيث أن الزوجات الجديديات دخلن إلى عمق الحياة الاجتماعية وغيّرن الكثير من العادات التي لم تعد مناسبة.

لقد أدت الهجرة إلى تغيير جذري في ملامح الثقافة السوفية بالإضافة إلى الاستقلال الوطني، فعودة هؤلاء المهاجرين الذين كانوا يقيمون في الكثير من المدن التونسية إلى أرض سوف، وقد احتكوا وتفاعلوا بالمواطنين، وحملوا معهم الكثير من العادات والتقاليد الجديدة، فأحدثوا تطورا في الذهنيات والثقافات السائدة، على الرغم من أنهم منذ البداية وجدوا نوعا من المقاومة والصدود، إلا أن ثقافة أهل سوف القديمة لم تلبث أن تراجعت أمام اعتناق الشباب للثقافة الوافدة، خاصة إذا علمنا أن شباب سوف في الستينيات والسبعينيات كان يقبل على النهل من ثقافة المهاجرين والكثير منهم تزوج من بنات العائلات المهاجرة، وهو ما ولد نوعا من التلاقح، والانسجام بين الثقافتين، وطور من عادات وتقاليد أهل سوف، بالإضافة إلى هجرة الكثير من الشباب إلى المدن الكبيرة للدراسة أو العمل، وعودتهم بأفكار وعادات جديدة، كما أن الكثير منهم تزوج من بنات المدن مقر العمل، وهذا ما غيّر من ثقافة أهل سوف وأدخل عليها نوعا من الديناميكية، خاصة إذا عرفنا أن المجتمع السوفي ليس مجتمعا مغلقا بل هو مفتوح على جميع الثقافات والحضارات الأخرى، بل وفي بعض الأحيان يكنّ احتراما خاصا للوافد الأجنبي أكثر من احترامه لأبناء بلده أو منطقته، وهذا ما أثار بعض الغيرة من قبل أبناء المنطقة الذين يرون الأجنبي فيها قدر كبير من الاحترام المبالغ فيه أحيانا، ويعاملون بعضهم - في أحوال كثيرة - باللامبالاة وقلة الاحترام.

وظلت الهجرات تتوافد على سوف ولكن بصورة أقل، فالولاية التي أنشئت منذ 1984 تتطلب أيد عاملة، وكذلك المؤسسات الأخرى، وكان أغلبهم من الوافدين على سوف . وإن لم يتأثروا كثيرا . فإنهم قد غيروا في بعض الذهنيات،

وأصبح أهل سوف - بفعل تلك الهجرات - عقب الاستقلال يكتسبون عادات جديدة مثل : تناول الغذاء على المائدة أو بواسطة الملاعق ونحوها كما اختفت تدريجيا كثير من العادات البدوية بفعل التغيرات الحاصلة في الثقافة .

المبحث الثاني : التغيير في الجانب المعنوي (السلوكي)

إن الحقيقة الوحيدة الثابتة في العالم هي التغير فهو مسألة ضرورية لاستقرار نمط الحياة واستمرارها.

وإن الاستقرار دون التغير يشبه محاولة المرء أن يبقى على توازنه فوق دراجة دون تحريك البدالات. وكما أن تحريك البدالات ضروري لاستقرار راكب الدراجة؛ فإن التغير ضروري للحفاظ على الأنماط الثقافية⁽¹⁴⁾، فلا يمكن المحافظة على الأنماط الثقافية واستقرارها دون تغير.

وتلعب الأبعاد السيكولوجية دورا أساسيا في عملية التنمية، فهي ترتبط بدرجة كبيرة بتغيير ذهنية الأفراد وتوفير العدد الكافي ممن يتصفون بالطموح، والرغبة في الإنجاز، والقدرة على التمسك، والتصور⁽¹⁵⁾.

إلا أن أهم عوائق التغير يتمثل في السلوك الإنساني وما يحمله من ثقافة وعادات وتقاليده، قد تقف حاجزا دون تنمية ناجحة، وآفاق مستقبلية واعدة. ولمعرفة تلك العوائق الثقافية للتنمية الاجتماعية نفصل ذلك فيما يلي:

1. يقف بعض أفراد المجتمع من الجديد بحذر كبير، فعادة ما تأتي المخططات التنموية بالجديد، وتقف رواسب السلوك القديم عائقا دون إحداث التغير المنشود، فلا جديد عندنا، ما نملكه هو قديم، وما نستورده هو الجديد⁽¹⁶⁾.

وإذا حاولنا إسقاط ذلك على ثقافة المجتمع السوفي، وجدنا أن "السوافة" حذرين من كل جديد فهم لا يقبلون على أي شيء جديد إلا بعد تردد طويل، وأخذ وعطاء. ومن ميزات الثقافة السوفية أنها تتسم بالمحافظة وقلة المغامرة، والتردد والحيلة، فهم يفسرون أي شيء جديد بتحاليل كثيرة، وتأويلات عديدة، ولا يقتنعون به إلا بعد أن تفصل التجربة في صلاحيته وجدواه، وعندما يتأكدون من منفعتهم يقبلون على اعتناقه ويصبح جزءا من ثقافتهم وسلوكهم.

والحقيقة أن الجديد ضروري كما هو الحال بالنسبة للقديم، وأن البشرية لولا الاختراعات الجديدة لما تطورت، فالجديد هو بذرة التقدم والتغير، والكامن داخل القديم، هو الخصوبة والاستمرار، والانبعاث.

2. يقف كبار السن، والمحافظين من التغير الثقافي موقف الحائل دون إحداثه ويعارضون أي عنصر جديد يدخل على ثقافتهم، وهم يمثلون العائق الأساسي لكل تغير وتطور، فقد وقف كبار السن وبعض المحافظين من التعليم الأصلي (المعاهد الإسلامية قديماً) بوادي سوف موقفاً معارضاً، لانتماء أبنائهم لمثل هذا التعليم، إلا أنهم بعد سنوات أدركوا فائدته فراحوا يشجعون أبنائهم للانتماء إليها.

3. هناك فئة تقف في وجه التغير وهي جماعة المصالح التقليدية، فإذا كانت الأحداث الجديدة تهدد عاداتهم العقلية المستقرة بالزوال، فإنهم يتصدون لها، ويعارضونها بشدة كما عارض أهل سوف "البارابول" في بداية عهده، إلا أن الكثير من الشباب كان يقتنع به بقوة فأدخله في جميع المجالات، ولما اقتنع أصحاب المصالح التقليدية بأنه لا يؤدي مصالحهم، ولا يؤدي إلى محو تقاليدهم اهتموا به وصار لصيقاً بحياتهم اليومية.

4. من المعروف أن الذين يعارضون القيم الثقافية الجديدة عادة ما يلبسون معارضتهم ثوباً منطقياً، فتراهم يبرزون معارضتهم تارة بآيات قرآنية، وأخرى بأحاديث نبوية، وثالثة بضرورة المحافظة على عادات الأجداد وتقاليدهم، وفي كل مرة يبرزون موقفهم المعارض للتغير بحجج واهية.

وهناك العديد من مجالات التغير نستطيع تناولها بإيجاز فيما يلي:

أولاً: عادات الطعام

كان أهل الصحراء يأكلون أنواعاً معينة من الطعام في الماضي وقد اختفى الكثير منها اليوم، وإذا كانت الصحراء تتميز بزراعة النخيل فإن الاعتماد الأساسي كان على ثمارها، وقد عرف أهل سوف منذ القديم بأنهم يخزنون التمور في أبنية، يطلقون عليها "الخوابي" (جمع خابية) ويظل التمر سليماً من التعفن والجراثيم في هذه الخوابي إلى وقت طويل.

ولكن التغير طرأ في نوع الأطعمة التي أصبح يتناولها المجتمع، فإذا كان التمر هو الغذاء الرئيسي خاصة في فصل الخريف فقلما تخلو مائدة منه، فإن "الكسكسي" هو وجبة العشاء الرئيسية لدى أغلب العائلات السوفية. بالإضافة إلى أن المجتمع شهد تغيراً في الأطعمة فأصبحت "المقرونة" والأرز و"المركة" والمقليات كلها أطعمة دخلت حديثاً إلى المجتمع.

ومنذ القديم عرفت "وادي سوف" عدة أصناف تقليدية من الأطعمة المختلفة؛ منها: "المطابق" التي يسمونها في بعض المناطق "المحجوبة"، ومنها "الشخشوخة" و"الدوبارة" التي انتشرت في الكثير من مناطق الوطن و"السَّقَّة"... الخ

وتلتقي المجتمعات الصحراوية كلها تقريبا في تناول مشروب الشاي الذي توارثته الأجيال الصحراوية منذ القديم وظل سائدا إلى اليوم، بالإضافة إلى المشروبات الأخرى منها التقليدي ك"اللاقمي"^(٦)، ومنها الذي دخل حديثا كالمشروبات الغازية والمثلجات والعصائر بأنواعها .

وفي المجتمع السوفي تنتشر عادة التدخين إذ إن المنطقة عرفت منذ العهود الغابرة بزراعة التبغ خاصة بناحية "قمار" وما حولها من القرى، حيث كان المنتج الذي يحتل المرتبة الثانية بعد التمور في العهد الاستعماري، ومن هذا التبغ ما يتم طحنه جيدا ويسمى "الشمة"، والذي لم يطحن جيدا يسمى "العرعار". ولا زالت أسواق الوادي تشهد انتشارا لهذه الأنواع من التبغ التقليدي، وتجد إقبالا ظاهرا عليها رغم منافسة التبغ الحديث لها .

ثانيا: النوم

نظرا لقسوة الطبيعة خاصة في فصل الحرارة إذا علمنا أن المناطق الصحراوية تعيش أغلب فصول السنة في جو ساخن حار، فلا تشهد البرودة إلا شهرين أو ثلاثة أشهر في السنة والبقية حارة. هذه الطبيعة الحارة انعكست على عادات النوم عندهم، فهم ينامون مبكرين وينهضون مع صلاة الصبح، ويعملون طيلة الفترة الصباحية إلى غاية صلاة الظهر، وعادة ما تكون بعد منتصف النهار.

ويلاحظ المرء غلق الأسواق وأغلب المحلات التجارية في فترة ما بعد الظهر، لأن أهل سوف ينامون في القيلولة، ولا يعملون في المساء، وقد يندesh الزائر من هذا السلوك حيث إن الفترة الصباحية تشهد اكتظاظا في الأسواق، ونشاطا حثيثا، بل إنك من كثرة الازدحام يصعب عليك المرور وقضاء حاجاتك، في حين تقلص الحركة بل وتكاد تنعدم في بعض الأحيان في الفترة المسائية، وكأن مجتمع "وادي سوف" يعمل في الفترة الصباحية فقط. وهذا ينطبق على الأسواق والأعمال الحرة، أما الوظائف الحكومية (البلدية، الولاية، والتعليم) وسائر المؤسسات الأخرى، فهي تعمل في الفترة الصباحية والمسائية بصورة عادية.

وعلى الرغم من أن "وادي سوف" توارثت هذا السلوك أبا عن جد إلا أن تغيره طفيف على الرغم من أن الوادي أصبحت ولاية منذ 1984، ولكن عادات النوم لم تتغير كثيرا، حيث إن هذه العادات مرتبطة بصورة كبيرة بالطبيعة الصحراوية القاسية

التي فرضت على أهلها نوعية من السلوك. من ذلك أن القيلولة للراحة والنوم، خاصة في فصول الحرارة التي تقارب ثلاث أرباع السنة، وتكاد تكون شيئاً مقدساً فقل أن تجد من يتجول في أسواق الوادي في الساعة الثانية بعد الظهر خاصة في فصل الصيف، وهذا الأمر لا يتميز به "وادي سوف" فحسب، بل إن أغلبية المدن الصحراوية تخلد إلى الراحة والنوم أثناء فترة القيلولة، وهذا تطبيقاً للمثل الشعبي القائل (اتغدى واتمدى حتى برمشة عين، واتعشى واتمشى حتى بخطوتين).

ثالثاً : اللباس

يعتبر اللباس واحداً من مظاهر التغير الثقافي الأكثر وضوحاً وبيانا، حيث إننا نستطيع عن طريق تغير لباس المجتمع أن نكتشف المدى الحاصل لهذا المجتمع من التغير وعمقه، ومدى تأثيره على الأفراد.

وقد توصل "مورو بيرجر" أثناء دراسته للمجتمع العربي إلى أنه من المعتاد أن نجد ثلاثة أنواع من ملابس الرجال في معظم المدن العربية؛ الجلاية التقليدية والزي الغربي والبيجامات المخططة التي يرتديها الشباب، أما الآن فيقل عدد الصبية التي تلبس البيجامات، إذ تقفز من الجلاية رأساً إلى الجاكيت والبنطال، واختفى الطربوش وأغطية الرأس الشرقية الأخرى اختفاء تاماً⁽¹⁷⁾.

وهذا ما نلاحظه في المجتمع الصحراوي فقد بدأت تختفي الملابس التقليدية وتحل محلها البدلات الأوربية، والفرنسية على وجه الخصوص.

وقد تميز أهل سوف منذ القديم بلباسهم التقليدي والمتمثل في "القندورة" (الجبة)، واللفحة (العمامة)، والسروال العربي (تفرقة بينه وبين السروال الغربي)، وهو عادة ما يكون متسعاً، وتسهل الحركة داخله، وقد حاول الفرنسيون إدخال ملابسهم من بدلة، وقبعة، وأحزمة، ولكنها وجدت معارضة كبيرة من طرف الأهالي، ولعل أول الملابس الغربية التي فرضت على أهل المنطقة بالقوة تمثلت في الملابس العسكرية، ففي زمن ثورة الشيخ الهاشمي الشريف عامي 1917-1918م حيث تم تجنيد الشباب بالقوة وفرضوا عليهم الملابس العسكرية، وقد شعر الكثير منهم بالغربة داخلها، وها هو أحد الشعراء يصف ذلك في قوله:

بعد اللي زَاهُوا الأيام غَرُّوا بِنَا * * * لَيْسَتْ الطَّوِيلَةُ وَدِرْتُ حَرَمِيَّةً

وهو كناية على أنهم غزروا به فلبس السروال الطويل، وارتدى الحزام رغماً عنه.

وظل الصراع قائماً بين اللباس التقليدي للمنطقة واللباس الوارد من المستعمرين، وقد رفض الكثير من الأهالي ارتدائه، وبعد الاستقلال، ونهوض المدينة من حالة

الركود. تغيرت الملابس، وصار أغلب الشباب مقتنع بالملابس الواردة من الغرب كالبدلة والسروال وربطة العنق وحتى القبعة، حيث تغيرت ملابس المجتمع السوفي بعد الاستقلال، ولم يعد السروال مجلبة للسخرية كما كان في العهد الاستعماري .

كما تغير اللباس النسائي فلم يعد "الحولي" محل عناية بل أصبحت المرأة السوفية تتقلد بالملابس العصرية كالفساتين الجميلة، والكعب العالي، ولم يعد ذلك مثار سخرية أو استهجان.

لقد تغيرت ملابس أهل "سوف" كما تغيرت ملابس أهل الصحراء الشرقية بصورة عامة، فلا نجد في بسكرة اليوم من يرتدي "القندورة" والسروال العربي، والعمامة إلا نادرا من البدو الذين يزورون المدينة من القرى المجاورة، كما اختفت العمامة وأغطية الرأس التقليدية وحل محلها "الشابو"، والقبعة خاصة بين الشباب.

والحقيقة أن الملابس التقليدية لم تختف تماما فالرجل السوفي يرتدي القندورة والسروال العربي والقميص في بيته، وفي أوقات الراحة خاصة في فصول الحرارة، ولكنه عندما يذهب لقضاء حوائجه فإنه يرتدي الملابس العصرية كالبدلة والقميص والسروال و الحذاء العصري المستورد من دول الغرب.

أما المرأة السوفية فهي أيضا ترتدي الملابس التقليدية في البيت، ولكن عند خروجها ترتدي الملابس العصرية، ولكن في السنوات الأخيرة وعند انتشار الحجاب الإسلامي فإن أغلب النساء صرن يرتدينه، وقد وُحِدَ الحجاب الإسلامي كل نساء الوطن الجزائري من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، بل عمل على توحيد الأمة الإسلامية كافة.

رابعا: دورة الحياة

أ/ الميلاد : الكثير من العادات المرتبطة بظاهرة ميلاد الأطفال تغيرت وتبدلت إلى عوائد وطقوس أخرى، فقد كانت الولادة تتم في البيت قديما، ولم يعرف المجتمع الصحراوي الولادة بالمستشفى إلا حديثا، كما تبدلت العوائد المرتبطة بذلك، فلم تعد القابلة التقليدية تؤدي دورا في عملية الولادة ولا حتى أم الزوج، حيث صار المستشفى يؤدي ذلك الدور.

وهذا لا يعني أن كل المجتمع الصحراوي يعرف هذه الطريقة الحديثة في عملية الولادة، فما زال البدو خارج المدن، يعملون بتقاليد الولادة القديمة، والتي تتم في البيت عادة. وبعد الولادة تعود الزوجة إلى البيت من المستشفى رفقة أمها وأم زوجها إن كانتا موجودتين، وبعض الأقارب الآخرين كالعمة والخالة وتقيم أم

الزوجة مع ابنتها لمدة أسبوع أو أكثر، حيث تدربها على كيفية رعاية الطفل وإرضاعه وتنظيفه.

كما تقوم الأم بتحضير بعض الحلويات والمرطبات "كالبسيسة" للضيوف الذين يتوافدون على الزوجة للتهنئة بالمولود، وعادة يقوم الوافدون بتقديم هدايا للزوجة مثل الملابس للرضيع، أو نقود أو أشياء أخرى. وهذه العادة لم تتغير كثيرا إذ حافظ المجتمع الصحراوي عليها إلى يومنا هذا ولكن الذي تغير فيها هو موضوع الهدية فقد كانوا قديما يهدون البيض، والدجاج واللحم والحمام والخضر وحليب المعز، ولكن حاليا أصبحت الهدية تتمثل في ملابس الرضيع أو النقود أو المرطبات. وبعد مرور أسبوع على ميلاد الطفل ينظم احتفال يستدعى إليه جميع أفراد العائلة والأقارب والأصدقاء وهو يسمى باحتفال "اليوم السابع"، وفي "وادي سوف" يتم تقديم كسكسي "النافس" وهو عبارة عن ثريد باللحم و"الكابو" يخلط مرقه بالحلبة والكثير من "الحشاوش" الأخرى (أعشاب طبية، بهارات ...) و"الدهان" (سمن حيواني) وغيره، وهي نفس الأكلة التي تتناولها المرأة أثناء مرحلة النفاس.

وعلى الرغم من التطور الحاصل في ثقافة المجتمع إلا أن بعض العادات القديمة مازالت سائدة إلى اليوم، ومنها تفضيل الذكر عن الأنثى، فبعض العائلات تنحز الذبائح بميلاد الذكر، ولا تكاد تفعل مع ولادة الأنثى.

كما أن هناك عادة قديمة تتمثل في أن سرّة المولود يتم وضعها في قطعة قماش ويحفرون لها حفرة صغيرة بقرب المسجد يدفنونها هناك، أو بالقرب من المدرسة وذلك تيمنا بوصول المولود إلى المدرسة أو حفظ القرآن الكريم.

ب/ الزواج : كما تغيرت عادات الزواج، فقد كانت الأسرة قديما تعيش مع امتداد أفرادها، والتي تجمع بين الجدود والآباء والأحفاد، وتغيرت في السنوات الأخيرة بسبب ضيق المساكن وازدياد الكثافة السكانية وكذا البطالة المتفشية في أوساط المجتمع بنسبة كبيرة تتجاوز 70 %. فقد أصبح الزوج والزوجة يعيشون في بيت مستقل، وقبلما نعرثر عن الأسر الممتدة في مجتمع وادي سوف، ولكن بقايا الامتداد يمكن أن تلاحظ حيث يعيش الوالد مع ابنه في حال كبره وعجزه، كما تعيش الأم مع ابنتها في حال عجزها أو وفاة زوجها. إلا أن أغلب العائلات تعيش بمفردها وتتم تقاليد الزواج وفقا للمراحل التالية:

1/ مرحلة التعارف: في البداية تتم الخطوبة حيث تختار عائلة العريس امرأة من أقاربها أو من الجيران، ويقوم العريس بلقاء خطيبته ويفرد بها صحبة محرم، ويتم خلال أول لقاء تبادل وجهات النظر واختيار كل واحد للطرف الآخر. ثم تتكرر

اللقاءات، وعادة ما يمنح الخطيب مبلغا ماليا محترما يتجاوز الخمسة آلاف دينار جزائري، خلال اللقاء الأول إذا أعجبته الخطيبة، ووافق على الارتباط بها .

2/ مرحلة الخطوبة : بعد أن يوافق الطرفان على الارتباط ببعضهما تتم الخطوبة بشكل رسمي، وهناك عادة انتقلت إلى المجتمع السوفي من مدن الشمال وهي (الخاتم)، فلم يكن العروسان يعرفان هذه العادة قديما، ولكنها حاليا انتشرت في جميع الأوساط، وأصبحت من مراسيم الزواج.

وكما أن الشيء الذي تغير من الماضي إلى الحاضر هو عنصر ثقافي جديد يتمثل في القيمة المالية التي يدفعها العريس إلى خطيبته، ففي القديم كان العريس هو الذي يتكفل بتجهيز عروسه من جميع النواحي (الملابس، الحلي، الفراش)، وحتى الخضر والفواكه، من جميع لوازم العرس الأخرى، إلا أنه طرأ تغيير في هذه العادة حيث صار العريس يمنح مبلغا ماليا لعروسه لتقوم بتجهيز نفسها وتشتري ما تراه مناسبا لها.

وإذا كان المجتمع الحضري وفي قسنطينة بالذات يتم عملية تحديد القيمة المالية (الشرط) التي يدفعها العريس ما بين الطرفين، وفي بعض الأحيان تصبح كأنها عملية مزيدة ومناقصة (أهل العريس ينقصون، وأهل العروس يطالبون بالمزيد)، فإن مجتمع "وادي سوف" ترك أمر تحديد القيمة المالية للعريس حسب مقتضيات الحال ودرجة اليسر حيث يتم تحديد المبلغ من طرف أهل العريس دون تدخل من أهل العروس.

وبعد ذلك يدفع العريس المبلغ الذي باستطاعته دفعه إلى عروسه لتجهز نفسها كما أنه خلال مرحلة الخطوبة يقوم بالنفقة على خطيبته، فيجزل لها العطاء حسب قدرته، طبعا في مختلف المناسبات فإذا حل العيد أهدى لها الفساتين والعطور اللائقة به، وهكذا تقام الزيارات بين العائلتين في كل المناسبات .

المبحث الثالث : التغيير في الجانب المادي (التكنولوجيا)

تمهيد:

إذا كنا لا نلاحظ التغيرات الحاصلة في الأنماط الثقافية بصورة جلية واضحة، فالتغير الحاصل في الجانب التكنولوجي يعد واضحا وأكثر تميزا.

فقد عرفت الإنسانية على مَرِّ تاريخها الطويل الكثير من التغيرات التي طرأت على الجانب التكنولوجي، وأدت بالتالي إلى تغير الأنماط الثقافية. فاختراع الأقمار الصناعية أدى إلى ربط العالم ببعضه، واختراع الإنترنت ووسائل المواصلات الحديثة وما إليها كلها جعلت من العالم قرية صغيرة، وأدت إلى تغيرات جذرية في الأنماط الثقافية التقليدية. فالتغير الحاصل في العامل التكنولوجي كما يوضحه

(ماكيفر) عمل على تضيق في النظم والأفكار وانحطاط في الشعائر، وتقدم المنهج النفعي والعلماني في معالجة الطبيعة وفصل الحياة الثقافية مما يحددها بطرق العلم والتكنولوجيا والنمو في درجة الجماعية، أو التأثير والاستقلال الإنساني⁽¹⁸⁾.

وإذا حاولنا حصر التغيرات الحاصلة في الجانب التكنولوجي وأثرها في ثقافة المجتمع الصحراوي فإننا نوجزها في ما يلي :

1/ وسائل النقل: لم يعد الحمير والجمال والبغال من وسائل النقل في المجتمع الصحراوي، فقد شهدت العقود الأربعة الأخيرة تغيرات جذرية في وسائل النقل، فقد دخلت السيارات وربطت القرى النائية والمداشر البعيدة عن بعضها البعض وخلقت جوا من العلاقات الاجتماعية بين مختلف أنحاء القرى والمدن. وصار اليوم بإمكان الأستاذ مثلا أن يدرس بجامعة بسكرة ويتنقل في اليوم نفسه إلى التدريس في جامعات أخرى بعيدة عنها بعشرات الكيلومترات، كما أصبح باستطاعة أعضاء المجالس البلدية والولائية أن يجتمعوا بمقر ولايتهم التي تبعد عن إقامتهم بمئات الكيلومترات، وأن يطرحوا مشاكل بلدياتهم ويعودوا إلى بيوتهم في اليوم نفسه.

2/ وسائل الاتصال : وعلى مستوى الاتصال بالأقمار الصناعية جعلت من العالم قرية كبيرة، فما يحدث حاليا في الصين أو الهند أو فلسطين يطلع عليه أبسط مواطن في أي قرية نائية، وهذا لاشك أن له تأثير عميق على أهم العناصر الثقافية التي يتكون منها المجتمع الصحراوي.

وكذلك نجد الإنترنت الذي غزا القرى والمداشر، وقد وفر الكثير من المعلومات، وعمق في ثقافة المجتمع، فصار الطالب اليوم يستعين بالمعلومات الواردة فيه لإنجاز أي بحث يفيد.

كما لعبت الإذاعات المحلية أدوارا بالغة الخطورة في التأثير على المجتمع، فحاولت إحياء تراثه وعرفت الناس بمشاكلهم، وحاولت أن تنسق الجهود وتوحد الأفكار والثقافات، وتطلع العامة بما يدور حولهم من أنشطة وأعمال ثقافية مختلفة، كما كان لترويج السلع، والإشهار والتعريف بها دور لعبته الإذاعات المحلية بعناية فائقة إلا أن هذا التغير، والعناصر الجديدة الوافدة من ثقافات أخرى لا شك أنها تلقى معارضة شديدة من قبل المجتمع أو بعض الجماعات فيه في بداية انتشارها .

وفي عهد الاستعمار الفرنسي عارض أهل سوف ارتداء البدلة costume واعتبروها تمثل الكفار فقط، إذ إن الأهالي كانوا يرتدون "القندورة" أو "القشاية" و"البرنوس"، ولكنها بعد سنوات طويلة واعتناق الشباب لها صارت من العناصر الثقافية المقبولة عندهم.

ولا شك أن الأفكار الجديدة ستلقى معارضة شديدة خاصة فيما يتعلق بالإبداع والابتكار، وسوف يتعرض أصحابها إلى الاستهجان والسخرية بل وحتى العقاب النفسي والبدني.

3/ تغير الأدوات والأواني المستخدمة في المطابخ وإعداد الطعام وتناوله وحفظه، فقد أدخلت على المجتمع الصحراوي خلال الأربعة عقود الأخيرة الكثير من الأدوات والأواني المختلفة الأشكال والأنواع مما أثر على نوعية الأطعمة، وأصبحت مختلفة عما عرفته هذه المجتمعات في العهد الاستعماري، فإذا كان "الطاجين" المصنوع من الطين، والقدر المصنوع من الألمنيوم وغيره من الأدوات التي كان المجتمع يستعملها لإعداد غذاءه اليومي، وإذا كان المجتمع يخزن الخضضر والفواكه في الأماكن الباردة، نوعاً ما وقد يبلل بعض الخرق يضعها فوقها لكي لا تتعفن بفعل درجة الحرارة، وكان الماء يحفظ في القرية، والزير، والقلة، فلم يعد أثر لكل ذلك في السنوات الأخيرة فقد صارت الثلاجة هي الحافظة لكل الخضضر والفواكه واللحوم، وصار الماء البارد في متناول جميع أفراد المجتمع في كل مكان يقصدونه، فقد انتشرت حنفيات لتبريد المياه في كل الأسواق والساحات العامة خاصة في فصل الصيف.

وأغلب العائلات تستعمل اليوم أحدث آلات الطبخ من فرن كهربائي وعصارات، وآلات لفرم اللحم وطحن القهوة، كما احتلت الثلاجة صدر البيت فلم يعد هناك بيت صحراوي لا توجد به ثلاجة. أما المكيفات الهوائية ففرغ انتشارها الكبير إلا أنها ظلت حكراً على العائلات الثرية، وبعض متوسطي الحال، ولم يكن في وسع الفقراء اقتناؤها إلا بعد أن انخفض سعرها في السنوات الأخيرة.

ـ الهوية الثقافية (أو التخلف الثقافي)؛

إن التغيرات الحاصلة في الأدوات والآلات التكنولوجية كان انعكاسها واضحاً على ثقافة المجتمع الصحراوي، فقد عملت على التغير في الحياة القائمة والبناء الاجتماعي والنظم والثقافة السائدة، إلا أن ذلك لا يعني أن تساير الثقافة في جانبها المعنوي كل التغيرات الحاصلة في الجانب المادي والتكنولوجي، فالمجتمعات النامية بصورة عامة تعاني من التخلف الثقافي، بين جانبي الثقافة المادي والمعنوي، فالذي نلاحظه أن التقدم التكنولوجي كان أكثر سرعة في تغييره من التقدم الحاصل في القيم والثقافة، وهذا ما جعل هذه المجتمعات تعاني من هوة ثقافية.

وهذا التخلف ظاهر للعيان، فالكثير من المظاهر التي تصادفنا في مناسبات عديدة، فمثلاً الرجل الذي يركب أرقى أنواع السيارات، ويقودها مع كثير من التهور، وإذا تعطلت لأي سبب عاجز عن إصلاحها، هذا الرجل متخلف، وإذا

أخذها إلى ميكانيكي فشل هو الآخر في علاجها؛ لأن ثقافة المجتمع المعنوية لم تسير الجانب المادي والتكنولوجي.

فالمجتمع الصحراوي قد يتقبل أفراده أي مخترع جديد أو آلة أو أي أداة يتم صنعها في أوروبا، ولكنه سوف يعارض أي فكرة أو قيمة أو عنصر ثقافي وارد من الغرب. والتطور الحاصل في الجانب التكنولوجي وتخلف الجانب الثقافي خلق نوعا من التفكك وعدم الانسجام بين الإنسان والتكنولوجيا، وأدى إلى الكثير من الآثار التي نشهدها اليوم في المجتمع الصحراوي. منها أن هذه المخترعات أدت إلى تقييد حرية الإنسان، وبذلك يصبح المواطن ليس أمامه سوى ما يقدمه له التطور التكنولوجي، وإذا حصل هذا فإن سعادة الإنسان قد ارتبطت بتكنولوجيا معينة، وربما يكون ذلك مصدر شقاء أكثر منه مصدر سعادة⁽¹⁹⁾.

وفعلا فهناك الكثير من الأمثلة التي تدل على تبعية الإنسان لآلته، فذلك الذي يستعمل الناسخة وقد يرتبط رزقه اليومي بها فإذا تعطلت فإن رزق عياله يصبح مهددا، وكذلك الحال بالنسبة للكثير من الأمور الأخرى التي يرتبط فيها الإنسان بالآلة فتصبح حريته مهددة وفي كثير من الأحيان يصير تابعا للآلة وليس العكس.

فالمكيفات الهوائية المنتشرة في ربوع الصحراء وخاصة في المدن الكبيرة كـ "بسكرة" و"وادي سوف" و"ورقلة" و"الغواط" و"غرداية" كلها جعلت من الإنسان تابعا، لها فلو تعطلت عن العمل في فصل الحرارة؛ فإن الإنسان يضيع بعد أن ارتبطت حريته بها ويصير مقيدا لها، لا يستطيع فككا من تأثيرها السحري. ولو تأملنا أجدادنا كيف كانوا يعيشون في الصحراء بدون هذه التجهيزات، لأفزعنا الواقع الذي نعيشه حيث أصبحت حياتنا وآمالنا وحتى إبداعاتنا مرتبطة بهذه التكنولوجيا اللعينة. فأين هو نصيب الحرية الذي أصبحنا نتمتع به وقد أدت الآلة إلى تقليصه إلى أبعد الحدود.

المبحث الرابع : التغير في الجانب الاستمولوجي (المعرفي)

تمهيد

يعتبر التغير الحاصل في الجانب المعرفي بالغ الأهمية؛ لأنه يرتبط بالجانب المعرفي ومدى التطور الحاصل فيه. وسوف نتناول هذا الجانب من ثلاث زوايا وهي: التعليم، الإعلام، والتراث الشعبي.

1/ التعليم: شهدت مدن الصحراء الشرقية نهضة تعليمية معتبرة، وارتفعت نسبة المتعلمين أضعافا، ففي عقد الستينيات مثلا لا نجد في "وادي سوف" إلا متوسطة

واحدة وهي إكمالية ابن باديس، وحوالي أربعة مدارس ابتدائية، ولا وجود لثانوية واحدة. وتطور قطاع التعليم خلال العقود الثلاثة، فبلغ عدد المؤسسات التعليمية في إحصائيات 99/98 إلى حوالي 375 بين مدرسة ابتدائية وإكمالية و ثانوية ومتقنة، كما وصل عدد المتدربين للسنة الدراسية 2000/99 في مختلف المراحل المذكورة آنفاً بين إناث وذكور إلى 158580 تلميذ منهم 74132 أنثى.

وهذا يدل على أن نسبة تعليم الإناث تقارب النصف أي أن هناك تساوي بين تعليم الإناث والذكور²، وهذا يدل على ارتفاع الوعي وانتشار التعليم في كل الأوساط.

وإذا حاولنا أن نجري مقارنة بين عدد السكان وعدد المتعلمين وجدنا أن النسبة قد ارتفعت.

2/ الإعلام: من المعلوم أن المجتمعات الصحراوية كان أفرادها يلتقون قديماً بالأسواق الأسبوعية والمساجد وحتى المقاهي ويتبادلون المعلومات والمعارف التي تخصهم، وكانت تلك الأسواق بمثابة المنتديات التي يتعارف خلالها الأشخاص ويتناقلون الأخبار، ولم يكن التلفزيون قد انتشر بعد، فكانت الإذاعة غير مسموعة إلى حد كبير في عقد الستينات.

وكان إعلان الزواج والوفاة والضياع عن أي شيء مهم يتم بواسطة شخص يسمونه "البَراح" فينتقل إلى الأسواق والأماكن التي يتجمع فيها الناس بكثرة ويقوم بالضرب على الطبل ونشر الإعلان الذي يردده بصوت مرتفع، حيث يصل إلى أقصى المدينة فكان "البراح" بمثابة الإذاعة المتنقلة التي تخبر الناس عن كل الأمور التي ينبغي إشهارها وإعلام الناس بها، إلا أن هذه الصورة تغيرت حيث اختفى "البَراح" من الأسواق وحلت محله وسائل الاتصال الحديثة كالتلفزيون والإذاعات المحلية التي أصبحت متتدى للثقافة والإعلان، ونشر المعرفة.

وأدت هذه الإذاعات دوراً كبيراً الأهمية في تطوير الوعي الثقافي وتغيير الكثير من العادات والتقاليد والقيم.

ونظراً لانتشار الصحافة المكتوبة خاصة الحرة منها؛ فقد عملت على تغيير الكثير من الذهنيات، وكان للإعلام الآلي والإنترنت والأقمار الصناعية وانتشار الهاتف النقال دور في تغيير الأنماط الثقافية وإدخال الكثير من عناصر الثقافة الحديثة على العادات القديمة فكان تغييرها أمراً لا مفر منه.

إذاعة "سوف": كسائر الإذاعات المحلية التي انطلقت في البث منذ بداية عقد التسعينيات، فإن إذاعة "سوف" تم تدشينها في 21/نوفمبر/1996 وبدأت البث بأربع ساعات يوميا ثم تطور البث إلى ثماني (08) ساعات ابتداء من 5 جويلية 1998.

كما أن المساحة البث المغطاة تطورت من عشر كيلومترات إلى أكثر من المائة، أما برامجها فهي متنوعة منها الأخبار المحلية، وقضايا المجتمع، والإرشاد الفلاحي، وأحداث الأسبوع، وفي رحاب القانون، والملف الطبي، والواقع الثقافي. بالإضافة إلى اللقاءات والحوارات التي يجريها فريق الإذاعة مع المسؤولين، والمثقفين.

وتعدّ إذاعة "سوف" مثالا للنشاط الثقافي فهي مصدر إشعاع، وقلعة حصينة للكثير من المثقفين، واستطاعت أن تثير رغبة المجتمع في المشاركة، وأثارت درب الكثيرين بنصائحها العلمية، ومواقفها العملية.

هكذا عملت الإذاعة المحلية على نشر الوعي الثقافي وفي أغلب الأحيان كانت تعمل على تصحيح الكثير من القيم التي توارثها الأبناء عن الآباء، كما أدخلت العديد من القيم الجديدة على ثقافة المجتمع كالقيم الصحية والثقافة القانونية والوعي الاجتماعي.

3/ التراث الشعبي: لقد عملت الأجيال المتعاقبة على تراكم معرفي كبير خاصة فيما يتعلق بالشعر الشعبي والقصة، والأمثلة والحكم، وعبر العصور المختلفة تميزت الثقافة الشعبية بوادي "سوف" بالكثير من الخصائص والمميزات التي جعلتها تحتل صدارة الثقافات الشعبية على مستوى المجتمعات الصحراوية.

ولعل أسباب ذلك تعود إلى أن أهل "سوف" عرفوا منذ القديم بأنهم مولعون بالغناء والحكايات، والأساطير وخاصة قصص البطولات كقصة أبي زيد الهلالي وخليفة الزناتي حتى أن خليفة هذا سميت باسمه مدينة كبيرة هي بلدية "حاسي خليفة" وتقع في شرق مدينة الوادي حيث تبعد عنها بحوالي 30 كلم في اتجاه الحدود التونسية.

وقد دأب أهل سوف على الاستمتاع بالحكايات الشعبية حتى أن أسواقهم لا تخلو من المداحين الذين يسردون قصص البطولات من معارك على بن طالب إلى مغامرات الهلاليين، وعادة ما يتجمهر الشباب بكثافة لسماع هذه القصص من المداحين الذين يحكونها بأسلوب جذاب بمرافقة الطبل والكنمنجة، وقد رسبت هذه الطريقة أسلوب الحكايات الشعبية، وإن كانت قد شهدت في السنوات الأخيرة انحسارا بسبب التطور التكنولوجي، وانشغال الناس، وزيادة الكثافة السكانية، إلا أن الوسائل الأخرى حلت محل طريقة السرد هاته، كالتلفزيون والهوائيات المقعرة

وغيرها من وسائل الاتصال، وعن طريق إذاعة سوف أصبح المواطن يستمع إلى الأشعار الشعبية من أفواه مؤلفيها مباشرة .

- الهوامش :

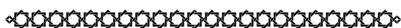
- (1) صلاح الجوهري وآخرون، ميادين علم الاجتماع، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1974، ص 302.
- (2) خليل أحمد خليل، المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، الطبعة الأولى، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1984، ص 74.
- (3) نفس المرجع، نفس الصفحة.
- (4) نخبة من الأساتذة المختصين، معجم العلوم الاجتماعية، تصدير ومراجعة إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بالاشتراك مع اليونسكو، 1975، ص 200.
- (5) خليل أحمد خليل، مرجع سابق، ص 84، 85.
- (6) Joseph Sumpf et Michael Hugues, Dictionnaire de sociologie, librairie la rousse, Paris, 1972 p75.
- (7) محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص 111.
- (8) : Joseph Sumpf et Michael Hugues .opcit P75.76.
- (9) مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975، ص 188.
- (10) معجم العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص 165.
- (11) نبيل السالوطي، علم الاجتماع ، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1978، ص 14 .
- (12) عاطف وصفي، الانثروبولوجيا الثقافية، بيروت، دار النهضة العربية، 1971، ص 102.
- (13) محمد الفراء، نظرية الختمية عند بن خلدون، مجلة الجيل، العدد 12، ديسمبر 1983، ص 32.
- (14) مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص 151.
- (15) عادل مختار الهواري وآخرون، قضايا التغير والتنمية الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998، ص 184.
- (16) علي زيعور، التحليل النفسي للذات العربية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983، ص 31.
- (*) اللاقي: عصير يستخرج من لب النخيل .
- (17) مورو بيرجر، العالم العربي اليوم، ترجمة محيي الدين محمد، دار مجلة شعراء، بيروت، 1963، ص 340.
- (18) ماكيفر، المجتمع، ص 479.
- (19) أبو بكر مصطفى بعبرة، بعض مشكلات نقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة إلى الدول النامية، نقلا عن : على الحوات، نقل التكنولوجيا والمجتمع، كلية التربية، جامعة الفاتح، 1981، ص 109.
- (**) أذكر أنه في سنة 1968 عندما كنت أدرس بالمعهد الإسلامي وكان عدد تلاميذه يتجاوز 500 كانت تدرس معنا فتاة واحدة فقط وكنا في أوقات الراحة نحوم حولها ولا نصدق أن فتاة تدرس معنا فعلا.

العلاقة بين المنظومة التربوية والتنمية في الجزائر

بقلم

أ/ عبد الباسط هويدي

قسم علم الاجتماع - معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية
المركز الجامعي بالوادى



ملخص

سنحاول في هذا العرض تسليط الضوء على مكانم الضعف في النظام التربوي الجزائري، ومن ثم نخلص إلى استنتاج الانعكاسات السلبية لضعف هذا النظام على التنمية في الجزائر.

حيث إن هذه الدراسة ستركز على النقاط التالية:

1. أسباب عدم التوافق بين مخرجات المنظومة التربوية ومتطلبات التنمية.
2. مشكلة تكوين الإطار التعليمي وكفايتها لمستلزمات العملية التربوية وكذا نوعية هذه الأطارات.
3. إشكالية البحث العلمي وربط التعليم بالواقع والتعاون بين مراكز البحث والجامعات من جهة وسوق العمل من جهة أخرى.
4. النقائص المتكررة في معظم تجارب إصلاح المنظومة التربوية.
5. إشكالية الإهدار البشري والمادي (التسرب المدرسي، الفشل الدراسي).

Abstract

During our Essay, we shall usher light on the drawbacks of Algerian education system and its negative repercussions on the development of Algeria.

We shall focus on the following:

- 1- Non-concord between Education system , and development needs (causes and effects)
- 2- Education staff training, availability and qualifications.
- 3- Scientific research and its relation to society. Cooperation between research centres and universities on one part, recruitment market on another.
- 4- Frequent drawbacks of the Educational system reform efforts
- 5- Human and financial resources repeatable exhaustion.

مقدمة

لقد أصبح من المعترف به لدى الجميع اليوم، أن المشكلات والقضايا التربوية والثقافية كمحو الأمية وإنشاء وتطوير التعليم، وتغيير الاتجاهات الثقافية لمجتمع ما، يؤثر بطريقة إيجابية في مجالات التحولات الاقتصادية والاجتماعية. وفي هذا الصدد يرى "آرثر لويس" أن فشل أي سياسة تنموية يرجع إلى قلة التعليم وانتشار الأمية، ويرى أن التطور الذي أحرزه الاتحاد السوفيتي سابقا في أقل من نصف قرن يرجع إلى الاستثمارات الضخمة التي أنفقت على التعليم⁽¹⁾.

إن التربية والتعليم هما مفتاح التنمية ومفتاح التحديث، والانطلاق الاقتصادي لسبب أصبح بديها هو أن التنمية تعدّ وتدرّب العصر البشري الذي يضطلع بأعباء التنمية والتحديث. ومن هنا أصبح التعليم عنصرا من عناصر الاستثمار يدخل في كل قطاعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وترتب على ذلك أنه كلما زادت مخصصات التعليم من الميزانية العامة للدولة كان معناه زيادة نسبة الاستثمار في القوى البشرية لمختلف نواحي الإنتاج.

ويمكن أن نجمل نقاط الضعف التي تعاني منها المنظومة التربوية الجزائرية والتي كان لها بالغ الأثر على التنمية في خمس نقاط أساسية:

1. تأثير عدم التوافق بين منجزات المنظومة التربوية ومتطلبات التنمية:

ويتجلى ذلك في نقطتين أساسيتين:

. انفصام العلاقة بين المنظومة التربوية وباقي قطاعات التنمية.

. عدم التوافق بين الاختصاصات الموجودة بالجامعة ومراكز التكوين ومعاهد التكوين من جهة ومتطلبات سوق العمل من جهة أخرى، فلقد أفرزت التجربة التنمية الجزائرية نقصا كبيرا على صعيد تنمية القوى الإنتاجية، وهو ضعف التكامل بين التعليم والتكوين من جهة ومتطلبات التنمية من جهة أخرى، وأحدث ذلك اختلالات توازنية متفاوتة الحدة بين العرض المتاح من الأيدي العاملة المتكونة، وطلب القطاعات الاقتصادية والاجتماعية في مختلف التخصصات⁽²⁾.

وكان لابد لنفادي هذا الضعف من التخطيط للقوى العاملة الذي يعتبر نقطة ارتكاز أساسية للتوفيق بين أهداف المنظومة التربوية ومتطلبات التنمية، بل هو حلقة الوصل الأساسية بينهما.

كما أننا لو أردنا تقييم الهيكل الوظيفي في المجتمع الجزائري لوجدناه شأنه شأن المجتمعات النامية الأخرى على شكل هرم ممزق الصورة، قاعدته عريضة من العمال غير المهرة. ثم يليه بالتدرج عمال شبه مهرة، أما ما يلي ذلك من الأعمال الفنية بمراتبها المختلفة فإنها تمثل اختناقاً وعق زجاجة. وهي مستويات تقابل التعليم التقني وما يليه من التعليم العالي، في حين إننا إذا نظرنا لمثل هذا الهرم الوظيفي في المجتمعات المتقدمة لرأيناه على شكل معين هندسي في وسطه العريض مهارات فنية وفي أسفله أعمال عادية وشبه ماهرة قليلة، وفي قمته وظائف الإشراف والتخطيط والتنفيذ العليا القليلة أيضاً. فحيث تمثل المهارات الفنية التي تحتاجها التنمية الاقتصادية نقطة الضعف في هيكلنا الوظيفي فإنها تمثل نقطة القوة في التركيب الوظيفي للمجتمعات المتقدمة صناعاً.

وستظل هذه المشكلة قائمة ما لم يخطط للتعليم بحيث يؤثر في التنمية. إن علاج هذه المشكلة يحتاج إلى أن يخطط لهذا التعليم على أساس دراسة بنية الوظائف والمهن في المجتمع دراسة دقيقة تقوم بحصر شامل لواقعها، ثم عمل دراسات لمستقبلها قائمة على أساليب التنبؤ والتوقع الدقيق في مجال التخطيط التربوي، ثم عمل ترجمة دقيقة لهذه المهن من الناحية الكمية والكيفية إلى مستويات تعليمية، ومحاولة بناء بنية التعليم على هذا الأساس، وبهذا يمكن للتربية أن تؤدي دورها وأن ترتقي بمتطلبات المهن والوظائف الجديدة، وتتغلب على الاختناقات الموجودة في التركيب الوظيفي والمهني في المجتمع الجزائري⁽³⁾.

2. تأثير عدم كفاية الإطارات:

لا شك أن نجاح التعليم أو فشله يعتمد إلى حد كبير على توافر المعلم المؤهل تأهيلاً جيداً ليتولى مسؤولية النمو المتكامل للتلميذ⁽⁴⁾. ومن المشاكل الحادة التي تعاني منها الجزائر، في صراعتها العنيف ضد التخلف والتأخر ومكافحة الفقر بين السكان، قلة الإطارات القادرة على قيادة النهضة الاقتصادية والاجتماعية بكفاءة ومهارة. وهذا يرجع أساساً إلى ضعف بنية التعليم وتأخر مناهجه، وطرقه، وقلة انتشاره بين السكان، مما لا يساعد على تخريج إطارات بعدد كاف، وتتمتع بالقدرة الكافية لفهم التكنولوجيات الحديثة والتعامل معها بفعالية⁽⁵⁾. فالمجتمع الذي لا يستطيع أن ينمي موارده البشرية، لن يستطيع أن ينمي أي شيء آخر فيه بصورة إيجابية⁽⁶⁾.

ولقد أدى ضعف توافق برامج التعليم مع حاجات التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى جعل جانب التعليم التقني المطلوب بقوة من طرف القطاعات الاقتصادية عاجزا عن تغطية هذه الحاجة.

النتيجة المترتبة عن تلك الاختلالات التوازنية هي ظهور عجز هام في إشباع حاجات المجتمع إلى استخدام الكفاءات الوطنية، وأنواع متفاوتة الحدة من العجز في مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية أو تخصصاتها ثم ظهور اختلالات توازنية متفاوتة الحدة على صعيد مستويات التكوين.

والمشكلة المعقدة جدا في التعليم والتكوين هي المتمثلة في مستوى ما يمكن تسميته بالإطارات الإسنادية مثل العمال المؤهلين والمساعدين والأعوان شبه الطبيين، حيث إنه مقارنة بين الإطارات المتخرجة وما يحتاجه سوق العمل من هذه الإطارات فإن العجز بلغ أكثر من نسبة 40%⁽⁷⁾. وقس على ذلك في جميع القطاعات مما يعني أنه على الرغم من الأعداد الهائلة التي تخرج سنويا إلا أن المنظومة التربوية الجزائرية لا زالت عاجزة عن تحقيق كفاية القطاعات من اليد العاملة الماهرة وشبه الماهرة. ذلك أن الآلاف من خريجي الجامعات في شتى المجالات لا يمكنهم أن يغطوا ما يحتاجه سوق العمل من إطارات إسنادية في بعض التخصصات النادرة أو بعض التخصصات التي تحتاج إلى أعداد متزايدة سنويا من الإطارات .

إن هذه الاختلالات الواضحة بين الأعداد الهائلة من الخرجين وحاجة سوق العمل في بعض القطاعات يطرح تساؤلا رئيسا وهو: هل هناك بالفعل مخطط يسمح بتكوين الأعداد اللازمة من الإطارات لتغطية حاجة سوق العمل في شتى قطاعات التنمية؟

3 - تأثير إهمال البحث العلمي:

بالرغم من الأهمية البالغة للبحث العلمي في وقتنا الراهن، حيث إن ثورة البحث العلمي والتكنولوجي هي من أهم العلامات البارزة لعصر العولمة⁽⁸⁾ إلا أن مساهمة البحث العلمي في التنمية في الجزائر ما زالت ضعيفة، فعلى الرغم من الهياكل والمراكز والهيئات التي أنشأتها الدولة في هذا المجال، إلا أن هذه الهيئات كلها لم تُقدّم - إلى حد الساعة - على وضع خريطة للتوزيع العلمي للباحثين الجزائريين وحصر إمكانياتنا الوطنية في هذا الميدان، على الأقل من الناحية الكمية؛ لأنه إذا كان من الصعب في هذه المرحلة وضع معايير موضوعية صارمة للتقدير الكيفي، فإنه من الممكن بل من المستعجل معرفة ما يوجد في بلادنا من

باحثين سواء أكانوا ممارسين فعلا داخل مراكز البحث والجامعات والمؤسسات الأخرى أم كانوا من غير الممارسين ممن لم تستوعبهم هياكل البحث الراهنة، نظرا للحواجز المفتعلة بين مراكز التكوين والتعليم من جهة، وبين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من جهة أخرى؛ فمن المعروف أن قطاعات الإنتاج لا تقدم التسهيلات المطلوبة للباحثين وتعتبرهم في بعض الأحيان من الطفيليين، كما أنها لا ترى ضرورة للاستعانة بالباحثين المحليين وتقديم مشاريعها ومشكلاتها للدراسة والتعاون مع مراكز البحث والجامعات، وذلك بسبب انعدام تقاليد البحث في تلك المراكز والجامعات، والرغبة الشديدة في التعامل مع مكاتب البحث الأجنبية التي تباع الخبرة حسب الطلب. يضاف إلى ذلك ما تعانيه الجامعات بوجه خاص من مشاكل داخلية بيداغوجية ومادية مثل كثرة عدد الطلاب ونقص الأساتذة وقلة التجهيزات العلمية .

ويمكننا أن نقول في الأخير: إن الجزائر إذا ما أرادت أن تنهض بالبحث العلمي، فعليها أن تزيد في ميزانيات البحث العلمي، وكذا ربط مراكز الأبحاث بالشركات والمصانع، لتتولى الإنفاق والتمويل والمساهمة في دعم الأنشطة الثقافية والعلمية⁽⁹⁾.

4. ضعف مردود سياسات الإصلاحات المتكررة للمنظومة التربوية:

إن التعليم بمفهومه الاجتماعي ليس إلا وسيلة تتخذها المجتمعات من أجل تحقيق أهدافها القومية، اجتماعية واقتصادية وسياسية، ويتأكد المفهوم الشائع بأن الإنسان الذي أحسن تعليمه وتدريبه هو صانع التنمية، وصانع ذاته وبيئته التي يعيش فيها، والمجتمع الذي ينتمي إليه. وفي ضوء ذلك يتأكد أن التغيير والتطوير والإصلاح الحقيقي للمنظومة التربوية لا يتأتى من مجرد إصلاحات سطحية وشكلية مفروضة من داخل البلاد أو من خارجها؛ وإنما يرتبط بالضرورة بإحداث تعديلات جذرية في العملية التربوية، تشمل أهدافها ومضمونها ومحتواها⁽¹⁰⁾. كما أن هذا الإصلاح لا يمكن إنجازه إلا بطريقة تعاقدية وبمقتضى خطة محكمة⁽¹¹⁾.

ولقد أدت جميع الإصلاحات المنتهجة سابقا إلى بروز النقائص نفسها من الناحيتين الكمية والكيفية، ويتجلى ذلك في عدد من النقاط أهمها:

. الاعتماد في مناهج التعليم على الجوانب النظرية وإهمال الجوانب العملية.

. بقاء نسب الأمية مرتفعة.

إن متطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ومشاركة عدد متزايد من الرجال والنساء في النشاط الاقتصادي المعقد، وضرورة ربط المدرسة بالعمل، وقطاع التربية بالقطاعات الاقتصادية، كل ذلك يستلزم تكوين العاملين في حقل الإنتاج وتعليمهم سواء أكانوا ناشئين أم راشدين، على اعتبار أن الأنظمة الاقتصادية أصبحت في حاجة ماسة لعمال أكفاء⁽¹²⁾، وهذا كله يستلزم من الدولة بذل جهود أكبر من أجل محو الأمية التي تشمل قطاعا ضخما من الشعب الجزائري. إن محو الأمية يجعل جماهير الناس في المجتمع مدركة تماما وبوضوح كاف، أهداف التقدم والتنمية كما أنها تجعلهم قادرين على فهم القوانين والقواعد العليا للمجتمع وتاريخه، والمشاركة بوعي في تشكيل مصيره عبر تقدم المجتمع إلى مراحل جديدة⁽¹³⁾.

إن المجتمعات الإنسانية، في ظل حضارة العصر تتغير تغيرات جوهرية. وهي وإن كان منها المتقدم ومنها المتخلف، إلا أن المجتمعات كلها تستهدف التقدم. ولعل أهم خصائص التقدم ما يلي:

- أن يأخذ المجتمع بالديمقراطية طريقة لحياته.

- وأن يتبع المنهج العلمي ويطبق العلم في مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية.

- وأن يعيش في ظل إدارة علمية حديثة.

- وأن يبني مؤسساته التربوية على أساس عصري⁽¹⁴⁾.

وهذه الخصائص كلها تتطلب من المجتمع الجزائري أن يكون مجتمعا متعلما كي يستطيع أن يقيم هذه الدعائم كلها. وبديهي أن القلة من الأفراد التي كان المجتمع يعتمد عليها لم تعد بقادرة على أن تفي بمتطلبات البناء العصري الجديد للمجتمع الجزائري. فالديمقراطية تتطلب أن يكون الكل مشاركا في سياسة البلاد وأحداثها، وبالتالي واعيا ومتعلما وقادرا على تتبع التغيرات الحادثة في المجتمع. واستخدام الأساليب العلمية والتكنولوجية الحديثة في مجالات الحياة المختلفة تتطلب أناسا متعلمين يستطيعون استيعاب هذه التغيرات ومتطلباتها⁽¹⁵⁾.

5. تأثير الإهدار البشري والمادي في المنظومة التربوية على التنمية:

إن الإهدار مصطلح اقتصادي يستخدم في التربية باعتبار أن التربية عملية استثمار في رأس المال البشري، ينتج عنها عائد كأي مشروع. وقد ينتج عن هذا الاستثمار هدر في الموارد أو في نتائج هذا الاستثمار، أي في عدم كفاءة النظام في

إعداد الموارد البشرية في ضوء أهداف التربية المحددة من حيث الكم أو التخصص أو درجة الكفاءة المتوقعة. ويتمثل هذا الإهدار التربوي في جانب أو أكثر⁽¹⁶⁾، كهجرة الكفاءات أو التسرب المدرسي.

إنَّ النسب المرتفعة للتسرب المدرسي توحى بضعف نجاعة المنظومة التربوية وكلفتها العالية.

فإذا أخذنا السنة الدراسية 1999/1998 لوحدها، نلاحظ أن عدد المطرودين من النظام الدراسي يقدر بـ 550000 تلميذ (أي ما يعادل 6.74 % من التعداد الإجمالي) 141000 منهم تم طردهم في السنة التاسعة أساسي و 93000 في السنة الثالثة ثانوي.

ويتجلى لنا من خلال تحليل مسار عينة من التلاميذ وفق معايير حددتها منظمة اليونسكو أنه من بين 100 تلميذ يلتحق بمقاعد الدراسة في السنة الأولى أساسي:

67 % يصلون إلى السنة التاسعة، 46 % منهم بعد أن أعادوا السنة مرة واحدة أو أكثر خلال مسارهم الدراسي، و 21 % دون أن يعيدوا السنة ولو مرة واحدة.

39 % يحصلون على شهادة التعليم الأساسي (31 % بعد أن أعادوا السنة مرة واحدة أو أكثر خلال مسارهم الدراسي، و 8 % بدون أن يعيدوا السنة ولو مرة واحدة).

يتضح مما سبق ذكره أن 33 % من التلاميذ الذين يلتحقون بمقاعد الدراسة في السنة الأولى لن يصلوا إلى السنة التاسعة أساسي، وأن 61 % منهم لن يحصلوا على شهادة التعليم الأساسي⁽¹⁷⁾.

وتتبلور آثار التكرار والتسرب المدرسي بصرف 13 سنة من التمدرس لكل تلميذ من نسبة 67 % الذين يصلون إلى غاية السنة التاسعة بدلا من صرف ثماني سنوات فقط.

وإذا ما أضفنا إلى ظاهرتي التسرب المدرسي والتكرار آثار الرسوب في امتحان شهادة التعليم الأساسي، نصل إلى صرف 25 سنة تدرس بالنسبة إلى 39 % الذين يحصلون على شهادة التعليم الأساسي بدلا من السنوات التسع الضرورية.

ذلك ما يتعلق بالتعليم الإجباري. أما فيما يخص التعليم الثانوي الذي يستقبل نصف تعداد تلاميذ السنة التاسعة أساسي الدراسة نفسها تبين أن من بين 100 تلميذ الذين يلتحقون بالسنة الأولى أساسي:

- 34 يصلون إلى السنة الثالثة ثانوي (29 بعد أن أعادوا السنة مرة واحدة أو أكثر خلال مسارهم الدراسي، وخمسة دون أن يعيدوا السنة ولو لمرة واحدة)

- 14 يحصلون على شهادة البكالوريا (13 بعد أن أعادوا السنة مرة واحدة أو أكثر خلال مسارهم الدراسي، و1 دون أن يعيد السنة ولو لمرة واحدة).⁽¹⁸⁾

من خلال الأرقام التي أوردناها سابقا يتضح لنا حجم الإهدار التربوي، ومن ورائه الإهدار المادي والمالي نتيجة الرسوب والتكرار والفشل الدراسي؛ مما يعني أن نسبة معتبرة من الأموال التي تصرف على قطاع التربية والتعليم تذهب هباء دون أدنى استثمار. إن هذه الأرقام مخيفة وتدعو للوقوف وقفة تأمل، في الموارد البشرية المهدرة وما يتبعها من موارد مالية، تذهب كل عام دون جدوى.

كما أن المشكلة تتفاقم هنا عندما نعلم أن عددا كبيرا من الذين يتسربون من المرحلة الثانوية لا يمكنهم العمل، وبذلك يرفعون من معدل البطالة بمجتمعاتهم⁽¹⁹⁾.

الخلاصة

لقد حاولنا في هذا العرض أن نتعرف على الانعكاسات السلبية لضعف النظام التربوي الجزائري على التنمية، ويمكننا أن نلخص هذه الانعكاسات في النقاط التالية:

1. الإهدار التربوي والمادي: ويتمثل في (التسرب المدرسي، الفشل الدراسي، تكرار السنة، الإهدار المالي، الإهدار في التجهيزات والكفاءات،...)، إن هذا الإهدار كان من بين الأسباب التي أضعفت كاهل الدولة مما انعكس سلبا على المشروع التنموي الجزائري.

2. عدم التوافق بين أهداف المنظومة التربوية ومتطلبات التنمية في الجزائر منذ الاستقلال، مما انعكس سلبا على المشروع التنموي الجزائري، ويتجلى ذلك أساسا في:

- الانقصام بين المنظومة التربوية وباقي قطاعات التنمية.

- عدم التوافق بين الاختصاصات الموجودة بالجامعة ومراكز التكوين ومعاهد التكوين من جهة، ومتطلبات سوق العمل من جهة أخرى.

3. على الرغم من الجهود التي بذلتها الجزائر في قطاع التربية والتعليم ولكن نسبة الاستعانة بالكفاءات والمهارات العلمية في كافة القطاعات لا زالت جد

منخفضة وهذه المسؤولية تقع بالدرجة الأولى على كاهل المنظومة التربوية والقائمين عليها.

4 - لقد أدى إهمال البحث العلمي في مؤسسات التعليم العالي، إلى نقص ملحوظ في تطوير الأساليب الإنتاجية وأساليب التسيير داخل المؤسسات.

5 - إن الإصلاحات العديدة والمتكررة غير الهادفة في كثير من الأحيان والتي كانت في كثير من الأحيان ترفع شعارات (التعريب، الجزأة، رفع المستوى، المدرسة الأساسية...) لم يكن لها أي دور في تفعيل دور المنظومة التربوية للمساهمة في التنمية.

- الهوامش:

- 1 - مريم أحمد مصطفى، إحسان حفظي: قضايا التنمية في الدول النامية، دار المعرفة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، التاريخ غير موجود، ص 256.
- 2 - محمد بلقاسم حسن بهلول: سياسة تخطيط التنمية وإعادة تنظيم مسارها في الجزائر، ج1، ديوان المطبوعات جامعية، الجزائر، 1999، ص 117
- 3 - محمود السيد سلطان: دراسات في التربية والمجتمع، دار المعارف، مصر، 1975، ص 266.
- 4 - علي بن محمد: معركة المصير والهوية في المنظومة التربوية، دار الأمة، الجزائر، 2001، ص 32.
- 5 - رابع تركي: مبادئ التخطيط التربوي، مرجع سابق، ص 65.
- 6 - علي خليفة الكواري: نحو فهم أفضل للتنمية باعتبارها عملية حضارية، مجلة المستقبل العربي، العدد 49، السنة 1983، ص 22.
- 7 - محمد بلقاسم حسن بهلول: سياسة تخطيط التنمية وإعادة تنظيم مسارها في الجزائر، ج2، مرجع سابق، ص 75.
- 8 - حامد عمار: في التنمية البشرية وتعليم المستقبل، مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر، 1999، ص 134.
- 9 - محمد الروبي عبد الوهاب: إصلاح العملية التربوية... بداية العلاج، مجلة العربي، العدد 493، ديسمبر 1999، ص 191.
- 10 - حسن محمد حسان: التعليم الأساسي بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص 17.
- 11 - الطاهر زرهوني: التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، دار موفم للنشر، الجزائر، 1988، ص 61
- 12 - حفيظ بن عيسى: مشكلة الأمية في مختلف جوانبها، المجلة الجزائرية للتربية، الجزائر، العدد 03، جوان 1995، ص 48

- 13 - علي عبد الرزاق جليبي: دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص 155.
- 14 - محمود السيد سلطان: مرجع سابق، ص 296.
- 15 - محمود السيد سلطان: مرجع سابق، ص 296.
- 16 - M.A.Brimer and L. pauli. Wastage in Education. A World Problem (Paris: united National Educational. Siientific and Cultural Organization. 1971). P 9.
- 17 - : سلسلة الملفات التربوية (موعذك التربوي)، التسرب المدرسي، الجزائر، العدد 06، 2001، ص 3.
- 18 - سلسلة الملفات التربوية (موعذك التربوي): التسرب المدرسي، مرجع سابق، ص 4.
- 19 - Michel P. Todaro. Economic Development In The Therd World. Third. ed. .N.Y.: Longman Inc. 1985.p 329.

دور مكتبات الأطفال في عصر المعلومات

بقلم

د / أحمد علي

قسم المكتبات والمعلومات - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة دمشق - سوريا



ملخص

يشكل الأطفال الجزء الأكبر من المجتمعات التي نعيش فيها، وتمثل المادة العلمية التي يكتسبونها هي الأقل حظاً بالنسبة للمعلومات المنتشرة في هذا العصر، وفي مجمل تلك المواد لا تعطي الطفل الثقافة والعلوم اللازمة لإشباع حاجاته الثقافية، وخاصة أن المادة الثقافية منتشرة في هذا العصر عصر التقنية والمعلومات، عصر الشبكة المعلوماتية.

تتناول الدراسة مكتبة الطفل في عصر المعلومات، والشروط الواجب توفرها فيها والإمكانات الواجب إدراجها فيها حتى يستفيد منها الاستفادة المثلى، كما تناولت العديد من المفاهيم المتعلقة بعصر المعلومات والمكتبات بشكل عام.

ABSTRACT:

Children forms the big part of the society we lived in, but the scientific material earned is the small chance according to the information spread at this time, all these materials could not give the child culture and science he need to satisfy his cultural needed, specially the cultural material spread at this technology and information time as internet information.

At this study I have been discussed child libraries at information time, and the conditions should be supplied at, and the abilities should be insert in, so the child could use it at the best way, and have discussed the definitions according the information time and libraries.

المقدمة

مرحلة الطفولة من مراحل العمر التي يكون التعلم فيها واكتساب المهارات المتنوعة أمراً ضرورياً، حيث إنها بداية تعرّف الطفل على العالم من حوله . لذا وجود المكتبة الخاصة بالطفل سواء كانت في المنزل أو المدرسة أو ضمن المكتبة العامة، فهي من الأمور التي يغفل عنها الكثير من أولياء أمور الأطفال.

ولا تحتاج مكتبة الطفل إلى أكثر من خزانة مفتوحة لها عدد من الرفوف . وتكون في مكان واضح في غرفة الطفل إن امتلك غرفة خاصة أو قريبا من الركن الذي يمضي به وقت لعبه أو دراسته، ولا بد لها من أن تفرد أجنحة الخيال ورغبة الاستكشاف عند الطفل لتستله من عالم تقليدي بسيط إلى عوالم أكثر رحابة وذلك بأن نختار له الكتب التي تناسب عمره واهتماماته، فتغلب على تلك الكتب الصور والرسوم الزاهية الألوان فتكون الطباعة واضحة والحروف كبيرة ومميزة ويجب أن يتسم أسلوب الكاتب بالوضوح والبساطة ليناسب الفئة العمرية للطفل .

نختار له مجموعة من القصص والكتب التي تحتوي على قصص الأنبياء والقصص العلمية وقصص التراث، ولا بأس بالموسوعات المصغرة التي تحتوي شروحات وتوضيحات للكائنات. بعض مجلات الأطفال وقصص الخيال المصورة. وتطور هذه المكتبة مع نمو الطفل لتشمل معاجم اللغة والكتب الأدبية والكتب المترجمة.

فوجود المكتبة في المنزل يقرب الكتاب إليهم وتنمي شغف القراءة والاطلاع وتكسب الطفل تلك العادة الجميلة . القراءة . منذ الصغر .

قد يصيبنا الهلع إن علمنا أن الأطفال يمثلون 42 % من العدد الكلي للسكان في الوطن العربي ونصيبهم من الكتب الصادرة في العام 322 ومتوسط قراءة الطفل في العالم العربي لا تتجاوز 6 دقائق ... في السنة! وذلك كما تشير إليه إحصائية منظمة التربية والثقافة والعلوم (اليونسكو)، بينما الطفل الأمريكي نصيبه 13260 كتابا في العام، والطفل الانجليزي 3838 والفرنسي 12118!

القراءة هي وسيلة لنقل العلوم، فهي خلاصة تجارب مجتمعات بأكملها، وهي الطريق الأقصر لتتعلم أن نبداً من حيث انتهى الآخرون.

وفي ظل التطورات العلمية والتقنية الحديثة، وفي ظل عصر المعلومات الذي نعيش فيه، فقد كان لزاماً علينا أن نجعل مكتبة الطفل تتماشى مع المتطلبات العصرية الحديثة من التقنية والتكنولوجية، لذلك يأتي هذا البحث للتعرف على مكتبات الأطفال في عصر المعلومات (عصر التكنولوجيا والانفجار المعرفي).

❖ أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

- أ) التعرف بمكتبات الأطفال في عصر المعلومات.
- ب) توضيح أهم مقتنيات مكتبات الأطفال في عصر المعلومات وكيفية توظيفها، ومؤهلات القائمين عليها.
- ج) التعرف على الخدمات التي تقدمها مكتبات الأطفال في عصر المعلومات.

د) التعريف بعصر المعلومات ومميزاته.

❖ مشكلة الدراسة:

أظهرت دراسة أخيرة من «بيو انترنت» و«أميركان لايف» أن أكثر من نصف الذين في سن العاشرة وما فوق قليلا الذين يتصفحون الانترنت البالغ عددهم نحو 12 مليوناً في الولايات المتحدة وحدها يقومون بإنتاج مواد أساسية على الشبكة أو الصفحات الخاصة بمواقعهم، أو مواقع مدارسهم على الشبكة. وهذه المواد غنية بالأعمال الفنية الأساسية والصور الفوتوغرافية والفيديو. كما يقوم قسم كبير من هذه المجموعة الناشطة بمزج المواد الأخرى المنشورة على الشبكة لإنتاج مادة جديدة فريدة من نوعها. وبعض أفضل الصفحات تصميمًا على شبكة «ماي سبيس» My Space هي من إنتاج طلاب في سن الـ 14 و15 على حد قول كايل برنكمان المؤسس المشارك لهذه الشبكة الاجتماعية. وبالحكم على شعبية الشبكة، فيبدو أنها تقوم بعمل جيد. فقد تفوقت على غوغل على صعيد الحركة والمرور في الشهور القليلة التي سبقت بيع الشركة الأم إلى شركة الأخبار التي يملكها روبرت ميردوخ بمبلغ 580 مليون دولار في يوليو الماضي⁽¹⁾.

والجدول التالي يوضح ضعف الاهتمام العربي بالطفل والعلوم⁽²⁾.

جدول رقم (1)

عدد	الجنسية	نصيبه من الكتب المطبوعة
1	الطفل الأمريكي	13260 كتابا
2	الطفل الإنجليزي	3838 كتابا
3	الطفل الفرنسي	2118 كتابا
4	الطفل الايطالي	1340 كتابا
5	الطفل الروسي	1485 كتابا
6	الطفل العربي (العالم العربي كله)	322 كتابا

فعلى الرغم من التطور التقني المتسارع الذي شهدته وتشهده جميع بلدان العالم والذي أثر على الثقافة العالمية والعربية، إلا أن المساحة الثقافية العربية ما تزال تعاني من مشكلات كثيرة ومتعددة، فكتاب الطفل يواجه حاليًا تحديات كثيرة وكبيرة تفرضها وسائل الاتصال المتعددة التي تجذب الطفل وتشده إلى متابعتها من خلال البرامج والموضوعات المشوقة المعروضة بطريقة بصرية ومصحوبة بمؤثرات صوتية وإيقاعية وأنماط خطوط وأشكال وألوان جذابة.

❖ أسئلة الدراسة:

1- ما الفائدة المتحققة للأطفال من مكتبات الأطفال؟

2- ما هي الخدمات التي تقدمها مكتبات الأطفال للأطفال؟

3- ما الشروط الواجب توافرها في أمين مكتبات الأطفال؟

❖ مصطلحات الدراسة:

❖ المكتبة العامة:

المكتبات العامة ظاهرة منتشرة في كثير من المجتمعات على صعيد العالم وفي ثقافات مختلفة وفي مراحل مختلفة من التنمية وعلى الرغم من أن تنوع البيئات التي تعمل فيها المكتبات العامة يؤدي حتماً إلى فروق فيما تقدمه من خدمات وفي الطريقة التي تقدم بها تلك الخدمات.

وهي منظمة ينشئها المجتمع المحلي ويدعمها ويمولها أما من خلال الحكومة المحلية أو الإقليمية أو الوطنية أو من خلال شكل آخر من أشكال التنظيم المجتمعي، وهي تتيح الوصول إلى المعارف والمعلومات والأعمال الإبداعية من خلال مجموعة من الموارد والخدمات التي تؤدي إلى جميع أعضاء المجتمع بغض النظر عن العنصر أو الجنس أو الدين أو اللغة أو العجز أو المكانة الاقتصادية أو الوظيفية أو المستوى التعليمي.⁽³⁾

❖ مكتبات الأطفال:

نظام مصغر من المكتبات العامة تهتم بالطفل اهتماماً كبيراً من حيث التجهيزات والأثاث والمقتنيات والوسائل السمعية والبصرية المستخدمة فيها، يكون الإشراف عليها من قبل المكتبات العامة أو المدارس أو البلديات أو غيرها. وهي واحدة من المؤسسات ذات الطابع التعليمي والثقافي والترفيهي وتعمل على الإسهام في تنشئة الأطفال تنشئة سليمة، وتطوير اهتماماتهم وقدراتهم وإكسابهم مهارات التعلم الذاتي بما يتضمنه ذلك من تنمية مهاراتهم وقدراتهم القرائية في مختلف مراحل العمر، باستخدام شتى الوسائل.⁽³⁾

❖ تكنولوجيا المعلومات:

عملية تطبيق أي نوع من الأنظمة باستخدام تكنولوجيا المعلومات بهدف تحسين عملية الإدخال والإخراج عن طريق المكنة التقنية الحديثة من أجهزة حاسب واتصالات وغيرها.⁽⁴⁾

❖ منهج الدراسة:

اتبع الباحث المنهج النظري (الوثائقي) باعتباره الأنسب لموضوع الدراسة، واطلع الباحث على أدبيات الموضوع ذات العلاقة بالدراسة.

❖ حدود الدراسة:

تشمل حدود الدراسة الموضوعية: مكتبات الأطفال، عصر المعلومات.

❖ الدراسات السابقة:

. دارسة حسان حسين عابدة (2004)، بعنوان "مكتبات الأطفال". رسالة المكتبة.

مج 39، ع2.

تناولت الدراسة أهمية مكتبات الأطفال ودورها في توفير مجموعات مكتبية، تلبية ميول واحتياجات الأطفال وإرشادهم إلي مصادر المعرفة التي تسهم في توسيع مداركهم كما تبين صفات ومؤهلات أمين المكتبة وكيفية التعامل مع الأطفال وإلي خدمات وأنشطة مكتبات الأطفال .

. والمكتبات المدرسية". العربية 3000. س3، ع1.

حيث تطرقت على أن كتب الأطفال تعد وعاءا هاما من أوعية الثقافة ومن خلال الكتاب يستطيع الطفل أن يستكشف الأماكن والأزمان البعيدة وأساليب الحياة المختلفة كما تزيد الكتب معرفته بنفسه وبالأخرين وتم مناقشة أهداف وشروط مكتبة الأطفال وأهمية إدخال التكنولوجيا الحديثة إليها .

- أما دراسة ديانا يوسف قنديل (2002)، بعنوان "مكتبات رياض الأطفال في

الأردن". العربية 3000. س3، ع1.

حيث تطرقت الدراسة إلى الأهمية الكبرى التي يجب أن نعطيها لأطفالنا في دور الرياض لما لها من تأثير في بناء الطفل وقدرته على الاستيعاب من خلال ما يقدم له عن طريق الصور أو الحفظ والتكرار.

. وفي دراسة لمحمد فتحي عبد الهادي (2004)، بعنوان "نحو تطوير مكتبات

الأطفال". المجلة العربية للمعلومات. مج16، ع1.

سلطت الدراسة الضوء على كيفية تطوير ونمو مكتبات الأطفال كما تعرض الدراسة عناصر هذا التطوير بجوانبه المختلفة التي يجب أن تحيطها اهتماما.

. وعرضت دراسة عصام عبد الملك (2002)، بعنوان "كتب الكترونية للأطفال

في مكتبات بريطانيا العامة". العربية 3000. س3، ع1.

تناولت الدراسة آراء أمناء مكتبات الأطفال بشأن الكتب الالكترونية في مكتبات عامة للأطفال في المملكة المتحدة وإدخال الكتب الالكترونية إلى هذه المكتبات.

- وتطرقت دراسة آمنة أيوب (1996)، "المكتبة العامة لبلدية الزرقاء" فرع الأطفال (دراسة حالة). رسالة المكتبة، مج 31، ع 4.

فتناولت الباحثة فرع الأطفال التابع للمكتبة العامة لبلدية الزرقاء من حيث الموقع والمبنى والأثاث والتقنيات والتجهيزات والمشاكل التي تعاني منها المكتبة.

- وتبين دراسة مفتاح محمد دياب (2007)، بعنوان "الطفل والكتاب ومجتمع المعلومات". العربية 3000، س 7، ع 2.

تطرقت الدراسة إلى الطفولة ومستقبل المجتمع، وكتاب الطفل، والطفل ومجتمع المعلومات، وموقع الطفل في القمة العالمية لمجتمع المعلومات.

أولاً: "مكتبات الأطفال تعريضها، أنواعها، مجموعاتنا ومنا شيطها؛

• مكتبات الأطفال :

تعد مكتبات الأطفال من أهم أنواع المكتبات نظراً لأنها أول مكتبة يقابلها الفرد في بداية حياته، ويتوقف على تجربة معها ومدى استخدامه للأنواع الأخرى من المكتبات والاستفادة منها في مراحل عمره المختلفة.

هذا فضلاً عن أن مكتبة الطفل تلعب دوراً مهماً في حياة الطفل، فهي تنمي من إدراكه، وتوسع من أفقه وتساعد على إكساب العلم والمعرفة، وتغرس فيه حب القراءة والإطلاع، والإفادة من كل مصادر المعلومات، كما أنها بالإضافة إلى هذا كله هو المكان الذي يستمتع فيه الطفل بممارسة العديد من الأنشطة والهوايات المختلفة لديه.⁽⁵⁾

ومكتبات الأطفال نوع من المكتبات أوصت بقيامها الحضارة والتقدم الحادث في العالم غربه وشرقه، لإنشاء مكتبات الأطفال معناه اعتراف الدول بهم كأفراد في المجتمع لهم حقوق، كما في ذات الوقت الحفاظ على مكانة الكتاب كوعاء من أوعية المعلومات الثقيفية، فالكتاب يمثل مكان الصدارة بالنسبة لثقافة الطفل، بعد أن تأكد مدى ترحيب الأطفال بالكتب ومدى استحبابهم لما تحويه من معلومات، وإذا كان الكتاب هو مصدر الثقافة الأول للطفل فإن المكتبة هي المكان المخصص لحفظ هذا المصدر.⁽⁶⁾

يقصد بمكتبات الأطفال ذلك النوع من المكتبات الذي يؤدي خدمات للأطفال في مراحل أعمارهم المختلفة بداية من سن ما قبل المدرسة وحتى نهاية المرحلة الإعدادية تقريباً سن السادسة عشرة. وتعتبر مكتبات الأطفال إحدى المؤسسات ذات الطابع التعليمي والثقافي والترفيهي .

تعتبر مرحلة الطفولة مرحلة مهمة من مراحل تكوين شخصية الفرد؛ لذا أولت منظمة اليونسكو اهتماماً خاصاً بالطفولة فاوصت بإنشآت مكتبة للطفل بجميع

المكتبات العامة، وتعد مكتبة الطفل من أهم المؤسسات التي تؤدي دوراً مهماً في تكوين شخصية الطفل، وصقل مواهبه، وتنمية قدراته وتوجيهها التوجيه الأمثل. ومكتبات الأطفال هي مؤسسات ذات طابع تعليمي تثقيفي ترفيهي في آن واحد، وتعمل على الإسهام في تنشئة الأطفال تنشئة سليمة وتطوير اهتمامهم وقدراتهم وإكسابهم مهارات التعلم الذاتي بما يتضمنه ذلك من تنمية مهاراتهم وقدراتهم القرائية في مختلف مراحل العمر، وذلك باستخدام شتى الوسائل⁽⁷⁾.

❖ أنواع مكتبات الأطفال:

أ/ المكتبات المنزلية: وتعني المكتبة الموجودة في المنزل وتقوم أساساً على مدى اهتمام الأب والأم بالكتب والمكتبة وتشجيع الطفل على اقتناء الكتب والمحافظة عليها بعد الانتهاء من قراءتها وتعويد الطفل على شراء الكتب من مصروفه الخاص وانتشار عادة تبادل الكتب وإهدائها في المناسبات.

ب/ المكتبات المدرسية: ويجب أن تكون بمنزلة القلب النابض للمدرسة وأداة إيجابية للتعليم كما أن أهدافها لا تقتصر على خدمة المنهج المقرر بل تتعداه إلى إشباع رغبات الأطفال وحبهم للمعرفة هذا إذا عرفنا أن المكتبة المدرسية تعد إضافة لا بد منها إلى أي تعليم يسير بالطريقة الصحيحة، لأن جوهر التعليم اليوم حث الطلاب على البحث والتثقيب والاطلاع الخارجي لذلك نجد أن المكتبة أعظم مكان يستفاد منه بعد المعلم، ومن المعروف أن استخدام المدرسين لهذه المكتبات يعد أفضل قدوة للطلاب كما يجب أن يكون التعاون بين أمين المكتبة والمدرسين والإعارة مثمرا وبناء لتحسين الخدمة المكتبية في المدرسة نفسها.

ج/ مكتبات الصفوف: وهي عادة المكتبة الموجودة في كل صف من صفوف الطلاب وتبدأ عملية بناء مثل هذه المكتبة بتشجيع من مربى الصف ونجاح هذه المكتبة مرتبط بنظرة الطلاب إليها وبأنها ملك لهم فيترك لهم الحرية لترتيبها وحفظها وتوضع هذه الكتب في خزانة يحتفظ أحد الطلاب بمفتاحها كما تؤخذ عادة آراء الطلاب عند شراء الكتب ليسهموا بتحمل المسؤولية ويشعروا بالمتعة عندما يستعيرون أي كتاب لقراءته وفي هذه المكتبة يتدرب الطفل ويعتاد على استعمال مكتبة المدرسة ومن ثم المكتبة العامة..

د/ مكتبات النوادي والجمعيات: تكون عادة للتسلية والترفيه وتوضح الكتب للأطفال في ركن هادئ من أركان النادي وكذلك الجمعية إذا تعذر وجود غرفة خاصة بهم وغالبا ما يكون هذا النوع من المكتبات ليس هدفاً بحد ذاته وإنما جزء من برامج متعددة ليختاروا ما يروق لهم أثناء وجودهم في النادي أو الجمعية.⁽⁸⁾

هـ/ المكتبات العامة: المكتبات العامة تقدم خدماتها للأطفال من منطلق أن المكتبة العامة خدمة عامة تؤديها الدولة إلى كل أبنائها صغاراً وكباراً، وقد تكون المكتبة العامة مخصصة كلها للأطفال وقد تكون قسماً من أقسام المكتبة العامة أو مجرد ركن يحتل عدة رفوف في المكتبة أو ركناً في سيارة كتب متنقلة أو سيارة كتب خاصة للأطفال أو مجرد حافلة محمولة تتضمن مجموعة من المواد المناسبة للأطفال.

المكتبة العامة تقوم بدور لا يمكن إنكاره في خدمة الطفل بل أن بعضهم يعد هذا هو الدور الأساسي فيما يتعلق بالأطفال وخاصة عند عدم توافر مكتبات في المدارس الابتدائية أو في حالة النقص الواضح في كفاءة المكتبات في حال وجودها، هذا فضلاً عن أن المكتبة العامة تقدم خدماتها إلى أطفال ما قبل المدرسة وتتيح للآباء والأسرة المساهمة والمشاركة في خبرات الكتب للأطفال وهي مفتوحة عندما تكون المدرسة مغلقة، كما أنها وهذا هو المهم تظهر بوضوح تام أن الكتب ليست فقط للتعليم أو التعليم الرسمي، وإنما تخدم الحاجات المتنوعة للطفل، أما مكتبات الجمعيات والهيئات الخاصة فإنها تؤدي دورها وفقاً لأهدافها الخاصة.⁽⁹⁾

❖ مجموعات مكتبات الأطفال:

تضم مكتبات الأطفال عدة أنواع من المواد المكتبية التقليدية وغير التقليدية ذات الطبع القصصي والمشوق، إضافة لموسوعات الأطفال وكتب التسلية الموجهة لمقابلة احتياجات الأطفال المختلفة لتلبية أغراض متعددة مثل أغراض التثقيف، والتعليم، والترفيه و التربية وغيرها .

❖ أنواع مجموعات مكتبات الأطفال:⁽¹⁰⁾

- الكتب: وهي أنواع متعددة منها الكتب المصورة، والقصصية، وكتب المعلومات والحقائق، والكتب التاريخية، والدينية، وكتب الطرائف والنوادر وغيرها من كتب الأطفال.
- المواد المرجعية: وتضم المعارف والموسوعات، والقواميس، والمعاجم، وكتب التراجم والسير، والأدلة، والأطالس، وغيرها من أنواع المواد المرجعية المصممة والموجهة للأطفال في مراحل عمرية مختلفة.
- المواد السمعية والبصرية: والتي تضم التسجيلات الصوتية، والأشرطة المرئية، والأشرطة السينمائية والشرائح.

• البرامج الإلكترونية وبرمجيات الحاسوب: مثل برامج الأطفال المتوفرة على أقراص مكتزة، أو برامج يمكن الاتصال بها من خلال قواعد البيانات أو، الاتصال بشبكة الإنترنت.

• المجسمات: مثل الكرات الأرضية والنماذج المختلفة لبعض الأشياء مثل مجسمات بعض الحيوانات، وأعضاء جسم الإنسان.

❖ عناصر وأسس اختيار كتب الأطفال:

هناك عدة عناصر وأسس تستخدم في اختيار الكتب والمواد المكتبية الأخرى في مكتبات الأطفال منها العناصر التالية:⁽¹¹⁾

1) الناحية الموضوعية: وهي التي تتضمن المادة التي تجسد الفكرة أو الأفكار أو التجارب والمعلومات التي تنقل للطفل من خلال الكتاب وان تتميز بالخلاص والجدية والصدق في تصوير الحقائق.

2) مناسبة المادة المكتبية لمستوى سن الطفل: ويعنى ذلك أن هذه المواد تعمل على تلبية احتياجات الأطفال العقلية والجسمية والعاطفية المناسبة للمرحلة العمرية التي يمر بها الطفل.

3) الناحية المادية: ويدخل في ذلك النواحي الشكلية للمواد المكتبية مثل الألوان والحروف والرسوم والصور وغيرها من عناصر الجاذبية والتشويق.

4) تحقيق التوازن بين مجموعات المواد المكتبية المختلفة.

كما يجب أن تخصص للأطفال مكتبة شاملة تحتوي على الكتب والمراجع والدوريات الخاصة بالأطفال، بالإضافة إلى المواد السمعية والبصرية كالأفلام وبرامج الكمبيوتر التعليمية والثقافية والقصص المسجلة وذلك بهدف تشجيع الأطفال على اكتساب العادات القراءة وتنمية ميولهم القرائية وبث روح الثقافة فيهم منذ نعومة أظفارهم من خلال ما توفره لهم المكتبة من مصادر وأوعية المعلومات المختلفة والأنشطة المتعددة.

❖ تنظيم مكتبات الأطفال :

ينصح باستخدام نظام تصنيف ديوي العشري الموجز في تصنيف مكتبات الأطفال بجانب استخدام التصنيف بالألوان وذلك لقدرة الطفل على تمييز اللون بصورة أكبر من قدرته على استيعاب أرقام التصنيف وقد قسمت مصادر وأوعية المعلومات في مكتبة الأطفال كالآتي :

• القصص: ويستخدم الرمز (ق) للدلالة على القصص العربية واللون الدال على موضوع القصة وترتب هذه القصص هجائيا حسب المؤلف أو عنوان القصة وهي متاحة للإعارة من قبل الأطفال.

- كتب الحقائق والمعلومات - غير القصصية - تنظم وتصنف حسب موضوعاتها باستخدام الأرقام الرئيسية الثلاثة من تصنيف ديوي العشري مع اللون الدال على موضوع الكتاب بجانب الرمز المؤلف أو العنوان وهذه المجموعة متاحة للإعارة.
- المراجع: وتشمل بعض الموسوعات ودوائر المعارف والقواميس والمعاجم والأطالس وهذه المجموعات لا يسمح بإعارتها خارج المكتبة ولكنك يمكن الاطلاع عليها داخل المكتبة فقط.
- الدوريات: وتضم مجموعة من الدوريات الجارية والمهتمة بثقافة الطفل وهي مرتبة هجائيا حسب عنوان الدورية ولا يسمح بإعارتها.
- ركن الحاسوب: تتوفر في المكتبة مجموعة من الحواسيب الآلية المزودة بمجموعة من البرامج التعليمية والثقيفية التي تساعد على تنمية قدرات الطفل المختلفة.
- ركن الاستماع: وفيه يمكن الاستماع إلى القصص المسلية في جو من الهدوء والاستمتاع بها.
- ركن الفيديو: وفيه يمكن مشاهدة أفلام الرسوم المتحركة والأفلام العلمية والثقافية.
- الفيديو لا يسمح بإعارتها خارج المكتبة، وتطبق بقية أنظمة المكتبة على جميع الأطفال.

❖ الوظائف التربوية لمكتبات الأطفال:

- التربية المكتبية من أهم الوسائل، التي تزود الأفراد بالمهارات والقدرات، التي تمكنهم من الإستخدام الواعي والمفيد لأوعية المعلومات المتوفرة بالمجتمع، وحتى يكون الطلب على المعلومات جزءا من حياة الفرد اليومية، وفيما يلي أهم الوظائف التربوية لمكتبات الأطفال.⁽¹²⁾
- 1) تنمية ميول الطفل القرائية وإشباع حاجاته المعرفية والوجدانية بتوفير وتقديم المواد المطبوعة المصورة والمواد غير المطبوعة المشوقة والتي تجذب انتباه الطفل وتثير دافعيته.
 - 2) تحفيز الطفل على القراءات المثمرة من خلال مقتنياتها المطبوعة وغير المطبوعة.
 - 3) تثقيف الطفل عن طريق توفير مصادر التعلم المطبوعة من الكتب والمراجع والمعاجم وكذلك مصادر التعلم غير المطبوعة من وسائل تعليمية سمعية وبصرية.

4. تنمية التفكير المنطقي لدى الطفل، وتهيئة مواقف تربوية أمام الطفل بهدف إثارة تفكيره تجاه القضية التربوية والاجتماعية والثقافية التي تستحوذ على اهتمامه.

5. تهيئة المناخ المناسب للقراءات الواعية والمثمرة والمتنوعة للطفل من أجل تلبية احتياجاته المعرفية بتنوع مصادر التعلم المطبوعة وغير المطبوعة.

❖ أهداف مكتبات الأطفال:

لمكتبات الأطفال مثلها مثل بقية أنواع المكتبات الأخرى أهدافا تسعى لتحقيقها وتعمل على إنجازها إلي أقصى حد ممكن لتكون خدماتها ذات فاعلية وتأثير على جمهور الأطفال كما تحرص مكتبات الأطفال التابعة لقسم المكتبات العامة على تحقيق الأهداف التالية:⁽¹³⁾

1. توفير مصادر معلومات مناسبة لحاجة الطفل ورغباته وميوله.
2. تعريف الطفل بمكتبته، وكيفية استخدامها، والمحافظة عليها وعلى مصادرها.
3. تشجيع الطفل على ارتياد المكتبة والاستفادة من كافة خدماتها.
4. تطوير قدرات الطفل العقلية ومهاراته اللغوية والفنية والعلمية والاجتماعية.
5. مساعدة الطفل على تكوين عادات واتجاهات اجتماعية سليمة كالتعاون والإيثار والصداقة واحترام الآخرين.
6. توفير مواد الترويح المختلفة ووسائله كالقصص والمسرحيات والأفلام والألعاب لاستثمار وقت الفراغ بصورة نافعة.
7. مساندة المنهج الدراسي ودعمه من خلال تقديم مصادر معلومات مساندة من غير الكتب المقررة، وتشجيع الأطفال على استخدامها والرجوع إليها.
8. التعاون مع المؤسسات والهيئات ذات العلاقة في المجتمع والمهتمة بالطفل.

لتقديم الأنشطة في مكتبات الأطفال أهمية كبيرة حيث أنها تساعد على فتح آفاق وخبرات جديدة للأطفال من خلال تغطيتها لمجالات متعددة وخاصة إذا كانت هذه المجالات من النوع الذي لا يستطيع الطفل تنميته في المنزل . وتقع مسؤولية تحديد النشاط داخل مكتبات الأطفال على عاتق أمين المكتبة حيث أنه يجب أن يحدد الهدف من النشاط ويخطط له ويتابع تنفيذه مع الوضع في الاعتبار احتياجات الأطفال ورغباتهم.

❖ مؤهلات أخصائي مكتبات الأطفال:

حيث أن العاملين بمكتبات الأطفال يتعاملون مع جمهور من نوع خاص غير الجمهور الذي يتعامل معه العاملون في بقية أنواع المكتبات الأخرى، مثل

المكتبات الجامعية والمتخصصة وحتى المكتبات العامة، فإن أخصائي مكتبات الأطفال يجب أن تتوفر لديه مؤهلات تساعدهم على العمل مع الأطفال من مختلف الأعمار والمستويات التعليمية والاجتماعية وغيرها، وهناك نوعان من المؤهلات يجب أن تتوفر لهؤلاء وهي:

المؤهلات العلمية أو المهنية، والمؤهلات الشخصية التي يجب أن يتصف بها أخصائي أو أخصائية مكتبات الأطفال.⁽¹⁴⁾

أ/ المؤهلات العلمية أو المهنية:

إن مدارس علم المكتبات والمعلومات أصبحت منتشرة في كل بلدان العالم والبلدان العربية فإن أول مؤهلات أخصائي مكتبات الأطفال هو الحصول على درجة جامعية ليسانس أو بكالوريوس في علم المكتبات والمعلومات فإن أخصائي مكتبات الأطفال يجب أن يكون على معرفة بعدة أشياء أخرى تساعده على نجاح مهمته كأخصائي مكتبات الأطفال مثل معرفة الأمور والتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي من الممكن أن يكون لها تأثير على الخدمة المكتبية.

وعلى أخصائي المكتبات أن يدرك حقيقة أن يوم تخرجه وحصوله على الدرجة الجامعية في علم المكتبات والمعلومات ما هو إلا نقطة البداية في مشوار العمل بهذه المهنة وأن عليه أن يطور نفسه للنجاح في عمله عن طريق استمراره في التحصيل من خلال الاطلاع الواسع والقراءة المستمرة في شتى العلوم والمعارف عامة، وأدبيات المكتبات والمعلومات خاصة ومواكبة التطورات.

وهذا الأمر ضروريا من جميع العاملين بالمكتبات على اختلاف أنواعها ولكنه أكثر أهمية بالنسبة لمكتبي الأطفال الذين يجب أن تكون لديهم إدارة تنمية وتطوير أنفسهم للعمل مع الأطفال من خلال إدراكهم بضرورة قراءة كتب الأطفال بالإضافة إلى المعرفة بكتب الأطفال والمهارات المتعلقة بكيفية تقديم الكتب للأطفال فإن المكتبي يجب أن يكون ملما ومطلعا على العديد من جوانب المعرفة الأخرى حتى يستطيع الإجابة على مطالب وأسئلة أطفال ولا يخلق عندهم الإحساس بالعجز على الإجابة أو تقديم ما يرغبون الحصول عليه.

ب/ المؤهلات الشخصية للعاملين:

يتطلب العمل مع الأطفال في المؤسسات المختلفة المعنية بالطفولة ومن بينها مكتبات الأطفال أن يتحلى العاملون بها بالعديد من الصفات الشخصية ومن هذه الصفات التي يجب أن تتوفر في العاملين في مكتبات الأطفال ما يلي:

1/ هدوء الطبع، والتحلي بالصبر حيث إن فقدان المكتبي لأعصابه وعدم التحكم بها قد يسبب له مشكلات هو في غنى عنها.

2/ أن يكون أخصائي مكتبات الأطفال محبا للأطفال بصدق ومحبا للكتب في المكتبة وعمله وعليه أن يجعل القراء الصغار يشعرون بذلك من خلال التعامل معهم وأن يتحلى بالذكاء والفطنة.

3/ التحلي بروح الطفولة، حيث إن الشباب ليس بعمر السنين ولكنه وجهة نظر فمكتبي الأطفال الجيد ستكون له القدرة على رؤية الحياة من خلال عيون الأطفال بالإضافة إلى ما ذكره (ماك كولفن) من صفات ومؤهلات شخصية يجب أن تتوفر فيمن يعملون في مكتبات الأطفال فهناك خصائص أخرى متعددة يفضل أن يتحلى بها العاملون في مكتبات الأطفال ومن هذه الخصائص أو الصفات ما يلي:

- حب الأطفال والرغبة القوية في العمل معهم.
- فهم واسع وعميق بالطفولة وخصائصها.
- أن يكون المكتبي قدوة حسنة للأطفال يشعر بمشاعرهم ويحس بأحاسيسهم الداخلية.

- القدرة على الإدارة ليس بالتشدد ولكن بخلق الجو المناسب الذي يكون فيه التصرف في معظم الأحيان تصرفا طبيعيا مما يجعل الأطفال قرييين من قلب المكتبي.

- أن يكون لديه القدرة على جعل الأطفال يحبونه ويقدرونه مما يكون له أثر كبير وإيجابي في تعلق الأطفال بالكتب والمكتبة.

- معرفة واسعة بالمؤسسات والمنظمات والقطاعات التي تعني بالطفولة وبناء علاقات جيدة وتعاونية معها وخصوصا في المنطقة المحلية التي توجد بها المكتبة.
- التمتع بمهارة التعامل مع تكنولوجيا المكتبات والمعلومات الحديثة التي أصبحت جزءا من خدمات المكتبات الموجهة للأطفال مثل الوسائط المتعددة والبرامج التعليمية .

وتشير دراسة قدمت للمؤتمر الحادي والسبعين للاتحاد الدولي لجمعيات ومؤسسات المعلومات IFLA في أوصلو بالنرويج إلى أن المهارات التي يجب أن يتمتع بها العاملون في مكتبات الأطفال لتقديم خدمات جيدة وفعالة تضم ما يلي:

- أ. الممارسة للعمل مع الأطفال .
 - ب. القدرة على المشابهة والتعاون مع المكتبات الأخرى.
 - ت. القدرة على المبادرة والمرونة والقابلية للتغيرات الجديدة.
 - ث. الرغبة الجامحة لتعلم مهارات جديدة والعمل على التنمية المهنية.
- وهناك اتفاق على ضرورة وجود أمانة للمكتبة تقوم علي إدارتها وتشرف علي خدماتها وذلك لأسباب عديدة تعود إلي طبيعة المرأة وتميزها عن الرجل، كما

دلت الإحصاءات على أن نسبة العاملات إلى العاملين في المكتبات العامة ومكتبات الأطفال عالية جدا في مختلف دول العالم وعند اختيار أمانة لمكتبة الطفل مراعاة الصفات والمؤهلات التالية: ⁽¹⁵⁾

- 1- أن تكون مؤهلة تربويا ونفسيا ولها خبرة بشؤون الأطفال.
- 2- مؤهلة مكتبيا وإداريا للعمل في مكتبات الأطفال.
- 3- لديها ثقافة عامة وأخري خاصة بالأطفال وأدبهم ومكتباتهم.
- 4- ذات شخصية مرحة مميزة جذابة يحبها الأطفال.

* أنشطة الأطفال في المكتبات:

ويمكن أن تنقسم أنشطة الأطفال إلى ما يلي:

(1) مجال الأنشطة الثقافية:

للأنشطة الثقافية أهمية خاصة في مكتبات الأطفال، حيث تتعدد أشكالها وأنواعها حتى يختار الأطفال منها وفقا لميولهم واستعداداتهم وقدراتهم وبصورة تبرز مواهبهم ومهاراتهم، فالأنشطة الثقافية هي تلك التي تهتم بالثقافة العامة والمعلومات المتنوعة في كل المجالات، وهذه الأنشطة لها أهداف كثير وأسلوب متنوع حيث يختلف هذا الأسلوب حسب السن المتقدم آلية النشاط ومن أمثلة تلك الأنشطة الثقافية التي يقدمها قسم الأطفال (المسابقات الثقافية، مجالات الحائط، موضوع المناقشة)

وتهدف الأنشطة الثقافية إلى :

- 1- غرس عادة القراءة والاطلاع لدى الأطفال .
- 2- استخدام مصادر المعلومات المتوفرة بالمكتبة استخداما وظيفيا" للحصول على المعلومات من مصادر متعددة .
- 3- إثراء معلومات الأطفال وتزويدهم بالمهارات المكتبية التي تيسر لهم الاستخدام المثمر للمكتبة .
- 4- توعية الأطفال والشباب بالنواحي القومية والدينية والاجتماعية أثناء ممارسة نشاط ثقافي موجه .
- 5- إثارة روح التنافس الحريين الأطفال .
- 6- ترشيد قراءات الأطفال وتوجيههم نحو القراءات الواعية .

(2) مجال الأنشطة الفنية :

لقد أظهرت أبحاث نفسية متعددة أنه، ومنذ نعومة الأظفار، يتابع الطفل ببصيرة وباهتمام الأشياء المتعددة الألوان، في الوقت الذي يعطى فيه اهتماما أقل للأشياء الأحادية اللون. فاللون هو وسيلة للتعبير وللاتصال، وكذا هو أحد العناصر الرئيسية

للقاموس التصويري للأطفال . فالطفل يعطي للون وظائف متعددة فهو يفيد في تصوير وتجسيد ووصف لواقع مرسوم بصورة أفضل ويمكن أن يكون الرسم عبارة عن تعبير أو رد فعل للطفل وهو يواجه حقيقة معينة، وعملية الرسم والتلوين ليست فنية فقط ولكنها تتطلب جهداً مطولاً " سواء على المستوى العضلي (الذراع واليد) أو على مستوى التركيز (الانتباه) بالإضافة إلى الخيال الخصب في مراحل الطفولة المبكرة.

ومن أمثلة الأنشطة الفنية التي ينظمها قسم الأطفال لجميع الأعمار ورش الأشغال اليدوية، ومسابقات الرسم وتشكيل الصلصال والرسم خطوة خطوة وتشكيل الورق... الخ
وتهدف الأنشطة الفنية إلى :

1. اكتشاف الميول والمواهب الفنية المختلفة لدى الأطفال و الشباب .
2. تنمية قدرات الأطفال الفنية ومواهبهم وتوجيهها بشكل يتناسب مع متطلباتهم وقدراتهم.
3. تنمية الحس الفني لدى الأطفال والتذوق الفني والموسيقي .
- (3) . مجال الأنشطة الترفيهية (الألعاب) :

يعتبر اللعب مظهراً من مظاهر سلوك الإنسان في مرحلة الطفولة، والتي تعد مرحلة وضع اللبنات الأولى في تكوين شخصية الفرد، ولا يقتصر اللعب على مرحلة الطفولة المبكرة فقط، بل يمتد مع الإنسان في مراحل نموه التالية وإن اختلفت مدته ونوعيته وقيمه فالطفل أثناء اللعب يشعر بالسرور ويعيد التوازن إلى نفسه ويستطيع أن يتعلم باللعب ما لم يتعلمه من أي شخص، فالطفل في اللعب يكشف ذاته وقدراته ويوجهها إلى العالم الخارجي، فاللعب هو عمل الطفل وشغله الشاغل وسيله إلى المتعة والرضا .

يستطيع الطفل أن يمارس اللعب والأنشطة الترفيهية من خلال الأنشطة الترفيهية التي تقدمها المكتبة والتي تتمثل في مجموعة متنوعة من البرامج مثل " مسابقات الشطرنج، ألعاب الفك والتركيب، تكوين مكعبات، مسرح العرائس وعروض أفلام الكارتون والأفلام الروائية والمسابقات... الخ".
وتهدف الأنشطة الترفيهية إلى :

- خلق جو من المرح والمتعة والفكاهة في النشاط .
- توثيق العلاقة بين المكتبة والطفل .
- إحساس الأطفال بالألفة في المكتبة وليس انه مكان للقراءة فقط.

▪ تدعيم العلاقات الاجتماعية بين الأطفال والشباب بعضهم البعض من خلال المشاركة في النشاطات الجماعية . التعرف على القيم الاجتماعية من بطريق غير مباشر مثل النظافة، الصدق ...

- هناك عدد من الشروط التي ينبغي أن تتوافر في أنشطة الأطفال وهى:

- يجب ألا يقل عدد الأطفال في النشاط الواحد عن 10 أطفال.
- لا بد من وجود مشرف مسئول عن إدارة وتنظيم النشاط.
- مكان ممارسة النشاط من الممكن أن يكون في قاعة الأنشطة أو الحديقة حسب النشاط.

- التنظيم المسبق للنشاط والإعلان عنه في مكان واضح (لوحة الإعلانات - مدخل المكتبة .. الخ).

- إعداد وتجهيز أدوات العمل المناسبة للنشاط (أجهزة عرض، أفلام، أدوات فنية، شفافيات ... الخ).

- حصر وتسجيل النشاط في إحصائية القسم اليومية والشهرية .

- الأطفال من 6 سنوات حتى 12 سنة أن تقدم لهم أنشطة تتنوع بين الرسم والتلوين والأنشطة الحركية والهوايات وعروض الأفلام والمسابقات الثقافية ... الخ.

- أما الشباب من 13- 18 سنة تقريباً ينظم لهم أنشطة تتنوع بين الهوايات وعروض المسرح واللقاءات الثقافية والندوات ومسابقات كتابة الأبحاث وتلخيص الكتب والمجلات المطبوعة ... الخ.

- ويحدد لهذه الأنشطة جدول موسمي يعلق في قاعة النشاط وعلى لوحة الإعلانات في مدخل المكتبة . وتختلف كثافة هذه الأنشطة ونوعياتها من فترة إلى أخرى فتبلغ أقصى معدل لها خلال فترة الصيف و إجازة نصف العام الدراسي .

❖ ثانياً "ثقافة الأطفال في عصر تكنولوجيا المعلومات .

❖ عصر المعلومات:

مفهوم عصر المعلومات هو العصر الذي تكون فيه الاتصالات العالمية متوفرة والمعلومات تنتج على مدى وبمعدل كبير جداً وتوزع بشكل موسع وتصبح المعلومات قوة دافعة مسيطرة.

واستخدام المعلومات وتكنولوجيا المعلومات المختلفة في مجتمع المعلومات لا يقتصر علي فرد دون الآخر والأطفال هم معنيون بذلك من هنا نرى الاهتمام بتعليم الأطفال كيفية الحصول على المعلومات واستخدامها وكيفية استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتعليمهم المهارات اللازمة التي يجب أن

يعرفها الأطفال. وتوضع المكتبات العامة ومكتبات الأطفال والمكتبات المدرسية ومراكز مصادر التعلم العديد من الأنشطة الموجهة للأطفال. وتشير بعض الدراسات المعنية بالطفولة والتكنولوجيا إلي أن ظهور مجتمع المعلومات سيؤثر في كيفية التعلم واللعب والاتصال وإعداد الأطفال للمستقبل.

❖ ماذا تعنى التكنولوجيا الجديدة للأطفال:

هل سيكون مستقبل الأطفال في ظل الموجه الجديدة من التكنولوجيا أفضل أم أسوأ؟ إن أوجه التقدم التكنولوجي المختلفة دائما ما يكون لها أصدااء ايجابية وسلبية وعلى الرغم من إن بعض سيناريوهات المستقبل ترسم رؤية متشائمة للتكنولوجيا الجديدة، إلا إن التأثيرات الايجابية تعد قوية أيضا وبالدرجة نفسها، فالوصول للكلم الهائل من المعلومات ومواد التسلية والترفيه يقدم دليلا وسببا كافيا للتفاؤل أيضا، فالقدرة الأكبر على الوصول للمعلومات يعنى أن الجيل الحالي من الاطفال لديه العالم عند أطراف أصابعه، فالنصوص والمستندات والتسجيلات الصوتية قد تغرس انطباعات في أذهان الاطفال أكثر مما تفعله الكتب والفصول الدراسية.⁽¹⁶⁾

❖ ثقافة الأطفال والتكنولوجيا :

مكتبات الأطفال مثلها مثل بقية أنواع المكتبات الاخرى لها علاقة بعصر المعلومات وتكنولوجيا المعلومات وما يجب أن تقوم به في هذا المجال من تعليم وتثقيف وتدريب المستفيدين من خدماتها علي كيفية استخدام تكنولوجيا المعلومات والاستفادة منها فيما يعود علي الطفل بالفائدة سواء في دعم تكيّفه مع هذه التكنولوجيا أو عملية بناء خلفية ثقافية وعلمية للمستفيدين، وإلقاء مزيدا من الضوء علي دور مكتبة الطفل والعاملين بها في تهيئة الأطفال لبيئة عصر المعلومات يعتبر من الأمور المفيدة.

والمكتبة تعتبر المفتاح الرئيسي لتعليم كيفية التعلم في بيئة تكنولوجيا المعلومات الغنية، ويلعب المكتبيون دورا هاما وحيويا في إعادة تشكيل المكتبة لتكون من مؤسسات عصر المعلومات وإعداد القراء لعملية التعلم مدي الحياة. ومن أجل أن تعد مكتبات الأطفال الحديثة روادها للعصر الذي نعيش فيه وهو عصر المعلومات، فإن خبراء المكتبات والمعلومات يوصون بأن المكتبة يجب أن تضم عددا من أنواع تكنولوجيا المعلومات للقيام بالمهام والواجبات التي تطلبها إعداد الطفل لهذا العصر.

وتتيح مكتبات الأطفال الحديثة العديد من المهارات التي يحتاج إليها الأطفال والناشئة والتي تمكنهم من استغلال سليم لموارد المكتبة ومصادر المعلومات

بأشكالها المختلفة وأنواعها المتعددة المطبوعة والإلكترونية، حيث تمنح المكتبة الفرصة لهؤلاء لاستخدام تكنولوجيا المعلومات المتوفرة بالمكتبة مثل أجهزة الحواسيب والوسائط المتعددة والبرمجيات، وشبكة الانترنت وغيرها مما يتوفر من وسائط وأدوات تكنولوجية للتعليم والمعلومات والاتصالات.

❖ تكنولوجيا المعلومات ومكتبات الأطفال:

يرى العديد من خبراء ومختصي علم المكتبات والمعلومات، أن لتكنولوجيا المعلومات مزايا وفوائد متعددة تؤثر في عملية تقديم المعلومات والثقافة للطفل، وتمنح الأطفال فرصاً كثيرة للبحث والاطلاع ثم الإبداع والابتكار.

وفي العديد من الدول تقوم المؤسسات التي تشرف وتقوم على رعاية الأطفال بإعداد البرامج والمشروعات التي تهدف إلى تعليم الأطفال خصوصاً في المدارس، كيفية استخدام التكنولوجيا المعلوماتية في الحصول على ما يحتاجونه من معلومات في مجالات متنوعة وأغراض متعددة مثل استخدامها في دعم التحصيل المدرسي أو التثقيف الذاتي وبناء خلفية ثقافية متعددة الاتجاهات.

وتشير بعض الدراسات إلى أن الآباء قد يشكون من ابتعاد الأطفال عن قراءة الكتب، وتعلقهم بالوسائل الحديثة للاتصال الممثلة بالتلفاز والفيديو والمذياع وأجهزة التسجيل والحاسوب وشبكة الإنترنت وغيرها.⁽¹⁷⁾ فإن هذه التكنولوجيات هي إفرازات الحضارة الحديثة التي نعيش فيها، ولا يمكن أن نلغيها من حياتنا أو نبتعد عنها بشكل كبير بل يكمن دور الآباء في الإشارة إلى أفضل البرامج والموضوعات التي تسهم في حسن توجيه الطفل وتربيته وتعليمه.⁽¹⁸⁾

وحيث إن الأطفال يملكون بشكل كبير جداً غريزة حب الاستطلاع وطرح الأسئلة والاستفسارات حول موضوعات متعددة قد لا نستطيع نحن الكبار الإجابة عليها في كثير من الأحيان فإن هذه الغريزة يمكن إثارتها وإشباعها عن طريق استخدام مختلف الأجهزة التكنولوجية الحديثة في مجال المكتبات والمعلومات وهذا الأمر لا يعني أننا سنستغني عن الكلمة المطبوعة في الكتاب أو المجلة وذلك أن الكلمة المطبوعة، خصوصاً الكتاب سيستمر تأثيرها واستخدامها لأننا نرى أنها هي الأساس وإن التكنولوجيا الحديثة تساعد الفرد على التواصل مع خير جليس في الزمان.

❖ أسباب الحاجة إلى تكنولوجيا المعلومات في مكتبات الأطفال⁽¹⁹⁾:

أ. أن مكتبة الطفل هي أول ما يتعامل معها الفرد في بداية حياته وإذا كنا نعد أنفسنا للتعامل مع البيئة الإلكترونية التي ستسود في الألفية الثالثة فلا مفر من أن يتعود الطفل على التعامل مع البيئة الإلكترونية حتى يألفها فيما بعد.

ب. أثبت استخدام تكنولوجيا المعلومات وتقنياتها أن لها مردود ايجابي على قدرة الطفل على التعلم الذاتي، فضلا عن أن تقديم المعلومات بأساليب جديدة يزيد من فرص الفهم والاستيعاب للأطفال كما يحثهم على مزيد من الاستخدام وتجربة أفكار جديدة وتنمية روح المغامرة.

ت. تنتج الآن مصادر معلومات الكترونية صممت خصيصا للأطفال ومن ثم تسعى مكتبات الأطفال الآن إلى اقتناء هذه المصادر جنبا إلى جنب مع مصادر المعلومات الورقية وغيرها من فئات مصادر المعلومات، مثل السمعيات والمرئيات ومن المتوقع أن يتزايد اقتناء المكتبات للمصادر الالكترونية في المستقبل القريب نظرا للتزايد الواضح في هذا القطاع.

ث. أن مكتبات الأطفال العامة أو المدرسية هي قاعدة الهرم في نظام المكتبات والمعلومات في الدولة، وإذا أردنا تطوير النظام وتحديثه فإن من الأفضل أن نبدأ من القاعدة الأساسية.

وهناك خيار واسع من تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي يمكن أن تكون متوفرة في مكتبات الأطفال الحديثة والمكتبات العامة والمدرسية منها: (20)

- الحواسيب (الكمبيوتر).
- الأقراص المكتنزة
- الوسائط المتعددة
- أجهزة التصوير المرئي الرقمية
- أجهزة تصوير شمسي رقمية
- سواقات تشغيل أقراص مكتنزة
- اتصالات بالخط المباشر
- قواعد بيانات داخلية وخارجية
- شبكة داخلية (انترنت)
- أجهزة تشغيل أقراص دي في دي
- برمجيات حاسوبية متنوعة وبرمجيات للوسائط المتعددة.
- شبكة الانترنت.

❖ أهمية إدخال تكنولوجيا المعلومات الحديثة في مكتبات الأطفال:

قد يتبادر إلى الذهن سؤال مهم: هل نحن في حاجة إلى استخدام تكنولوجيا المعلومات الحديثة في مكتبات الأطفال، مع علمنا بأنها مكتبات صغيرة يقوم بالعمل البسيط بها شخص واحد في أغلب الحالات؟

وبداية نقول :أننا في حاجة شديدة إلي استخدام تكنولوجيا المعلومات في مكتبات الأطفال للاعتبارات التالية:⁽²¹⁾

1. تنتج الآن مصادر معلومات الكترونية صممت خصيصا للأطفال ومن ثم تسعى مكتبات الأطفال الآن إلي اقتناء هذه المصادر جنبا إلي جنب مع مصادر المعلومات الورقية .

2. إن مكتبات الأطفال العامة أو المدرسية هي قاعدة الهرم في نظام المكتبات والمعلومات بالدولة وإذا أردنا تطوير النظام وتحديثه فإن من الأفضل أن نبدأ من القاعدة الأساسية.

3. اثبت استخدام تكنولوجيا إن له مردود إيجابي علي قدرة الأطفال علي التعلم الذاتي، فضلا عن تقديم المعلومات بأساليب جديدة تزيد من فرص الفهم، والاستيعاب للأطفال، كما يحثهم علي مزيد من الاستخدام وتجربة أفكار جديدة وتنمية روح المغامرة.

إن مكتبة الطفل هي أول مكتبة يتعامل معها الفرد في بداية حياته، وإذا كنا نعد أنفسنا للتعامل مع البيئة الإلكترونية التي ستسود الألفية الثالثة فلا مفر من أن يتعود الطفل علي التعامل مع البيئة الإلكترونية حتى يألفها فيما بعد في مراحل عمره المختلفة خاصة بعد أن تبين أن الطفل أسرع من الكبير في التقاط وتعلم أدوات المعرفة الجديدة.

❖❖❖ ثالثا: "تأثير الإنترنت على مكتبات الأطفال :

❖ الإنترنت ومكتبات الأطفال :

يعد الإنترنت من أهم إفرازات عصر المعلومات وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات وهي مصدر لا غنى عنه في العالم للحصول على المعلومات ذات العلاقة بأي تخصص أو مجال من المجالات العلمية والاجتماعية والسياسية أو في المجالات الأخرى مثل مجالات الترفيه والتسلية وغيرها.

وترتبط معظم المكتبات العامة والمدرسية ومكتبات الأطفال والمكتبات الجامعية والمتخصصة ومراكز المعلومات المختلفة بشبكة الإنترنت خصوصا البلدان المتقدمة والعديد من البلدان النامية مع الفارق طبعاً .

وأدخلت المكتبات العامة بما فيها خدمات الأطفال في أوروبا والولايات المتحدة الإنترنت منذ سنوات ماضية وتحاول هذه البلدان أن تكون جميع

المكتبات فيها مرتبطة بالشبكة حسب خطط وضعت لذلك وحسب جدول زمني محدد.

ويجري الإعداد لعقد ندوات حول النظريات والمهارات الضرورية التي توضح الإفادة من موارد الإنترنت في المكتبات المدرسية مما يعني أن عددا كبيرا من الأطفال الذين هم في سن المدرسة يجدون خدمات الإنترنت متوفرة لهم بينما باقي الأطفال يمكن أن يستخدموا المكتبات العامة ومكتبات الأطفال لهذا الغرض. تعود أهمية استخدام الانترنت بالنسبة للطفل إلى أنها تمكنه من التعرف على استخدام التقنيات الحديثة والاطلاع على أكبر قدر من المعلومات، وبناء صداقات مثيلة مع الأطفال عبر العالم، كما يمكن إن تشكل الانترنت مصدر مساعدة للطفل في أداء واجباته والتعلم، فضلا عن الاستفادة من أوقات الفراغ.⁽²²⁾

كما تتيح شبكة الإنترنت العديد من خدمات المعلومات المفيدة، فإلى جانب مصادر المعلومات الإلكترونية من كتب وموسوعات وما إلى ذلك تتوافر إمكانية الحصول على معلومات تتعلق بالمؤسسات والأفراد، فضلا عن المناهج الدراسية والألعاب الترفيهية وغيرها، والسمة الأساسية للإنترنت هنا هي فورية المعلومات وحداثها.

❖ مزايا الانترنت وفوائدها لمكتبات الأطفال:

لشبكة الانترنت فوائد متعددة ومزايا متنوعة يمكن للمستفيدين على اختلاف فئاتهم وأعمارهم الاستفادة منها ومن الخدمات التي توفرها هذه الشبكة، ومن هذه الفوائد ما يلي: ⁽²³⁾

استرجاع المعلومات التي تعالج موضوعات ومجالات مختلفة عبر عدد ضخم من الحواسيب المنتشرة في مختلف بلدان العالم.

(1) اختراق الحدود الجغرافية والسياسية للدول والأقاليم والقارات وتحول العالم إلى قرية إلكترونية صغيرة.

(2) الاتصال المباشر والفوري بحواسيب من مواقع وشبكات متعددة ومختلفة بتكلفة الاتصال المحلي.

(3) أداة فعالية وحيوية ومؤثرة في تثقيف الأطفال والمجتمعات وكسر حواجز الأمية والمعلوماتية.

(4) بإمكان الجميع استخدامها والإفادة منها ولا تقتصر على فئات محددة.

(5) تسهيل العديد من الخدمات مثل البريد الإلكتروني وغيره والتي قد تستخدم من طرف الأطفال أو إداري المكتبة.

(6) الترويج الكترونياً للندوات واللقاءات والأنشطة العلمية والثقافية والتجارية والمعارض وغيرها.

(7) الحصول على استمارات التسجيل والطلبات وعمليات الشراء المباشر.

(8) الإلمام بمدى واسع من المعلومات والأخبار الحديثة التي تغطي موضوعات جارية حول العالم مما يتيح للطفل فهم ما يدور حوله ومناقشة الكبار في ذلك.

وبات من الضروري الاهتمام بإدخال تقنيات المعلومات الحديثة في مكتبات الأطفال العربية حتى تتاح للأطفال فرص الاستفادة من مصادر المعلومات الإلكترونية الموجهة لهم جنباً إلى جنب مع مصادر المعلومات الورقية، كما تتمتع مصادر المعلومات المحملة على أقراص مدمجة بميزات عديدة لذلك يجب تزويد مكتبات الأطفال بالعديد من مصادر المعلومات على أقراص مدمجة وخاصة الموسوعات والبرامج التعليمية والترفيهية، ويجب تشجيع إدخال الإنترنت في مكتبات الأطفال العربية لما لها دور واضح في إتاحة العديد من خدمات المعلومات المفيدة للأطفال.

❖ مخاطر استخدام الأطفال للإنترنت :

كثيراً ما يتساءل الآباء والمربون عن مخاطر استخدام الأطفال للإنترنت، وخاصة إن تعامل الأطفال مع الانترنت وتقنيات الكمبيوتر أكثر سلامة من الكبار، وإن العديد من المدارس في كثير من الدول العربية بدأت تدمج أدوات التكنولوجيا وصفوف الكمبيوتر في صفوفها والعالم الضيق بدأ يتسع شيئاً فشيئاً أمام أطفالنا من خلال شبكة الانترنت.

وفي الحقيقة انه رغم ما توفره الانترنت من فرص للتعلم الذاتي إلا إن هناك العديد من المخاطر لا يمكن للمرء أن يجهلها أو ينكرها ومن هذه المخاطر: (24)

– قضاء الوقت الطويل على الانترنت على حساب واجباته المدرسية والاجتماعية وأوقات الترفيه والاستراحة.

– ما يتعرض له الأطفال على الانترنت كالدخول إلى مواقع غير مرغوب فيها سواء عن قصد أو عن غير قصد.

- الاتصال المباشر بين الأطفال وأشخاص آخرين علي الشبكة قد تؤدي إلي كشف الطفل لمعلومات قد تعرضه أو أسرته إلي خطر شخصي.
- الثقافة المستورة والتي قد تتناقض مع عاداتنا وتقاليدينا.
- تعرض الأطفال للمواقع الإباحية وغير الأخلاقية وغيرها من المواقع غير المناسبة.
- ❖ **سلامة الأطفال على الانترنت :**

- وأمام هذه المخاطر لا بد للآباء والمربين من تقديم العون لأطفالهم لتحقيق السلامة من المخاطر أو علي الأقل التخفيف منها والتوعية إليها، ومن الأساليب والإجراءات التي يمكن للآباء والمربين اتخاذها:
- التوعية والنصح والإرشاد لخلق المراقبة الذاتية لديهم وهذا أهم طريق وقائي لهم.
- المناقشة الصريحة والواضحة مع الأطفال حول استخدام الانترنت.
- التوعية لاستغلال أوقاتهم على الانترنت في جودة ما يطلعون عليه من جهة وفي الموازنة بينه وبين النشاطات الحياتية الأخرى كالنشاط الرياضي والعلاقات الاجتماعية والعائلية والمسؤوليات الدراسية والنوم الكافي.
- طلب الآباء من أطفالهم عدم الكشف عن أرقامهم السرية للاتصال لأي شخص بغض النظر عن هذا الشخص.
- عدم إرسال صورهم أو صور أحد من أفراد العائلة.
- إخبار الأطفال والديهم دائما عن أي اتصال يتضمن تهديدا أو ألفاظ بذيئة.

النتائج والتوصيات

❖ النتائج :

- 1- إن تكنولوجيا المعلومات تستخدم في المكتبات الخاصة بالطفل بشكل كبير، ولكنها في البلدان العربية شبه معدومة.
- 2- أن معظم المكتبات الخاصة بالأطفال صغيرة ولا تتناسب مع التقنيات الحديثة ولا تتناسب مع الأحجام السكانية وأعداد الأطفال فيها.
- 3- ضعف الاهتمام بالطفل العربي في البيت والمدرسة والمجتمع.
- 4- المكتبات الخاصة بالطفل في العالم العربي تفتقر إلي الكادر البشري المؤهل بما يتناسب مع عصر المعلومات .
- 5- يجب تجهيز مكتبات الأطفال لتتناسب مع التكنولوجيا الحديثة وتزويدها بالانترنت والحواسيب المتطورة والوسائل السمعية والبصرية.

❖ التوصيات :

- للهوض بمكتبات الأطفال في عصر المعلومات وتطوير دورها الذي تؤديه في تنمية ثقافة الطفل، خلصت الدراسة إلى مجموعة من التوصيات:
- * توضيح أهمية دور مكتبات الأطفال للمجتمع والمدارس ومد رائها من خلال قنوات الإعلام المختلفة المطبوعة والمسموعة والمرئية.
- إنشاء مكتبات للأطفال في كل حي من أحياء المدينة، وخاصة الكبيرة منها، ضمن خطط مدروسة لانتشارها على أن تكون الكثافة السكانية للأطفال في الحي أحد أسس تلك الدراسة.
 - زيادة الاعتمادات المالية لمكتبات الأطفال وأقسام الأطفال في المكتبات العامة.
 - تدقيق اختيار العاملين في مكتبات الأطفال ويجب أن يكونوا من أخصائي علم المكتبات والمعلومات.
 - توفير التقنيات الحديثة في مكتبات الأطفال لتعزيز استخدام الطفل للمكتبة وتعويده على الاستفادة الفاعلة منها في الحصول على المعلومات.
 - ضرورة أن تكون مكتبات الأطفال تقوم على النظام الآلي التكنولوجي، ومربطة بالشبكة العالمية (الانترنت).

- الهوامش :

1. أيوب، آمنة، المكتبة العامة لبلدية الزرقاء فرع الأطفال "دراسة حالة". رسالة المكتبة. مج 31، ع 4 (1996). ص 78.
2. البقاعي، إيمان، مكتبات الأطفال. دمشق: دار علاء الدين، 2000. - 195 ص.
3. جريده الشرق الأوسط، مكتبات افتراضية وحاجات الكترونية تناسب حاجات الأطفال. ع 9905، تاريخ 10/10/2006.
4. الجوهري، حامد، مكتبات الأطفال والناشئة. القاهرة: العربي للتوزيع والنشر، د.ت. - 158 ص.
5. حسن، سعيد أحمد، أدب الأطفال ومكتباتهم. عمان: مؤسسة الشرق، 1984. - 178 ص.
6. حلاوة، محمد السيد، كتب ومكتبات الأطفال. القاهرة: مؤسسة حورس الدولية، 2000. - ص 136.
7. دياب، مفتاح محمد، مقدمة في أدب وثقافة الأطفال. القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، 1995. - 145 ص.
8. دياب، مفتاح محمد، الطفل والكتاب ومجتمع المعلومات. العربية 3000. س 7، ع 2 (2007). - ص 81-91.
9. دياب، مفتاح محمد، مكتبات الأطفال في عصر المعلومات. عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2006. - ص 111.

10. سمير، هنادة، مكتبات الأطفال والمكتبات المدرسية. العربية 3000. س3، ع1 (2002). - ص 69-74.
11. شبول، أحمد، تكنولوجيا أدب الأطفال. الإسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر، 1999. - 202 ص.
12. عابدة، حسان حسين، مكتبات الأطفال. رسالة المكتبة. مج39، ع2 (2004). - 195 ص.
14. عبد الشافي، حسن محمد، المكتبة المدرسية ودورها التربوي. القاهرة: مؤسسة الخليج العربي، 1986. - 175 ص.
15. عبد الملك، عصام، كتب الكترونية للأطفال في مكتبات بريطانيا العامة. العربية 3000، س3، ع1 (2002). - ص 35.
16. عبد الهادي، محمد فتحي، المكتبة والطفل. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2001. - ص 225.
17. عبد الهادي، محمد فتحي، نحو تطوير مكتبات الأطفال. المجلة العربية للمعلومات. مج16، ع1 (2004). - ص 82.
18. عبد الهادي، محمد فتحي، وآخرون، مكتبات الأطفال. القاهرة: دار غريب، 1988. - ص 183.
19. علي، أحمد، مقرر المكتبات المدرسية ومكتبات الأطفال. دمشق: جامعة دمشق، 2002. - ص 267.
20. عليان، ربحي، المكتبات المدرسية ومراكز التعلم. عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2001. - ص 568.
21. عليان، ربحي، الدور الثقافي لخدمات مكتبات الأطفال "رواية القصة نموذجا" رسالة المكتبة. مج42، ع3، (2007).
22. القبلان، نجاح القبلان، دور المكتبات العامة في تنمية ثقافة الطفل. الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1999. - ص 289.
23. قنديل، دبالا يوسف، مكتبات رياض الأطفال في الأردن. العربية 3000. س3، ع1 (2002). - ص 58-68.
24. كليب، فضل، مكتبة الطفل الافتراضية ودورها في التعلم الذاتي. اربد: جامعة اربد، 2005. - 493 ص.
25. اللبان، شريف درويش، الأطفال والانترنت والتكنولوجيا الجديدة الأخرى. مج9، ع17 (2002). - ص 121-135.
26. المالكي، مجبل لازم، المكتبات العامة. عمان: مؤسسة الوراق، 2000. - 223 ص.
27. محفوظ، سهير، الخدمة المكتبية وأدب الأطفال. القاهرة: المكتبة الأكاديمية، 1997. - ص 191.
28. محفوظ، سهير، الخدمة المكتبية العامة للأطفال. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، 1997. - ص 184.
29. مرتضي سلوى، واقع مكتبات الأطفال وآثار تطويرها دراسة حالة في رياض الأطفال. مجلة جامعة دمشق. مج24، ع1 (2008). - ص 16-50.
30. مرعي، محمد مرعي، ثقافة الطفل والكتاب العربي.. الواقع والتحديات والحلول التطويرية. العربية 3000. س3، ع1 (2001). - ص 28-45.
31. محمد فتحي عبد الهادي، المكتبة والطفل. القاهرة: الدار المصرية واللبنانية، 2001. - ص 45.

32. محمد السيد حلاوة، كتب ومكتبات الأطفال. القاهرة: مؤسسة حورس الدولية، 2000. - ص 87.
33. سهير محفوظ، الخدمة المكتبية وأدب الأطفال. القاهرة: المكتبة الأكاديمية، 1997. - ص 120.
34. مجبل لازم المالكي، المكتبات العامة. عمان: مؤسسة الوراق، 2000. - ص 18.
35. محمد فتحي عبد الهادي وآخرون، مكتبات الأطفال. القاهرة: دار غريب، 1988. - ص 102.
36. سلوى مرتضى، واقع مكتبات رياض الأطفال وآفاق تطويرها "دراسة حالة" في رياض الأطفال. مجلة جامعة دمشق. مج 24، ع 1 (2008). - ص 27.
37. إيمان البقاعي، مكتبات الأطفال. دمشق: دار علاء الدين، 2000. - ص 42.
38. مفتاح محمد دياب، مكتبات الأطفال في عصر المعلومات. عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 2006. - ص 63.
39. عمر الهمشري، ربحي عليان. المرجع في علم المكتبات والمعلومات. عمان: دار الشروق، 1996. - ص 30.
40. المرجع نفسه ص 265.

التركيب اللغوي
في قصيدة : " لىلى المقدسية مهري بندقية "
للشاعر مصطفى الغماري
. دراسة في الوظيفة التداولية .

بقلم
د / بلقاسم دفة
قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة بسكرة - الجزائر

ملخص

من أهم ما تميز به الدرس التداولي تحديده لما يعرف بالوظائف التداولية للغة، إذ تجاوز وظيفة التواصل، إلى تعدد الوظائف.

وحينما يعالج هذا البحث دراسة التركيب اللغوي من حيث الوظيفة التداولية في قصيدة الغماري التي نحن بصدد دراستها، فإنه يندرج ضمن الاتجاه الذي يبحث في الخصائص الشكلية لعناصر التركيب المتعددة (من أفعال، وتكرار، وحذف...) ويبيان وظائفها، ودراسة ما يجعل من نصوص القصيدة خطابا شعريا متداولاً.

Abstract:

What characterizes most the pragmatic lesson is its limitation to what is known as (pragmatic function of language).

It surpasses the communicative function to various functions.

Since this research studies the syntax of language from pragmatic function side in the poem of (EL Ghemari). That is mentioned above, this research goes to the direction in which it studies the formal properties of various syntactic elements like (repetition, omission....etc), showing its functions and discussing what makes poetic text pragmatic oratory poems

مقدمة

عرف مطلع القرن العشرين تحولاً مهماً في التاريخ الفكر اللساني الحديث، وخاصة أعمال فرديناند دوسوسير "F. de saussure" التي ظهرت في محاضراته الشهيرة "cours de linguistique générale"، حيث عدت تأسيساً لمحلة جديدة

مخالفة لتصورات وآراء الدارسين السابقين، وإن كان قد أفاد من النحو التقليدي من قبل؛ لدى الهنود واليونان والعرب، ودراسة الباحثين في القرون الوسطى، وعصر النهضة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، تضاف إلى ذلك البحوث اللسانية التاريخية والمقارنة التي ظهرت في القرن التاسع عشر، وبخاصة ما قدمه فرانز بوب "F.poup"، والنحاة من بعده.

غير أن محاضرات دوسوسير عدت اللسانيات درسا جديدا، له أسسه ومقوماته التي تميزه عن بحوث سابقه. ومما ينبغي الإشارة إليه أن تمييزه بين الجانب الاجتماعي في اللغة "اللسان" "la langue"، والجانب الفردي "الكلام" "parole" يعد منطلقا جديدا لتتبع مسار ظهور التداولية "pragmatique" فيما بعد البنيوية "structuralisme"، لأنه يتميز الجانب الاجتماعي عن الجانب الفردي، وحدود كل منهما، يكون قد حصر المفاهيم المشتركة بين أفراد المجموعة اللغوية الواحدة، وهي القوانين العامة التي يؤدي فيها التواصل، فيكون الخطاب "disceur" مفهوما لدى المتلقي، إن احترام المتكلم نظام اللغة، وغامضا إن خالفها فيما لا يجوز، ذلك أن اللغة تحكمها قوانين الظواهر الاجتماعية، فإنتاج اللغة في منظور اللسانيات الحديثة ينطلق من الأسس الاجتماعية، ثم يجنح إلى الفردية، وحصرت مهمتها في "الكشف عن القوانين الداخلية لهذا النظام، سواء أكانت قوانين ثابتة أو قوانين متطورة"⁽¹⁾.

ومع تطور الدراسات اللسانية تجاوزت اللسانيات الاهتمام باجتماعية اللغة إلى دراستها على مستوى الأفراد، حيث انتقلت من دراسة "اللسان"، إلى دراسة "الكلام" خلافا لما رسمه "دوسوسير"، وهذا جزء أساس من اهتمام اللسانيات التداولية.

اللسانيات الوظيفية والأبعاد التداولية للغة:

تعود اللسانيات الوظيفية إلى مجموعة بحوث لسانية، لم تستقر في زمن معين، ولا عند دارس بعينه، إذ بمقدور الدارس أن يرصد بداياتها من أعمال حلقة براغ (cercle linguistique de praques)⁽²⁾، حين ميزوا بين علم الأصوات العام، وعلم الأصوات الوظيفي الذي يقوم على مفهوم الفونيم "fonème" وقد وصفت أعمالهم بأنها تهتم بالوجهة الوظيفية للجملة، لاهتمامهم بدراساتها ضمن مفهوم التواصل بعده وظيفة أساسية في النشاط اللغوي، وقدم بذلك رومان جاكبسون "R.jakobson" مخطط التواصل المعروف بوظائفه الست، والذي وجهت إليه انتقادات في الستينيات من القرن العشرين، من قبل بعض اللسانيين، أمثال:

دانيش (danes). وفيرباس (firbas) وسكال (scall)، وغيرهم من الذين يرون أن التواصل يتميز بالحركية، وليس بالثبات، كما يشير بذلك مخطوطه.

كما تستند الدراسات الوظيفية - كذلك - إلى ما قدمته المدرسة النسقية بلندن، وهي متأثرة بأعمال حلقة براغ، حيث ترى أن اللغة ظاهرة بشرية متكاملة، وإن تناولها في مستوياتها الجزئية من صوتية، وصرفية، ونحوية، ودلالية، يفقدها طابعها التواصلية الذي يميزها، إضافة إلى أن هذه الدراسة لا تقدم - غالبا - في صورتها المتكاملة، لذلك دعت إلى إغفال أبعادها الاجتماعية، والثقافية، والنفسية، والتاريخية. وطورت في هذا الميدان مفهوم سياق المقام "contesct de situation" الذي يدرس اللغة في سياقها المادي والمعنوي، لأنها ظاهرة اجتماعية وسيمائية "symiotique" وينبغي تحليلها انطلاقا من هذه الأسس اعتمادا على آراء دوسوسير، وهيلمسميلف، ومالينوفسكي، وفيرث ومارتيني.

ومن نتائج الدراسات الوظيفية في السبعينيات من القرن العشرين النحو الوظيفي، الذي يعد من صورها العامة، ويهتم بوظيفة "التواصل" (la communication)، وهي وظيفة اللغة الأساس.

وموضوع اللسانيات في نظر مارتيني هو وصف القدرة التواصلية لدى المتكلم والمخاطب، مما جعل بعضهم يعد نظرية التركيب "syntaxe" والدلالة "symontique" من وجهة تداولية "pragmatique".

ومن أهم ما تميز به الدرس التداولي تحديده لما يعرف بالوظائف التداولية للغة "les fonction pragmatiques"، إذ تجاوز وظيفة التواصل، إلى تعدد الوظائف وأهمها أن اللغة ذات وظيفة تأثيرية في السلوك الإنساني، وتنبني عليها تغيرات في الآراء والمواقف.

والواقع أن مسألة تعدد وظائف اللغة نشأت قبل نضج الدرس التداولي مع "جاكسون"، وتطورت مع باحثين آخرين، مثل: "هاليداي"، و"بوهلر" وغيرهما.

وغاية الوظائف التداولية تحديد وضعية مؤلفات الجملة بالنظر إلى البنية الإخبارية في علاقة الجملة بالبنى المقامية المحتمل أن تنجز فيها.⁽³⁾ فهي - كذلك وظائف مرتبطة بالمقام والسياق، وبمدى إنجازها في واقع التواصل والإبلاغ.

وقد جعلها أحمد المتوكل مستندا إلى "سيمون" ديك (semon dik) نوعين: داخلية وخارجية.⁽⁴⁾ وتسم الوظائف التداولية الداخلية بكونها تستند إلى عناصر تنتمي إلى الجملة ذاتها⁽⁵⁾، وتضم وظيفي المحور والبؤرة، أما الوظائف التداولية الخارجية فغير مرتبطة بعناصر الجملة، إذ تستند إلى مكونات خارجية عن الجمل، وتضم وظائف المبتدأ والذيل.

ويصل مجموع الوظائف التداولية بحسب "سيمون دايك" إلى أربع، ويضيف المتوكل وظيفة خامسة، هي وظيفة المنادى، إذ يقول: "ونقترح شخصيا أن تضاف إلى الوظيفتين التداوليتين الخارجيتين وظيفة المنادى"⁽⁶⁾ فالمنادى شأنه شأن الإخبار أو الطلب، وهو وظيفة تستند إلى أحد مكونات الجملة، فالوظيفة التداولية مرتبطة بالمقام، على نحو ارتباط وظيفة المبتدأ أو الذيل، أو غير ذلك من الوظائف.

مظاهر التداولية اللغوية في قصيدة "ليلى المقدسية مهري بندقية" للغماري:
حينما يتناول هذا البحث دراسة خصائص التركيب اللغوي من حيث الوظيفة التداولية في القصيدة المذكورة آنفا، فإنه يندرج ضمن الاتجاه الذي يبحث في الخصائص الشكلية لعناصر التركيب المتعددة من (أفعال، وبني حجاجية، وتكرار، وحذف...) وبيان وظائفها - كما حددها الدرس اللساني التداولي - ودراسة ما يجعل من نصوص القصيدة خطابا شعريا متداولاً.

والقصيدة من ديوان قصائد منتفضة للشاعر مصطفى محمد الغماري، الشاعر الجزائري، وهو أستاذ جامعي.

ويحمل النص الشعري في الحقيقة قيمة تداولية، غايتها التأثير في الخاطب وتعديل مواقفه، معتمدا في ذلك على البلاغة التي غرضها الإبلاغ والتوصيل.

والنص الشعري بالمفهوم التداولي هو مجموعة أفعال أدائية تضبطها جملة من العلاقات المتحركة في عملية إبلاغه، وكذلك التداولية "تنظر وإلى اللغة بعدها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية"⁽⁷⁾ ولتتقيا في كثير من الميادين بهذين المفهومين، أبرزها أن الميدان الحيوي لكل منهما هو التواصل، ولهذا يمكن الكلام عن التداولية في نص شعري، وأهم ما تتناوله دراسة شروط وصول النص الشعري إلى المتلقي، والتأثير فيه، ودراسة الصور والبني التي تتكفل بذلك.

أما عن القصيد، فإنه يضم العديد من الإشارات الداعية إلى هذا النوع من الدراسة، أبرزها، أن الديوان بعامه، والقصيدة بخاصة تصور معاناة الشعب الفلسطيني، وصور العقل المؤمن، والقلب المطمئن، والإيثار والاستشهاد، وشموخ الانتفاضة، وكبرائها، فكانت ليلي المقدسية"، وغيرها من حرائر فلسطين.⁽⁸⁾

والهدف من هذا المبحث التعرف على أهم خصائص التراكيب النحوية في القصيد، ليس من ناحية البنية النحوية فحسب، بل من حيث ارتباطها بمبدأ التداول بعامه، أي أنه يبحث في الخصائص التي تجعل من تراكيب القصيد موجهة لغرض ما أو مقصد بذاته، لذلك فهو لا يعتمد الوصف الشكلي للتراكيب النحوية، وحصر عناصرها، فيما يسميه أحمد المتوكل بـ "البنية المكونة للجملة"، وتشمل المستوى الصرفي والتركيبى، ويهتم في المقابل بالجانب التداولي للتركيب، والذي يشكل

إلى جانب المستوى الدلالي " البنية التحتية للجملة "، فيما يصطلح عليه المتوكل.⁽⁹⁾

ومن أهم هذه المظاهر: الاهتمام بالمستوى التداولي في عدد من تراكيب القصيدة، وبناء التراكيب بحسب العمليات الفكرية الحاصلة في مخيل الشاعر، إلى جانب اشتغال التراكيب النحوية على عناصر لغوية تحدد وجهة الجملة ودلالاتها، وهو ما يعرف عند التداوليين بالقوة الإنجازية للجملة، ويعرض هذا المبحث أهم نماذج هذه المظاهر في القصيد:

أولاً: الاهتمام بالمستوى التداولي في التراكيب؛

إن الاهتمام بالمستوى التداولي ظاهرة تتسم بها كل الخطابات - غالباً - إذا إن المتكلم ينجز خطابه وفق أحوال مقامية، واعتداداً بمخاطب حاضر حقيقة أو افتراضاً، ولا يختلف النص الشعري عن نص آخر في هذا المبدأ العام، غير أن حضور المخاطب فيه يكون افتراضياً عموماً.

ويتعدد الحضور في هذه القصيدة، ويهتم الشاعر بأحوال مخاطبيه بحسب مقتضيات القول، فيبدو ذلك على مستوى البنية التركيبية، وذلك كالاتي:

أ- تكرار التركيب الإنشائية لإثارة المخاطب وامتناله بما وكل إليه، نحو قوله:⁽¹⁰⁾

يا مَهْرَها أَمْطَرُ قنا وقنابلاً أَمْطَرُ دَمًا أَمْطَر دماراً.. أَمْطَر !

أَمْطَرُ شواظاً من نحاس منتهى حلم الشهيد إليه أَمْطَر تُنْصِر !

وقوله:⁽¹¹⁾

يا حاملَ الألم اليهيج أما ترى في الدرب من عرض يحولُ وجوهر؟

أو ما ترى الآلام هزاة آثم متائم أَوْذِي هَوَى مستسخر؟

وقوله:⁽¹²⁾

يا ناقةَ الله اشربي وتضلعي فقذار يحرق فيك حدَّ الخنجر !

وقوله:⁽¹³⁾

يا شعبُ يا ظهراً تخاشع بعدما ناءت به الأوزارُ من مستوزر !

وقوله:⁽¹⁴⁾

يا جيشَ أحمد يا ظلالَ سيوفه جدُّ الزمان فخذ مكانك واحذر

وتأخذ القصيدة هذا النمط التركيبي إلى نهايتها، إذ يعتمد الشاعر إلى تعدد النداءات: " يا مَهْرَها، يا حاملَ الألم، يا ناقةَ الله، يا عاقراً،..." وتكرارها، وتعدد الأساليب الإنشائية الأخرى " أمر، ونهي، واستفهام، وتمن، وترج، وتعجب..."، وتكرارها، ليحدث إثارة في نفس مخاطبه، ويضمن استجابته، ولذلك فإن هذه

التركيب الإنشائية تضم إلى جانب الدلالات الواضحة في الأبيات مستوى تداوليا تمثله هذه التركيب بتركاها، مما يجعل استجابة المخاطب وقبوله الطلب المفروض عليه، وهو مخاطب افتراضي، يصدق على كل عربي مسلم، فلسطيني، أو من بلد آخر.

ب- تقديم مضمون النداء، وتأخير المنادي والأداة، للاهتمام بالمضمون، نحو قوله: ⁽¹⁵⁾

أفديك يا ابنة كل أروع أسمر بدمي بمعتصر الشعور الأخضر
فقد أشرت أداة النداء مع المنادي في قوله: "يا ابنة"، وقدم مضمون النداء "أفديك"، وهو جملة خبرية، وفي التقديم اهتمام وعناية بالمقدم، لأنه هو المعلق بالنفس أولاً.

ت- الزيادة في التركيب بالوصف، وذلك لأغراض، منها:

- الشكوى والاستعطاف، كقوله: ⁽¹⁶⁾

أفديك يا ابنة كل أروع أسمر دمي بمعتصر الشعور الأخضر
وأجوش جرحك قارئاً مستلهما قمرا بغير الحب لم يتطهر
لغة الجراح تبين عن لغة الهوى بمسلسل سمح وعذب عبقي
لم تأت هذه الزيادات لغرض السامع فحسب، وإنما غرضها بث الشكوى والاستعطاف، فالشاعر يشكو ما حل بالشعب الفلسطيني من مأس ونكبات على أيدي سفاكي الدماء؛ اليهود الغاصبين، ولا يمكن أن يتجسد الغرض دون تكرار وزيادة في وصف الحال.

- إحداث الدهشة لدى المخاطب، نحو قوله: ⁽¹⁷⁾

باغ العروبة فيه ضربة لازب فالحرف غين والتوجيه بربري!
ما أقبح الأيام... في نزواتها ما شئت من عبر ومن مستعبر!
تدني إليك مسافة مقلوبة وتريك وجهك في قفا المستعمر!
وكقوله: ⁽¹⁸⁾

لا يبلغ الأعداء منك إذا سمت بك في الحظوب عزيمة لم تكسر!
إني أقاتل في الضمير مقاتلي يأساً... لم أهزم ولم أستأسر!
أفضي إلى أعماقه مسترسلاً فأروعه بيد الرجاء المقمر!
يرسل الشاعر في وصف صورة الإسرائيلي المحتل، وصورة الفلسطيني المقاوم، ويزيد في وصفها بتركييب مقاربة، مماثلة، ليحدث الدهشة لدى المخاطب، وليستجيب للطلب، ذلك نحو قوله: ⁽¹⁹⁾

واحمل جراح القدس من غدائها مددا وغالب تنتصر أو تعذر!

قاتل بها تقتل فما قتل العدى إلا جدائلها... وكاثر تكثر!
وتعد زيادة العناصر النحوية في التركيب تهئية لنفس المخاطب، واستدراجا له،
لتلقي الطلب الحاصل في نهاية القصيدة، حيث يقول: (20)
نازل وقاتل دون حَق في الورى المجد يزهر في الجبين الأزهر
أجدُر بنار الحق أن يصلي بها عجل اليهود وإن يخر وينخر
في باحة الأقصى ابترد بلهيبها أولا فلذ بصدى الأمانى واصغر!
- تقديم الضمير "أنا" - المسند إليه - قصد التفات المخاطب وانتباهه، وذلك
نحو: (21)

أنا ألم، أنا نادم، أنا خادم إن أتوب عن العروبة فاغفري!
أنا ما حييتُ أكُر غير مذمم بمقاتل مستأصل ومذمّر!
أنا ما سلوثك إن سلا محبوبة مذاق المودة إن يعانق يهجر!
فقد تكرر ضمير المتكلم "أنا" في أبيات متوالية (7) مرات.
- أن يقترن تركيب بأخر تماثلا، وذلك لإثارة المخاطب، نحو قوله واصفا
عمق جرح فلسطين في قلب الأمة العربية والإسلامية، إذ يقول: (22)
ما أروع الغضب الخصب إذا غدت نظم تساس بحالم ومغر!
ما أروع الغضب الخصب إذا عنا وطن يكاد بمعذر ومعذر!
ما أروع الغضب الخصب بأمة لم تسق إلا من نجع أكر!
حيث تكررت التراكيب نفسها في أربع أبيات متوالية "ما أروع..." وقد جعل
الشاعر فلسطين عادة مستباحة، وأفاض في وصفها طلبا لالتفات المخاطب، ثم
يرد ذلك بتركيب، يعرض ما حل، ليخلص إلى الطلب، نحو: (23)

من كل صوب في فلسطين العلا سمح تفجريا فلسطين، افخري
أعراسك الحمز الحسان يتيمة في الدهر فاكتب يا زمان وحرر
وبلجوء الشاعر إلى هذه الصورة يكون قد استخدم وسيلة لإثارة المتلقي، وهي
الغيرة على الشرف، وفي ذلك ضمان لأن يتلقى الخطاب، ويحييه إلى طلبه، ويظهر
جليا حرص الشاعر على إثارة مخاطبه في هذه الأبيات، وفي مثل قوله: (24)
يا جيش أحمد يا ظلال سيفه جد الزمان فخذ مكانك واحذر
"لتقاتلن يهود" فاحمل واحتمل واشرد بعجلك أيهذا الخيري!

ففي ندائه "جيش أحمد" أي جيش محمد صلى الله عليه وسلم أضاف منادى
ثان "يا ظلال سوفه" قصد إبراز المنادى الأساس "جيش أحمد"، وما دمت أمها
الحبين على نهج محمد - على الصلاة السلام - عليك أن تقوم بواجبك، فتقاتل

اليهود، ونحذر فلسطين، وليس أدق من هذا الأسلوب في إثارة المخاطب، وضمان استجابته.

ثانياً: القوى الإنجازية في التراكييب النحوية:

يعد مفهوم القوة الإنجازية " أحد اهتمامات الدراسات التداولية للجمل، ويشمل كل ما يواكب جملة ما أو نصاً كاملاً من مقاصد أثناء التواصل، نحو الإخبار، الاستفهام، الأمر⁽²⁵⁾، وغير ذلك من الأساليب العربية، ومن أنواع القوى الإنجازية في تراكييب القصيدة ما يأتي:

1- النداء: يعد النداء من الأدوات الإنجازية التي تسهم في تحقيق مقاصد التركيب، نحو قوله: ⁽²⁶⁾

يا بنتَ فاطمة البتول إذا عتري فرع إلى أصل وعز بمفخر!
يا أختَ زينب في الخطوب عصية كالدمع لم يحمد ولم يتحدّر
وكقوله: ⁽²⁷⁾

يا بنتَ ساكبة الضياء مشاربا لم نغن إلا من يديك ونظهر
يا نازَ هاكوني البوار على العدى وتفجري بالماردات .. وفجري
فقد خاطب " ليلي المقدسية " بـ " بنت فاطمة البتول "، وأخت زينب " و " بنت ساكبة الضياء... "، وهو نداء لكل فلسطينية متفضة.

2- التكرار: للتكرار - كذلك - قيمة تداولية، تتمثل في اهتمام المتكلم بالمخاطب، حين يعلم أن خبراً ما يثير في ذهن مخاطبه احتمالات عدة، فيكررا التركيب ذاته إزالة لهذه الاحتمالات، وتقوية وتأكيده للفكرة المراد توصيلها للمخاطب، وهي ظاهرة اتسمت بها القصيدة، منها قوله: ⁽²⁸⁾

والليلُ مائدة الفناء لفاكه ثمر الرؤوس فيها شهى المنظر
والليل طهرُ الفاتكين كأنهم والليل نجم في الهلال أصفر
حيث تكررت كلمة "ليل" خمس مرات في أربع أبيات متوالية
وكقوله: ⁽²⁹⁾

ما أروع الغضبِ الخصيبِ إذا غدت نظم تُساس بحالم ومغرر!
ما أروع الغضبِ الخصيبِ إذا عنا وطرنُ يكاد بمعذر ومعذر!
فقد تكرر تركيب " ما أروع الغضبِ الخصيب " . أربع مرات في أربع أبيات متوالية.

3- النعت: يستخدم المتكلم النعت مفرداً أو جملة لبيان المنعوت وتوضيحه، وهنا يظهر اهتمامه بالخطاب، وحرصه على بلوغه إلى المخاطب، ومن شواهد في القصيدة قوله: ⁽³⁰⁾

نازل وقاتل دون حقد في الوري المجذ يزهر في الجبين الأزهر
واشرب من الذل المعتق دنه عللاً.. وقامز في الجبايع وسمسر!
وتتضح القوة الإنجازية للعت في اهتمام المخاطب به (الأزهر، المعتق) أكثر
من اهتمامه بالمنعوت، لأنه أكثر وضوحاً، ولأن فيه ما يسهل بلوغه إلى نفسه،
ويجعله يقتنع به.

الخاتمة

وفي خاتمة هذا البحث، يمكن أن تخلص إلى النتائج الآتية:

- يرتبط مفهوم الشعر عند الغماري بوظيفة الحياة، كأن يحمل موقفاً أو يعدل سلوكاً، أو يدعو إلى أمر أو ينهى عنه، بعيداً عن المفاهيم الأخرى التي تجعل الشعر فناً لذاته، بل إنه عند الغماري فعل وسلوك، ينبغي أن يكون له تأثيره على المتلقين، إنه في نظره رسالة يؤديها الشاعر بالإخلاص التام لانتماءاته الإسلامية والوطنية والتاريخية، والحث الدائم على الالتزام بمبادئها.
- إن الشعر أكثر ملاءمة للدراسة التداولية، وذلك أن هدفه التأثير في المخاطب وتعديل مواقفه استناداً إلى البلاغة التي غرضها الإبلاغ.
- شيوع أسلوب النداء، إذ تكرر في أربع وعشرين. جملة، ويعرض فيه الشاعر إلى وصف الأحوال الدالة على الاستعطاف والشكوى...
- الاهتمام بالمستوى التداولي في التركيب، إذا يبدو اهتمام الشاعر بمخاطبيه في توالي التراكيب الإنشائية لإثارتهم واستمالتهم وقيامهم بما وكل إليهم، ومن ذلك تراكيب النداء، والأمر، والتعجب والاستفهام.

الهوامش:

- (1) رومان ياكبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ترجمة علي حاكم صالح، وحسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2002، ص13.
- (2) Jean dubois et autres, dictimmaire de linguistique, lilrairelarous paris, 217 P 217
- (3) أحمد المتوكل، الجملة المركبة في اللغة العربية، منشورات عكاظ، الرباط، 1988، ص25.
- (4) ينظر: المرجع نفسه، ص25.
- (5) أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر، الرباط، المغرب، ط1، 2001، ص110.
- (6) أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985، ص17.
- (7) فرانسواز أرمنكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنشاء القومي، الرباط، المغرب، 1986، ص56.
- (8) ينظر: مصطفى الغماري، قصائد منتقضة، أسرار من كتاب النار، الإهداء، ص10.

(9) ينظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، ص 45، وما بعدها، والوظيفية بين الكلية والنمطية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط 1، 2003، ص 163، 164.

- (10) الديوان، ص 24.
- (11) الديوان، ص 27.
- (12) الديوان، ص 31.
- (13) الديوان، ص 38.
- (14) الديوان، ص 39.
- (15) الديوان، ص 11.
- (16) الديوان، ص 11.
- (17) الديوان، ص 16.
- (18) الديوان، ص 17.
- (19) الديوان، ص 40.
- (20) الديوان، ص 44.
- (21) الديوان، ص 19.
- (22) الديوان، ص 12.
- (23) الديوان، ص 12.
- (24) الديوان، ص 40.
- (25) ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفة بين الكلية والنمطية، ص 17.
- (26) الديوان، ص 41.
- (27) الديوان، ص 42.
- (28) الديوان، ص 32.
- (29) الديوان، ص 12.
- (30) الديوان، ص 44.

دلائلية النبض في القصيدة الشعبية

بقلم

د / علي بولنوار

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

جامعة المسيلة - الجزائر



ملخص

تعد القصيدة الشعبية عنصرا هاما في بناية الآداب الإنسانية العالمية، ففي أرضها تتجلى عبقرية الأداء الشعري، ومن لبناتها تبنى المعمار الفنية التي تتأزر على إبداعها مجموعة عناصر متعاضدة متلاحمة. ونحن إذا اعتبرنا كل تعبير باللهجة الدارجة شعرا شعبيا، فذلك سيقودنا حتما إلى عدّ الكلام السائر الذي يتبادلته الناس في الأسواق وفي البيوت أدبا شعبيا. وعلى ذلك فليس كل ماكتب أو قيل بوزن وقافية وبلهجة دارجة يسمى شعرا شعبيا. إنما الشعر الشعبي هو الذي انكب فيه أصحابه على اللغة ومفرداتها يبتدعون منها تراكيب جديدة جدّة تجاربههم الشعورية وتفردا، يسكبون فيها مراراتهم الثقال ولوعاتهم السود، فتبدو عبقرياتهم في نظمهم للكلمات في أساليب بارعة ذات الإيحاءات الصوتية المشعة العاكسة لنغم العواطف الفياضة النابعة من التجارب الإنسانية. وتجسيدا لهذا جاءت هذه الدراسة لتعكس جمالية القصيدة الشعبية، من جهة، ومن جهة أخرى لتظهر مواطن النض فيها.

Summary

Popular poetry is considered as a major constituent in the structure of the universal human literature . Its thanks to it that arts prosper those arts are the output of many well co-ordinated elements. If we consider any oral expression as being popular poetry ,this leads us to say that all what people say is oral literature , but popular poetry is that in which poets use creative language to create new structures related their ned original psychological experience,thus their work reflects their ability to use words to build good styles which really reflect what the poet feels, this study tries to implement the esthetic side of popular poetry.

مقدمت

كثيرة هي الأبحاث والدراسات التي يذهب فيها أصحابها إلى القول بأن القصيدة الشعبية مجرد رص لكلام مقول في قافية وتفعيلات، فهو مجرد كلام عادي لا روح فيه

ولا جمال فني، إلا أنني لمست وأنا أتصفح القصائد الشعبية، أن هذا الرأي خاطئ، بحيث نلمس في هذا النوع من القصائد الفن والجمال، وفي هذا المقال ما يثبت ذلك.

ما من شك أن الوصف يعدّ أحد مقومات الشعر الأساسية، بحيث لا يخلو فن منه، وفي هذا المعنى يقول صاحب العمدة: «الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ولا سبيل إلى حصره واستقصائه»⁽¹⁾. ففي جميع الأغراض لابد من اعتماد الوصف ودونه لا تستقيم الصوّر الشعرية، فهو في الحرب حماسة وفي الحسب والنسب والشجاعة فخر، وفي المحاسن غزل، وفي الفضائل مديح وفي الحزن رثاء....

من المواضيع التي استهوت الشعراء، الطبيعة، التي وجدوا في أحضانها فضاء رحبا للتعبير عن أنفسهم، فأودعوها عصارة قلوبهم وعبروا من خلالها عن آلامهم ومطامحهم في الوقت ذاته، فجاءت بناء على ذلك صورة حية ناطقة تعكس همومهم في صدق ووضوح.

لقد كانت الطبيعة⁽²⁾ - ولا زالت - مصدرا أساسا للإبداع الشعري، فهي تمثل خلفية حية باستمرار في وعي الشاعر ولا وعيه بتفاعلها معه. فتبدو كما لو أن التوتر الذي يبدو عليها هو نفسه ما في ذات الشاعر أو العكس.

أول ما نشير إليه - في وصف الطبيعة - ذلك التحول الذي نلاحظه في نظرة الشعراء المحدثين بحيث نلمس نموًا في إحساسهم وتعلقا شديدا بها، بعد أن كان الطابع الموحى بالقسوة والجفاف هو الغالب بوجه عام على وصف الطبيعة عند القدماء، وكان علاقة ضلح وودٍ أقيمت بينهما حولت العلاقة من الصراع إلى الألفة والمحبة.

وما ينبغي أن نشير إليه أيضاً، أن موقف الشعراء من الطبيعة له عدة اتجاهات. فهناك من وقف عند حدود المشاهدة الخارجية وعدّ الطبيعة مستراحا واكتفى بالتصوير الفوتوغرافي، أي بالنقل الحرفي لمظاهرها. وهناك من أشركها معه في أحاسيسه وداعب أجزائها، لكنه لم يذب فيها. ودون شك أن هذا الصنف من الشعراء هو الذي يعنيه سيد قطب عندما قال: «الطبيعة في الشعر العربي قد تحيا وتدب ويحس الشاعر بما يضطرب فيها من حياة، ويلحظ خلجاتها، ويحصي نبضاتها، ولكنه هو لا يندمج في هذه الطبيعة، ولا يحس أنه شخص من شخصها، وفرد من أبنائها وأن حركته من حركاتها، ونبضة من نبضاتها، وأنه منها وإليها وأحاسيسه موصلة بأحاسيسها»⁽³⁾.

وهناك صنف ثالث اندمج في الطبيعة اندماجا كلياً، وخلع مشاعره عليها محاولاً بذلك تجسيم مشاعره ومنسلخاً عن ذاتيته حتى يبلغ الخشوع والتأمل الباطني، منتقلاً

بعدها إلى ما أسماه علماء الجمال ظاهرة تغلغل الأنا في ثانيا الأشياء، وفقدان الشعور بالشخصية، وجنوح إلى الاندماج التام. هنا فقط يصبح الشاعر فنانا مع الطبيعة لا مصوراً فوتوغرافياً، فهو معها كالطفل الرضيع يتشبث بصدر أمه ليقى يمتص رحيق الحياة الطهور، ثم يغفو ملء جفنيه . الفرق إذا واضح بين من ينظر إلى الشيء بالعين وبين من ينظر إليه بالروح والوجدان وكل الحواس.

أما عن الشعراء الشعبيين فقد تعلّقوا هم أيضاً الطبيعة بقسميها الصامت والمتحرك، ونقلوا منها مشاهد زاهية تهتزّ لها النفوس، فلقد وصفوا فيها الرياض والبساتين بأزهارها وأطيّارها. دخلوا عالم الخيول فوصفوا أنواعها ومحاسنها، كما أسمعونا خريير المياه المتدفقة من منابعها، أصاخوا إلى الرعد فوصفوه، حدّقوا في السماء غائمة ومطرة فترأى لهم غيثها بكاءً يبعث الحياة في الأرض بما يجللها به من أثواب زاهية مختلفة الألوان . وطبعاً دون أن ينسوا النخيل والبحر وما إلى ذلك. كيف لا وقد عاش الكثير منهم في ربوعها الزاهرة ببساتينها وجبالها ووديانها ورمالها. ففي هذا الجوّ المنعش والطبيعة الخلابة تربوا حتى نمت في ذاتهم أحاسيس زاخرة بالمناظر الساحرة المليئة بالحركة والحياة فوجدوا أنفسهم مدفوعين لإبراز هذه الأحاسيس في صور شعرية رائعة. فلا نكاد نتعرض لغرض من أغراضهم إلا وجدنا عنصر الطبيعة مسيطراً على موضوعاتهم جميعاً، بل ولقد وُجد من الشعراء من أفرد قصائد يصف فيها مظاهر الطبيعة.

النخلة من أجمل أشجار العالم. وارتباط العرب بها ظهر منذ العهد القديم، ولقد أشار بعض الدارسين لذلك: « وإذا كان قوم تصحّ نسبتهم إلى شجر النخيل فهم العرب ولا نستغرب أن يعتبروها أختاً لأدم وعمّة لهم، وقد عدّها فلاسفة العرب ومفكروهم وعلمائهم في آخر أفق النبات وأول أفق الحيوان، فهي عندهم نبات حيواني لرقية وخصائصه الكثيرة كما شبهها بعضهم بالإنسان عامة أو المسلم خاصّة »⁽⁴⁾.

إضافة إلى ذلك فلقد تشرّفت أن وُلد المسيح عند جذعها وذلك استناداً لقوله تعالى: « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، فتأداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وهزي إليك يذرع النخلة تُساقط عليك رطاباً جنياً »⁽⁵⁾.

وفي منطقة بوسعادة⁽⁶⁾ إذا لم ينظم الشاعر الوصاف في النخلة ولو أبياتاً معدودة فقد فاته شيء كثير وجعل شاعريته مدار تساؤل واستغراب، ذلك أن البيئة

الصحراوية لا تكثر فيها أشجار مثلما تكثر فيها أشجار النخيل. ولا أظن أن الشاعر ابن البيثة قد ارتبط بأي نوع من أنواع الأشجار دونها.

لقد ظهر عامر أم هاني في قصيدته ذو قدرة فائقة على التصوير وصياغة العبارة التي تتيسر للمعنى وتنصاع له، بحيث لا نكاد نعثر له على صور ثابتة جامدة، فهو يلتقط الصورة ضمن مجالها المتحرك .

يبدأ بمقطع يُشبه فيه النخلة بالعالم لكثرة أوصافها، بعدها ذهب يبين العلاقة بينها وبين الزمل لينتهي إلى القول بأن الفصل بينهما أمر مستحيل استحالة الفصل بين آدم وحواء.

وإجمالاً فإن مصدر النخلة البيئة الصحراوية، ووجودها بعث الحياة في الأماكن التي كانت من قبل يابسة ميتة، يقول :

مكثرك بوصاف تشبه للعالم	يا نخله يا ساكنه بر الأرياح
وحيث مكان من قبلك حاطم ⁶	أنت في وسط أصحابي زينك لاح
مكثرك بوصاف تشبه للعالم	يا نخله يا ساكنه بر الأرياح
وحيث مكان من قبلك حاطم ⁷	أنت في وسط أصحابي زينك لاح
فازين أعجبتيه وصجلك رايم ⁸	فزيت من ذا ارمل زدتيه أشباح
هو كي أكرش فيك لكراعك حاكم ⁹	أنت كي أعفستيه أتقدر وصحاح
كي حواء مقرون اسمها بآدم ¹⁰	من يفصلك عا رمل ظنيت جاح

إن المتمعن في الأبيات يدرك أن الشاعر قد أجاد الوصف، وذلك بفضل ما وظف من ألفاظ ضخمة جزلة تناسب المقام، فأنت تحس أنه دعا الألفاظ فاستجابت له، وأهاب بها وأسرعت إليه، وهذا ما يوحي بأنه كان واعياً كل الوعي لدى اختيار الألفاظ. ومثل ذلك لفظ "الأرياح" فهذا يفتح دلاليًا على معان عدة نذكر منها: أنها تشير إلى الإطار المكاني . كيف ذلك؟

فالريح تكثر وتشتد في الأماكن المنبسطة العارية، بحيث لا جبال تعيقها ولا مرتفعات تحد من سرعتها. وبما أن أشجار النخيل تنبت أكثر ما تنبت في الصحراء فإذا لفظ الأرياح يفيد فضاء الصحراء، كذلك من الإيحاءات الأخرى للفظ أنه يدل على الخراب.

فالريح تحدث الزوابع الرملية التي من شأنها أن تعيق نمو الأشجار، كما أنها تفسد المتوج، أي التمر وكذلك تكسر الأغصان وتلف العديد من النباتات .

إلى جانب هذا فإننا نجد لفظ الأرياح يدلّ على المقاومة، فرغم ما تحدثه من أضرار إلا أن النخلة تظل صامدة صابرة، تكافح من أجل البقاء والعطاء. هذه الدلالات رغم اختلافها إلا أنها لا تفسد الصورة العامة، بل تعمل على إثراءها، بحيث يمكن القول عن النخلة إنها ساكنة بر الصحراء، أو بر الخراب أو بر المقاومة.

ومع بقية الأبيات نعثر لنا على عدد كبير من الألفاظ القادرة على الإيحاء فتفقد بذلك محدوديتها في أداء المعاني المتفق عليها وترسم أبعاداً جديدة، من ذلك نذكر: "فزيت، اعفستيه، أكرش...".

ومن بقية الأمور اللافتة في الأبيات ميل الشاعر إلى استعارة خصائص الأحياء وإلحاقها بالنخلة. وهذا فعل يدل على مدى نمو إحساس شاعرنا بالطبيعة، إذ لم يعد ينظر إليها صمًا جامدة، فراح ينفث فيها الحياة حتى تصبح جذيرة بحبه لها وهيامه بها. تظهر الاستعارة في قوله: "أنت كي اعفستيه". ففعل اعفس أي داس، من خصائص الأحياء. كذلك قوله: "كي اكرش فيك". ففعل أكرش أي مسك لا يمكن أن يكون إلا للأحياء. في هذه الاستعارة لنا أن نتمتع بهذه الصورة الرائعة حقًا. الرمل يُمسك برجل النخلة، إنها من إبداعات الخيال الحي المنتج، إننا فعلاً أمام شاعر مقتدر استطاع بذكائه وخبرته الواسعة أن ينتج صوراً دقيقة عميقة تتحرك وتدب فيها الحياة، وهذا ما يسمح لنا القول إن استعمال الشاعر للاستعارات لم يكن من قبيل التظرف فحسب. بل لأن الطبيعة - النخلة - أصبحت قريبة من نفسه، بل جزء من ذاته، وحديثاً لحياته. تأملها ملياً فأدرك خفاياها، فتحت له قلبها فعرف أسرارها أحسّ بحزنها وسرورها مثلما يحس ذلك في عالم الأحياء.

بعد المقطع الذي يبين فيه أصل النخلة، يقفز الشاعر إلى مقطع آخر يرسم لنا فيه لوحة أخرى لا تقل روعة وجمالاً عن الأولى. وهذه المرة يعطي بعض الخصائص ليقول بأن النخلة تسكن جو السماء - على حد تعبيره - رأسها مرفوع دائماً، عالٍ. أما جريدها فممشوط يتدلى على الأطراف منه نوع يبقى قائماً وهو الذي يكون في القسم الأعلى منها، إلى جانب هذا فهو - الجريد - دائم الخضرة طوال السنة، ولا يتأثر ببرد الشتاء ولا بالجليد ولا حتى بحرارة الصيف، يتحمل الغبار والرياح الشديدة القوية. في هذا المعنى يقول:

وسكنت جواسمء قصد التفساح	فيه راسك مرفوع متعلي دايم
أجريدك ممشوط في جنبك دلوّاح	ولي في قطايتك واقف قايم ¹¹
طول العام بخضورتو دايم فحفاح	ضاحك عالفصول من راح أقادم ¹²

ما هلكو برد أشتاء وجليد وطاح ما حرقو ذا الصيف في صهد أصمايم¹³
 متحمل غبار يعمي والأرياح وذا جار أعليه لحراب فاهم
 ماتحشيش إنسل وجريدو طاح يتهايح بساسيه به إقام¹⁴

يتحدث الشاعر في الأبيات عن خاصيتين: الشموخ، ويظهر ذلك في البيت الأول الذي ضمّه مجموعة ألفاظ وصور تعكس ذلك بوضوح. معتمداً على المعاني والإيحاءات دون اللجوء إلى الاستعارة أو التشبيه.

والملاحظ أنه اعتمد نمطين من الصورة، مباشرة وغير مباشرة. المباشرة يعكسها الشطر الثاني من البيت: "فيه رأسك مرفوع متعلي دايم" معنى الشموخ هنا واضح ولا أظن أنه يحتاج إلى إظهاره خصوصاً وأن الشاعر قد ضاعف في اللفظ الموحى ليشدّد على الخاصية وذلك بقوله: "مرفوع، متعلي".

أما الصورة الثانية، أو غير المباشرة فنلمسها في الشطر الأول من البيت: "وسكنت جو أسماء قصد...". فعبارة: "جو أسماء، تدل على العلوّ الشامخ، ومنه يستفاد بأن النخلة شامخة.

أما الخاصية الثانية فهي المقاومة، وتتمثل رموزها في عدم تأثر النخلة بالبرد والجليد والحرارة، وكذلك بتحملها للغبار وللرياح الشديدة.

ما يلاحظ هنا أن الشاعر استخدم عبارات دقيقة تنقل المعنى كاملاً غير مجزوء، من ذلك قوله: "برد أشتاء". فلقد كان بالإمكان أن يكتفي بلفظ برد لكن عندها لا يؤدّي المعنى كاملاً وبدقة، لأن البرد مستويات أشدها وأقساها الذي يكون في فصل الشتاء، لذلك تراه يؤكد على هذه الناحية وذلك حرصاً منه على أن يبعث في ذات المتلقي المعنى المراد بدقة.

كذلك الشأن في قوله: "في صهد الصمايم". فالصيف حار لكن حرارته تتفاوت في درجاتها، ودون شك فإن أشدها التي تكون في فترة ما يسمى بالصّمايم.

أما قوله: "غبار يعمي"، فهي عبارة تؤدي الغرض ذاته. فلو قال الشاعر "متحمل للغبار"، ستكون الصورة عندها واضحة، لكنها بالتأكيد تكون أكثر فاعلية وتكون بها أشدّ انفعالا عندما يقول: غبار يعمي، لأن لفظ يعمي يوحي بالقوّة مع القسوة والهلاك. لذلك فالصورة هنا أبلغ وأدقّ.

ويبدو أن الشاعر لم يكن دقيقاً في توظيف العبارات الشعرية فحسب، بل فلقد ظهر دقيقاً كذلك في صنيع آخر. فعندما قال في البيت الرابع :

ما هلك برد أشتاء وجليدو طاح ما حرقوا ذا الصيف في صهد أصهايم

فماذا لو قلنا شطري البيت وقلنا أو قال الشاعر :

ما حرقوا ذا الصيف في صهد اصهايم ما هلكو برد أشتاء وجليدو طاح

الظاهر أن المعنى بقي هو نفسه، لكن الذي يتفحص في المعاني يجد بأن الصورة قد اهتزت وضعفت. وذلك لأن ترتيب الشاعر لم يكن من فراغ، بل فلقد كانت له رؤية في ذلك تتمثل في مستوى المقاومة فتحمل النخلة للحرارة أمر هين من تحملها برد الشتاء. وذلك لأن النخيل تنبت في الصحراء أي في الأماكن الحارة، وإذا فالحرارة جزء من تركيبها المناخية، بينما البرد يعدّ عنصراً دخيلاً. لذلك فهي - النخلة - تتأثر به أكثر من تأثرها بالحرارة. ولذلك بدأ الشاعر به لأهميته. وبالتالي فالمعادلة لا تكون صحيحة عندما نتصرف في البيت ونقلب شطريه.

وبين الشموخ والمقاومة يقف الشاعر لينقل أو لنقل ليدع لنا صورة وصفية في غاية الروعة والجمال. وذلك عندما يتخيل الجريد شعراً ممشوطاً يتدلّى على جذع النخلة، بينما القسم العلوي منه واقف قائم.

إننا ونحن نقرأ البيتين يغمرنا إحساس وكأن شاعرنا قد نقل إلى أذهاننا الصورة مجسّمة فقرب إلينا المشهد وأقامه أمام أبصارنا ماثلاً كامل الأجزاء، لكن دون أن يفهم بأن الصورة هنا قد أصبحت مادية لا روح فيها، غايتها أنها رسمت المشهد وفقط. وبالتالي أصبح شاعرنا عبداً للطبيعة لا يملك أن ينقل من قبضتها. فالعكس تماماً هو الصحيح. فالطبيعة تلون حسب لون روحه. وإن كان هذا التلون يختلف في العمق والتناول من تجربة إلى أخرى. فتبدو عندها أكثر حيوية مرتقية من مستوى النباتات إلى مستوى البشر. فالنخلة كائن يحس ويعي وكل ذلك بفضل التشخيص وما يحدث في هذه الأداة من تفاعل وتداخل في الدلالة. إن شاعرنا صاحب ذات حية وإدراك واع بأجزاء الموصوف، ولقد امتد هذا الإدراك إلى حد أنه أضفى على الجريد جزءاً من ذاته، أو لنقل خاصية من خواصه. يظهر ذلك في الشطر الثاني من البيت الثالث عند قوله: " ضاحك عالفصول فالضحك خاصية بشرية. مرد هذه الصورة أن الشاعر نظر إلى الجريد فرآه كثير الحسن فاتق الجمال دائم الخضرة، فتأثر لرؤيته ولم يكتف بنقله عبر حواسه الخارجية، فراح يتأمله بأنفاسه، وعندها لم يعد مشهداً خارجياً في الطبيعة بقدر ما

هو كيان داخلي في نفسه. وفي هذه الحالة لم يعبر الشاعر خلاله عما رآه وحسب، بل عبر مما رآه إلى ما شعر به. وبذلك فقدت النخلة ذاتيتها كشجرة من عالم النباتات لتتحول إلى كائن يمتاز بخصوصيات البشر. وهذا الصنيع يوحي بمدى وعي الشاعر الشعبي بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنساني تملأه الحركة والنشاط.

والى جانب أن الشطر من البيت يعكس صورة تشخيصية، فهو من جانب آخر يفيد رؤية ثانية، مفادها الصراع بين عناصر الطبيعة .

فكون الجريد ضاحك على الفصول معناه أنه يتحداها، وكأن حرباً أو عداءاً بينهما. فالفصول رغم ما تمتاز به من قوة الهدم والخراب إلا أنها وقفت مشلولة عاجزة لا قيمة لها حيال النخلة، بحيث لم تستطع أن تمارس وظيفتها في إصابتها بتغيير هويتها، فهي لم تستطع أن توقف خضرتها. وهنا تأخذ النخلة صفة جديدة إلى جانب صفتي الشموخ والمقاومة ألا وهي صفة التحدي .

هذه إذاً رؤية الشاعر في البيتين ولكي يقويها نراه وقد أحكم فيهما جو الوصف بما انتقى من المعاني والألفاظ انتقاءً محكماً، فتراه يذكر اللفظ ويدغمه بآخر قصد تقوية المعنى، من ذلك قوله: "واقف قايم". فلفظ قايم يؤدي نفس معنى واقف، وقبل هذا نراه وقد أتبع الأسلوب نفسه عندما قال: "طول العام ... دايم". فلفظ دايم يفيد الزمن المتواصل، تماماً كما هو الحال بالنسبة لعبارة طول العام. ولا أظن أن هذا التضعيف كان القصد منه التكرار النمطي الساذج أو هو ضرب من الزخرف اللفظي لأن ذلك معناه أن الكلمة قد أصبحت غاية بذاتها، وبالتالي أصبح الشعر شكلاً صناعياً بارداً. والحال ليس كذلك عند شاعرنا.

ولكي يقوي الصورة نجده يتبع أسلوباً آخر، وهو نظام التقابل بين الألفاظ كقوله: "راح أقادم" أي ذاهب وقادم. فهذا التضاد يبعث في العبارة الشعرية معاني الحركة والنشاط، ويزيدها قوة وتأكيذاً.

تتلاحق الصور وتتتابع عند عامر أم هاني متحدتاً عن النخلة، فيرسم لوحة جديدة الهدف منها إظهار صفات أخرى . وكأن الحديث هذه المرة عن الصبر، فهي عندما تعطش تصبر، وعطشها لا يؤثر فيها بحيث كل من ينظر إليها يلمس جمالها الناعم. إنها لا تسقى بكبقة الخضر، التي تُعطى الماء حتى تعوم فيه. والملاحظ أن صبرها يبدأ من يوم غرسها بحيث تُلقى جذورها في أعماق الأرض اليابسة، يقول :

كي اعطشت ماذا أصبرت للتشراح من شافك فاللون قازينك ناعم¹⁵

ما سقاوك كما الخضرة في اللواح والحوض المليون بمياهو عاي¹⁶
 راهي في لعماق اعروك تتلاح في ذي لرض اليابسه تظهر حاطم¹⁷

ما هو شديد البروز في الأبيات أن صاحبهم قد حاول أن ينتزع معاني الضبر من الضعف ومن القوة معا. وذلك حتى يعكس عظمة النخلة.

بدأ الأبيات بصورة دالة على الضعف والانكسار عندما يقول: "كي اعطشت"، فالعطش من الحالات التي تضعف النخلة، بعد ذلك انتقل ليعطينا صورة قوية وتمثل في قوله: "من شافك فاللون قا زينك ناعم". أعتقد أن لهذه الصورة دلالتها اللافتة، عندما أعطى صورة جميلة. للنخلة. وهي في حالة ضعف أي عطش. فماذا لو كانت في غير هذا الحال؟! دون شك فإنها ستكون أكثر قوة وأكثر جمالا.

والشاعر إذ ذهب هذا المذهب فلكي يشير إلى تلك القدرة العظيمة التي تمتاز بها النخلة في جميع حالاتها الأمر الذي يظهر عمق صبرها.

و في البيت الثاني يعطينا مشهدا للضعف الذي يُراد به القوة، فالخضر تُعطى الماء حتى تُمتلأ أحواضها بل وتعم. وكثرة المياه تدل على أنها لا تستطيع أن تعيش بأقل من ذلك. وإذا فهي لا تصبر على العطش. وهذا ما يجعلها ضعيفة، وفي ذات الوقت ما يجعل النخلة قوية لأنها تقدر على ذلك.

أما في البيت الأخير فيرسم صورة يظهر من خلالها مدى صبر النخلة، فقوله: "راهي في لعماق اعروك تتلاح". فهذا يشير إلى المسافة الكبيرة التي تبعد فيها عروق النخلة عن المياه، والمعروف ان المياه تقل كلما نزلت في الأرض، وهذا ما يمكن أن يسبب لها الجفاف.

ويختم البيت بقوله: في ذي لرض اليابسه تظهر حاطم. أي أن النخلة تغرس أساسا في أرض شحيحة بالمياه. بهذا الشكل تكون صورة الصبر قد اكتملت عند شاعرنا لينتقل بعدها إلى آخر صفة تتميز بها النخلة وهي الكرم. فبعد العذاب الذي تمرّ به تطرح خيرها، فإذا هو تمر من النوع الممتاز، دقلة نور الغاليه، تخرج في عراجين متدلية والعسل يقطر منها. يقول الشاعر من يتذوقها، لابد وأن يعود إليها. ومن كثرة المتوج ترى الناس تشبع مما هو متساقط تحتها فقط، فبا سعد الذي يمتلكها أو هو خادم لها. فهي تكرم أهلها وضيوفها وكذلك السياح، بل وتصدر إلى خارج الوطن. إنها مصدر راحة كذلك، للملكة والعروس، فهي ذات فضل

على العباد ولا يمكن أن يجحد غيرها سوى الآثم، ويتابع الشاعر قائلا بأن الأفراح تعم الناس كما تغمرهم السعادة وقت ثمارها، يقول:

بعد ذا العذاب يخرج ثمرك لاح دقلت نور هي غاليه سال الفاهم
في أعراجين مدليه وعسلها ساح من ذاقها كي روح إولي قادم¹⁸
تشيع العباد قا من لي هـ طاح يسعد من هي ليه ولي هـ خادم
أكرمت ناسك أضيافك والسواح وذا خيرك فاض يخرج للعالم
مليكه وعروس من شافك يرتاح فضلك يا نخله من جحدو آثم
وقت أثمارك اتعننا قاع الأفراح لكن ذا الأرزاق ما توجد دايم

رغم أن الشاعر حاول رسم صورة لكرم النخلة، إلا أننا نلمس خصائص كثيرة لها، حتى كاد أن يجعلها أهم شجرة مثمرة. فهي غزيرة غالية، وما يعكس ذلك قوله: "بعد ذا العذاب يخرج ثمرك لاح" فالنخلة لا تعطي منتوجها بسهولة ويسر إذ لا بد وأن يسبق ذلك عذاب لذلك فهو عزيز غالٍ، وهذا الذي يصرح به الشاعر عند قوله: "دقلت نور هي غاليه".

من الصور الأخرى، الدالة على أهميتها قوله: "من ذاقها كي روح إولي قادم". وكذلك قوله: "يسعد من هي ليه ولي هـ خادم". ليس هذا فحسب بل وأضاف قائلاً: "مليكة وعروس من شافك يرتاح" والمعروف أن طعام الملكة لا يكون إلا من النوع الرفيع الممتاز، وكذلك الحال بالنسبة للعروس، إذ لا يقدم لها إلا النوع ذاته.

آخر الصور الدالة على أهميتها قوله: "وقت أثمارك اتعننا قاع الأفراح" وإلى جانب أنها غزيرة غالية ومهمة فهي كريمة، ولإبراز هذه الخاصية نرى الشاعر وقد حشد صوراً عديدة دالة من ذلك قوله: "في أعراجين مدليه" فكلمة أعراجين جمع مفردھا عرجون، وأعتقد أن هذه الكلمة جاءت في صيغة الجمع ليدل الشاعر بها على الكثرة، لا أنها جاءت كذلك بمجرد الصدفة، وذلك لأن منطلقه كان إثارة معاني الكثرة التي تعكس الكرم. كذلك قوله: "تشيع العباد قا من لي هـ طايح". والملاحظ هنا أن الشاعر قد توّسل بالكناية تقوية للصورة، فالناس تشيع من الثمر المتساقط على الأرض، فهذه كناية على الوفرة في المنتوج. وبالتالي فهي إشارة للكرم. أما ما يتبقى في العراجين والذي بالتأكيد يمثل القسم الأكثر فيعد فائضاً.

هذه إذاً نخلة عامر أم هاني، رغم واقعية الأمور وإدراكنا المسبق لبعض معانيها، إلا أنه بفضل كيفيات الصياغة منحنا شعوراً بأننا نقرأ هذا اللون من الوصف لأول مرة، ليس هذا فحسب، بل ونشعر بأننا محتاجون لمعاودة القراءة

مَرَات عديدة لما تتركه من أثر بفضل ما تحدثه في النفس من ثورة وتحول، إنها حقا صور دقيقة وجميلة أحسن الشاعر انتقاء عناصرها، ويؤكد هذا النمط من التصوير أن الشاعر عندما يتناول موضوعا متصلا ببيئته نابعا من وجدانه يبلغ غاية الجودة، فيأتي شعره صادق العاطفة غزير المحتوى، خصوصا إذا اعتمد لغة ابتعد فيها عن الجري وراء الغريب من الألفاظ، واختار اللفظ الجزل المستقيم ذا طاقة شعورية دالة، ومحتوى نفسي مؤثر.

هذه إذاً جولتنا مع الشعر والنخلة، وكما لاحظنا ففي أغلب الشواهد برزت الطبيعة وقد ملكت على الشاعر نفسه، فما استطاع أن يتجرد من تأثيرها أو يبتعد عن جوها. والسر في ذلك دون شك يعود إلى نوعية التعامل، بحيث لم يقف الشاعر - في الأغلب - عند ظاهر الطبيعة لينقل ويجسد الظاهرة كما تبدو للحواس وكأنها وصف علمي جاف خاو من حرارة التجربة، بحيث لا يصهر التجربة بذاته ولا يتولاها بخياله ويكتفي بالمشاهدة الخارجية والتقرير، بل نفذ مما يرى إلى ما يتراءى، من المادة إلى روح وراءها، ذلك أن الشعور اعترأها بحرارة، استمد منها وأضفى عليها. وهذا ما يجعلنا نقول بأن وصف الشاعر، كان وصفا وجدانيا.

وكما هو معروف فإن الوصف الوجداني تغلب عليه النزعة النفسية، فتفيض ذات الشاعر على الموجودات « حتى تطالعنا بأحداق وملامح إنسانية تضحك وتبكي، تطرب وتشقي، تناجي وتشتكي. تعاني وطأة الوجود وتغبط به، فكأنها إنسان متكامل سوي، أو كأن الشاعر يصف ذاته من خلال الأشياء»¹⁹ ولقد ساعد على ذلك اعتماد الشاعر الاستعارة التي تنم عن تطور إحساسه بالطبيعة ليواجهها مواجهة جديدة متحررا من رتابة الواقع وعلاقاته المألوفة. فبفضل هذه الأداة وما يحدث فيها من تفاعل وتداخل في الدلالة ظهرت الطبيعة أكثر نبضا وحيوية، فارتقت مظاهرها من مستوى الجمادات إلى المستوى الإنساني.

- الهوامش :

- 1 - ابن رشيق : العمدة ج2، ص : 294 .
- 2 - انظر سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة ط2، 1978، ص : 33 وما بعدها.
- 3 - سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، القاهرة، ط7 1993 ص : 148 .
- 4 - عبد الكريم اليافي : دراسات فنية في الأدب العربي، دار الحياة دمشق، 1972 . ص : 507 .
- 5 - مريم : 22، 23، 25 24 .
- * - بوسعادة . مدينة تقع في الجنوب الجزائري.
- 7- زينك : همالك . لاح : ظهر . حاطم : يابس.

- 8- فزيت : نهضت. اشباح: رونق . رايم : مناسب.
- 9 - اعفستيه: دستيه. اتقدر واصحاح: قوي وعفي. اكّرّش : يتمسك . أكرّك : رجلك (جذعك).
حاكم : قابض.
- 10- جاح: غير متزن . مقرون : مقترن.
- 11- دلواح : يتدلى . قطايتك: قمة النخلة.
- 12- فحفاح : زاه.
- 13- اصمايم : أربعون يوما في فصل الصيف شديدة الحرارة.
- 14- إنسل : ينزهه. يتمايح : يتهايل . بساسية: مهدوء.
- 15- للتشراح : التشقق.
- 16- للواح : الأحواض. عايم : ممتلئ.
- 17- تتلاح : ترمى.
- 18- ساح : تدفق.
- 19- إيليا حاوي : فن الوصف، دار الكتاب اللبناني بيروت، 1967 ص : 12.

الصورة الشعرية في لزوميات أبي العلاء المعري

بقلم

أ/ محمد مشعل

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة باتنة - الجزائر



ملخص

لقد رأينا من خلال هذا المقال تطابقا واضحا بين نفسية أبي المعري المتأزمة إزاء الكون والحياة والصور والرموز التي استعملها في التعبير عن ذلك، فقد لجأ الشاعر إلى كل الصور - التشبيه والاستعارة والوصفية والرمزية - التي تحمل ظلالا مأساوية كتلك التي تعج بها نفسه، فاختار من الصور أقمها تعبيرا عن المجتمع السياسية والأخلاق، ومن الرموز مثلها، وكانت مأخوذة في مجملها من التراث الثقافي والاجتماعي للأمة العربية الإسلامية، كما استعان ببعض الصور والرموز المأخوذة من البيئة الطبيعية، وقد جاء التناسق واضحا بين طبيعة وإحياء تلك الصور في وحدات السخط والتبرم بالحياة وطبيعة نفسية الشاعر ومنحى تفكيره القاتم، وطبيعة الإنسان المتأزمة سياسيا واجتماعيا، وطبيعة نفسه المتأزمة تأزم الكون والحياة في نظره، التي تؤدي إلى اللاجدوى .

Résumé

Cet article nous a démontré une grande correspondance entre la personnalité an scieuse d'EL MA'ARI, envers, la vie et le monde, et les images poétiques et les symboles qu'ils transportent.

Notre poète a usé des images poétiques comme la comparaison, la métaphore etc . . . ces images portent les mêmes traits du malaise de l'auteur.

EL MA'ARI a choisi les plus sombres pour décrire la société les mœurs, et la politique et de même les symboles utilisé la majorité de ces images appartenant à la société et à la culture arabo islamiques, il a aussi utilisé quelques images et quelque symboles tirés du milieu naturel.

La correspondance de la personnalité an scieuse de l'auteur avec les images de sa poésie et encore plus claire, lorsqu'il nous décrit son malaise envers la vie, la société et politique dans des unités d'image politique qui sont pleines de mécontentement et de colère. Son malaise perpétuel et ses idées s'ambles n'ont servies à rien.

مفهوم الصورة :

إن مفهوم الصورة في النقد القديم، يقف عند الصورة البلاغية في التشبيه والمجاز، بينما يضيف النقد الحديث بالإضافة إلى ذلك، نوعين آخرين من الصور، هما الصور الذهنية، والصورة باعتبارها رمزا⁽¹⁾.

وبذلك لم تعد الصورة البلاغية هي المقصودة وحدها بهذا المصطلح، بل قد تخلو الصورة - بالمعنى الحديث - من المجاز أصلاً، إذ تكون العبارات المستعملة غير مجازية ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب⁽²⁾.

وتعتبر الصورة وسيلة الشاعر والأديب " في نقل فكرته وعاطفته معا إلى قرائه أو سامعيه⁽²⁾ .

ويمكن نجاح الصورة في تأدية هذه المهمة بدقة فإن لم تكن كذلك فهي صورة ناقصة⁽⁴⁾، ولذلك يشترط هناك اتحاد بين الذات المعبرة والموضوع المعبر عنه، حتى يعبر الشاعر بدقة عن أحاسيسه وانفعالاته، ويعكس في شعره ما أحس به كي يجعلنا نعيش في شعره، فنحس بما أحس ونفعل بما انفعل⁽⁵⁾.

وبذلك يكتسب الشعر صفة الخلود " لأنه حرك المشاعر والإحساسات أولاً، فأقنع العقل بالتالي، ولم يقتصر على فترة زمنية بالذات، بل هو صالح لكل الأزمان، كلما قرأه الإنسان اعتقد أنه شعر عصره، وكلما قرأه أحس أن الشعر يخاطب عواطفه هو ويتحدث عن مشاعره، وأحاسيسه، نجد هذا في كثير من قصائد أبي العلاء المعري والمتنبي⁽⁶⁾ والنقد الحديث يلح على وجوب تحسين إيصال الصورة، ونقلها ولا يتأتى ذلك إلا إذا أحسن الشاعر استخدام اللغة، بكل ما فيها من فعاليات وقوى تأثيرية، وإيجابية، وبنه النقد الحديث على وجوب تجنب اللغة العربية التي تنفر القارئ من جمال الأثر الفني، بحيث تجعله يصرفه اهتمامه إلى حل مشكلات اللغة، دون التأثر بما فيها من جمال، وبذلك تفقد الصورة العنصر الهام الذي وجدت من أجله، وهو عنصر التأثير⁽⁷⁾.

ويلاحظ القارئ لوحداث السخط عند أبي العلاء المعري أن الصورة جاءت واضحة وبعيدة عن كل تعقيد لغوي، لأنها جاءت تلقائية، أي هي استجابة لحالة نفسية آتية تدفع الشاعر إلى التعبير مباشرة عن إحساسه، وهذا يدفعه بدوره إلى تلقائية اللغة البعيدة عن الغريب، المباشرة للغة في بعض صوره التي جاءت في مواضيع أخرى من اللزوميات والتي لجأ فيها الشاعر إلى التصنع والتعقيد، إن صوره في وحدات السخط جاءت واضحة ومألوفة في آن معا، إذ التأثير سمته الوضوح وعنوانه الانفعال، لذلك قيل: "إن أقدر الناس على التأثير، إذا تماثلت الطباع هم من يكونون في حال من

الانفعال، وأقدر الناس تعبيراً عن الشقاء من كان الشقاء في نفسه، وأقدرهم عن الغضب من استطاع أن يملأ بالغضب قلبه⁽⁸⁾.

إن هناك فاعلاً دائماً بين الفكر واللغة، إذ للغة دور إيجابي في توجيه الفكر والتأثير فيه، كما أن للفكر دوره وفعاليته المتميز في توجيه اللغة وإعادة تشكيله لعلاقات أثناء تشكيله لنفسه⁽⁹⁾.

وإذن فالصورة هي نتاج الإدراك والفهم والإحساس والانفعال، والتعبير بدقة عن تفاعل الذات بالموضوع، مما ينتج عنه تشكيل جديد يربط بين الأشياء في عالم المحسوسات، وما بين الانطباعات الذهنية والنفسية في عالم الذات، وذلك التشكيل كلي في جده فهو يحمل المعنى أو الفكرة، والعاطفة واللغة، بصورة غير معهودة، إذ الشعر استكشاف لعالم جديد من العلاقات بين الأشياء والأفكار، ومتميز بالإيحاء والتأثير.

وسأقف في هذا المقال - بعون الله وتوفيقه - عند الصورة القائمة على التشبيه والاستعارة، وتلك التي لا تكون فيها اللفظة مجازية، وإنما تكون وصفية إيحائية، ثم أختتم ذلك بالحديث عن الرمز.

التشبيه والاستعارة :

اتفق النقاد القدماء والمحدثون على أن التشبيه والاستعارة من أهم أركان الصورة ثم اختلفوا بعد ذلك في مقاييسهم التي يجب أن تتوفر في التشبيه أو في الاستعارة، ولن أقف عند تلك المقاييس، إذ لا يسمح المقام لذلك، وحسبي أن أورد ما سوف أطبقه في دراستي هنا عن التشبيه والاستعارة، يرى صاحب كتاب نظرية اللغة والجمال في النقد العربي " أن الدلالة الحسية في التشبيه ليست عملية إشارة أو عملية تعبير وإنما هي عملية خلاقة وعنصر فعال في تكوين المعنى نفسه⁽¹⁰⁾ .

وكلما تمحصنا القيمة الدلالية للأشياء الحسية تعمقنا بذلك النشاط الأدبي للتشبيه وعرفنا أن الدلالة الحسية تقتزن في كثير من الأحيان بمعان نفسية، لا تتوفر في حالة التعبير المجرد، إذ أن التعبير الحسي ينقل المتلقي من الإدراك الجاف إلى المعاناة الوجدانية للمعنى، بينما يخاطب التعبير المجرد العقل فحسب⁽¹¹⁾، وما ينسحب على التشبيه ينسحب على الاستعارة إذ الاستعارة قائمة على أحد طرفي التشبيه.

والصور التشبيهية والاستعارة في وحدات السخط، قائمة في معظمها على تجسيد المعنويات، أو تشخيص المجردات، وذلك ما سأحاول الوقوف عليه بالرجوع إلى الأشعار الواردة فيها.

أ - الصور التشبيهية والاستعارة في وحدات السخط والتبرم بالحياة :

لقد تميزت وحدات السخط والتبرم بالحياة بتعداد أهم الأسباب التي دعت الشاعر إلى أن يضيق بالحياة وأن يسخط على الكون أجمع، وكان الشاعر موضوعيا في أغلب ما قدم من الأسباب التي دعت إلى سلوك ذات السبيل، يقول عن ذاته :

ولي أمل كأتم القنا وحال كأقصر سهم يكون⁽¹²⁾

إن التشبيه الذي تضمنه الشطر الأول من هذا البيت لا ينتهي عند حد مقارنة الأمل العريضة بالقناة الطويلة فحسب، بل أن للفظ دلالات أخرى فيما أزعج، فالقناة الرمح هي رمز القوة، وتماها طولها، ومع الطول يكون العلو، والقناة يعلو الإنسان، ويفتك بالقوة ما أراد، وبالعلو يكون الاطمئنان والسلام النفسي، وبه يرتاح البال، ويستمرى الإنسان الحياة، ويعارض هذه الصورة، حالة الشاعر - المجسدة في الشطر الثاني - التي تشبه السهم أقصر ما يكون، والتشبيه لا يقف عند مجرد قلة الفعالية فقط بل يتعدى إلى أمور أخرى، فالقصر يوحي بالانخفاض والانخفاض يوحي بالضعف، والضعف والهوان، والتحقير والتجاهل، وكل ما من شأنه أن يدخل في هذا الباب، وإذا استشعر الإنسان مثل هذه المعاني، أدرك مأساة الشاعر إدراكا قويا، وأعجب في الوقت نفسه بهذه الصورة الرامزة لوضع الشاعر في الحياة .

ويقول أيضا عن نفسه :

فيا ألف اللفظ لا تأملي حراكا فمالك إلا السكون⁽¹³⁾

والاستعارة واضحة في هذا البيت، فالشاعر في الحياة كآلف اللفظ، تكتب ولا تلفظ فهو موجود ولا فعالية له، إن ألف اللفظ ساكن الدهر كله، وليس من أمل في تحريكها، والمعري الضرب، لن يكون إلا ساكنا مثلها ما عاش في هذه الحياة، وللاستعارة إشعاعات شتى، فالمعري يرى نفسه ميتا قبل الأوان، إذ أنه لا يصلح - في نظر نفسه - لشيء، فهو لا ينفع، ولا يضر، ولا يترجاه أحد، ولا يخافه أحد، ولن يكون له فعل أو توجيه في الحياة، لأنه فقد آلة الحياة الأكثر خصوبة وعطاء في هذا العالم، وعليه فإنه لن يكون إلا ساكنا بين متحركين، وتلك هي المعضلة التي أرقته وفتحت باب التفكير أمامه واسعا ليعود منه بحمل ثقيل .

وإذا انتقلنا من المجال الذاتي للشاعر، إلى المجال السياسي والمحيط الاجتماعي فإننا نجد الشاعر قد أبدع في التعبير عن طريق الصور، وعما كان يكابده من إحساس تجاه بعض القضايا السياسية والاجتماعية، فعن الساسة يقول:

ولاة العاملين ذئاب ختل تكون من الشقاء رعاة فز⁽¹⁴⁾

ففي البيت صورتان، صورة تشبيهية وهي ما تضمنه الشطر الأول من البيت، وهي نتيج الحياة السياسية في عصره، وفي غير عصره كما استقرأه من التاريخ عبر آلاف

السنين، فمنذ كان الملك، كان الولاة ذئاب، والذئب غادر أبداً، ولا أخال الشاعر قد قصد من تشبيهه الولاة بالذئاب مجرد التشبيه العرضي، فإن في الذئاب خصال ليست في غيره من الحيوانات المفترسة، بالإضافة إلى غدره، فإنه إذا وقع في قطع من الغنم فإنه لا يهدأ له بال حتى يقتلها جميعاً، ولا يكفي برأس واحد، وأزعم أن هذا ما أراده الشاعر، فالوالي لا يظلم أنداده فقط، أو الذين يخاف منهم على سلطانه، بل يمتد ظلمه إلى كل الرعية، وذلك بتكليفهم ما لا يطيقون من الضرائب أو الاغتصاب لأموالهم، أو تأميم أراضيهم وهو ما حدث عبر مختلف الأزمنة، والتاريخ شاهد على ذلك، وبخاصة في العصور الإسلامية المتأخرة، وإذن فالذئب في نظر أبي العلاء المعري يعتبر صورة رامزة للوالي الذي يمثل الشر والظلم في كل زمان ومكان .

بينما تضمن الشطر الثاني استعارة تصريحية، فالأمة أو الرعية لا تعدو أن تكون قطعاً من الغنم، والصورة هنا معبرة ولصيقة بالمعنى الذي يومئ إليه الشاعر، لأن الشاة تمثل الحيوان الأكثر وداعة والأكثر غفلة، وداعته وغفلته قصد الشاعر، إذ عليها تنطلي الحيل، فهي سهلة الانقياد والطاعة، وهي سهلة الافتراس، ووسيلتها الدفاعية هي الهرب، والذئب لاحق بها، لسرعته وشدته، فضعف الشاة يمثل ضعف الرعية، من كل حول وصول، وقوة الذئب تمثل قوة السلطان وسرعته، وسرعته تمثل ما يمكن أن يستعين به السلطان على إيذاء الرعية من شرطة وعيون، وهكذا تكتمل الصورة الكلية للبيت، فرعاة لا يفوتهم أحد، ورعية لا تنجو من أحد .

وفي المجال نفسه، وقريب من هذا المعنى يقول الشاعر :

ساس الأنام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان⁽¹⁵⁾

إن الصورة في هذا البيت قد بنتها كل من الاستعارة في الشطر الأول والتشبيه في الشطر الثاني، وهي صورة الحكام والولاة الظلمة، وهم يمثلون الشر المطلق كما يمثل ذلك بكل تأكيد، ولذلك شبهوا به، ومن المعلوم أن الشيطان رمز الشر الدائم، ولا يعمل إلا على إيقاع البشر في الخطايا، لذلك كان الشياطين أبلغ في التعبير عن فسادهم وأدل على طغيانهم وتكبرهم، والصورة بهذا الشكل تنفي عن الحكام - لدي المتلقي - أي إمكان لصالحهم، وذلك لما استقر في ذهنه من أن الشيطان يمثل الشر المحض .

والصورة على الرغم من تعبيرها عن مراد الشاعر - فيما أرى - ضعيفة من حيث البناء، إذ بدأها بالاستعارة ثم ختمها بالتشبه، ولو كان العكس لكانت الصورة أحسن وأبلغ، لأن الاستعارة أعلى درجة من التشبيه، وأقوى دلالة على الإيحاء بالمعنى، فعند مجيء التشبيه بعدها مباشرة، يضعف ذلك الإيحاء وتصبح الصورة أقرب إلى التقرير والشرح، بدل الإيحاء والرمز .

وكما عبرت الصورة عن فساد الولاة والحكام، فقد اتخذها الشاعر وسيلة للتعبير عن فساد العامة، وغباء الأمة يقول :

يا أمة من سفاه لا حلوم لها ما أنت إلا كضأن غاب راعيها⁽¹⁶⁾

إن الصورة التشبيهية في هذا البيت لتوحي لنا بتلك الفوضى، التي تسود المجتمعات عندما تفقد الرأس المدير، فتصبح كالقطيع من الغنم الذي لا راعي له، فكما يتعرض القطيع لصولات الذئاب وجولاتهم، وكما يتعرض للتشتت، لفقدانه المنظم، الممثل في الراعي، كذلك تكون الأمة عندما تتبع هواها ولا تحكم عقلها الذي يمثل رأس التدبير، فكما أن الشاة تمثل منتهى الغباء، وقلة الفطنة، مما يجعلها عرضة للإفتراس، فكذلك الأمة التي لا تحكم عقلها في كل أمورها، الاجتماعية والسياسية، فهي عرضة للضياع والتفرق والتشتت وما ينتج عن ذلك من ضعف وذهاب وقوة، مما يقربها إلى الاندثار والزوال .

وقريب من هذا المعنى ورد قول الشاعر عن الأمة أيضا ولكن في مجال آخر :

وقد فتشت عن أصحاب دين لهم نسك وليس لهم رياء
فألقيت البهائم لا عقول تقيم لها الدليل ولا ضياء
وإخوان الفطانة في اختيال كأنهم لقوم أنبياء⁽¹⁷⁾

إن الأبيات السابقة ترسم - عن طريق الاستعارة والتشبيه - صورة كاملة لصنفين من الناس قد يكونا من مجتمعه، وقد يكونا رمزا لكل الناس في مختلف العصور، وبينهما ضاعت الصورة الثالثة التي يريدها الشاعر، تلك الصورة التي تمثل الإنسان التقى العاقل الفطن، ولكن ما الصورتان اللتان وجدتهما المعري في دهره ؟

إن إحداهما تمثل المتدينين بتقليد، الذي لا يعرف من الدين إلا أداء بعض الشعائر، بطريقة آلية، ولا أشواق للروح فيها، ولا خوف ولا رجاء يحده فيها، وصورة هذا المتدين تقرب إلى صورة البهيمة - حسب زعم الشاعر - التي لا تكاد تفقه شيئا .

إذ أن كل ما يصدر عنها غريزي خلق مع الطبع، والصورة الثانية تمثل المحتالين بالدين، الذين يظهرون الورع ويخفون أغراضهم للوصول إلى ما يحتاجون إليه من مآربهم الدنيوية، إنهم كالأنبياء في الفطنة والسلوك الظاهرين وهم كالكنفار والشياطين في مخبرهم .

فالصورة الأولى تمثل الغباء، والصورة الثانية تمثل المكر :

فأما هؤلاء فأهل مكر وأما الأولون فأغبياء⁽¹⁸⁾

وبين هؤلاء وأولئك ضاعت الصورة الثالثة التي تمثل الإنسان كما تخيله المعري، وفقدانها يمثل عقم الحياة واستشراء الفساد فيها، والصورتان بعد ذلك ترمزان إلى الإنسان بصورتيه في الزمان، وهما دالتان على ديمومة الحياة على هذا النمط، مما يكرس السخط في نفسية أبي العلاء، ويعطيه دفعا قويا نحو الثبات والاستقرار على رأيه في الكون والحياة .

وقريب من هذا المعنى ما عبر عنه الشاعر بقوله :

لعل أناسا في المحارب خوفوا بأي كناس في المشارب أطربوا⁽¹⁹⁾

إن الصورة في البيت الآنف تجمع بين قوسين متضادين في الظاهر، ومتحدين في الباطن، إن صورة أولئك الذين يبدون أمام الناس في المحارب متخشعين داعين الناس إلى التقوى، والعمل الصالح، ثم هم على غير ذلك من السلوك في السر وهم أقرب شيئا بأولئك الذين انتشوا بكثرة ما حسوه من شراب، وما سمعوه من طرب، ولكن في أي شيء يشبه أولئك هؤلاء ؟ إنهم يشابهونهم في الوزر والآثام، والصورة أقرب إلى التقرير منها إلى الإيحاء، وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع الشاعر أن يجمع بين ضدين، متنافرين - أهل المحارب وأهل المشارب - في صورة واحدة، تتم عن تكافؤ كل من الفكر واللغة والإدراك .

لقد كان لطوائف المجتمع في عصره الأثر الفعال، الذي حمله على أن يسخط وأن يضيق بالوجود بما فيه، وأن يتبرم بالحياة كلها .

وقد كان ضيقه بالحياة يضيق أحيانا ويتسع حيناً حتى أنه يشمل في بعض الأحيان كل المجتمع أو طائفة كبيرة منه،

يقول في هذا المعنى :

يقولون هلا تشهد الجمع التي رجونا بها عفوا من الله وقربا
وهل لي خير في الحضور وإنما أزاحم من أخيارهم أبلا جربا⁽²⁰⁾

والصورة لا تخفى في البيت الثاني فلئن كانت الإبل الجرباء هي أفضل من أولئك الذين دعوه إلى حضور الجمع، فكيف يكون حال السفلة من القوم، إنهم إذن لا يطاقون، إن تشبيه خيار الناس بالإبل الجرباء لتوحي بالكثير، فالجرب معد ومؤذ، ثم هو بعد ذلك مهلك، وعلى رأي المعري فالإنسان لا يسلم من أذى الناس، إلا إذا اعتزلهم، وهرب منهم، إذ لا يعدم منهم الأذى قل أو كثر، باللسان أو باليد، والجرب الموسوم به خيار الناس ليعد رمزا لعقم لحياة، وهو كالقذى في العين، وكالمغص في الحلق، إذ لا يهدأ للإنسان بال مادام يعاني من المرضين، فكذلك الحياة في نظر أبي العلاء لا تستقيم ما دام هناك شر وأشرار، وما دام هناك موت ومرض وفقير وغنى .

فإذا تركنا أبا العلاء والحياة الاجتماعية، لتنتقل معه إلى عالم الفكر المنطقي والديني، فإننا لن نعدم من شعره التعبير بالصورة عما أهمه وأثار فريحته، وأول ما يلقانا في هذا المضممار إشادة الشاعر بالعقل يقول :

وإنك أن تستعمل العقل لا يزل مبيتك في ليل بعقلك مشمس (21)

وفي البيت نشاط تصويري مكثف عملت على إيجاده الاستعارات الممتالية، وقد استعار المبيت للتعبير عن الإقامة في الحياة أو عن العمر، واستعار الليل للتعبير عن الحياة، واستعار لفظة مشمس للتدليل على صفاء العقل في حكمه ووضوح الأمور عنده، والتعبير بالمبيت عن العمر له نشاط إيحائي، فهو قصير وكأن الإنسان يبيت ليلة ثم يرتحل، ثم إن المبيت يوحي بالظلام، إذ لا يكون المبيت إلا ليلاً، والليل يوحي بالخوف والفرع والشقاء والتعبير بلفظة الليل يكثر الخوف والتوجس، فمن عدو يهاب ومن حيوان مفترس يتقى، ومن تمن للنفس لا يزال عالقا، كل ذلك يصيب النفس فيحليها إلى ظلام قاتم، ومنه تبدو الحياة قاتمة، إذ الحياة ما هي إلا مرور الأيام والليالي، والتعبير بلفظة مشمس عن الوضوح والفهم والهداية ليوحي هو الآخر بتلك الحياة الدافئة عندما يعمل العقل على حل مشكلات الزمان، فيلغى بغير قيود، ويتقل من مشكلة إلى أخرى وهكذا، بيد أن الشمس مهما طال النهار فسوف تغيب، إذ هكذا سنة الحياة في الكون والكائنات، وكذلك تنطفئ شمس العقل عندما يتعدى حدوده .

متى عرض الحجبى لله ضاقت مذهبه عليه وإن عرضنه (22)

إنها الكناية عن العجز الذي يعترى تلك الموهبة متى ما تجاوزت حدها في البحث، وقد اعترف الشاعر بذلك العجز، كما أوماً إلى ذلك العجز نفسه الذي يعترى الناس متى ما تجاوزوا حدود معرفته :

تخالفت الأشياخ في عقب الردى وتلك بحار ليس يدرك عبرها (23)

إن ما يعانیه العقل عند بحثه في أمور ما يسمى بما وراء الطبيعة ليشبه البحر في اضطرابه واتساعه فما كان للبحر من مد وجزر، فإن للعقل مثل ذلك، فقد يطمئن إلى رأي حيناً ثم يعود الاضطراب مرة أخرى، وكما أن البحر يوحي باللانهاية، فكذلك البحث في أمور ما وراء الطبيعة يجعل العقل أكثر تيهاناً من الزورق العائم في البحر بلا ربان، كما يوحي البحر بالغرق والهلاك، إذ يؤدي كل منهما إلى الفقد، ذلك يفقد الحياة، وهذا يفقد الرشد والإيمان، وكما يوحي البحر باللانهاية والخفاء، فكذلك الأمر بالنسبة للبحث فيما قضى الله أن لا يعمل أحد، يؤدي بالإنسان دائماً إلى استحالة المعرفة الحققة في هذا المجال، وهو الخفاء الذي يكتنف الحياة الإنسانية ما بعد الموت، حسب ما ذهب إليه المعري مرات عديدة :

ومما يتصل بما وراء الطبيعة، القول بالبعث والنشور وعدمه، وفي هذا المجال يقول :

ودان أناس بالجزاء وكونه وقال رجال إنما أنتم بقل⁽²⁴⁾

إن البيت قد تضمن صورة تشبيهية لا تخفى وهي قوله : إنما أنتم بقل، وهذه الصورة جاءت تعقيباً على كلام مضى مفاده أن الإنسان سيبعث ويجازى على عمله إن حسناً فبحس، وإن سوءاً فبسوء، بيد أن هذا لم يرق بعهم، فأخبر أن الإنسان مثل البقل عندما يحصد فلا عودة له، والصورة هنا تقريرية قد استهلكت فلا إحياء لها كما أزعم إلا ما أوضحته من معنى .

وكما ضاق بالحياة الاجتماعية والسياسية والدينية، فقد ضاق بأهل الأخبار، وأصحاب التاريخ الذين يدعون أمورا لا يصدقها العقل أو المنطق - حسب رأيه - من ذلك قوله :

يقول الغواة الخضر حي عليهم عفاء نعم ليل من الفتن اخضرا⁽²⁵⁾

فبعد أن نفي أن يكون الخضر عليه السلام حيا - وهو المفهوم من السياق - انتقل إلى وصف وتصوير الفتن التي تعج بها الدنيا، إنها فتن قائمة قائمة الليل، وشاملة للحياة، والصورة بهذا الوصف تنبئ عن الإحساس الداخلي للشاعر ببشاعة الحياة وقسوتها، لأن الصورة عبارة عن تفاعل الذات المبدعة مع الموضوع، والشاعر يصدر عن رؤية ذاتية، فإذا كانت الذات ساخطة أو متشائمة فلن تكون صوره إلا تعبيراً عن ذلك، والخضر عليه السلام وإن كان نبيا أو عبدا صالحا في واقع الأمر، فإنه جاء هنا رمزا ونفيا أن يكون هناك صلاح أو خير، ودليله في ذلك هو هذه الفتن المتلاحقة، التي تدع الحليم حيران، وهذا مما كرس السخط والتبرم بالحياة عنده، وأكد له عقم الحياة واستحالة استقامتها ما دامت هناك حياة على وجه الأرض .

الصورة الوصفية :

كنت قد أشرت في بداية هذا المقال إلى أن الصورة في النقد الحديث لم تعد تقتصر فقط على التشبيه والمجاز، بل قد تكون الصورة خالية من المجاز أصلا⁽²⁶⁾ وعلى الرغم من ذلك فهي تعد صورة شعرية نتيجة لما تقدمه من وصف حسي وحركي للأشياء الموضوعية " إذ الكلمات تثير عمليات غير لفظية، مثل إدراك العلاقات، وتحيلنا إلى أشياء في واقع الحياة "⁽²⁷⁾

ومن أمثلة هذه الصورة في وحدات السخط ما تضمنته هذه الأبيات :

أنت جمع يوم العروبة جامعا تفص على الشهاد بالمصر أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها لخلت سماء الله تمطر جمرها

فهدوا بناء كان يأوي فناءؤه فواجر ألقت للفواحش خمرها⁽²⁸⁾
 يمكن للقارئ أن يتحسس من خلال قراءته لهذه الأبيات حركة خارجية تتمثل في
 مجيء المرأة إلى المسجد الجامع، وحكايتها لقصتها والمصلون يستمعون، ثم قيام
 هؤلاء بتهديم الماخور وهي صورة حسية عمل على تجسيدها السمع والبصر واللسان،
 ثم هناك حركة داخلية في نفس الشاعر تدل على انفعاله الشديد بالحادثة، مما جعله
 يتوقع عقاب الله إن لم يقم الناس بنجدة المرأة وذلك بالقصاص ممن أذوها .
 ويقول عن سدنة الكعبة :

ففي بطحاء مكة شر قوم وليسوا بالحماة ولا الغياري
 وإن رجل شبيهة ساديتها إذا راحت لكعبتها الجمارا
 قيام يدفعون الوفد شفعاً إلى البيت الحرام وهم سكارى⁽²⁹⁾

إن هذه الصورة على الرغم من خلوها من المجاز فهي تبدو زاخرة بالحركة
 الخارجية، فسدنة مكة من شرار القوم يشربون الخمر، ويدفعون الحجيج بعنف،
 ويأخذون الرشوة عياناً، ويدخلون بيت الله من أعطاهم ذلك ولو كانوا على غير ملة
 الإسلام، كاليهود والنصارى على الرغم مما نص عليه الشرع من حرمتها عليهم،
 وبالإضافة إلى هذه الحركة الخارجية هناك حركتان داخليتان معبرتان أولاهما تتعلق
 بالسدنة إذ تبدو نفوسهم مريضة بحب الدنيا والشهوات مما جعل حسهم يتلبد فيعضون
 الله في البلد الحرام وفي الشهر الحرام، وثاني الحركتين تمثل الحركة النفسية للشاعر،
 إذ يبدو سخطه وضيقه بمن كان الأولى بهم التقوى والتعفف والإخلاص، والصورة
 بعد ذلك ترمز لفساد الإنسان واستحالة تهذيبه، إذ كيف يعقل أن يستقيم البشر على
 الطريق السوي وهم يعصون الله في أقدس بلاده، وبأشد أنواع المعصية - شرب الخمر -
 فكيف يكون الناس في باقي البلاد، إنهم لن يكونوا أقل من هؤلاء بالتأكيد، وإذن فزوال
 العالم أفضل من بقاءه .

متمجسون ومسلمون ومعشر متصرون وهائدون رسائل
 وبيوت نيران ترازز تعبداً ومساجد معمورة وكنائس
 والصابؤون يعظمون كواكبا وطبع كل في الشرور حبائس⁽³⁰⁾

والصورة كما تبدو من خلال هذه الأبيات وصفية تقوم على تعداد أصناف
 المعتنقين للديانات، وهي حركية، تصور حركة هؤلاء في غدوهم ورواحهم نحو بيوت
 عباداتهم، ثم هي بعد ذلك تكشف عن سوء خلق هؤلاء جميعاً، وتكشف من جهة ثالثة
 عن سخط الشاعر عليهم، وفي الأخير يمكن أن نعتبر الصورة رمزا لفساد الخليقة
 أجمع، فإذا كانت الديانات لم تستطع تهذيبه، فكيف يرجى منه الخير بعد هذا كله، وإذا
 كان هذا حال الخلق، فكيف حال القدر أو المجهول ؟ يقول الشاعر :

بأي جرم؟ وأي حكم
وعذرت حاجة يبسر
سلط لبث على مهامها
على عليل قد اشتهاها
وظالم عنده كنوز
من أم دفر ومن لهاها⁽³¹⁾

إن هذه المقطوعة تكوّن في مجملها صورة معبرة، فالبيت الأول، قائم على الرمز، والبيتين الباقيين قد عبّرا بالصورة الوصفية عن واقع معين نتخلله وهو موجود في كل زمان ومكان، ذلك الواقع الذي نجد فيه دوما الكثير من المفارقات فالعليل المحتاج يتضوى من الجوع والفقر، وظلوم جهول يرفل في ثياب النعمة، والصورة في ظاهرها أقرب إلى التقرير والوصف منها إلى الإيحاء، بيد أننا إذا تعمقنا الحركة النفسية التي صدر عنها الشاعر في تعبيره - والتي تتمثل في العجز عن فهم الحكمة الإلهية - فإننا ندرك مدى الإيحاء الذي تمثله هذه الصورة إنها صرخة نفس كئيبة معذبة تواقه إلى الانعتاق من إसार الفكر الرهيب والإحساس المضني والواقع المفجع .

وقريب من هذا المعنى يقول الشاعر أيضا :

وما تزال تلاقي في دجى وضحى
وما وجدت صروف الدهر ناكبة
مبشرين بلا بشرى وناعينا
عن فانتين لوجه الله داعينا⁽³²⁾

إن الصورة الوصفية في هذين البيتين قائمة على تصوير حركتين : خارجية، وداخلية فالحركة الخارجية تتمثل في إخبار الشاعر عن واقع معين ومحدد فيه تكثر الحركة والحركة المضادة، المتمثلة في التبشير مرة وفي النعي مرة أخرى، وفي رصد حركة صروف الدهر مرة ثالثة، تلك الصروف التي تأتي على الكل، ولا يمنع الصالح منها صلاحه أما الحركة الداخلية النفسية، فهي ذلك الإحساس الذي يوقظ فينا ملكة التفكير، والإحساس بالتعاطف والمشاركة ونحن نقرأ الأبيات إنه الإحساس بالمأساة والعجز عن الفهم، فهم مرامي الأقدار وكنه الواقع .

ومن الصورة الوصفية أيضا ما تضمنه قول الشاعر :

وتقسم حظوة حتى صخور
كذات القدس أو ركني قريش
يزرن فيستلمن ويلتسمنه
وأسرتهم أحجار لطسنه
يحجج مقام إبراهيم وفد
وكم أمثال موقفه وطسنه⁽³³⁾

تدخل هذه الصورة فيما أزعم ضمن الصور الوصفية الرامزة، فهي تبدأ بوصف الحركة الخارجية، إذ هناك صخور تزار تعبدا فتلمس وتستلم، كذلك التي في البيت الحرام - الحجر الأسود أو التي في القدس - صخرة المعراج - وتشارك في هذه القداسة بعض الأماكن كمقام إبراهيم عليه السلام بمكة والقارئ يستطيع أن يرصد تلك الحركة الخارجية باستحضاره الذهني لتلك الصورة، فيرى الناس يحجون ويستلمون الركن، ويصلون في مقام إبراهيم .

أما الحركة الداخلية المعبرة عن نفس الشاعر، فهو ذلك التعجب المشوب بالحيرة الذي يعتره حينما يستحضر تلك المواقف، والصورة في مجملها رامزة وإيحائية، فهي صورة رمزية لكل الوقائع الكونية المشابهة والغامضة السر وهي إيحائية بحيرة الشاعر وعدم فهمه للحكم الإلهية في الكون .

الرمز في وحدات السخط :

إن الرمز ضرب من الصورة الشعرية ككل، إلا أنه له علاقة بالصورة الاستعارية والتشبيهية إذ تتطور الاستعارة في بعض الأحيان إلى رمز، وكذلك الشبيه، وذلك إذا ألح الأديب في ترديد خامة من الخامات بعينها، كمشبه به أو نحو ذلك، وهنا تخرج الخامة من إطار الصورة إلى رمز في آخر الأمر⁽³⁴⁾.

وعلى الرغم من أن أغلبية الاستعارات التي مرت تعتبر من جوانب مختلفة صوراً رامزة، إلا أن هناك رموزاً أخرى تختلف عن الصور الاستعارية القائمة على التجسيد والتشخيص، إذ يعتبر الرمز " وسيلة للإيحاء بالمضمون العاطفي أو الفكري، الكامن خلف اللفظ المستعمل كرمز"⁽³⁵⁾، وغاية الرمز الأولى، هي الارتفاع بالمعنى إلى مستوى جديد، وذلك بما يغني به من إيحاء، وخصوبة في التعبير، لا يملكها اللفظ المجرد⁽³⁶⁾.

والرموز بعد ذلك ثلاثة، رمز طبيعي، وتراثي، وخاص⁽³⁷⁾.

والذي نلاحظه في وحدات السخط لدى المعري هو استعماله الرمز التراثي وحتى تلك الرموز التي تبدو في صورة الرمز الطبيعي أو الخاص، فهي مرتبطة بالتاريخ والثقافة مما يدخلها ضمن الرمز التراثي مثال ذلك قول الشاعر :

ضمنت فؤادي للمعاشر كلهم وأمسكت لما عظموا الغار أو خمأ⁽³⁸⁾

فالغار وغدير خم رمزان طبيعيان إلا أنهما ارتبطا في التاريخ الإسلامي بأكبر فئتين من المسلمين :

أهل السنة، والشيعة، فالغار رمز أهل السنة الذين يقدمون أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويعتبرونه أولى بالخلافة من غيره، لأنه أول الناس إسلاماً، وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر معه، ومعه دخل الغار وفيه نزل قوله تعالى : " ثاني اثنين إذ هما في الغار"⁽³⁹⁾، بينما تقدم الشيعة على ابن أبي طالب - كرم الله وجهه - لما ورد فيه من أحاديث كثيرة، وأشهرها حديث غدير خم، إذ قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : "... يا أيها الناس إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه، فهذا علي مولاه، اللهم وال من ولاه، وعاد من عاداه ..." ⁽⁴⁰⁾.

ورمز الغار أو غدير خم لا يجسد فكرة ما أو عاطفة معينة، وإنما هو رمز إيحائي، يشير إلى الغلو والتعصب المفرط، لكلا الفريقين، وما يستتبع ذلك من اختلاف يؤدي إلى السوء في أغلب الأحيان، لذلك فقد أبي الشاعر أن يكون من أحد الفريقين، لأن لخصومة تفرقهما والرمز قبل هذا وذاك إيحاء من الشاعر وتدلليل منه على فساد الكون والحياة أجمع . لأن المتخاصمين لو كانوا على تقوى من الله، لما آل الأمر بهم إلى إراقة دماء بعضهما البعض، إذن فلا سلام حتى مع الذين يدعون الفضيلة، والتسامح في حين يكون الاختلاف في المذهب عندهم مجالاً للشر والاعتداء .

وقريب من هذا الرمز التراثي قول الشاعر :

وأشوى الحق رام مشرقي ولم يرزقه آخر معـربي
فذا عمر يقول وذا علي كلا الرجلين في الدعوى غبي⁽⁴¹⁾
فغمر - رضي الله عنه - وعلي - كرم الله وجهه - رمزا السنة والشعبة أيضا، وهما يوحيان بالمضمون الفكري لكلا الفريقين، فهؤلاء يقولون بالخلافة في قرش والأمر شورى وأولئك يقولون بالإمامة، والعصمة، وينجر عن هذين الموقفين عادة صراع يؤدي في أغلب الأحيان - كما أشرت سالفاً - إلى إراقة الدماء، وهي المواقف التي يكرهها المعري لأنه إنساني الشعور، عالمي الفكر، فليس من اللياقة، ولا من الدين أن يقتل الناس لمجرد الاختلاف، لأنهم في تلك الحالة يفقدون ما يدعونه من إيمان وصلاح، إذ أدخلوا بالشريعة الإسلامية التي تحرم القتل، وقول المعري بغباوة الفريقين قد يوحي لنا بأنه على مذهب الخوارج في الخلافة، الذين يرون أن أصلح خليفة للمسلمين هو ذلك التقي في دينه، ولو لم يكن عربياً، وقد يوحي لنا وهو الأرجح عندي - بأن الأمر أفضح مما هم فيه فلا الخلافة، ولا الإمامة، ولا العصمة تنجي الإنسان من الشر الذي يكتنفه والعذاب الذي يعانيه على مدى الدهر، بل هو أن يكون الإنسان معري الفكر والإحساس، يرحم الناس ما أمكن، وبالعقل ينفي الحياة بالطريقة المثلى لديه، وهي إيقاف النسل .

ومن الرموز الخاصة عند المعري - وإن كان لها سند تراثي - رمز الضب، وقد ألح الشاعر مراراً على ذكره، في بعض صوره، من غير ما ذكرت من شعر فيما مضى ومن أمثلة ذلك قوله :

لولا أبو الضب وأجداده لم يرتقب كيدا من الحارث⁽⁴²⁾
وقوله :
أم دفر اني هويتك جدا أي ضب تركت من غير حرش⁽⁴³⁾
وقوله :
أبوك جنى شرا عليك وإنما هو الضب إذ يسدي العقوق إلى الحسل⁽⁴⁴⁾

وقوله :

وكم بر- مثل البير، نجل أب له وكان له كالضب إذ يغدر بالحسل⁽⁴⁵⁾

إن صورة الضب في الأبيات السابقة جاءت تعبيراً عن الإنسان، أو تشبيهاً له به، هذا إن نحن أخذنا بالرأي القائل بأن إلحاح الأديب على صورة من الصور يكتسب صفة الخاصية، فإن هو كرر ذلك الإلحاح مراراً، فإن تلك الصورة تغدو رمزا⁽⁴⁶⁾. وبما أن الرمز " يعبر عن وحدة الأثر النفسي "⁽⁴⁷⁾

فإن الضب قد غدا رمز الإنسان الذي تتحكم فيه الغرائز، فلا يستطيع الفكك منها، ويكشف عن ذلك قوله :

وضب ما رأي في العيش خيرا وما ينفك من تربيت حسل⁽⁴⁸⁾

وهذا الرمز تراثي، إذ تقول العرب : هو أضل من الضب، لأنه إذا خرج من جحره لا يكاد يهتدي إليه⁽⁴⁹⁾ ويقال عنه أيضاً، أعق من ضب لأنه يأكل أولاده،⁽⁵⁰⁾ ويبدو أن فيه غفلة، إذ يعمد الصياد إلى جحره فيضرب على بابه بيته، فيقدر الضب أن حية جاءتة فيخرج ذنبه ليضرب به الصائد فيقبض عليه، وربما فطن الضب إلى ذلك فلا يخرج ذنبه⁽⁵¹⁾

والرمز بذلك يغدو إيحائياً بكل خصال الإنسان، ففي الإنسان ضلال وزيف كما في الضب، وفيه عقوق كما فيه، وفيه غفلة كما هي فيه، وعلى الرغم من أن الإنسان لم ير في حياته خيراً - حسب رأيه - فإنه ما ينفك ينسل، ويخرج نسمات إنسية إلى هذا الوجود فتشقى لا شيء ألا لأن الذي سعى بها لهذا الوجود ضال وعاق، وغافل .

ويمكننا أن ندخل ضمن الرموز الخاصة أيضاً قول الشاعر :

بأي جرم وأي حكم سلط ليث على مهاها⁽⁵²⁾

والرمز هنا لا يجسد فكرة ولا يصور شيئاً وإنما هو هنا إيحائي، فالليث رمز القوة والبطش، وسفك الدماء، والمهوى (بقر الوحش) يضرب بها المثل في الحسن واللطافة وهي رمز الضعف عادة، والرمزان، في مجملهما يوحيان لنا بثبات فساد الكون والحياة، لذلك كانت هذه الرؤية من المصادر التي لا تكاد تنضب، ولم تن في إعطاء الشاعر مزيداً من الإحساس بالسخط والنقمة .

ما لنفسي خلاص من نوائبها ولا لغيري إلا الكون في العدم⁽⁵³⁾

فأنت ترى معي أيها القارئ الكريم أن الشاعر قد أبدع أيما إبداع بالصورة والرمز عن مكونات نفسه وهواجسها، وعن أفكاره المعقولة، وغير المعقولة - عندنا - وذلك لتمكنه من ناصية اللغة وعبقريته الفكرية، التي استطاعت أن تشكل لنا من ألوان الحياة

أشكالاً مختلفة، وإن كانت تنحو دائماً نحو إعدام الحياة عن طريق إهدام النسل، والسبيل في ذلك هو عدم الزواج والانفصال عن الآخر - المرأة - انفصلاً مطلقاً يفضي في الأخير إلى إيقاف مأساة الإنسان في هذا الكون .

- التهامش :

- (1) علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، دار الأندلسي، ط1، ص 1 .
- (2) المرجع نفسه ص 25 .
- (3) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، ط7 ص242 .
- (4) د/ عبد الفتاح صالح نافع، الصورة في شعر بشار، دار الفكر، الأردن 1983 . ص 249 .
- (5) المرجع نفسه، ص : 52-51 .
- (6) المرجع نفسه، ص : 65-55 .
- (7) د/ عبد الفتاح صالح نافع، الصورة في شعر بشار بن برد، ص : 80-81 .
- (8) المرجع نفسه، ص : 56 .
- (9) د/ جابر أحمد عصفور، الصورة في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة ص 353 .
- (10) تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1983 ص 264 .
- (11) المرجع نفسه ص 264 .
- (12) اللزوميات، مج2 ص 510 .
- (13) المصدر نفسه، مج2، ص : 510 .
- (14) اللزوميات، مج1، ص 515 .
- (15) اللزوميات، مج2، ص : 502 .
- (16) المصدر نفسه، مج2، ص : 502 .
- (17) اللزوميات، مج1، ص : 616 .
- (18) المصدر نفسه، مج1، ص : 51 .
- (19) اللزوميات، مج1، ص : 87 .
- (20) المصدر نفسه، مج1، ص : 616 .
- (21) اللزوميات، مج2، ص : 42 .
- (22) المصدر نفسه، مج2، ص : 523 .
- (23) اللزوميات، مج1، ص : 423، عبرها : ساحلها .
- (24) المصدر نفسه، مج2، ص : 259 .
- (25) اللزوميات، مج1، ص : 488 .
- (26) المصدر نفسه، مج1، ص : 492 .
- (27) المصدر نفسه، مج1، ص : 32 .
- (28) اللزوميات، مج2، ص : 32 .
- (29) المصدر نفسه، مج2، ص : 620 .
- (30) المصدر نفسه، مج2، ص : 528 .
- (31) المصدر نفسه ص : 528 .

- (32) د/ عبد الله شيخ عروضة، الصورة الشعرية عند المعري، دراسة قوامها الإحصائية والتحليل، إشراف د/ محمود الربيعي، رسالة دكتوراه، مخطوطة جامعة القاهرة 1976. ص 597
- (33) د/ محمد مندور، الأدب وفنونه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة القاهرة.
- (34) د/ أحمد بسام الساعي، حركة الشعر الحديث في سوريا من خلال أعلامه، دار المأمون للتراث، ط 1. ص : 337.
- (35) رنيه ويلك، أوستن وارين، نظرية الأدب ص: 196-197.
- (36) اللزوميات، مج 2، ص: 417.
- (37) سورة التوبة، آية 40.
- (38) رواه الترمذي، الطرازي، وابن جرير نقلا عن الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، النص والاجتهاد، قدم له العلامة محمد صادق الصدر، مؤسسة الإعلام للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط 4، 1966، ص: 359. رواه الترمذي بهذا الشكل (من كنت مولاه فعلي مولاه) الجامع الصحيح، « سنن الترمذي، ج 5، ص: 297».
- (39) اللزوميات، مج 2، ص: 641.
- (40) المصدر نفسه، مج 2، ص: 78. الحارث: الذي يصيد الضب.
- (41) المصدر نفسه، مج 2، ص: 79.
- (42) المصدر نفسه، مج 2، ص: 318.
- (43) المصدر نفسه، مج 2، ص: 315.
- (44) رنيه ويلك، أوستن وارين، نظرية الأدب، ص: 196-197.
- (45) د/ محمد مندور، الأدب وفنونه، ص: 196-197.
- (46) اللزوميات، مج 2، ص: 345.
- (47) الإمام حمزة بن الحسن الأصبهاني، الدرر الفاخرة في المثال السائرة، حققه وقدم له ووضع حواشيه وفهارسه عبد المجيد قطامش، دار المعارف، مصر، ج 1، ص: 277.
- (48) المرجع نفسه، ص: 297.
- (49) المرجع نفسه، ص: 118.
- (50) اللزوميات، مج 2، ص: 620.
- (51) المصدر نفسه، مج 2، 451.

مداخل العربية إلى عصر العولمة

بقلم

د / عادل محلو

قسم اللغة العربية وآدابها - معهد الآداب واللغات

المركز الجامعي بالوادي



ملخص

يعرض هذا المقال المداخل الثلاث التي تمكن اللغة العربية من مواكبة عصر العولمة: المدخل التعليمي الذي يكرس الخطاب العلمي والمدخل الأدبي المرتبط بالأجيال الجديدة بحمال الأدب.

أما الثالث فمدخل اقتصادي واجتماعي يقدم ما يحيط بالعربية من إمكانيات تتيح لها أسواق ثقافية جديدة.

Résumé

Cet essai est une exposition de trois entrées principales qui donnent à la langue arabe les potentiels d'accès à l'époque de la mondialisation:

L'entée didactique consacrant le discours scientifique, l'entée littéraire liant les différentes générations à l'esthétique de la littérature, et l'entée économique et sociale offrant à la langue arabe la potentialité lui permet d'accéder à de nouvelles marchés culturelles vastes

نتفق جميعا على الوضع المزري الذي وصلت إليه لغتنا العربية في هذا العصر، ونشهد يوميا استمرار تراجعها وعدم قدرتها على مواكبة معطيات عصر العولمة. ولذلك تحاول هذه المداخلات معالجة ثلاثة مداخل أساسية يمكن أن توفر للغة العربية نقاط تقاطع مع خصوصيات العصر، وهي:

- مدخل لسانی - تعلیمی .
- مدخل ادبی - تعلیمی .
- مدخل اقتصادی .

ولن يقتصر على المعالجة النظرية بل نُقترح حلول ونماذج عملية قابلة للتطبيق العملي قصد الخروج من دوائر التظير المتتالية التي لا تتحول إلى فعل مُجدٍ.

أولا - تحديد المفاهيم

1. العولمة؛

واحدة من أهم وأكثر الألفاظ دورانا على الألسن ورنينا في القلوب وحتى العقول في عصرنا هذا. والذي يهتَم في هذا المفهوم هو التفرقة بين تصوّرين له:

• الأول: العولمة باعتبارها مسار "أمركة" وفرض ثقافة ذات مواصفات خاصة على الشعوب والحضارات الأخرى⁽¹⁾.

• الثاني: العولمة "فضاء ديمقراطيا لفعالية البشر... يعد بولادة عالم بديل وعولمة ذات ميول تحرّرية تتمكّن الشراكة الإنسانية من خلالها من الحفاظ على تنوعها الثقافي"⁽²⁾.

والذي تتبناه هذه المداخلة هو الثاني لأنّ الأول تصوّر جزئي وغير دقيق؛ إذ إنّ الحديث عن الأمركة وفرضها على شعوب وحضارات أعرق وأغنى وجدانا منافٍ لسيرورة البشرية وقوانين التطوّر في المجتمعات، فضلا على أنّ ما يسمّى بالأمركة يواجه مقاومة فطرية وطبيعية في أمريكا نفسها وفي محيطها الأقرب عبر المكوّنات السوداء والإسبانية للمجتمع هناك، وكذلك عبر شعوب ذات حضارات أعرق في أمريكا اللاتينية⁽³⁾.

إنّ التّصوّر الثاني يتيح مجالا أكثر عقلانية، ويبعد ذهنيّة المؤامرة والوهن الذاتي الداخلي الذي يسلبنا وجودنا ويقزّمنّا أمام أنفسنا ويدفعنا نحو الشعاراتية الفارغة والصراع العاطفي الدونكيشوتي.

2. اللغة العربية وتحديات العولمة؛

لن أتحدث هنا عن مواجهة العولمة لأنّ في ذلك ضرب من الخرافة ولون من الهروب نحو الأمام. ما يتمّ تناوله هنا هو طبيعة تفاعل اللغة العربية مع معطيات عصر العولمة الأبرز وهي:

- مركزيّة التكنولوجيا معرفيًا.
 - مركزيّة السوق الحرّة اقتصاديا.
 - مركزيّة مجتمع المعلومات تواصليًا.
- إنّ اللغة العربية تحسّس بوطاة التغيرات، وتشعر بانسحابها وضمورها لسببين أساسيين أحدهما ذاتي والآخر موضوعي:

• السبب الذاتي: هو أنها ظلت - تقريبا - كما هي في نموذجيّتها ونمطيّتها منذ قرون عديدة مُنزوية تركز نفسها وتجترّ ذاتها " ... ولم تستيقظ إلّا في عصر التلفاز والرادار والصواريخ العابرة للقارات... " ⁽⁴⁾.

• السبب الموضوعي: وهو أن طبيعة اللغة العربيّة الثريّة والتي مزّت بطور حضاري مزدهر لعدّة قرون يجعلها تحسّ أكثر من اللغات الأخرى ذات الرصيد الحضاريّ الأقلّ بصعوبة التحدّي ووطأة التخلف عن ركب العولمة ⁽⁵⁾؛ وتشاركها في هذا الموقف لغات أخرى قليلة كالصينيّة والهنديّة الفارسيّة.

ومن تفاعل واندماج هذين السببين يتأتّى هذا الاهتمام البالغ بوضع اللغة العربيّة في عصر العولمة، ومنهما يتجذّر لدى الناطقين بها ومحبيّها من الآخرين ذلك الأسى العميق الذي ظلت تتردّد أصداءه في الشعر الحديث منذ أمد بعيد كما في قصيدة حافظ إبراهيم الشهيرة. ولكن ما يؤسف له هو أن أكثر المعالجات تتمّ في ضوء الإيديولوجيا وأسر الشعاريّة ونفق نظريّة المؤامرة الذي لا يفضي إلّا إلى الدور - كما يقول المنطقة - أو إلى تيه كتيه بني إسرائيل.

وبغية معالجة علميّة محكمة وتناول لسانی تتجّه هذه المداخله نحو مداخل ثلاث تبدو الأنسب لاندراج العربيّة في عصر العولمة والاستفادة من منجزاته المختلفة.

ثانيا - المداخل الأول: اللساني - التعليمي

لقد شكّلت العلوم الإنسانيّة - ولأمد طويل - نواة الحضارات وأمسكت بدفتها؛ فمن الفلسفة عند اليونان إلى التشريع عند الرومان، فالشعر والبيان عن العرب، ثمّ الرسم والفنون التشكيلية في عصر النهضة الأوروبية. وهاهي الأمور تتغيّر جذريا في عصر العولمة حيث احتلت العلوم التقنية نواة الحضارة المعاصرة وصارت تلك المعارف والعلوم الإنسانيّة تبعا لها دائرة في فلكها.

ومن هذا المنطلق صار لزاما على المجتمع العربيّ أن يُكسب أبناء لغة علميّة تمكّنه من مواكبة العصر بلسانه وأسلوبه؛ كيلا يفشل فينزوي أو ينقم على مجتمعه وعصره فيتحوّل إلى فرد هامشيّ سلبيّ ومنحرف أو إلى عامل هدم وفوضى وإرهاب .

ومن المتعارف عليه بين المتخصّصين أن "أيّ انحدار في اللغة إنّما ينمّ عن انحدار في الفكر" ⁽⁶⁾، والعكس أيضا صحيح "فاتّساع ملكة الفهم وتطوّر القدرة على الإدراك لهما ارتباط وثيق بالنموّ الغويّ" ⁽⁷⁾؛ وما ذلك إلّا لأنّ اللغة - كما يقول هايدغر - منزل

الكائن البشري⁽⁸⁾، فكيف تتأقلم أو تعيش في هذا المنزل، الذي لا منزل لك سواه، إذا لم تتقن طريقته وتتبع سبيله، والطريق والسبيل الآن هو: اللغة العلمية.

وضمن هذا التأطير النظري سيتم تناول تطبيقي لكتاب اللغة العربية المدرسي للسنة الأولى متوسط الذي ظهر ضمن المناهج التعليمية الوطنية الجديدة في الجزائر، وذلك قصد الخروج من الكلام النظري البحت إلى الواقع العملي بحثا عن مقدار علمية اللغة في نصوصه ومدى استيفائها شروط العصر وانسجامها ومحيطها المعرفي في العالم الآن.

1 - سمات اللغة العربية العلمية؛

اجتهد الدارسون العرب في تحديد سمات اللغة العربية التي يمكن أن نطلق عليها: "لغة علمية"، واعرض هنا جهدين؛ الأول للدكتور عبد الصبور شاهين والثاني للدكتور إنطوان صياح.

أ - عند د. شاهين:

يضع في كتابه: "العربية لغة العلوم والتقنية" ضوابط لما يستميّه عربيّة الأعمال ولغة الرسائل و التقريرات العلمية؛ "حيث اوجِب أن تتوفر في هذه اللغة الموصفات التالية:

- استخدام الألفاظ الحسية دون التجريدية.
- تفضيل الجمل القصيرة دون الطويلة.
- لا يستخدم من الألفاظ غير الضروري.
- تفضيل المأنوس من الألفاظ.
- استعمال الأفعال المتعدية.
- عدم الإسراف في الصفات.
- تفضيل البناء للمعلوم على البناء للمجهول.
- ألاّ يستعمل من الألفاظ ما كان ذا معنيين لأنه غامض الدلالة"⁽⁹⁾.

ب - عند د. صياح:

أما د. صياح فقد حدّد في كتابه: "دراسات في اللغة العربية الفصحى وطرائق تعليمها" سمات اللغة العلمية ضمن معايير أربعة كما يلي:

- الوضوح: عدم استعمال اللغة بشكل مبالغ وضبابي الدلالة.
- الإيجاز: ويعني التوازي بين الشكل اللغوي الذي يعبر عن الفكرة والفكرة نفسها.
- الدقّة: وهي كما يرى محاولة التفتيش عن المادة اللغوية الأدق في التعبير عن الفكرة.

- التوثيق: التعامل مع المراجع بالطريقة العلمية⁽¹⁰⁾.
- ويبدو أن الاجتهاد الثاني أفضل وأصلح للاستخدام هنا لأنه وُضع على أساس التخطيط لدراسة طرائق تعليم اللغة العربية. إذن هذه السمات التي يذكرها د. صياح هي التي سيبحث مقدار توفّرها في النصوص ذات الموضوعات العلمية في كتاب النصوص للسنة الأولى متوسط، ويتمّ تحديد ذلك عبر تجليات تلك السمات بمعاييرها الأربعة من خلال:
 - نوعية الأسلوب.
 - مميزات الجملة.
 - الثراء المعجمي.
- 2. عرض المدوّنة:

أصدرت وزارة التربية الوطنية كتابا جديدا في النصوص للسنة الأولى متوسط ضمن عدّة إصلاحات، وقد تمّ ذلك وسط ضوضاء وجلبة كثيرة ونقاش حادّ حولها. ويضمّ هذا الكتاب نصوصا متنوّعة انتقيت منها النصوص ذات الموضوعات العلمية وعددها 14 نصّا لتكون مدوّنة هذا البحث وهي التالية⁽¹¹⁾:

الرقم	عنوان النصّ
01	التهاب اللوزتين
02	أنثى التمساح
03	تكنولوجيا المعلومات
04	الكوكب الأزرق
05	المجرّات
06	لماذا اختفت الديناصورات
07	أسرار الحياة
08	الذباب
09	المقاومة
10	البداوة والحضارة
11	العناصر الأساسية
12	التدخين السببيّ
13	ملوثات الهواء
14	الصحافة

جدول 1: نصوص المدوّنة

وتمتاز هذه النصوص بالتنوع حيث إنّ بعضها مترجم، كما تتميز باختلاف المجالات المعرفية من: طبّ وبيئة، وفيزياء وفلك، وتاريخ بشريّ... وتشكّل هذه الكتلة من النصوص مدوّنة هذه المداخلة.

3. نوعيّة الأسلوب:

درج الدارسون على استعمال نظرية بوزيمان في تحديدهم لنوعيّة الأسلوب، في نصّ أو كتلة نصوص، من حيث درجة ديناميكيّته التي تعدّ من أبرز سمات اللغة العلميّة. ويتمّ ذلك باعتبار حاصل قسمة عدد الكلمات الدالة على الفعل على عدد الكلمات الدالة على الأسماء والصفات، ونعتبر الأسلوب علميّا إذا تجاوز حاصل القسمة: "1"، أما إذا كان أدنى من ذلك فإنّ الأسلوب أدبي وصفيّ ضئيل الديناميكيّة⁽¹²⁾.

ويقودنا تطبيق هذا المعيار إلى تسجيل عدم ديناميكيّة الأسلوب في كلّ نصوص المدوّنة. لكنّا حين نأخذ في عين الاعتبار أنّ هذه النصوص تمّ انتقاؤها لكتاب اللغة العربيّة لا لكتاب علميّ بحث فإنّنا نفهم مباشرة احتواءها على قدر من الفتيّة؛ أي إنّ وظيفة اللغة هنا لا تكون تبليغيّة محضة بل تنازعها الوظيفة الجماليّة وتخفّف من هيمنتها على أسلوب النصّ.

وهكذا نفهم منذ البداية وجود كلّ النصوص دون مستوى الحاصل الفارق: "1" الذي يحدّد ديناميكيّة الأسلوب العلميّ البحث. وقد جاءت النتائج كما يلي:

الرتبة	نسبة نوعيّة الأسلوب	عنوان النصّ	
01	0.64	التهاب اللوزتين	01
02	0.45	أنشئ التمساح	02
03	0.38	تكنولوجيا المعلومات	03
04	0.37	الكوكب الأزرق	04
05	0.35	المجرات	05
06	0.34	لماذا اختفت الديناصورات	06
07	0.30	أسرار الحياة	07
08	0.27	الذباب	08
09	0.25	المقاومة	09

09	0.25	البداءة والحضارة	10
10	0.23	العناصر الأساسية	11
11	0.20	التدخين السبيّ	12
11	0.20	ملوثات الهواء	13
12	0.14	الصحافة	14

جدول 2: نتائج نوعية الأسلوب.

وعلى أساس الاعتبار السابق المؤسس على طبيعة توزّع وظائف اللغة في هذه المدوّنة فإن نتائج الجدول تفرزها إلى قسمين:

- نصوص ذات أسلوب علمي: وهي تلك التي تجاوزت الحاصل فيها: 0.30؛ أي التي حقّقت أعلى من متوسط نوعية الأسلوب في كلّ المدوّنة والذي كان: 0.30 تقريباً. ويمثّل هذا القسم النصوص السبعة الأولى.
 - نصوص ذات أسلوب غير علمي: ويضمّ هذا القسم بقية النصوص الأخرى من المدوّنة التي لم تستوف شرط تجاوز نسبة: 0.30.
- وأهمّ النتائج والملاحظات التي نستخلصها من هذه النسب المعروضة في الجدول: 2 هي ما يلي:

- إنّ المتوسط العام لنوعية الأسلوب: "0.30" مُرضٍ للغاية؛ لأننا إذا ما قابلناه بذلك الذي تسجّله ثلاث فقرات، وهي مأخوذة عشوائياً من كتاب ومقال مترجمين يتميزان بالعلمية والتخصّص والحداثة، لوجدناه متوسطاً مناسباً للغاية. وهذه النصوص الثلاثة الشواهد المقصودة هي:

- رؤى مستقبلية: كيف سيغيّر العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين، ميتشيو كاكو، تر: د. سعد الدين خرفان، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 212، 2001، ص: 58 (فقرة بعنوان: كشف تركيب البروتين)، و ص: 384. 385 (فقرة بعنوان: المزيخ؛ الصحراء المتجمّدة).

- تخزين الغازات، هارود هرتزوج - بلدور إلياسون - أولاف كارستاد، تر: رشيد غفران، مجلّة الثقافة العالمية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 105، 2001، ص: 164 (فقرة بعنوان: ما الذي يعنيه تخزين الكربون).

ففي هذه النصوص الشواهد الثلاثة تتراوح نسبة نوعية الأسلوب بين: 0.23 و: 0.51، وهو ما يُنتج متوسطاً لا يزيد عن: 0.30. إنّ هذه المقابلة بين متوسطي نوعية الأسلوب تفصح لنا عن مدى نجاح هذه المدوّنة من الكتاب المدرسي في

تقديم أسلوب علمي مناسب لمضامينها مما يضمن لها قدرا هاما من النجاح في وظيفتها التبليغية، ويحقق بذلك الهدف الكبير وهو إكساب المتلقين لغة علمية تنعكس حتما على طرائق تفكيرهم ونوعيته.

• ظهر من خلال فحص توثيق نصوص المدونة أنّ النصوص المترجمة تتوفر على نوعية الأسلوب المطلوبة - عدا نص واحد فقط منها - وهي بذلك تتفوق على النصوص العربية. مما يشير إلى إدراك الكتاب الغربيين لطبيعة الأسلوب العلمي المطلوب في مثل هذه النصوص لتحقيق الهدفين المذكورين في نهاية الفقرة السابقة.

• بالنظر إلى مصادر قسمي نصوص المدونة نجد غلبة للكتب المتخصصة في قسم النصوص ذات الأسلوب العلمي (مثلا النصوص: 1، 3، 7، 5 في الجدول 2) مقابل غلبة نصوص المجالات والموسوعات العامة على القسم الثاني؛ أي النصوص ذات الأسلوب غير العلمي (مثلا النصوص: 8، 12، 13، 14 في الجدول 2). وفي ذلك بيان على تدني مستوى علمية الأسلوب في المجالات الثقافية والموسوعات العامة لأنها تضع في مخططها متلقيا غير ملم بمبادئ المعرفة المختصة الدقيقة وتهدف إلى تقديم المعلومات بأسلوب أدبي مريح لا بأسلوب علمي صارم.

4 - مميزات الجملة:

أ - المضردات:

تباين نصوص المدونة تباينا كبيرا من حيث متوسط عدد المفردات في الجملة الواحدة؛ إذ تتراوح بين: 35 م/ج⁽⁹⁾ كحد أقصى و: 9.77 م/ج كحد أدنى. وفي هذه النقطة بالذات لا يمكننا الفصل بأفضلية طول الجملة أو قصرها كواحدة من مظهرات سمات اللغة العلمية؛ لأن الإيجاز - باعتباره ميزة للأسلوب العلمي - لا يتعلق حتما بهذا المعيار الشكلي، فالمضمون قد يمكن أن يشفع لطول الجملة إذا ما قدمت كما من المعلومات يناسب طولها.

ولقد لاحظ ميلر (Miller) عدم دقة الربط بين الإيجاز وطول الجملة كما يذكر د. حنفي بن عيسى في كتابه: "محاضرات في علم النفس اللغوي"⁽¹³⁾ الذي يسهب فيه في عرض ما يراه أسبابا لطول الجملة عند بعض الكتاب⁽¹⁴⁾.

لكن ما ذكر آنفا لا ينبغي أن الجمل القصيرة أسهل فهما، وبالتالي أسرع تبليغا من الطويلة. ولربما كانت الجمل القصيرة أداة ممتازة لتقديم أسلوب علمي أفضل؛

إذ تسمح بتنظيم المعلومات وإبراز كلّ واحدة منها بشكل مناسب لما يراد تبليغه، كما توحى بالدقة والصرامة وتحديد الهدف والقصد التي يتطلبها المنهج العلمي في التعبير عن قضاياه⁽¹⁵⁾.

ولا يتعلّق الأمر هنا بعملية اكتساب اللغة العلمية فحسب بل يتعدّاه إلى استرجاعها الذي يرتبط وثيقا بتوظيفها فيما بعد؛ فالدراسات المتخصصة تؤكد أنّ الأطفال متوسطي الكفاءة والمستوى - وهم الأغلبية - يتخذون الكلمة وحدة قاعدية للممثل الجملة⁽¹⁶⁾، ممّا يعني أنّهم أقدر على استرجاع الجمل بشكل أفضل كلّما كانت أقصر. وهو ما يؤدّي مباشرة إلى أن اللغة التي ستنطبع في أذهانهم وترسخ في عقولهم هي لغة النصوص الأقصر جملا؛ أي في نهاية المطاف هي اللغة الحاضرة عند محاولتهم التعبير عن أفكارهم.

ب - الأدوات:

ذلك بالنسبة لعدد المفردات، ويبقى أن نتطرّق إلى مكوّن آخر مهمّ وهو الأدوات لأنّها تمثّل مفاصل اللغة التي تمنحها القدرة على الحركة وتكسيها مرونة وديناميكية وقدرة على الاقتصاد اللغويّ تنسجم مع سمات اللغة العلمية.

هنا أيضا تختلف النصوص إذ يتراوح متوسط المفردات المتعلقة بالأداة الواحدة بين: 3.96 م/أ^(*) كحدّ أقصى و: 1.62 م/أ كحدّ أدنى. ويبرز من جهة أخرى أن النصوص التي قدّمت أسلوبا ذا نوعية علمية أعلى سجّلت متوسطا أعلى من النصوص الأخرى تقريبا.

فإذا كان المتوسط العام في المدوّنة كلّها: 2.07 م/أ فإنّ أربعة من نصوص الصنف الأوّل تجاوزته وهي:

- تكنولوجيا المعلومات: 3.96 م/أ.
 - المجزّات: 2.51 م/أ.
 - أسرار الحياة: 2.29 م/أ.
 - لماذا اختفت الديناصورات: 2.24 م/أ.
- بينما لم يتجاوز المتوسط العام سوى نصّ وحيد فقط من نصوص القسم الثاني الذي لم يقدّم أسلوبا علميا وهو نص:
- ملوثات الهواء : 2.09 م/أ.

وكما سلف فإن هذا الارتباط بين وفرة الأدوات في الجملة وعلمية اللغة عائد إلى علاقة الأدوات بحيوية النص وحركيته التي تتناسب ووفرة الأفعال كما سُجِّل في أسلوب هذه النصوص⁽¹⁷⁾.

5. الثراء المعجمي؛

اعتادت الدراسات أن تقيّم ثراء نصّ أو كتلة من النصوص على أساس معيار شهير وهو: TTR (= Type Token Ratio) الذي يشير إلى أنّ ثراء المعجم هو حاصل قسمة عدد الكلمات المختلفة على تواتر الكلمات المستعملة⁽¹⁸⁾، فكلّما ارتفع هذا الحاصل كان النصّ أثري. ويذكر د. حفي بن عيسى ثلاث طرق أخرى يُستعمل بها هذا المعيار لكنّها طبعاً تؤدي إلى النتيجة نفسها⁽¹⁹⁾.

وبتطبيق هذا المعيار على المدوّنة نلاحظ تراخ ثرائها المعجمي بين: 0.90 و: 0.60؛ أي بمتوسط قدره: 0.71. وهو متوسط مُرضٍ جدّاً لأنّنا إذا قابلناه بذلك المتحقّق من خلال النصوص الشواهد الثلاثة سنجدّه مقاربا جدا:

نصوص المدوّنة	النصوص الشواهد	
0.71	0.72	متوسط الثراء المعجمي

جدول 3: الثراء المعجمي بين المدوّنة والنصوص الشواهد

ويظهر جليّاً أنّ الفارق بينهما غير ذي بال؛ بل يبدو في صالح المدوّنة ممّا يشير إلى توفّرها على لغة علمية تساعد على ضمان جزء كبير من قدرتها التبليغيّة كما خُطّط لها.

ويبدو من جهة أخرى ألاّ علاقة وطيدة بين الثراء المعجمي ونوعية الأسلوب لأنّ التفاوت بين ثراء نصوص القسمين لا يتعدّى: 0.01. ولعلّ ذلك مُبرّر لأنّ النصّ الأكثر علمية لا يعني بالضرورة ثراءه بالكلمات المتنوّعة، فلربّما بلغ هذا الثراء المعجمي حدّاً مبالغاً فيه فانقلب زخرفة واستعراضا غير مناسبين للغة العلمية المتوخّاة في مثل هذه النصوص فيُصاب النصّ عندها بالاختناق تحت وطأة كثرة المفردات المختلفة ويفقد قدرته على أداء وظيفته التبليغيّة.

إنّ ما سبق تناوله لا يمثّل الثراء المعجمي المثمر في النصوص العلمية؛ لأنّها نصوص لا تهدف إلى تعريف المتلقّي أكبر عدد من المفردات اللغويّة العامة بل المهمّ فيها مقدار الألفاظ والمصطلحات المتخصصة التي تقدّم من خلالها.

وبفحص المدونة نجد أنها تمنح المتلقي 106 لفظا ومصطلحا علميا؛ أي بمعدل: 08.51 % من مجموع المفردات، وهو مقدار مُرضٍ للغاية وقادر على تبليغ المعارف وإثراء المعجم العلمي للفئة المستهدفة بشكل فعال؛ ومن ثمة تكوين خلفيّة علميّة لذهنيتها.

وإذا نظرنا إلى قسمي النصوص حسب نوعيّة الأسلوب وجدنا تفاوتاً بينهما في الثراء بالمصطلحات والألفاظ العلميّة كالآتي:

النصوص	نصوص	
ذات الأسلوب غير العلميّ	ذات الأسلوب العلميّ	
08.36 %	08.66 %	نسبة المفردات العلميّة

جدول 4: نسبة المفردات العلميّة بين قسمي نصوص المدونة
وهذه النتيجة إشارة واضحة إلى أنّ علاقة الثراء بالمصطلحات والألفاظ العلميّة مع طبيعة الأسلوب العلميّ أوثق من علاقة الثراء بالمعجميّ العام.
ومن جهة أخرى تتّضح بجلاء قوة النصوص المترجمة وأفضليّتها لأنّها تسجّل تفوّقا على النصوص العربيّة كما يُبرز الجدول:

النصوص العربيّة	النصوص المترجمة	
08.03 %	09.39 %	نسبة المفردات العلميّة

جدول 5: نسبة المفردات العلميّة بين النصوص المترجمة والعربيّة
وهذا يعيدنا إلى التأسيس النظريّ للمداخلة المنطلق من أنّ لغة العصر هي اللغة العلميّة وهي التي يجب أن نكسبها شبابنا ليواكب العولمة ويكون طرفا فاعلا فيها؛ فالكتاب الغريبون من خلال النصوص المترجمة أبدوا فهما ووعيا وإدراكا لطبيعة الوظيفة التي تؤدّيها هذه اللغة هنا ألا وهي: "التبليغ"، وذلك في مقابل النصوص العربيّة التي تسجّل حضورا ملموسا للوظيفة الجماليّة في النصوص العربيّة ممّا يشينها ويقلل من قدرتها على التواصل بلغة العصر العلميّة.

عبر العناصر السابقة تمّ تناول المدخل الأوّل الذي يعالج ضرورة تعليم الأجيال الجديدة لغة عصر العولمة؛ أي اللغة العلميّة التي ستهم ولا شكّ في إكسابه تفكيراً منسجماً وعصره فلا يفرّ منه إلى الأمام مفترضا صناعة عالم جديد عبر الفوضى ولا إلى الخلف منسجبا في عوالم الانحراف أو فضاءات التدين السلبيّ.

ومن خلال كتاب النصوص للسنة الأولى متوسط الجديد ظهر جليّا وجود استجابة - ولو نسبيّة وعلى غير تخطيط مسبق - لهذا المطلب الملحّ في منظومتنا

التعليمية وهو مؤشر إيجابي يجب التقاطه وتنميته واستثماره من أجل أجيال تدخل عصر العولمة بلغتها العربية وبلغته العلمية.

ثالثا - المدخل الثاني: الأدبي - التعليمي

لعلّ من أهمّ دوافع عزوف الشباب عن الأدب العربي هو تصوّرهم أنّ الدب والاشتغال به ميزة للعالم المتخلف، وأنّ المم المتقدّمة لا تجد وقتا لمثل هذا الكلام الشعري والفني الفارغ.

ومن أجل كسر هذا التصرّ وتوضيح أنّ الأمم إنّما تتقدّم بالأفكار والإنتاج الأدبي كتقدّمها بمنجزات العلم التكنولوجي الذي يمثّل المركزية المعرفية لظاهرة العولمة وعصرها، من أجل ذلك يُفترَح هنا تناول للكتاب المدرسيّ في النصوص للسنة ثانوي بحثا عن حضور النصّ الأدبي المعاصر المنتج في الأمم المتقدّمة تكنولوجيا.

1 - عرض المدوّنة:

يشتمل كتاب النصوص للسنة الثالثة ثانوي للشعب العلميّة⁽²⁰⁾ - كمال - على نصوص أدبية حديثة ومعاصرة من مختلف الأجناس، ولكن الملاحظ هو غياب أيّ نصّ من الآداب الأجنبية وهو ما يثير التساؤل حقّا:

• لماذا لا يتضمّن برنامج سنويّ ولو نصّا واحدا من الآداب الغربيّة والأجنبيّة رغم أنّنا في عصر العولمة؟

إنّ افتقار البرامج لذلك النوع من النصوص جعل كثيرا من الطلبة يعتقد أنّ الأدب، والشعر خصوصا، هي ميزة للعربيّة وأنّ الأمم الأخرى لا تكاد تهتمّ به. والحقيقة إنّها بإمكاننا أن نجعل هؤلاء الطلبة يفخرون بانتمائهم إلى أمة ذات رصيد أدبيّ وشعريّ ضخم إذا ما أدرجنا نصوصا غربيّة معاصرة لأدباء من تلك الدول والثقافات التي تسيطر في عصر العولمة هذا. إنّهم سيرون آنذاك أنّ الأمم تطير إلى علياء التقدّم والحضارة بجناحين: العلوم الإنسانية والعلوم التكنولوجية. وهنا كما في المدخل السابق أفرح نماذج من نصوص مترجمة يمكن أن تكون مثالا يُحتذى في المناهج الدراسية.

2 - نماذج مقترحة:

إنّهُ من الممكن جدّا تضمين هذه البرامج نصوصا لكتاب أمريكيين ويابانيين وغيرهم من كتاب الدول المتقدّمة، مع الحرص على أن تكون غير متعارضة مع القيم الاجتماعية ومن نماذج ذلك:

أ - من الشعر الفرنسي:

واخترت هنا نموذجا جميلا من شعر "جان فرانسوا ماتيه" وهو قصيدته:
 خاسر " التي يقول فيها:
 ليته يقلب أوراقه ...
 ليته يقلب كفيه ...
 لأجل أن يرى ...
 إلى أي حد هو ولد ليخسر ...

* * *

أوراق بيض ... أكف فارغة ...
 ليته يستيقظ .. ليرى ...
 بأنه الوحيد الذي ...
 لن يملك سماء ... تحلق فيها أحلامه ... (21).

ب - من الشعر الأمريكي:

ومن الشعر الأمريكي الثري هذا النموذج للشاعر روبرت بلاي (Robert Bly)
 في مسيرة ضد حرب فيتنام

(واشنطن - 27 نوفمبر 65)

الصحف ترتفع عاليا في الفضاء فوق ماريلاند
 نسير معها، ملفوفين بمعاطفنا
 وستراتنا في شمس تشرين المتأخرة
 عندما نظرت الى الاسفل، رأيت الأقدام تتحرك
 بهدوء، بمرح،

كما لو أنها فصلت عن أجسادها
 ولكن ثمة ما يتحرك في مكان ما من الظلام

تماما بالقرب

من أطراف أعيننا: سفينة

مغطاة بالمدافع الرشاشة

تتحرك تحت الأشجار.

...

على الأرض

نحن نتوق لتحقير أنفسنا

لقد حملنا هذه الكأس من الظلام

وتقنا لصبها فوق رؤوسنا

نحن صنعنا الحرب

كرجل يجلد نفسه⁽²²⁾.

إنّ النموذجين المقدّمين أعلاه مثال صغير جدّاً عن النصوص الجيدة التي يمكن استغلالها من الأدب الغربي؛ فالأوّل يتحدّث عن الشاب الذي يحلم أحلام اليقظة ويصوّره بأنّه الخاسر الأكبر، أمّا الثاني فيتحدّث عن الحرب وفضاعتها.

ومن خلال مثل هذا النماذج لشعراء معاصرين من العالم الغربي يمكن أن يتحقّق هدف حضاري من خلال التعليم؛ إذ يبعث في الطلبة والتلاميذ اهتماماً بالأدب ويغيّر نظرتهم له ممّا يجعلهم يحافظون على اهتمامهم بالأدب العربي لأنّهم سيجدون في الأدب دافعاً نحو التقدّم أو على الأقلّ أنّه لا يتعارض مع العولمة وعصرها.

رابعاً - المدخل الثالث: الاقتصادي

كما أن التكنولوجيا تمثّل إحدى أهم سمات العولمة فإنّ السوق الحرّة هي الأخرى سمة أساس فيها ومركزيّة، ومن أجل إيصال الرئيّة إلى مواكبة العولمة فلعلينا أن نضمن لها رواجاً في السوق العالميّ للغات لتكتسب متكلّمين جديداً من أقطار وأمم مختلفة، وليس ذلك بالأمر المستحيل لأنّ لغتنا تمتلك عدداً هاماً من نقاط القوّة وعوامل الجذب التي تجعلها سلعة لغويّة مطلوبة.

1 - عوامل الجذب في السوق اللغويّة العربيّة:

أ - العامل السياسي:

بسبب الأزمات السياسية الأخيرة في العالم منذ الحادي عشر من سبتمبر زاد الالتفات إلى العالم العربيّ في محاولات كثيرة لفهمه والتعرّف على هؤلاء الناس من خلال السّؤالين الشهيرين في أمريكا خصوصاً والعالم الغربيّ عموماً؛ وهما:

- عبارة بوش: "لماذا يكرهوننا؟"⁽²³⁾ والتي سبق أن طرحها ايزنهاور بشكل أكثر تدقيقاً حين قال معبّراً عن كراهيّة العرب لأمریکا بأنّها: "ليست نابعة من الحكومات ولكن من الشعب"⁽²⁴⁾.

- سؤال الباحثين والأكاديميين عن العرب: "لماذا يقاتلون بموتهم؟"⁽²⁵⁾ الذي تصدر كتاب ذهنيّة الإرهاب ل: جان بودريار، جاك ديريدا، إد فوليامي، أمبريتو إيكو.

إنّ هذين السّؤالين لم يضلّا في الدائرة الضيّقة للسياسيين ورجال الفكر بل انتقلا بسبب أحداث سبتمبر إلى المواطن العاديّ فولّد ذلك اهتماماً جديداً وواسعاً

من اجل معرفة العرب. وهذه نقطة جذب مهمة يمكن استغلالها لتسويق تعليم اللغة العربية للآخرين.

وثُعدّ الحروب التي خاضتها أمريكا وحلفاؤها نتيجة لتلك الأحداث عامل جذب ثانٍ حيث توجه كثير من الجنود الأمريكيين في العراق نحو التعرف على اللغة العربية؛ بل إن إدارة البنتاغون تبث إعلانات متكررة على الانترنت تبحث من خلالها عن مترجمين عرب لتوظيفهم.

ب . العامل الإنتاجي؛

إن تركّز كثير من موارد الثروات المهمة في العالم واحتياجاتها المعتبرة في العالم العربي، وعلى رأسها موارد الطاقة البترولية وأيضا الطاقة المتجددة؛ أي الطاقة الشمسية، والمعادن وغيرها، إن تركّز ذلك وغيره يمثل عامل جذب هامّ دفع بالشركات والمستثمرين إلى البحث عن النشاط في هذا الفضاء.

وقد نتج عن ذلك حاجة ماسة لدى تلك المؤسسات والشركات إلى ناطقين باللغة العربية للتعامل مع العمّال وبعض الهيئات والبنى الاجتماعية - خاصة المناطق ذات البنى التقليدية - فخلقت تبعا لذلك فرص سانحة لكثير من الأجانب للتعرف على اللغة العربية وتعلّمها من أجل توفير فرص تواصل نفسي أفضل مع المستهدفين ممّا يحقق لهم فرص ربح وأولوية استثمار أكبر في كثير من الحالات.

ومن جهة أخرى فإنّ توفّر فرص العمل - خصوصا في دول الخليج - يدفع بكثير من الأجانب إلى طلب تعلّم اللغة العربية، فعلى سبيل المثال يُسجّل إقبال شديد من الشباب في الهند وما جاورها على مدارس تعلّم اللغة العربية هناك في بلدانهم قصد الاستفادة من عامل تفضيلي حين قصدهم دول الخليج للعمل⁽²⁶⁾.

ج - العامل الاستهلاكي؛

يشكّل العالم العربي سوقا معتبرة جدّا في الاستهلاك العالمي بمختلف المستويات ولمختلف السلع. وهو ما جعل الشركات التي تسوّق سلعها في العالم العربي بحاجة إلى تعليم بعض موظفيها اللغة العربية قصد ربط صلات اكبر بالمستهلك، ولفهم أعمق لنفسيته.

وهذا العامل أكثر إدرازا للمتكلمين الجدد من العامل السابق لأنّ تسويق السلع يحتاج إلى اقتراب أكثر من فئات المستهلكين جميعها، ويتطلّب في الوقت ذاته موظفين أكثر من المشاريع الاستثمارية التي قد يكون فيها أجنبي واحد او عدد قليل من الأجانب.

د - العامل السياحي:

يعتبر العالم العربي، وبخاصة مصر والمغرب وسوريا واليمن، منطقة جذب سياحي هائل، وهو أمر مفيد جدًا للسوق اللغوية العربية حيث يؤدي انبهار كثير من أولئك السياح إلى محاولتهم تعلّم اللغة العربية.

ويبدو أنّ هناك عاملا مهماً في هذا المجال تتم الاستهانة به وتهميشه ألا وهو عامل السياحة الدينية؛ فكثير من الجانب يأتون إلى العالم العربي لزيارة المعالم المسيحية خصوصاً ولو تمّ تفعيل الاهتمام بذلك لنشأ ارتباط وثيق بين كثير منهم باللغة العربية.

ويعدّ العامل التاريخي الاستعماري القديم هاماً أيضاً؛ إذ إنّ كثيراً من الأبنية الرومانية تجتذب كثيراً الغربيين - والأوروبيين خصوصاً - لأنهم يحسّون بوجود علاقة حميمة بينهم وبين ذلك العمران المماثل لما هو في بيئتهم.

2 - توظيف عوامل الجذب:

من الواضح جدًا أنّ فرص جذب الآخرين لتعلّم اللغة العربية متوفرة جدًا وهو ما يفيد على أصعدة عديدة:

أ - يمكن أن يُقدّم ذلك إمكانيات تطوير للغة العربية وإثرائها ومدخلها هاماً لها إلى عصر العولمة كواحدة من اللغات العالمية الفاعلة.

ب - يشكّل ذلك استثماراً اقتصادياً كبيراً؛ حيث يفتح المجال أمام إنشاء مدارس تعليم اللغة العربية للأجانب، كما يفسح مجالاً لحركة طباعة ونشر وتسويق وبرمجيات هائلة يمكن أن تسهم في استثمار الطاقات البشرية وسدّ منافذ البطالة.

ج - كما أنّ خلق رابط سيكولوجي بين عدد كبير من الغربيين سيجعلهم أكثر تفهماً لقضاياها؛ لأنّه " في النقطة التي يلتقي فيها الاقتصاد والسيكولوجيا توجد الإيديولوجيا"⁽²⁷⁾.

إنّ هذا الارتباط بالاقتصاد والاستفادة منه هو مدخل أساس ولا غنى عنه للغة العربية إلى عصر العولمة لأنّ القاعدة تقول: "كلّما تعلّم الناس لغة ما أصبحت مفيدة، وكلّما كانت اللغة مفيدة رغب الناس في تعلّمها"⁽²⁸⁾؛ فهي إذن لن تتمكّن من مواكبة هذا العصر إلّا بأدواته وبمراعاة مفاهيمه المركزية مادام متكلّموها ليسوا هم الذين يسطّرون مبادئ السير ولا هم الذين يرسمون منحاه.

إنّ المدخل الثلاث السابقة ليست وحدها التي تمنح اللغة العربية فرصة الدخول إلى عصر العولمة عنصرا فاعلا لا منفعلا ومؤثرا لا متأثرا؛ لكنها عناصر ذات أولوية.

فربط الأجيال التي تتعلّم في مدارسنا بلغة العصر العلمية، وتعريفها بأهميّة الأدب في مسار الأمم وأتّه ليس رديف البداوة والتخلّف، وإبراز تفوّق الأمم المتقدّمة تكنولوجيا فيه، هذان الأمران هما خطوتان ملحتان وضرورتان لإنجاح التعليم نفسه ولربط المعلّمين بعصرهم من جهة وبآداب أمّتهم من جهة أخرى.

وأما العامل الاقتصادي فهو مدخل هام لجذب متكلّمين جدد للعربية، ولصناعة كتلة هامة من المتعاملين بها في أنحاء العالم ممّا يُكسبها مكانة ويُسهّل اندماجها في المنظومة المعرفية والثقافية لعصر العولمة.

الهوامش:

- (1) - انظر: الآثار الثقافية للعولمة، د. كريم أبو حلاوة، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 29، ع 3، 2001، ص: 185.
- (2) - السابق، الصفحة نفسها.
- (3) - يُشار هنا إلى عودة اليساريين - بأشكالهم المختلفة - إلى الحكم في أمريكا اللاتينية كما في فنزويلا وبنما والبرازيل وغيرها.
- (4) - اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث، د. عبد الكريم خليفة، دار الفرقان، عمّان، ط 5، 1997، ص: 207.
- (5) - انظر: المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها، د. محمد رشاد الحمزاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1986، ص: 09.
- (6) - اللغة والسلوك العلمي، د. محمد الطيب سعداني، مجلة الرواسي، جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي، باتنة، الجزائر، ع 6، أكتوبر - نوفمبر 1992، ص: 36.
- (7) - الحصيلة اللغوية، د. احمد محمد المعنوق، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 212، 1996، ص: 161.
- (8) - انظر: السابق، ص: 35.
- (9) - السابق، ص: 139.
- (10) - دراسات في اللغة العربية الفصحى وطرائق تعليمها، د. انطوان صياح، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط 1، 1995، ص: 153 - 154.
- (11) - للاطلاع على هذه النصوص يرجع إلى: كتاب اللغة العربية للسنة الأولى متوسط، وزارة التربية الوطنية، الجزائر. وللاشارة فإنّ هذا الكتاب المعتمد هو الذي صدر في بداية الإصلاحات ودارت حوله تلك المناقشات المتوتّرة والتي شابها من الايديولوجيا أكثر ممّا رافقها من النظر المتبصّر، وأما الآن فالكتاب المعتمد مختلف من حيث النصوص لكنّه سار على النمط ذاته وأكثر؛ حيث زاد عدد النصوص العلمية.

- (12) - انظر: دراسات في اللغة العربية الفصحى وطرائق تعليمها، د. انطوان صياح، ص: 155.
 (*) م = مفردة، ج = جملة
- (13) - انظر: محاضرات في علم النفس اللغوي، د. حنفي بن عيسى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 5، 2003، ص: 232.
- (14) - انظر: السابق، ص: 232 - 233.
- (15) - إن هذا يذكرنا بلغة القرآن المكي واختلافها عن نظيرتها في المدني؛ فلأنّ المكيّ كان أكثر تركيزاً على القصد الصارم والأفكار الحاسمة المتعلقة بالعقيدة ونبد الشرك استعمل آيات - ومن ثمة جملاً - قصيرة. ولما كان التركيز في الطرف الآخر على التفاصيل في شرح المعاملات وخصائص المجتمع استعمل آيات - ومن ثمة جملاً - أطول. في هذا الموضوع راجع: دراسات في علوم القرآن، د. أمير عبد العزيز، دار الشهاب، باتنة، ط 2، 1988، ص: 60-61.
- (16) - انظر: الذاكرة واللغة، كريستيان كنبوش، تر: عبد الرزاق عبيد، دار الحكمة، الجزائر، 2002، ص: 83.
- (*) م = مفردة، أ = أداة.
- (17) - لقد ربط علماء العربية منذ القديم الفعل والجملة الفعلية بالحركة كما ربطوا الاسم وجملته بالثبات. انظر مثلاً: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 4، 1995، ج: 1، ص: 99.
- (18) - انظر: دراسات في اللغة العربية الفصحى وطرائق تعليمها، د. انطوان صياح، ص: 154.
- (19) - انظر: محاضرات في علم النفس اللغوي، د. حنفي بن عيسى، ص: 230.
- (20) - انظر: اللغة العربية وآدابها (للسنة الثالثة ثانوي، شعب الرياضيات - علوم تجريبية - تسيير واقتصاد - تقني رياضي)، وزارة التربية الوطنية، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر.
- (21) - almadapaper.com، تر: عدوية عدوية.
- (22) - "روبرت بلاي (Robert Bly)، ولد في مينيسوتا عام 1936. رأس تحرير مجلة "السبعينات" الأدبية. عاش فترة في النرويج ترجم خلالها مختارات من الشعر والنثر الاسكندنافيين. له "صمت الحقول الثلجية" - 1962 و "الضوء حول الجسد" الذي فاز على جائزة "الكتاب الوطني" عام 1968. والنص من موقع: Alimbratur.com، تر: حمزة عبّود.
- (23) - الحادي عشر من أيلول (11-9) الإرهاب والإرهاب المضاد، نعم تشومسكي، تر: ريم منصور الأطرش، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2003، ص: 18.
- (24) - السابق، الصفحة نفسها.
- (25) - انظر غلاف كتاب: ذهنية الإرهاب: لماذا يقاتلون بموتهم، جان بودريار وآخرين، تر: بسّام حجار، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2003.
- (26) - انظر: جريدة الشرق الأوسط، 23 يونيو 2007، ع 10434.
- (27) - البيان: رؤية جديدة، باتريك سميث، تر: سعد زهران، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 268، 2001، ص: 171.
- (28) - اللغة والاقتصاد، فلوريان كولاس، تر: د. أحمد عوض، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 263، 2000، ص: 106 - 107.

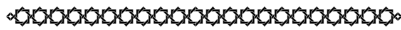
بنية الإيقاع في المجموعة الشعرية "الكتابة بالنار"

لعثمان لوصیف

بقلم

أ/ أحمد بقار

قسم الأدب العربي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ورقلة - الجزائر



ملخص

إنه مقال يتناول المجموعة الشعرية «الكتابة بالنار» للشاعر الجزائري «عثمان لوصيف» وهي باكورته، وهو من الشعراء الشباب الذين قفزوا بالشعر الجزائري سواء من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون، فمن ناحية الشكل حاول الخروج من قالب الشعر العمودي ليصب معانيه في قالب الشعر الحديث، وبعملية إحصائية نجد أن القصائد الحديثة في هذه المجموعة فاقت بكثرتها القصائد ذات الطراز القديم، على ما يعترى القصائد الحديثة من تداخل مع القديمة .

ولقد انصبّت هذه الدراسة على الجانب الإيقاعي : الإيقاع القديم (الوزن والقافية) ، والإيقاع الحديث المرتبط بالقصيدة الحديثة (الدوال الإيقاعية غير العروضية) البنية المكانية (السواد والبياض) ، علامات الترقيم) ، وهي روح إيقاعية جديدة تدخل جسم هذه القصيدة ، بعد أن كانت تقتصر على الجانب السماعي ردحا طويلا من الزمن ، على أن الدوال الإيقاعية لم تبرز بشكل كاف في هذه المجموعة ، إلا أن هناك بعضها استنطقاها محاولين الربط بينها وبين الجانب المعنوي .

Résumé :

C'est un essai contenant la collection poétique algérien (otmane loucif) intitulée (l'écriture en feu) .

(otmane loucif) se considère un des jeunes poètes algériens qui ont effectué un saut dans le poème algériens du coté forme et du coté contenu .

Du 1^{er} coté , il a essayé de sortir le poème ancien , versent son sens , dans un moule du poème moderne , et avec une simple opération recensement on constate que le poème moderne est plus nombreux et plus présent que l'ancien , bien que les morceaux poétique modernes se caractérisent par la convergence avec les morceaux anciens . cette étude s'est orienté vers les coté rythmique : l'ancien rythme (la rime , la versification) . la rythme moderne qui accordé avec

le poème moderne (fonction rythmique) (la constitution spatiale) (le noir, le blanc) les signes de numérotation ; et c'est le nouvel esprit rythmique qui rentre dans le corps du poème après avoir régné sur le côté auditif pendant longtemps ; Bien que ces fonctions rythmique n'ont pas surgi suffisamment dans cette collection ; malgré l'existence de quelques unes qu'on a essayé à les faire parler , tout en essayant de les accorder au côté sémantique .

يرتبط الإيقاع بحياتنا الإنسانية وحاجاتها، إذ يمتلك صفة كونية، ويظهر في الطبيعة بأشكال متعددة، فسقوط حبات المطر يترك إيقاعاً معيناً، ودوران الأفلاك عبر أنظمة محددة يشير إلى إيقاع خاص ف « الصوت إذن والحركة إذا ما تناسباً مع الزمن فإنهما يحققان الإيقاع، وبذا لا يكون الإيقاع مقتصرًا على ميدان الشعر وحده بل يتعداه إلى غيره من مفردات الحياة اليومية »⁽¹⁾ . فهو فن فطري يحيط بالإنسان في كل مكان، فهذا غناء طير، وذا حفيف أوراق ووقع مطر، فهدير أمواج، ومناغاة صغير، وهزيم رعد، فكل شيء ينضج بالموسيقى . والدكتور إبراهيم أنيس يلمح إلى أهميتها بقوله : « للشعر نواح عدة للجمال، ولكن أسرعها إلى نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ وانسجام في توالي المقاطع ... وكل هذا ما نسميه بموسيقى الشعر »⁽²⁾، وإنما نفرق بين الشعر والنثر بالأذن، وهذا لتمييز الشعر بالموسيقى التي تجعل السامع ينتشي ويغرب، لكون الموسيقى تدرك قبل الفكرة . والآن أصبحنا نسمع ما يسمى بشعرية الخطاب الذي يتميز بنوع من الموسيقى والنغم، ولكنها تتبع خطأ مستقيماً بينما « موسيقى الشعر تتكرر في حركة دائرية حول نفسها لأنها تقوم على وزن معين يتكرر طيلة القصيدة »⁽³⁾ .

والإيقاع موضوع بحثنا هو « الأثر الناجم عن حركة الوزن والقافية من جهة وعن تجاوب الألفاظ وتناسقها في سلك الكلمات مع المعاني العامة والخاصة التي يدور حولها النص »⁽⁴⁾ . إن الإيقاع الذي يجتذب السامع لا يأتي من وزنه فحسب الذي يطرب النفس، بل إن الوزن يعضد المعنى، ويمكن أن يعكس العاطفة ويتلون بتلونها لذا فحينما يتعاقب المعنى والموسيقى يصبحان شيئاً واحداً ولا يمكن فصلهما في داخل النص الشعري، وهذا ما لا نجده في الشعر القديم الذي يعتمد إيقاعاً راتباً وموسيقى مطردة سيمترية، وهي عندهم - العرب القدماء - « كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون التشكيلية، لكن العرب لا يحبون الرموز، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي، ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز... فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل »⁽⁵⁾ . ويعد الإيقاع من أهم العناصر الشعرية حيث تنتظم فيه الأصوات، وفقاً لأنساق إيقاعية ثابتة وفق قيم زمنية، ويقترن الإيقاع باستمرار بمصطلح الوزن على الرغم من أنه ظاهرة أشمل وأعم

من الوزن في الشعر. حيث يمثل « وحدة النغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام أو في البيت ؛ أي توالي الحركات والسكنات على نحو منتظم في فقرتين أو أكثر من فقر الكلام أو في أبيات القصيدة . أما الوزن فهو مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت »⁽⁶⁾.

وبعد هذه التوطئة، ورغم تضارب الآراء حول مصطلح الإيقاع، ماهي العناصر العروضية المشكلة للإيقاع ؟

سنستطرق إلى العناصر التالية : (الوقفة، الوزن، القافية)، وسنأخذها تباعاً مع التطبيق على ما جاء في المجموعة الشعرية « الكتابة بالنار ».

1/ الوقفة :

وهي عنصر حاسم في تحديد الكلام الشعري، الذي يمتاز بأنه كسر لقانون التوازي الصوتي الدلالي، وهو القانون الذي يقر بأن تتم الوقفة الصوتية معززة لوقفة نحوية وأخرى دلالية . وبهذه الحيوية إذن تبرز الوقفة عنصراً مركزياً له وظيفة المسيطر على العناصر الأخرى في البيت الشعري . ولقد تعددت بنى الوقفة في شعرنا العربي الحديث بشكل لم يكن معروفاً في الممارسة الشعرية من قبل، وهاهي أنماطها :

أ/ الوقفة التامة : وتتحد في بنائها الأبعاد النحوية والعروضية والدلالية أو ما يسمى ب «الوقفة الثلاثية» وهي أنموذج الشعر القديم .

ب/ الوقفة المركبية والدلالية : وهي على العكس من سابقتها؛ فالسطر فيها يكتمل تركيبياً ودلالياً في حين يبقى الاندفاع النظمي مسترسلاً، يحتم على القارئ الاستمرار في السطر والأسطر الموالية، وهذا الاندفاع النظمي بين الأسطر هو ما تولد عنه ما يسمى (الجملة الشعرية).

ولا بأس أن نستكشف هذه العناصر الإيقاعية في المجموعة الشعرية «الكتابة بالنار» .

* الوقفة التامة : وتتمثل في عمود الشعر القديم، ونجده في قصائد الشاعر العمودية وهي : (لامية الفقراء، آه يا جرح، العناق الطويل، أنشودة الرحيل، الطوفان)، وسنعطي مثالين في ذلك :

لامية الفقراء : تمزقنا العواصف والليالي ونبحر والخوف ولا نبالي

نسافر في الجراح وفي الرزايا ونرحل في السقوط إلى المعالي⁽⁷⁾

آه يا جرح : أومض الجرح فاحضني نبراسه في الدياجير وأرقبي أعراسه
 وارفعيه منارة في الفيا في نقتبس منها للحيارى اقتباسه⁽⁸⁾
 فكلا المقطعين تمثلت فيهما الوقفة الثلاثية (النحوية، الدلالية، العروضية). ولكن
 الشاعر لم يسلم من هذه الوقفة حتى في شعره الحديث، وهذا نموذج يمثل ذلك من
 قصيدته (تجيين يستيقظ البحر والريح والميتون) :

تجيين يستيقظ البحر والريح والميتون
 يعود ربيع الزمان يدغدغ صمت السنين
 يزخ المطر
 تدر الدروع
 تفيض الزروع⁽⁹⁾

فهذه القطعة تختلف من حيث الأسطر طولاً وقصراً، ولكن كل سطر ينتهي
 بحق النهاية الموسيقية المريحة، فلا نجد فيه تدويراً، ودونما التزام بحرف روي
 واحد . وهي قطعة تغلب عليها الطبيعة الخطائية . وهي سمة بارزة في هذه
 المجموعة الشعرية . فيها رتبة إلى حد بعيد، فكل سطر يكاد يكون وحدة نغمية
 قائمة بذاتها، مشتملة على كل عناصر التأكيد اللازمة لها ؛ فالسطر لا يحتاج إلى
 المساندة مع غيره من السطور . وعلى تتوقف الحركة الموسيقية عند نهاية كل
 سطر . لتبدأ حركة جديدة لها استقلاليتها . وبهذا صارت الرتبة الناتجة عن تكرار
 نغمة من النوع نفسه، وكذا القوة نفسها في كل سطر من السطور الموالية .
 وضاعت بذلك فرصة التلوين وفرصة المفاجأة في الصورة العامة للنص .

* الوقفة المركبية والدلالية :

أو ما يسمى ب(الجملة الشعرية) كما أسلفنا الذكر، يقول :

تجيين .. دوسي فمن قدميك تطرز

بالنجم هذا الغسق

وفاض على الكون بحر الألق

وكنا هياكل قش وأعمدة نخرة

فجئت ترشين أنقاضنا شهوة مزهره

وها أنه الآن تولد أيامنا

ويمتد تاريخنا

على ساعد أسمر ما يزال يدق الغدا

يمد إليه اليدا⁽¹⁰⁾

ففي هذا المقطع لا نكاد نحس بأي وقع من توقيعات البيت الخليلي، وفي الوقت ذاته نحس بارتباط نغمي بين السطر وما يسبقه وما يليه لوجود حروف الربط (الجبر والعطف) في بداية كل سطر، وهذا ما يعطينا سلسلة دلالية ونغمية واحدة، ناهيك عن التدوير الذي يجعل التفعيلة مشطورة بين سطرين، وهذا لتلاحم النغم والمعنى، والتدوير ورد بين : (تطرز — بالنجم) .

2/ الوزن :

ويتميز بكونه عبارة عن بنية جمل صوتية متماثلة، وهذه الأخيرة تنشئ نظامها الوزني انطلاقاً من بنيتين هما :

* الوحدة الوزنية : إن التفعيلات بخضوعها للوقفة وتفاعلها معها قد في شكلين :

. التفعيلة التامة : وهي التي تستمر مع السطر حتى نهايته .

. التفعيلة الناقصة : وهي التي يتوزعها سطران، تكون بدايتها مع نهاية السطر الأول، ونهايتها مع بداية السطر التالي، وهو شكل مطرد في الشعر المعاصر .

* التشكيل الوزني : ويقوم على نظامين أساسيين اثنين هما :

. الوفاء لنظام أحد البحور الخليلية .

. الجمع بينهما (استعمال تفعيلة في مكان أخرى) .

ونبدأ الحديث عن الوحدة الوزنية (التفعيلة)، والتي نجد أنها متجسدة بالشكلين (التامة والناقصة) في الكتابة بالنار .، وشكل التفعيلة التامة أخذ حصة الأسد، وهذه نماذج من ذلك :

تجيئين يستيقظ البحر والريح والميتون ← فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعولن

يعود ربيع الزمان يدغدغ صمت السنين ← فعول/ فعولن/ فعول/ فعول/ فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعولن

فعول

يزخ علينا المطر ← فعول/ فعولن/ فعول/ فعول/ فعول

تدر الضروع ← فعولن/ فعول

تفيض الزروع⁽¹¹⁾ ← فعولن/ فعول

وهذا مقطع آخر :

عزفناك نغمة ← فعولن/ فعولن

رسمناك وشما أبيد ← فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعول

وفجرا يغطي جراحاتنا بالورود ← فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعول

تجيئين يا ألف مرحي⁽¹²⁾ ← فعولن/ فعولن/ فعولن/ فعولن

ولقد استمد التفعيلة من أحد البحور الصافية (المتقارب) حيث التزم التفعيلة ولم يلتزم بعددها. كما لم تخل المجموعة الشعرية من (التفعيلة الناقصة) التي يشترك فيها سطران، أو ما يسمى بالتدوير، يقول :

هل تبصرين كيف يحضن الجياح السنبلة ← مستفعلن/ متفعلن/ متفعلن/ مستفعلن
يقدمونها ← متفعلن/ متف
كما يقدمون القنبلة⁽¹³⁾ ← علقن/ متفعلن/ مستفعلن

وأما عن التشكيل الوزني، فبالنظر إلى تاريخ صدور الكتابة بالنار (1982)، يمكن الزعم أن تجربة الشعر الحر قد قطعت شوطا كبيرا في الجزائر على المستويين : الزمني والإبداعي، وبالنظر إلى أن "لوصيف" كان من أهم رواد حركة (الشعر الحر)، وأكد أجزم أنه من الشعراء الشباب المهمين، فلقد انصبت محاولاته على إنضاج القصيدة الحرة، مع عناية بسيطة ومحدودة بالشعر العمودي، ويوضح ذلك أن مجموع القصائد في الشعر الحر تفوق قصائد العمودي، وهذا الديوان هو باكورة الشاعر، ونسبة القصائد في الشعر الحر تفوق العمودي، وهو دليل على محاولة الشاعر الخروج من جلباب الشعر القديم والارتقاء في أحضان الشعر المعاصر.

قصائد العمودي : (لامية الفقراء، آه يا جرح!، العناق الطويل، أنشودة الرحيل، الطوفان) .

قصائد الشعر الحر : (إعلان عن هوية، أناديك يا زهرة العاشقين، كلمة إلى الجرح، تجيئين، أغنية إلى الفراشة، عودة العاشق، الكتابة بالنار، أطفالنا على الطريق) .

لوصيف إذن جمع في المجموعة الشعرية بين النموذجين (العمودي والحر)، وبقي وفيا للبحور الخليلية حتى في شعره الحر الذي يفترض أن يكون متحررا من القيود الخليلية، ولا نجد الموازنة الوزنية إلا في بعض الأسطر القليلة، والتي سنأتي على ذكرها .

أما عن الوفاء لبحور الخليل فحتى بعض المقاطع من شعره الحر بقيت وفية لعمود الشعر الخليلي، إلا أنها خرجت من نظام الشطرين إلى نظام السطر، وسأسوق شواهد على ذلك :

يقول في قصيدته (آه يا جرح) :
يرفض أطباق الذهب والماس
يرفض أن يضمخ بعطر الخساسه

يرفض أن يغسل بالخمرة المعتقة ويطبخ
 في قدر السياسة
 يرفض أن يكلل بالورد ويرقص مع المهرجين
 في سوق النخاسة⁽¹⁴⁾

ومن السهل تحويلها إلى الشعر العمودي :
 يرفض أطباق الذهب والماس يرفض أن يضمخ بعطر الخساسة
 يرفض أن يغسل بالخمرة المعتقة ويطبخ في قدر السياسة
 يرفض أن يكلل بالورد ويرقص مع المهرجين في سوق النخاسة
 وهذا مقطع من (تجيين) :

يسقسق حلم على شرفات السحر
 ترن نواقيسنا العاشقة
 وتلتم، تلتم أشلاء أنقاضنا تتوهج
 بالخضرة الدافقة⁽¹⁵⁾

ويحول إلى :

يسقسق حلم على شرفات السحر ترن نواقيسنا العاشقة
 وتلتم، تلتم أشلاء أنقاضنا تتوهج بالخضرة الدافقة

وقصيدته "الكتابة بالنار" أقامها على نظام الجمل الموسيقية (أثنا عشر جملة موسيقية) ، نلمس فيها وفاء لعمود الشعر القديم مع تكسير بسيط، وهذا نموذج منها :

قوافل البكاء بين الليل والنهار
 تطوي بنا مهامه الموت
 ترحل في النسيان في الصمت
 والدمع في عيوننا شرار⁽¹⁶⁾

وبتقديم السطر الثاني على الأول، نجد أنفسنا أمام بيتين من الشعر القديم :
 تطوي بنا مهامه الموت قوافل البكاء بين الليل والنهار
 ترحل في النسيان في الصمت والدمع في عيوننا شرار

كما نجد في بعض قصائد الديوان مواشجة وزنية بإدخال تفعيلة في مكان أخرى، ليست متواردة معها في البحر نفسه، قصيدته السابقة كتبها على تفعيلات "بحر الرجز" (مستعلن) التي لحقتها بعض الزحافات فغدت تفعيلة أخرى، وهذا نموذج :

أوغل في بحر الأسى، أشعل نار الجرح ← مفتعلن / مستفعلن / مفتعلن / غلالتن
 في غمرة القنوط ← مستفعلن / فعول
 ونشوة السقوط ← متفعّلن / فعول
 أرفعها عبر الدجى منارة للفتح⁽¹⁷⁾ ← مفتعلن / مستفعلن / متفعّلن / فعلاتن
 وفي قصيدته (أغنية للفراشة) :
 هل تبصرين الشمس تستفيق ← مستفعلن / مستفعلن / فعول
 وعالما يغمره الشروق⁽¹⁸⁾ ← متفعّلن / مفتعلن / فعول
 ومما يلاحظ على المواشحة الوزنية عند الشاعر، أنها لا ترد إلا في نهاية كل سطر.
 3/ القافية :

لقد كشف النص النقدي الحديث عن ميل القافية إلى تغيير مكانها الراتب في النص القديم، لذا بنيت بطرق عديدة :

أ/ القوافي المتوالية والمتناوبة : أي أن هناك تواليًا للقوافي غير ملتزم، بحيث يراوح النص بين قوافي "أ" أو "ب" أو "ج" مثلاً، غير أنه لا يلتزم بأي منها.

ب/ القوافي المتجاوبة : وهي التي تغير مكانها داخل النص الشعري، فلا ترجع سجينة موقع ثابت في نهاية الأسطر، وإنما هي دال تكراري يمارس فعله عبر كامل جسد النص⁽¹⁹⁾.

ولن نتحدث عن القافية في الشعر العمودي لدى الشاعر، وإنما سنخصص الحديث عن شعره المعاصر، فالشاعر لم يلتزم القافية بنوعها الثاني، بل استعمل النوع الأول ؛ حيث لا يلتزم قافية محددة، وهذه نماذج من هذا النوع :

يقول في "إعلان عن هوية" :

ولي نشوتي وعذابي
 لي النار والحلم والشهوة الجامحة
 وتوق يرف مع الغيمة الرائحة
 لي الأمل البكر أنهل من فيضه
 وأعب رحيق الحياة⁽²⁰⁾

الشاعر ينوع القافية مع كل سطر جديد . كما تجدر الإشارة إلى أن الشاعر يلتزم نظام الثنائية ؛ كل سطرين ينتهيان بالتقفية نفسها، وهذا يشبه إلى حد بعيد نظام التقفية القديم، بحيث نجدتها في الفضاء الذي تتوقعها فيه، وبهذا تضع فرصاً المفاجأة، وهذا مثال في ذلك من قصيدة "أنديك يا زهرة العاشقين" :

حمام يغني .. حمام ينوح

سحائب تغدو وأخرى تروح
وأنت على شرفة الحلم زورق نار
يخوض المجاهيل يجرح رمل النهار
وفي مقلتيك يضيع الهدى السندباد
ويغرق نوح
وفي الأفق باقات دمع خلال البروق تلوح
وفي الريح لؤلؤة تتشظى
وسرب نخيل يهاجر عبر البحار
وأنت.. وأنت تجسين نبض الحجار⁽²¹⁾

التقفية الثنائية هي : (ينوح، تروح / نار، النهار / نوح، تلوح / البحار، الحجار)، ولا يختلف اثنان " على أهمية القافية وفائدتها، وإنما يكمن الخلاف على وظيفتها فهي عامل عزل بين أبيات القصيدة العمودية بينما صارت في القصيدة الحرة جزءاً من عوامل التواصل النفسي " ⁽²²⁾ إذ عندما تتعاقب الموسيقى والمعنى يصبحان شيئاً واحداً لا يقبل الفصل ف " الكلمات نفسها مبنية بناء مزدوجاً، إنها أصوات تعتبر رموزاً للمعاني، وهي أيضاً رموزاً للمعاني التي تعتبر أصواتاً، وأنت لا تستطيع أن تستعملها بإحدى الصفتين، دون أن تستعملها بالصفة الثانية ؛ أي أنك لا تستطيع أن تستعمل الجرس دون المعنى، ولا تستطيع كذلك أن تغير الصوت تغييراً مادياً دون أن تغير المعنى أو بالأحرى تفقده " ⁽²³⁾

يقول الشاعر في قصيدته (أغنية إلى الفراشة) :
مدي يديك ظلليني برموشك
امسحي عني زوابع الرماد
هاتي يديك أقبلي نبحر في بحر الحداد
نجري مع الرياح
كي ندرك الصباح⁽²⁴⁾

ينبغي هذا المقطع على ازدواج قافوي يتمثل في انتهاء السطرين الثاني والثالث بصوت (الدال) مع تضمن الكلمتين لصوت (الألف)، بالنظر إلى التمثيلين الدالين اللذين يثيرهما (الرماد / الحداد) نلمح ذلك التقارب الدلالي الذي ينبثق منهما، ويبدو من الطريف القول أن هذا التقارب الدلالي إنما تحقق على صعيدين:
الأول : في أن (الرماد) يستدعي كلمة (الحداد)، فالحداد يتحقق ويأتي بالحرق والتحول إلى رماد بعد انطفاء النار بحسب حكاية " العنقاء " العربية أو أسطورة " الفينيقي " اليونانية .

الثاني: في أن كلمة (الحداد) تتضمن كلمة (الرماد) بصورة خفية، ف (الرماد) مصدر، والمصدر يحمل معنى استمرار الحدث، هذا من جهة ومن جهة ثانية، فإن تحول القافية إلى صوت (الحاء) في السطرين الشعريين المواليين، إنما يعد كسرا للبنية الإيقاعية المتحققة في (الرماد والحداد)، وفي لحظة كسر الإيقاع؛ أي انتقاله من (الدال) إلى (الحاء) يتأسس انسجام جديد في (الرياح / الصباح) . ومن الطريف هنا أيضا أن الإيقاع الجديد يتأسس على تكرار صوت (الحاء) وقبلها (ألف) أيضا، وهذا يعد مقطعا صوتيا يشبه السابق ويختلف معه في النهاية، ومن جهة أخرى يمكن أن نرصد التقارب الدلالي بين (الرياح والصباح)؛ ف(الرياح) سمة ألصق ب(الصباح) بمعناها الرمزي، إن (الصباح) ندركه بسرعة الرياح، إذن بين الرياح والصباح تلازم ضروري يقويه استدعاء أحدهما للآخر، أو أن أحدهما نتيجة للآخر، وتنعقد الوشيجة بينهما فيظهران تلاحما يكاد ينصهر في دلالة واحدة، هي دلالة التفاؤل بالنصر القادم الذي تفوح ريحه من المقطع بشكل عام .

وحينما نستقري مدى شيوع هذه الدلالة المنصهرة، هذا المكون الأسلوبى الذي يتألف - في الأصل - من عنصرين لسانيين، نجد أن استقراءنا يوصلنا إلى إلحاح معين تمارسه نصوص "لوصيف" في مقاطع أخرى من القصيدة نفسها :

نهفو إلى السماء

نغزل من دموعنا الخضراء

ملحمة تقرأها الأجيال

ترشها ندى وأجراسا في صباية الرمال⁽²⁵⁾

ولا شك في أن هذا المقطع الشعري يشكل توازيا بينا مع المقطع السالف الذكر من حيث دلالاته العامة، دلالة الانتشاء وانتظار النصر القادم الذي توحى به ألفاظ من قبيل (السماء، الخضراء، ملحمة، ندى، أجراسا، صباية) .

العنصران اللسانيان (السماء، الخضراء) تتأسس عليهما وظيفة جمالية تتمثل في هذا التأكيد أو التكريس للحس المتفائل عبر بنية لسانية لا تمثل تكرارا على مستوى القافية، حيث كسر من جديد بنية (الرياح، الصباح) بتقنية جديدة (السماء، الخضراء)، ذات المقطع الصوتي (اء)، فهنا يمكننا رصد التقارب الدلالي بينهما، فإذا ما تأملنا الأرض البور الميته لوجدنا أنها تستشفع السماء لتنزل القطر، فتصبح الأرض مخضرة، قال الله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾⁽²⁶⁾، وهل يأتي من أعلى إلا كل مقدس نبيل؟! إذن الاخضرار من عطاء السماء، فالعنصران اللسانيان انعقدت بينهما وشيجة لحمية صهرتهما في بوتقة واحدة، وهي دلالة الاستبشار .

إن طبيعة الأصوات في المقاطع المنتقاة لتوحي بالتفاؤل تمشياً مع ما يتضمنه المقطعان من دلالة، فالمد الملازم لهتافات الفرحة والنصر نجده في القوافي التي وقفنا عندها (الرمد، الحداد / الرياح، الصباح / السماء، الخضراء / الأجيال، الرمال) ، وتستمر هذه التقفية الثنائية في نحو قوله :

مري على حدائق الأيتام
مري على مقابر الحمام
مري على أشجارنا المحترقة
وعانقي راياتنا الممزقة⁽²⁷⁾

" وهكذا فإن الشاعر عندما يختار كلماته، ويدخلها في سياق خاص، خالفاً بذلك علائق لغوية جديدة لم تكن نألفها أو نتوقعها، فإنه ينأى بها عن حرفيتها الحسية المحدودة، وهذه العلاقات الناجمة عن وضع اللفظة في سياق خاص بأسلوب بعينه يجب أن يتمخض عنها صور تتأزر بدورها في علاقات متفاعلة ناشطة⁽²⁸⁾ ، وهذا بتفاعل الصورة مع اللفظة مع السياق مع الإيقاع كل في لحمة واحدة لا يمكن شطرها .

4/ الدوال الإيقاعية غير العروضية :

أ/ البنية المكانية :

بعد أن كان الشعر يقتصر على حاسة واحدة هي السمع، أشرك الشاعر المعاصر إلى جانبها حاسة البصر، " ذلك أن أول ما يستوقف قارئ القصيدة الحديثة هو طريقة رصف الأدلة اللغوية على الصفحة، فلقد كف المكان عن اطمئنانه وواحديته، لينخرط في هموم الذات الكاتبة التي غدت ترسم بألية جديدة تماماً تمزقها على أديم الورقة، فالسواد يتقدم أو يتراجع حسب مقتضيات كيمياء النص وطبقاً لما تستدعيه اللحظة الشعرية (التجربة) " ⁽²⁹⁾، يقول (لوصيف) في " آه يا جرح " :

لفني تحت جناحيك الدافئين
ثم طر بي خلف الأرضين والسموات
إلى حيث لا رجوع
لا رجوع
لا رجوع⁽³⁰⁾

لقد رصف الشاعر في هذا المقطع المعنى المنفي مزاجية إشارية متعادلة على خط مائل، يشخص انحدار مسيل على سفح جبل، وعليه فالتوزيع الهندسي لهذه الإشارات على خط مائل يضفي على المقولة مدلولاً جديداً، ويحرر الأداة الواصلة (لا) مما ألقت التعبير عنه في اللغة، وتحقق بذلك ضرباً من الشعرية يعزز هذا

الانحدار الذي يكسر أفق الانتظار عند المتلقي، ويكسر الحاجز البصري المعهود في الشعر القديم، وهي مفصلة بعضها عن بعض بياض واسع، إن هو إلا لحظة توقف للإيقاع التلاوي توحى بضرورة التأمل، وتشف عن عنف شعوري، إذا فالبياض وسيلة تعبيرية ناجعة تهدم العلاقات المنطقية التي تتولد عن استخدام أدوات العطف . ويقول في القصيدة نفسها :

أقدسك وتبقى دربي الطويل
ومرفتي المستحيل
وموتي الجميل
مشيت على الجمر
وكان رماد النخيل المبعثرة في الذاكره
يلتم يتوهج بالخضرة العاشقه
وكنت مؤنسي وأنت كنت متناثرا على الرمال موزعا
بين الغياهب والأشعة⁽³¹⁾

وإذا تأملنا انهمار الأدلة (البيضاء والسوداء) كل في اتجاه الآخر، لاحظنا عملية الإقدام والإحجام التي تمارسها الذات الشاعرة انطلاقا من حاجات اللحظة الشعرية، فعلى امتداد المقطع تتجسد حركتا الإقدام والإحجام، حيث تقصر في :

ومرفتي المستحيل
وموتي الجميل
وهذه الحركة تبلغ أقصى المدى في :
وكنت مؤنسي، وأنا كنت متناثرا على الرمال موزعا
ثم ينحسر السواد ليخلف للبياض الحصاة الأسد في السطر :
بين الغياهب والأشعة

أي تراجع السواد أمام البياض، فهما وبعملية المد والجزر ينقلان توترات الذات الشاعرة في رحلتها السرمدية من أجل الوصول إلى مثل الجمال والخير والحق . وبهذا يضيف الشكل المكاني " بعدا بلاغيا يفتح النص على البصر بعد أن اكتفى بالسمع زمنا طويلا "⁽³²⁾

يقول في " عودة العاشق " :
رأيته .. يا عاشقا تفجرت أشواقه
وحبه الدفين
للأرض
للأطفال
للفراش

للسريين
أنا هنا على ضفاف الشفق المجنون⁽³³⁾

إنه لشكل هندسي بسيط، يصور تشكليا فكرة انغراس الحب في الأحشاء، كما تمتد الجذور في عمق الأرض طولا، وهذا ما يفسر ورود الكلمات أسفل بعضها البعض، ثم تتفرع عمقا كما الجذور، وبهذا يبدو توزيعها عموديا أكثر تعبيرية عن مراد الشاعر النفسي .

ويرصف الأفعال تباعا في قصيدته (تجيئين يستيقظ البحر والريح والميتون) :
تجيئين يستيقظ البحر والريح والميتون
يعود ربيع الزمان يدغدغ صمت السنين
يزخ علينا المطر
تدر الضروع
تفيض الزروع
وينضب بالخصب قلب الحجر⁽³⁴⁾

والملاحظ أن هذه الأفعال تدل على الحياة والنماء، وتكاد تتشابه عروضيا، وهي بنية تعكس بكل تأكيد التفاؤل بغد أفضل وهو إعلان عن تمسك الشاعر بهذه الحياة التي سوف تخضر وتنتعش .
ب/ علامات الترقيم :

وعلامات الترقيم أقحمها الشاعر المعاصر لتعضد حالته النفسية، وتعطي بعدا إيقاعيا لم يألفه المتلقي و" تعتمد القيمة الجمالية لعلامات الترقيم على تدخلها في نظام الوقفات الشعرية، بعد أن فقد العروض سلطته المطلقة في تحديد هذه الوقفات، وذلك أن إيقاع البيت الحديث إنما يقوم على التفاعل ما بين عناصر الإيقاع الثلاثة (المكان، العروض، علامات الترقيم)"⁽³⁵⁾

يقول في قصيدته السالفة الذكر :
هنالك خلف التخوم
تجيئين .. دوسي فمن قدميك تطرز
بالنجم هذا الغسق
تجيئين .. ينعس لون البحيرات في مقلتيك
ويجبو الربيع على شفتيك
وأهدابك الخضر سرب عصافير⁽³⁶⁾

في هذا النوع من الشعر تحمل علامات الترقيم عامل المفاجأة، بحيث لا تتوقعها في مكان محدد، وهي أنواع : (النقاط المتواصلة، النقطة، الفاصلة، الأقواس ...)،

فالمتمأمل في السطرين الثاني والثالث فيما يتعلق بالنقاط المتواصلة، يجد أنها قطعت تدفق الصورة العروضية المتواترة (فعولن)، بحيث فصلتها النقاط جزأين، مما اضطرها إلى التراجع عن تدفقها المعهود.

تجئيين .. دوسي فمن قدميك تطرز

/0// /0// / 0// 0/0// 0/0//

فعولن ف عولن فعول فعول فعول

تجئيين .. ينعس لون البحيرا ت في مقلتيك

/0//0/0//0/0//0/0// /0// /0/0//

فعولن ف عولن فعولن فعولن فعول

إن هذه العلامة (..) كثفت الدلالة وجعلتها بنية تنفتح على كل ما تحيل عليه عملية التشوف والانتظار، واستقبال الآتي الجميل .

وفي (أطفالنا على الطريق) يقول :

وهفهفت مراوح النسيم في ارتعاش

وخوض الوجود في العبير والرشاش

تدفقوا .. تدفقوا قوافلا عطاش

من يانع الريحان والفراس⁽³⁷⁾

إن هذه العلامة (..) تجسد الحالة النفسية التي تعترى الشاعر، إنها وقفة انبهار بسرعة هؤلاء الأطفال وكثرة عددهم، وشوقهم الكبير، وهم داخلون إلى حاضرة العلم .

وفي نموذج آخر من (عودة العاشق) :

عبر حقول القمح والزيتون

رأيت .. يا عاشقا تفجرت أشواقه

وحبه الدفين

للأرض⁽³⁸⁾

الفراغ الصامت بعد (رأيت) إحياء للقارئ أن ثمة مرحلة من الصمت أعقبت ملفوظ (رأيت)، وهذا الصمت يؤوله القارئ نفسيا، إذ أن المقام مقام دهشة يستدعي بضع لحظات من الصمت بين كلام وآخر، وهنا كان التنهد هو المؤول، لأخذ النفس، نفس الاندهاش، لذل يجب أن " لا نغفل العلاقة الوطيدة بين شكل القصيدة وهندستها الصوتية، إذ تتشكل الهندسة الصوتية الإيقاعية للنص الشعري تبعا لشكل القصيدة، فشكل القصيدة العمودية يفرض هندسة صوتية معينة، وشكل قصيدة الشعر

الحر يفرض هندسة مغايرة، برغم أن القصيدتين قد تعتمدان على وزن شعري واحد، لكن طبيعة شكل القصيدة يعكس هندسته الصوتية الملائمة له⁽³⁹⁾، وهاهو "أدونيس" يختتم تجربته الشعرية بقوله: ليست الحداثة في الخروج عن شكل القصيدة من العمودي إلى الحر وإنما الحداثة هي تغيير معنى الشعر⁽⁴⁰⁾. هذا وتبقى مظاهر أخرى للإيقاع لم نتطرق إليها، قد يتسع المجال لذكرها في مقالات أخرى .

- الهوامش :

- 1/ أماني سليمان داود. الأسلوبية الصوفية (دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلاج). دار مجدلاوي. عمان. الأردن. ط1. (2002. 1423). ص35
- 2/ إبراهيم أنيس. موسيقى الشعر. مكتبة الأنجلومصرية. القاهرة. ط3/ 1965. ص8. 9.
- 3/ عبد المجيد جيدة. الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر. مؤسسة نوفل. بيروت. لبنان. ط1/ 1980. ص352.
- 4/ محمد الصغير بناني. فك الإسار على صوت الهزار (تحليل بلاغي أسلوب لمقطوعة يا هزاري لمحمد العيد). مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني. بن عكنون. 1996. ص49.
- 5/ توفيق الحكيم. تحت شمس الفكر. دار الكتاب اللبناني. المكتبة الشعبية. بيروت. دت. ص62.
- 6/ محمد غنيمي هلال. النقد الأدبي الحديث. نهضة مصر. القاهرة. 1977. ص435. 436.
- 7/ عثمان لوصيف. الكتابة بالنار. دار البعث. قسنطينة. 1982. ص17.
- 8/ المصدر نفسه. ص33.
- 9/ المصدر نفسه. ص41.
- 10/ المصدر نفسه. ص42.
- 11/ المصدر نفسه. ص41.
- 12/ المصدر نفسه. ص43.
- 13/ المصدر نفسه. ص42.
- 14/ المصدر نفسه. ص47.
- 15/ المصدر نفسه. ص41.
- 16/ المصدر نفسه. ص30.
- 17/ المصدر نفسه. ص58.
- 18/ المصدر نفسه. ص47.
- 19/ المصدر نفسه. ص57. 58.
- 20/ انظر فاطمة بنت محمد محمود. في البنية الإيقاعية للقصيدة العربية الحديثة (قراءة في نصوص موريتانية). مذكرة ماجستير (مخطوطة). جامعة الجزائر. (2000. 2001). ص52 وما بعدها.
- 21/ عثمان لوصيف. المصدر السابق. ص15.
- 22/ المصدر نفسه. ص25.
- 23/ عمر يوسف القادري. التجربة الشعرية عند فدوى طوقان بين الشكل والمضمون. دار هومة. الجزائر. دت. ص158.
- 24/ أرسببالد مكليش. الشعر والتجربة. ت. د: سلمى الخضراء الجيوش. بيروت. 1963. ص38.
- 25/ عثمان لوصيف. المصدر السابق. ص46.

- 26 / المصدر نفسه والصفحة.
- 27 / سورة الحج. الآية 63.
- 28 / عثمان لوصيف. المصدر السابق. ص 47.
- 29 / د: النعمان القاضي. أبو فراس الحمداني (الموقف والتشكيل الجمالي) دار الثقافة للنشر والتوزيع. القاهرة. 1982. ص 396.
- 30 / فاطمة بنت محمد محمود . في البنية الإيقاعية . المرجع السابق. ص 170 .
- 31 / عثمان لوصيف . المصدر السابق. ص 32 .
- 32 / المصدر نفسه والصفحة .
- 33 / محمد بنيس . حادثة السؤال . المركز الثقافي العربي . بيروت ، و الدار البيضاء ط 2 / 1988 . ص 25 .
- 34 / عثمان لوصيف . المصدر السابق. ص 56 .
- 35 / محمد بنيس . الشعر العربي الحديث (بنياته وإبدالاتها) ج 3 . (الشعر المعاصر) . ط 1 . دار طوبقال . الدار البيضاء. 1990. ص 120 .
- 36 / عثمان لوصيف . المصدر السابق . ص 43. 42 .
- 37 / المصدر نفسه. ص 63. 62 .
- 38 / المصدر نفسه . ص 56 .
- 39 / د: مراد عبد الرحمن مبروك. الهندسة الصوتية الإيقاعية في النص الشعري . مركز الحضارة العربية. القاهرة . ط 1 / 2000 . ص 10 .
- 40 / أدونيس (على أحمد سعيد) . برنامج « نلتقي » . قناة دبي الفضائية . الأحد 12 / 02 / 2006 .

قسمة طلب نشر

السيد : رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات - المحترم

تحية طيبة وبعد ،

نتقدم لكم بهذا البحث المرفق قصد ترشيحه للنشر بمجلتكم . وإليك البيانات المطلوبة:

الاسم واللقب	
المؤهل (الشهادة)	
التخصص	
الرتبة	
الوظيفة	
مؤسسة العمل	
العنوان البريدي	
العنوان الإلكتروني	
الهاتف	
الفاكس	

تصريح شرفي

أنا المذكور أعلاه والموقع أدناه :
أصرح بشرفي أن البحث المعنون ب :

.....
.....
.....

والمرشح للنشر بمجلة البحوث والدراسات بالمركز الجامعي بالوادي ليس جزءا من رسالة جامعية ، ولم يسبق نشره ، ولم يرسل للنشر في أي دورية أخرى .

يوم :

توقيع المعني

- تأكيدات المرفقات :

- 1 - ثلاث نسخ من البحث مطبوعة على الورق .
- 2 - نسخة مطبوعة على قرص .
- 3 - ملخص بالعربية .
- 4 - ملخص بلغة أجنبية (فرنسية أو إنجليزية)

مجلة البحوث والدراسات

دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادى

ISSN 1112 - 4958



أعداد المجلة

- العدد (1) : ربيع الأول 1425 هـ - أبريل 2004 م
- العدد (2) : جمادى الأول 1426 هـ - جوان 2005 م
- العدد (3) : جمادى الأول 1427 هـ - جوان 2006 م
- العدد (4) : محرم 1428 هـ - يناير 2007 م
- العدد (5) : جمادى الثاني 1428 هـ - جويلية 2007 م
- العدد (6) : جمادى الثاني 1429 هـ - جوان 2008 م
- العدد (7) : محرم 1430 هـ - يناير 2009 م
- العدد (8) : رجب 1430 هـ - جوان 2009 م
- العدد (9) : محرم 1431 هـ - يناير 2010 م